الطبعة الثانية

«حماقة الهجوم على إيران»

أتباع الشاه

انقلاب أمريكي وجذور الإرهاب في الشرق الأوسط

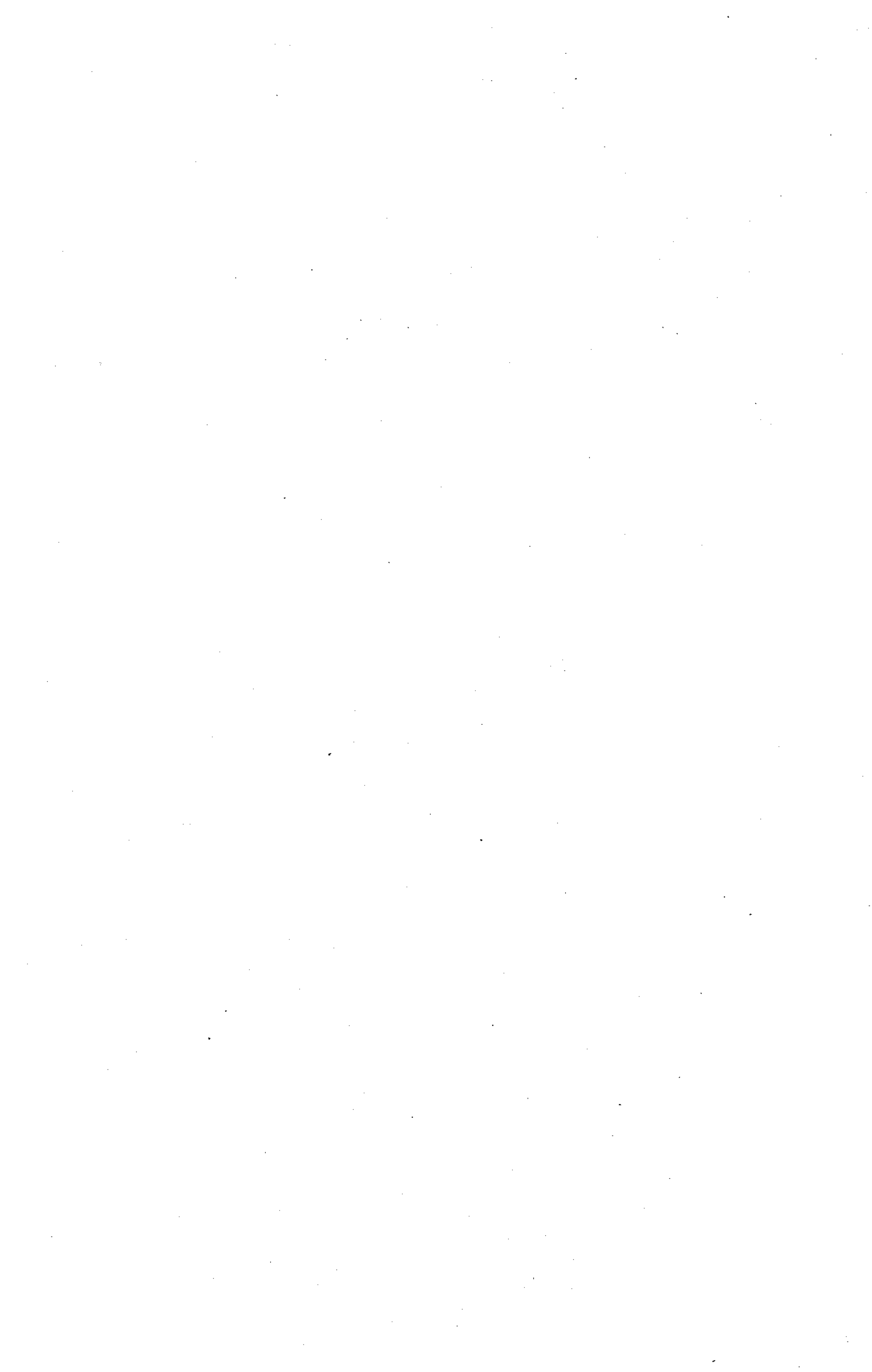
ستيفن كينزر

أتباع الشاه

ستيفن كينزر



أتباع الشاه



أتباع الشاه

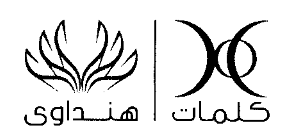
انقلاب أمريكي وجذور الإرهاب في الشرق الأوسط

تأليف

ستيفن كينزر

ترجمة

سهى الشامي



أتباع الشاه

All the Shah's Men

ستيفن كينزر

Stephen Kinzer

الطبعة الثانية ٢٠١٤م
رقم إيداع ٢٠١٠/١٩٠٢٤
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦/٨/٢٠١٢

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + **فاكس:** ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

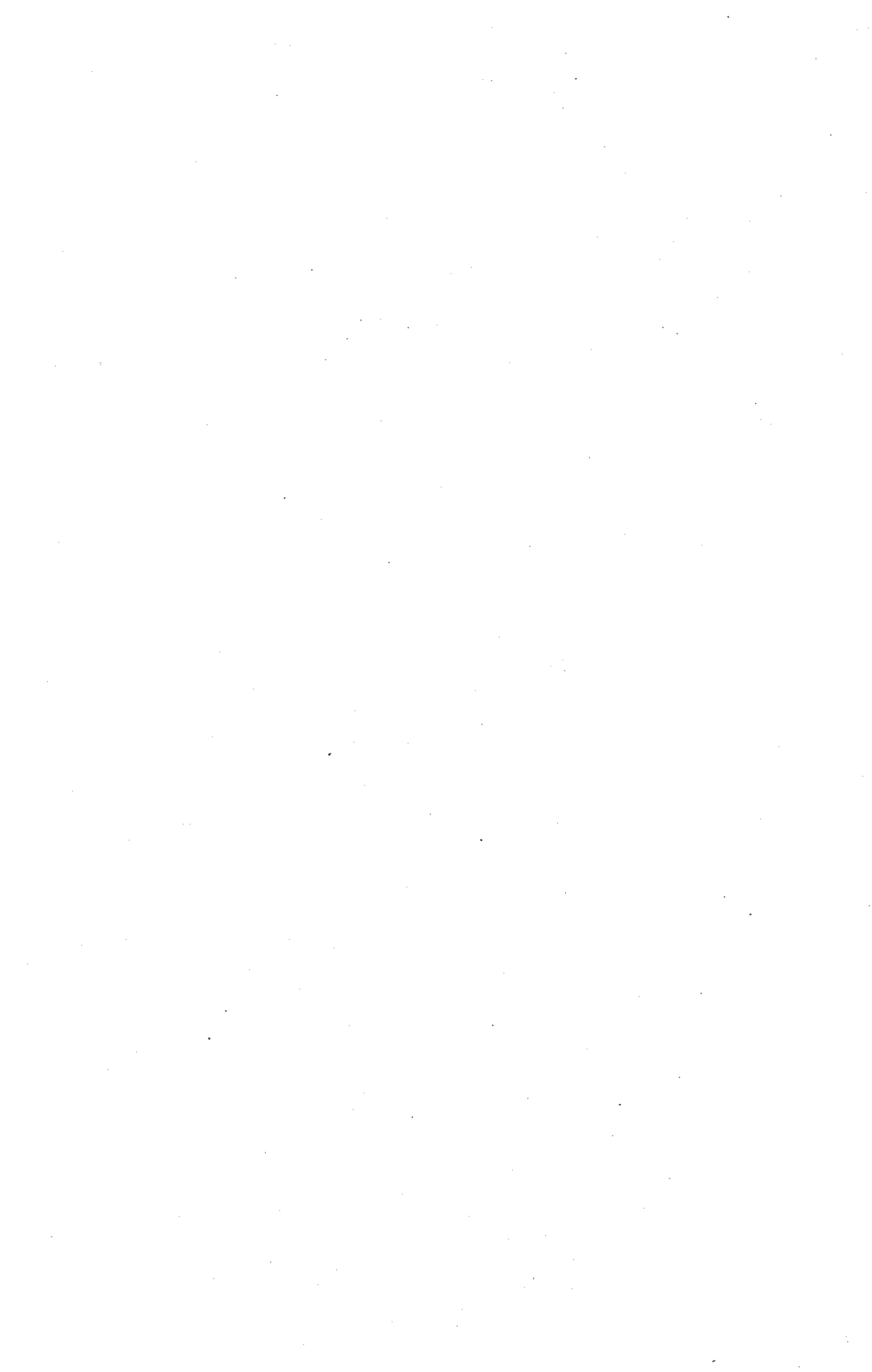
كينزر، ستيفن.
أتباع الشاه: انقلاب أمريكي وجذور الإرهاب في الشرق الأوسط / ستيفن كينزر؛.
٣٣٦ص، ١٤٫٥×٢١٫٠سم
تدمك: ٣ ٦٧ ٦٢٦٣ ٩٧٧ ٩٧٨
في رأس العنوان مقدمة طبعة ٢٠٠٨ حماقة الهجوم على إيران
١-إيران - تاريخ - العصر الحديث - رضا شاه بهلوي
أ-العنوان
٩٥٥٫٠٥٢

المحتويات

من أجل الشعب الإيراني

«لا جديد في هذا العالم إلا ما تجهله من التاريخ.»

هاري ترومان



مقدمة طبعة ٢٠٠٨

حماقة الهجوم على إيران

مضى أكثر من نصف قرن منذ أن أطاحت الولايات المتحدة بالحكومة الديمقراطية الوحيدة في تاريخ إيران. ويصف هذا الكتاب تلك العملية المصيرية ويستعرض نتائجها المأساوية، وهو يقص علينا قصة يجب أن نستخلص منها العبر؛ فعام ١٩٥٣ كانت فكرة التدخل في إيران تبدو فكرة حسنة، ولبرهة من الزمن بدا أن تلك الفكرة نجحت، لكن من الجلي الآن أن ذلك التدخل لم يؤدِّ إلى مرور إيران بعقود مأساوية فحسب، بل إنه أيضًا حرك قوى شكلت تهديدًا خطيرًا للأمن القومي الأمريكي.

يدعو العسكريون في واشنطن إلى شن هجمة أمريكية أخرى على إيران، هنا تصبح قصة الهجوم الأول وثيقة الصلة بواقعنا أكثر من ذي قبل، فهي توضح حماقة اللجوء للعنف من أجل محاولة إعادة تشكيل إيران. عام ١٩٥٣ سعت الولايات المتحدة إلى تعزيز مصلحتها الاستراتيجية عن طريق شن هجوم على النظام الإيراني الذي كانت ترفضه، لكن النتائج أتت بعكس ما توقع القادة الأمريكيون تمامًا.

لو لم ترسل الولايات المتحدة عملاءها لخلع رئيس الوزراء الإيراني محمد مصدق عام ١٩٥٣، لاستمرت إيران في طريقها نحو تحقيق الديمقراطية الكاملة، ولأصبحت خلال العقود التالية أول دولة ديمقراطية في الشرق

الأوسط الإسلامي، وربما أصبحت نموذجًا تحتذي به الدول الأخرى في المنطقة وخارجها، كان ذلك سيغير مجرى التاريخ تمامًا ... ليس تاريخ إيران أو الشرق الأوسط فحسب، بل تاريخ الولايات المتحدة والعالم بأسره أيضًا.

ومن منظور اليوم ... من منظور من شهدوا أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول وحرب العراق وكل الأخطار المصاحبة لها التي زعزعت استقرار العالم الحديث، فإن التدخل الذي حدث عام ١٩٥٣ في إيران يمكن اعتباره نقطة تحول فاصلة في تاريخ القرن العشرين، فبإعادة محمد رضا شاه إلى عرش الطاووس،[١] تسببت الولايات المتحدة في إيقاف تقدم إيران نحو الديمقراطية. وقد حكم الشاه بنظام القمع المتزايد طوال خمسة وعشرين عامًا، وأدت سياسة القمع تلك إلى الانفجار الذي حدث أواخر السبعينيات، والذي عرف فيما بعد بالثورة الإسلامية، وقد أتت تلك الثورة إلى السلطة بمجموعة من رجال الدين المتطرفين في معاداتهم للغرب الذين عملوا بجهد بالغ من أجل تقويض المصالح الأمريكية في كل أنحاء العالم.

عام ١٩٥٣ خلعت الولايات المتحدة رئيس الوزراء الإيراني الذي كان يؤمن بالقومية ويعتنق المبادئ الأمريكية الأساسية، واستبدلت به طاغية يحتقر كل ما تمثله الولايات المتحدة. واليوم يجد الغرب نفسه في مواجهة نظام في طهران يجسد مخاوف أشد عمقًا من تلك التي سعى إلى القضاء عليها عام ١٩٥٣، ويبدو أن دافع البيت الأبيض للهجوم على إيران لا يزال بنفس القوة التي كان عليها آنذاك. وبوسعنا أن نتخيل الحجج التي يحاول مستشارو الرئيس بوش إقناعه من خلالها؛ لقد تعرضنا لأحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول لأن الرئيس كلينتون لم يتمتع بالشجاعة الكافية لوأد الخطر في مهده، لذا فلنتحلّ بالشجاعة، ولنتعامل مع الخطر قبل أن يستشري، بدلًا من ترك الأمر للرئيس القادم كي يتعامل معه.

لمَ الهجوم على إيران؟ يسوق مؤيدو الفكرة أسبابًا عديدة: يجب عدم السماح لإيران بأن تصبح قوة نووية، إيران تمثل خطرًا على وجود إسرائيل،

[١] هو أصلًا عرش مغول الهند. وبعد استيلاء نادر شاه — أحد ملوك الفرس — عليه وأخذه إلى إيران أصبح تعبير «عرش الطاووس» يشير إلى عروش الأباطرة الفرس حتى آخرهم محمد رضا بهلوي. (المترجمة)

إيران هي قلب «الهلال الشيعي» الذي يهدد استقرار الشرق الأوسط، إيران تدعم الجماعات المتطرفة في الدول المجاورة، إيران تشارك في قتل الجنود الأمريكيين في العراق، إيران تشن هجمات إرهابية في دول أجنبية، الشعب الإيراني يعاني القهر ويحتاج إلى الأمريكيين كي يمنحوه الحرية، ... إلى آخر تلك الذرائع.

وهناك أيضًا ذريعة جيوسياسية للهجوم على إيران، فمنذ بدء عصر الحرب الباردة دأبت الولايات المتحدة على استغلال واحدة من دول الشرق الأوسط كقاعدة لبسط سيطرتها على المنطقة، وطوال ربع قرن كانت تلك الدولة هي إيران تحت حكم الشاه، والآن هي المملكة العربية السعودية، ولكن احتمالات الاستقرار على المدى الطويل هناك غير مؤكدة. وقد تبدد الأمل في أن تصبح العراق بعد الغزو الأمريكي لها الحليف الأساسي للولايات المتحدة في المنطقة، لكن البعض في واشنطن يروجون وهمًا جديدًا، وهو أنه بعد انقشاع غبار الهجوم الأمريكي على إيران سوف يستقر الوضع هناك وتصبح إيران حليفًا للولايات المتحدة.

إن من أبرز أسباب الهجوم على إيران الرغبة في وضع اليد على مواردها النفطية الهائلة، فعندما شارك وينستون تشرشل في الاستيلاء على صناعة البترول في إيران في العشرينيات من القرن الماضي، أطلق عليها «غنيمة من أرض الأحلام تفوق كل ما حلمنا به»، ولا تزال كذلك. وبصرف النظر عما قد يقوله صناع السياسات في واشنطن أو في أي مكان آخر، فلا توجد دولة تتعامل مع إيران دون أن تفكر في مواردها النفطية، وينطبق ذلك الأمر خاصة على إدارة بوش التي ترتبط بصناعة النفط أكثر من أي إدارة أخرى في التاريخ الأمريكي.

وقد يكون للرئيس بوش والمحيطين به أسباب أخرى تغريهم بغزو إيران، إذ يعتقد البعض أن السبيل لتحقيق النصر في العراق يكمن في القضاء على النظام في إيران، على الرغم من أن الأدلة تشير إلى عكس ذلك. وقد أعلن بوش مرات عديدة أنه يتوقع أن ينصفه التاريخ، وهي حجة يمكن استخدامها لتبرير أكثر القرارات الرئاسية جنونًا، ومن وراء تلك الحجج يكمن دافع آخر أكثر ذيوعًا.

يعتقد القادة الأمريكيون وخاصة الرئيس بوش أنه نظرًا إلى أن الولايات المتحدة قوة عظمى، فإن لها الحق وعليها مسئولية التدخل بقوة كلما حدثت مشكلة في أي بقعة من بقاع الأرض، ويرجع ذلك الدافع على الأقل إلى عهد ثوكيديدس[٢] الذي كتب إن الأمم لديها «دافع فطري لا يقاوم للسيطرة عندما تكون في موقف قوة.» وفي دراسة حديثة عن الحرب الأمريكية الأسبانية التي ترتبط بواقعنا اليوم ارتباطًا وثيقًا، كتب المؤرخ البريطاني جوزيف سميث إن حماس الولايات المتحدة للهجوم على الدول الأخرى ينبع من «نوع من الشعور القومي العدائي وارتباط عاطفي بالقوة الوطنية». ويعتقد البعض في واشنطن أن الغزو وإسقاط الحكومات والاحتلال هو الطريق الطبيعي للأمم العظمى، وإلا فلا داعي لامتلاك القوة على حد زعمهم.

لقد صرح الرئيس بوش قبل بدء غزو العراق قائلًا: «في هذه المرحلة من التاريخ، إذا كانت هناك مشكلة فلا بد أن نحلها.» وطبقًا لمقاييسه الخاصة، فقد أصبحت إيران بالطبع «مشكلة»، مما يعني أنه قد يقرر الهجوم عليها من أجل «حلها».

وقبل أن تتخذ القوى العظمى قرارات مؤثرة يمكنها تغيير شكل العالم، فإن قادتها غالبًا ما يعتبرون بدروس التاريخ. ويجب أن تشمل أي مناقشة جادة حول إيران الحديثة — وهل على الولايات المتحدة التدخل هناك — تقييمًا للنتائج التي ترتبت على التدخل الأخير؛ فعام ١٩٥٣ قامت الولايات المتحدة بعملية كان لها نتائج كارثية عليها وعلى إيران، وذلك بسبب حماسها الشديد لتحقيق أهداف قصيرة المدى، لكن البعض في واشنطن يستنكر فكرة ارتباط التاريخ بالحاضر، ولذلك فهم يعتقدون أنه في هذه المرة يمكن للولايات المتحدة أن تهاجم إيران وتخرج منتصرة.

وصفت شخصيات أمريكية بارزة عديدة قرار الرئيس بوش بغزو العراق عام ٢٠٠٣ بأنه أسوأ خطأ استراتيجي في تاريخ البلاد، وقد يؤدي الهجوم على إيران الآن إلى وقوع كارثة أخطر، فسوف يؤدي إلى تحويل قادة إيران المستبدين الذين لا يتمتعون بشعبية في بلادهم إلى أبطال للمقاومة

---

[٢] أعظم المؤرخين اليونانيين (٤٦٠ ق.م.–٣٩٥ ق.م.)، اشتهر عالميًا بكتابه «الحرب بين البيلوبونيزيين والأثينيين». (المترجمة)

الإسلامية، وإعطائهم حافزًا قويًا لإطلاق حملة معادية عنيفة ضد المصالح الأمريكية في كل أنحاء العالم، وتقوية النزعة القومية الإيرانية والشيعية الاستردادية والتطرف الإسلامي، مما يضيف أسبابًا جديدة لا حصر لها للإرهاب، بالإضافة إلى إضعاف الحركة الديمقراطية في إيران، والقضاء على احتمالات التغيير السياسي بها لعقد كامل على الأقل، واستجلاب عداوة الشعب الإيراني للولايات المتحدة، مع أنه يُعد الآن من أكثر الشعوب المؤيدة لها في الشرق الأوسط، وتوريط الولايات المتحدة في منطقة الخليج العربي إلى أجل غير مسمى، مما يجبرها على أن تتخذ موقفًا في مختلف النزاعات الإقليمية فتضيف المزيد إلى قائمة أعدائها، وإغضاب الحكومة الشيعية في العراق المجاورة التي تعتمد عليها الولايات المتحدة في تهدئة العنف هناك، وعلى الأرجح قطع تدفق النفط من الشرق الأوسط بطريقة قد تدمر اقتصادات الدول الغربية.

ومع وضع تلك النتائج المحتملة في الاعتبار، لماذا تقدم الولايات المتحدة على مهاجمة إيران؟ يقول مؤيدو الفكرة إنها سوف تحقق ثلاثة أهداف: منع إيران من تطوير أسلحة الدمار الشامل، والإطاحة بنظام شديد العداء للولايات المتحدة، وتعيين حكومة جديدة ديمقراطية موالية للولايات المتحدة. وهم يفترضون أن تلك الحكومة سوف تمكن شركات النفط الأمريكية من الحصول على النفط الإيراني مجانًا، وتعطي الولايات المتحدة فرصة لإعادة بناء النفوذ الذي كانت تتمتع به في إيران، لكن تلك التصورات خطرة بقدر ما هي خيالية.

إيران واحدة من أقدم الأمم في العالم، ويحفل تاريخها بالانتصارات والأمجاد، وقد عاش فيها قادة عظماء من أمثال قورش[٣] وخشايار شاه[٤] وداريوس[٥]، بالإضافة إلى شعراء ومفكرين كانت لهم إسهامات لا حصر لها في الثقافة العالمية. وقد أعطى ذلك التراث الخصب الإيرانيين شعورًا قويًا

---

[٣] أحد أعظم ملوك الفرس، حكم بين ٥٥٠–٥٢٩ ق.م. (المترجمة)

[٤] ملك فارسي حكم بين ٤٨٥ و٤٦٥ ق.م. (المترجمة)

[٥] هو داريوس الأول أو داريوش الأول أو دارا الأول، الملك الإخميني الثالث إخميني فارسي حكم ٥٢١ –٤٨٦ ق.م. (المترجمة)

بالفخر الجماعي، وارتباطًا عاطفيًا بتراثهم، وهوية قومية تتعدى مجرد ترديد الشعارات الوطنية التي تميز أشكال الوطنية الأكثر سطحية. ويبغض العديد من الإيرانيين النظام الذي يحكمهم حاليًا، ولكن ذلك لا يضعف من ارتباطهم بالأمة الإيرانية، فهم يعلمون أنه عندما قامت الولايات المتحدة كان عمر دولتهم يزيد على ألفي عام، وبصرف النظر عن معتقداتهم السياسية، يستشيط معظمهم غضبًا عندما يسمعون تهديدات من واشنطن.

ويبدو أن فكرة القصف الأمريكي لإيران لإجبارها على انتهاج الديمقراطية تزداد سخافة على إثر الهزيمة في العراق، ولكن في رأي الإيرانيين بوجه خاص تنطوي تلك الفكرة على مفارقة محزنة، فهم جميعًا يعلمون ما لا يعلمه كثير من الأمريكيين، وهو أن الديمقراطية كانت تشق طريقها في إيران عندما تدخلت الولايات المتحدة لقمعها عام ١٩٥٣. ونظرًا لهذه الحقيقة التاريخية، فمن حق الإيرانيين اعتبار رغبة الأمريكيين في تحريرهم فكرة شديدة الغرابة، وهم يدركون تمامًا أن الولايات المتحدة ساعدت على إنشاء الدولة الثيوقراطية[٦] الظالمة التي تحكمهم الآن.

ويرى بعض الإيرانيين أن الأمريكيين الذين يؤيدون الهجوم على بلادهم يهدفون إلى جلب الديمقراطية معهم، ويعتقد الكثيرون أيضًا أن الولايات المتحدة تهدف أساسًا إلى القضاء على برنامج إيران النووي، وهو البرنامج الذي طرحته الولايات المتحدة على إيران في السبعينيات من القرن الماضي عندما كان الشاه في السلطة، والذي يراه معظم الإيرانيين حقًا طبيعيًا لبلادهم. ووراء تلك الأهداف المعلنة، وخلف تلك التهديدات التي تزيد حدتها كلما دقت طبول الحرب بشدة في واشنطن، ينظر الإيرانيون إلى المشروع نظرة أكثر تشاؤمًا؛ فهم يعتقدون أن الولايات المتحدة ترغب في تحويل إيران إلى كيان يقف بين الحليف والتابع، حيث تستخرج النفط منها وتبني قواعد على أراضيها، وكان ذلك السبب الحقيقي وراء تدخل الولايات المتحدة في إيران عام ١٩٥٣، ولا يوجد ما يدعونا للاعتقاد بأن أهدافها قد تغيرت تغيُّرًا جوهريًا.

---

[٦] نظام حكم يستمد الحاكم فيه سلطته مباشرة من الإله، حيث تكون الطبقة الحاكمة من الكهنة أو رجال الدين الذين يعتبرون موجهين من الإله أو يمتثلون تعاليم سماوية. (المترجمة)

ظل الهجوم اللفظي على إيران مادة أساسية في خطب واشنطن منذ تولي الرئيس بوش الحكم عام ٢٠٠١، فمن المعروف أن الرئيس بوش وصف إيران بأنها جزء من «محور الشر» العالمي، وفي الخطاب الذي ألقاه في بدء فترته الرئاسية الثانية أطلق على إيران «الراعي الرسمي للإرهاب في العالم»، وحذر فيما بعد من أن تحول إيران إلى قوة نووية أمر «غير مقبول». وقد وضع نائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني إيران «على رأس قائمة» مناطق الصراع في العالم، ووصفت كوندوليزا رايس — وزيرة الخارجية الأمريكية — سجل إيران لحقوق الإنسان بأنه «شيء يثير الاشمئزاز». ويصر جون بولتون سفير الولايات المتحدة السابق لدى الأمم المتحدة على أنه حان الوقت «لزيادة الضغط بشدة» على إيران، وإذا لم تؤدِّ العقوبات والتدابير القسرية الأخرى المتخذة ضد إيران إلى إجبار النظام الإيراني على تغيير مساره، «فعلينا في تلك الحالة أن نفكر في استخدام القوة.» وقد صرح السيناتور جوزيف ليبرمان أحد مؤيدي الرئيس بوش في شئون السياسة الخارجية في حوار تليفزيوني قائلًا: «إذا لم يلتزم الإيرانيون بقواعد اللعبة فسوف نضطر إلى اللجوء للعنف، ويعني ذلك استخدام القوة العسكرية من أجل ردعهم عما يفعلون.»

وقد استخدم ليبرمان حجة جديدة لتبرير دعوته للهجوم على إيران، فقد اتهم إيران بمساعدة المتمردين في العراق، مما تسبب في مصرع نحو مائتي جندي أمريكي، وتلك حجة عجيبة، لأنه أثناء حرب فييتنام زود الاتحاد السوفييتي شمال فييتنام بأسلحة وذخيرة تسببت في مقتل عشرات الآلاف من الجنود الأمريكيين، وفعلت الصين نفس الشيء مع حلفائها في كوريا الشمالية في الخمسينيات من القرن الماضي، ولكن الولايات المتحدة لم تهاجم موردي الأسلحة آنذاك، ولا حاولت حكومة ساندينو[٧] في نيكاراجوا مهاجمة الولايات المتحدة خلال الثمانينيات من القرن الماضي عندما كانت الأسلحة الأمريكية والمقاتلون الأمريكيون يتسببون في مصرع الجنود والمدنيين في

[٧] الجبهة الساندينية للتحرير الوطني هو حزب سياسي نيكاراجواني أمسك بزمام السلطة في نيكاراجوا من عام ١٩٧٩ حتى ١٩٩٠. وسمي الحزب بهذا الاسم تيمنًا بأوجستو سيزار ساندينو (١٨٩٥–١٩٣٤)، أحد أبطال المقاومة النيكاراجوانية ضد الاحتلال الأمريكي. (المترجمة)

نيكاراجوا؛ إن تقديم المساعدة للأصدقاء أثناء الحروب وسيلة قديمة قدم الحرب بالإنابة. والآن مع تلهف إدارة بوش للعثور على كبش فداء لإخفاقها في العراق، يحث ليبرمان الولايات المتحدة على «اتخاذ إجراء عسكري عنيف ضد الإيرانيين لمنعهم من قتل الأمريكيين في العراق.»

قد تكون لغة التهديد تلك مفزعة للدول الصغيرة الفقيرة المنعزلة غير الآمنة، ولكن عندما يوجه مثل هذا التهديد إلى أمة تفخر بنفسها مثل إيران فإنه يؤدي إلى تأثير عكسي، حيث يزيد من حدة المقاومة، ويوحد الناس الذين لا يحبون أن يتلقوا الأوامر ممن يعدونهم «بلطجية»، مثلهم في ذلك مثل بقية شعوب العالم.

ويبدو أن بريطانيا التي ظلت عدو إيران فترة أطول من الولايات المتحدة قد تعلمت هذا الدرس، فعام ١٩٥٣ تعاونت المخابرات السرية البريطانية مع المخابرات المركزية الأمريكية من أجل خلع رئيس الوزراء مصدق، وعلى مدار القرن العشرين زادت حمى معاداة بريطانيا في إيران أكثر من معاداة الولايات المتحدة، ولكن عندما ألقت دورية إيرانية القبض على تسعة عشر بحارًا وجنديًّا بحريًّا بريطانيًّا زعمت أنهم دخلوا المياه الإيرانية بطريقة غير قانونية في ربيع عام ٢٠٠٧، اختلف رد فعل القادة البريطانيين على ذلك الأمر تمامًا عن رد فعل القادة الأمريكيين لو كان الجنود المشار إليهم ينتمون للجيش الأمريكي؛ فقد أكد رئيس الوزراء توني بلير مرارًا أنه لن يلجأ إلا للأساليب الدبلوماسية لتحرير الأسرى، واستبعد تمامًا اللجوء للقوة، وقد أثر ذلك الموقف بشدة في الحكومة الإيرانية، فأطلقت سراح الأسرى بسرعة، وهكذا انتهت واقعة ربما نجمت عنها أزمة طويلة المدى تزعزع استقرار المنطقة من خلال التفاوض دون أن يفقد أي من الطرفين ماء وجهه.

لا ينتهز القادة الأمريكيون أي فرصة كي يكشروا عن أنيابهم في وجه إيران فحسب، بل إنهم أيضًا بدءوا سلسلة من العمليات من شأنها زعزعة استقرار النظام الإسلامي، وكان يمكن أن تعد تلك العمليات سرية لو لم يكن النظام في طهران على علم بها. وكان جزء من المشروع الأمريكي يتمثل في إرسال عشرات الملايين من الدولارات خصصها الكونجرس علنًا لجماعات

يراها مؤيدة للديمقراطية في إيران. وهكذا فمن الطبيعي أن يعتبر الملالي[٨] الحاكمون كل منظمة خاصة في إيران أداة محتملة للعدوان أو التدمير الأمريكي، فأطلقوا حملات قاسية لفرض النظام تسببت في إرسال المئات من الإيرانيين المثاليين إلى العالم السفلي المتمثل في سجن إيفين بطهران، حيث ينتشر تعذيب السجناء ومنعهم من ممارسة حقوقهم القانونية بنسبة مساوية تقريبًا للسجن الأمريكي في جوانتانامو. ويقول المعارضون الإيرانيون إنه عند القبض عليهم لا يكاد المحققون يهتمون إلا بسؤالهم عن مصادر أموالهم، هل يأتي أيّ منها من مصدر أمريكي. وبتخصيص الولايات المتحدة الأموال علانية لبرنامج يهدف صراحة إلى زعزعة استقرار النظام الإيراني، ساعدت على بدء حملة قاسية لقمع المعارضة وتقليل مساحة التقدم الديمقراطي في إيران وإعاقة الحرية التي تزعم التمسك بها.

وإلى جانب تلك المحاولة الخرقاء لإعادة تشكيل المشهد السياسي في إيران، تتدخل الولايات المتحدة أيضًا بطرق أكثر مباشرةً، فقد أرسلت بعض حاملات الطائرات إلى الخليج العربي وقاذفات القنابل الثقيلة إلى قطر. وبالإضافة إلى ذلك، فطبقًا للتقارير الصحفية بدأت الولايات المتحدة سرًّا في تمويل العصابات المسلحة من الأكراد والبلوش[٩] والأذربيجانيين[١٠] وبعض الأقليات العرقية في إيران التي اشتهرت باغتيال المسئولين الإيرانيين ومقاتلي الحرس الثوري، وتهدف أشكال الضغط تلك إلى إخافة النظام في إيران أو إفقاده أعصابه، ولكنها عوضًا من ذلك تقود النظام إلى قمع المعارضة المحلية بمزيد من الشراسة.

ويبدو أن النظرية الكامنة خلف سياسة الولايات المتحدة تجاه إيران هي ضعف النظام الإيراني أمام الأشكال التقليدية للضغوط، ولكن في

---

[٨] جمع ملا وهو فقيه مسلم عند بعض الطوائف الإسلامية، ويشيع استخدامه في مناطق من قبيل إيران وتركيا وباكستان وأفغانستان وشبه القارة الهندية وآسيا الوسطى والبوسنة، ويطلق على رجل دين محلي أو إمام مسجد. (المترجمة)

[٩] أحد الأعراق التي توجد في باكستان وإيران وسلطنة عمان والإمارات العربية المتحدة وغيرها من دول الخليج منذ وقت طويل، ويتميزون بلغتهم الخاصة التي تعد مزيجًا من عدة لغات منها العربية والهندية والفارسية على سبيل المثال لا الحصر، ويتميزون بعادات وتقاليد خاصة، إلا أنهم اندمجوا في المجتمعات التي هاجروا إليها ومنها المجتمعات الخليجية والعمانية على الخصوص. (المترجمة)

[١٠] مجموعة عرقية تعيش بوجه عام في شمال غرب إيران وفي جمهورية أذربيجان وأيضًا في المنطقة بين القوقاز وهضبة إيران. والأذربيجانيون لديهم ميراث ثقافي ذو خصوصيات إيرانية وتركية وقوقازية. (المترجمة)

حقيقة الأمر فإن ذلك النظام أصبح أقوى مما كان عليه؛ فقد أدى انهيار الاتحاد السوفييتي الذي خفف الضغط على حدود إيران الشمالية وتسبب في ظهور دول جديدة عديدة ذات أقليات مسلمة إلى إتاحة فرص استراتيجية كثيرة أمام إيران، حيث أدى ارتفاع أسعار النفط إلى منحها قوة اقتصادية جديدة في الأعوام الأولى من القرن الحادي والعشرين، وعلى نحو فجائي قدمت الولايات المتحدة — التي تعلن في كل مناسبة عن قيادتها لتحالف عالمي ضد إيران — خدمة كبيرة لإيران تتمثل في القضاء على النظامين اللذين تخشاهما إيران بشدة، وهما حكومة طالبان في أفغانستان التي كانت خاضعة لمتطرفين سنيين متعصبين ضد الإيرانيين، وحكومة صدام حسين في العراق التي خاضت معها إيران حربًا مدمرة في الثمانينيات من القرن الماضي.

وقد أخذ التأثير الإيراني في الشرق الأوسط يزداد على نحو منتظم منذ الغزو الأمريكي للعراق، فالحكومة العراقية الجديدة شيعية تكن الإعجاب لإيران وتتعاون معها، ويطلق الرئيس الأفغاني حامد قرضاي على إيران «صديقتنا العزيزة». وفي لبنان حقق النظام الإيراني نصرًا كبيرًا من وجهة نظر العديد من المسلمين عام ٢٠٠٦ عندما قاومت ميليشيات حزب الله الذي تدعمه إيران عدوانًا إسرائيليًّا مدمرًا، ثم تولت جهود إعادة البناء بعد الحرب.

وبوقوع العراق في حالة فوضى، وانشغال كل من سوريا ومصر بالتحديات الداخلية، أصبحت إيران القوة الإسلامية الوحيدة في الشرق الأوسط القادرة على التأثير في الأحداث خارج حدودها؛ فقد زاد نفوذ إيران في العراق ولبنان وسوريا، وزاد تأثيرها على الفلسطينيين، بالإضافة إلى عناصر أخرى غير حكومية مثل جماعات حزب الله وحماس والجهاد الإسلامي. ولم تكن إيران قط بالقوة التي هي عليها الآن في التاريخ الحديث، والعجيب أن معظم الفضل في ذلك يرجع إلى الولايات المتحدة، فطفرة القوة والنفوذ التي تتمتع بها لم تأت نتاج جهدها الخاص، بل يستغل قادتها الأخطاء الأمريكية لمصلحتهم.

أوقفت الولايات المتحدة تقدم إيران نحو الحرية بعنف شديد عندما خلعت رئيس الوزراء مصدق عام ١٩٥٣، والنتائج بعيدة المدى المترتبة على

ذلك جاءت مدمرة لكلا الدولتين. وبعد مضي نصف قرن أعطت مجموعة أخرى من القادة الأمريكيين أوامرها بغزو العراق، وهو الحدث الذي أحدث تأثيرًا كارثيًّا مشابهًا. وعلى الرغم من تلك الهزائم فلا يزال البعض في واشنطن يعتقدون أن القوة العسكرية يمكن أن تؤدي إلى تغيرات إيجابية في إيران، وأكثر من يخشى ذلك الأمر هم الديمقراطيون الإيرانيون الشجعان الذين يقومون بحملات للإصلاح في بلادهم رغم خطورة ذلك عليهم.

وفي حوار أجري عام ٢٠٠٧ مع المتمرد الإيراني أكبر جانجي — الذي قضى ست سنوات شاقة في السجن بسبب تأليف كتاب يتهم فيه المسئولين الإيرانيين بتنظيم اغتيالات سياسية — قال: «إن الدولة الإيرانية متهمة بالطبع بانتهاك حقوق أساسية عديدة لمواطنيها، ولكن الهجوم العسكري ليس حلًّا عادلًا أو فعالًا لتلك المشكلة ... فسوف يكون الهجوم كارثة على شعب إيران البريء وعلى المنطقة بأسرها، وسوف يعزز أيضًا من نمو الأصولية في المنطقة، ويعيد إحياء الاعتقاد بأن الغرب اليهودي المسيحي بقيادة الولايات المتحدة يهاجم العالم الإسلامي، من أفغانستان وفلسطين إلى العراق وإيران ... لقد ساهمت التهديدات العسكرية الأمريكية الحالية في إعطاء الحكومة الإيرانية حرية قمع المجتمع المدني الناشئ في إيران باسم الأمن القومي، وغطت على الخطاب الديمقراطي حتى إن بعض الإصلاحيين الإيرانيين يرون أنفسهم بين شقي الرحى: الاستبداد المحلي والغزو الأجنبي. إن التغيير السياسي في إيران ضرورة، ولكن لا يمكن تحقيقه عن طريق التدخل الأجنبي.»

وفي الحوار نفسه أثار جانجي نقطة في غاية الأهمية، إذ قال إن الولايات المتحدة لا تتمتع بالمصداقية لدى إيران كدولة تحمل لواء الديمقراطية، وذلك بسبب دورها في القضاء على الديمقراطية هناك منذ نصف قرن، وأيضًا بسبب إخفاقها منذ ذلك الحين في إبداء أي اهتمام بتنمية المجتمع المدني في إيران.

وأضاف جانجي قائلًا: «أعتقد أن معظم الإيرانيين يشتركون في وجهة نظر عامة بشأن السياسة الخارجية الأمريكية، فهم يرون أن أهمية إيران تنبع من موارد الطاقة الهائلة التي تمتلكها ودورها في السياسة الإقليمية

فحسب، وأن الثقافة والتنمية الاقتصادية الإيرانية وتحقيق السلام والرفاهية وتوفير الحقوق الأساسية للمواطن الإيراني أمور لا تعني صناع السياسات الأمريكية في شيء ... فلن ينسى الإيرانيون أبدًا الانقلاب الذي دعمته الولايات المتحدة عام ١٩٥٣ والذي أطاح بالحكومة القومية المعتدلة الديمقراطية التي كان يرأسها د. محمد مصدق، وأتى بنظام سياسي دكتاتوري منغلق، وهكذا فقد المجتمع الإيراني إحدى أهم الفرص التاريخية لتحقيق الديمقراطية.»

ولا تزال الولايات المتحدة تدفع الثمن غاليًا لقاء تدخلها العنيف في إيران منذ عقود مضت، وإذا هاجمت إيران مرة أخرى الآن فسوف يلعنها الإيرانيون لمدة نصف قرن آخر. ويدرك الأمريكيون العقلاء تلك الحقيقة، حيث حذر الأستاذ إيه ريتشارد نورتون بجامعة بوسطن، وهو خبير في الحركات السياسية الإسلامية عمل من قبل مستشارًا لمجموعة دراسة العراق ثنائية الأحزاب، قائلًا: «ستؤدي الهجمة الأمريكية إلى إسكات الأصوات العاقلة في إيران، وتمنحها الدافع لكي تجعل الحياة أكثر صعوبة للولايات المتحدة في العراق وأماكن أخرى، ومن المحتمل أيضًا أن تعوق تجارة النفط الدولية.» ووصف ميلت بيردن — ضابط المخابرات المركزية الأمريكية المحنك الذي أدار الحرب الأمريكية في أفغانستان في الثمانينيات — تلك الفكرة بأنها «مجنونة»، وأكد قائلًا: «إن الدخول في حرب مع إيران لن يفيد أحدًا عدا إيران.» بل إن روبرت جيتس قبل أن يصبح وزيرًا للدفاع كان عضوًا في فريق يدرس الخيارات المتاحة للولايات المتحدة تجاه إيران، وقد أوصى باتباع «توجه استراتيجي معدل» يعتمد على المعاملة والحوار.

ويجب أن يكون أول مظاهر ذلك التوجه المعدل التزام الولايات المتحدة بالحوار المباشر غير المشروط مع الحكومة الإيرانية. ونظرًا لاستعداد الولايات المتحدة للتفاوض مع كافة النظم البغيضة، فإن رفضها التفاوض مع إيران لا يدعو للحيرة فحسب، بل يؤدي أيضًا لنتيجة عكسية؛ فهذا الرفض قائم في الظاهر على المبدأ الغريب الذي ينهى عن التفاوض مع الأعداء. وقد أعلن مسئولون في إدارة بوش أنهم يرفضون المباحثات الموسعة مع إيران لأنهم لا يرغبون في مكافأة «السلوك السيئ»، ولكن الدول الأعداء التي ترتكب «السلوك السيئ» هي ذاتها التي يجب أن ترغب كل الدول في التعامل معها

بصورة عاجلة، وخاصة عندما تتمتع تلك الدول بنفوذ كبير وتمثل تهديدًا متزايدًا للأمن العالمي على غرار وضع إيران اليوم، فلا يمكن أن تكون الغطرسة والشجب والتهديد ووضع مطالب حادة اللهجة أسسًا لسياسة خارجية سليمة.

ولكن هناك سببًا آخر خفيًّا جعل الولايات المتحدة عاجزة عن التفاوض مع إيران طوال الخمسة وعشرين عامًا الأخيرة، حيث إن الطبقة السياسية الأمريكية لم تتعاف قط من صدمة خسارة الشاه وذل أزمة الرهائن التي أعقبتها، وهي تحمِّل النظام الإسلامي الحالي مسئولية تلك الإهانات، ويبدو إصرار البعض في واشنطن على الأخذ بالثأر القديم من إيران أكبر من حرصهم على بناء علاقات جديدة مع حكومتها وشعبها، وإلى أن تتمكن الولايات المتحدة من تخطي ذلك الحاجز النفسي والتخلي عن عنادها الشديد ورفضها القاطع لإجراء محادثات جدية مع إيران، فلن يكون هناك أي تحسن حقيقي في العلاقات بين البلدين.

إن الأزمة العنيفة بشأن برنامج إيران النووي تجعل التفاوض الآن حاجة ملحة أكثر من ذي قبل، وكي تحظى تلك المفاوضات بفرصة للنجاح، يجب أن تكون مباشرة وثنائية، حيث إن الولايات المتحدة وحدها تمتلك سلطة إعطاء إيران الضمانات الأمنية التي تطلبها في أي اتفاق مستقبلي. ويجب أيضًا أن تكون تلك المفاوضات غير مشروطة، بحيث يشجِّع كلا الطرفين على إثارة نقاط الخلاف. وقد تكون اللقاءات بين الدبلوماسيين الأمريكيين والإيرانيين لبحث طرق جلب الاستقرار إلى العراق — وهي الأولى من نوعها منذ قيام الثورة الإسلامية — وسيلة للتقدم نحو إجراء مباحثات موسعة، وقد وصف كلا الجانبين تلك الاجتماعات بأنها «إيجابية»، ولكنها كي تكون إيجابية حقًّا يجب أن تؤدي إلى مفاوضات شاملة.

ومن الأمثلة النموذجية لتلك المفاوضات السياسة التي انتهجتها كل من الولايات المتحدة والصين عندما أعادا إحياء علاقتهما في السبعينيات من القرن الماضي، وكانت أول وثيقة صادرة عن تلك العملية بيان شنغهاي الذي كان يبدو بسيطًا على غير حقيقته، فلم يقدم أي من طرفيه أي تنازل أو تعهد بأي التزام، ولكن البيان كان قائمة بمخاوف كل طرف وتعهدًا

بالتفاوض الجاد من أجل حلها فقط. وتعتبر مثل تلك الوثيقة بداية طيبة لعلاقة جديدة بين الولايات المتحدة وإيران.

ما المخاوف التي تحملها كل من الدولتين إحداهما تجاه الأخرى؟ بالطبع سوف تضع الولايات المتحدة برنامج إيران النووي في رأس القائمة، يليه الدعم الإيراني للإرهاب الدولي. وسوف ترغب إيران في مناقشة التصرفات الأمريكية التي تهدف إلى تقويض نظامها، حيث يعتقد كل طرف أن الآخر مسئول عن ارتكاب العنف في الشرق الأوسط.

ولكن وراء نقاط الاختلاف الواضحة تكمن نقاط اتفاق كثيرة بين الولايات المتحدة وإيران، فهاتان الدولتان لم يكتب عليهما مناصبة العداء قط، وهما في الواقع يشتركان في أهداف استراتيجية عديدة، بل من الممكن أن يصبحا حليفين في يوم ما؛ فكلاهما يرغبان بشدة في جلب الاستقرار للعراق وأفغانستان، وكلاهما يبغض الحركات السنية المتطرفة مثل القاعدة وطالبان، وكلاهما يسعى إلى توفير احتياطي ثابت من البترول للأسواق الغربية، وإن كان كل منهما لديه أسبابه، وحاليًّا تعتبر صناعة النفط في إيران معرضة للخطر، وهي تحتاج إلى استثمار عشرات المليارات من الدولارات فيها، في حين الولايات المتحدة تمتلك رأس مال ضخم وشهية مفتوحة للنفط.

لا يزال أمام الأمريكيين الكثير كي يستفيدوه من إقامة علاقة جديدة مع إيران، خاصة إذا أمكنها أن تؤدي إلى تهدئة مشاعر الغضب التي تعصف بالشرق الأوسط، وإيران أيضًا سوف تستفيد؛ فقد أصبح الانقسام بين الشعب والنظام الإيراني مثل الهوة بين الأغنياء والفقراء في إيران تمامًا، أكبر مما كان عليه خلال العقود الأخيرة، والتضخم لا يرحم، ونسبة البطالة شديدة الارتفاع خاصة بين الشباب، والأمراض الاجتماعية مثل إدمان المخدرات والبغاء انتشرت كالوباء، ولا يعتمد القطاع الاقتصادي على شيء سوى النفط، ويرجع ذلك بصورة كبيرة إلى السيطرة الحكومية الخانقة وقلة الاستثمارات الأجنبية. وتلك الدورات اللانهائية من الاتهامات المتبادلة بين واشنطن وطهران تمنع كلا الجانبين من اتباع منهج جديد يمكن أن يستفيد منه كلاهما.

ومن غير المؤكد أن المفاوضات الشاملة بين الولايات المتحدة وإيران سوف تنجح في النهاية، ولكن عدم القيام بمحاولة في ذلك الشأن يعتبر خطأ تاريخيًّا فادحًا. وقد يؤدي تقديم عرض للمحادثات الشاملة إلى حدوث أزمة صغيرة في النظام الإيراني، حيث يجادل المتشددون النفعيين حول ما إذا كانوا يقبلون العرض أم لا.

وفور بدء المحادثات لا يوجد طريقة لإنجاحها سوى التسوية، وهي الطريقة التي لا يزال الطرفان يرفضانها حتى الآن مع أنها الهدف من التفاوض. ولا يعتبر بدء محادثات شاملة مع إيران مكافأة «للسلوك السيئ»، ولكنه بحث عن حلول يمكنها التخفيف من حدة الصراع المتقلب والمساهمة في الأمن العالمي.

وتعتبر الطريقة الوحيدة التي يمكن لإيران بها كبح جماح طموحاتها النووية هي إجراء «صفقة كبرى» تعالج فيها مخاوفها الأمنية، وسوف يتطلب ذلك حلًّا يتعدى حدود إيران ويؤدي إلى إنشاء بناء أمني جديد في الشرق الأوسط؛ فمن غير المعقول أن نتوقع تخلي إيران عن برنامجها النووي ما دام عدوها الإقليمي اللدود — إسرائيل — وعدوها العالمي — الولايات المتحدة — يمتلكان أسلحة نووية ويصدران مجموعة من التهديدات شبه الصريحة لإيران.

ومن الاتفاقات التي قد يضعها المتفاوضون نصب أعينهم الاتفاق الذي وقع عام ٢٠٠٧ بين الولايات المتحدة وكوريا الشمالية؛ ففي مقابل وعد كوريا الشمالية بالتخلي نهائيًّا عن برنامج الأسلحة النووية الخاص بها، وافقت الولايات المتحدة على «محاولة إنشاء علاقات دبلوماسية كاملة» مع كوريا الشمالية، وتخفيف العقوبات الاقتصادية عليها، و«اتخاذ خطوات عملية» لإزالتها من قائمة الدول التي تدعم الإرهاب ومن قائمة الدول التي يقيد المعاملات التجارية معها قانون التجارة مع العدو، وإنشاء مجموعات عمل للتفاوض بشأن نزع السلاح النووي من المنطقة، وإيجاد «آلية جديدة للسلام والأمن في شمال شرق آسيا». وإذا كانت تلك المبادئ قد نجحت في صياغة اتفاق بين الولايات المتحدة وكوريا الشمالية، فبالتالي يمكنها أن تنطبق على إيران التي تزيد قدرتها عن كوريا الشمالية على تعزيز الأمن العالمي أو تهديده.

وكي ينجح التوجه الأمريكي الجديد نحو إيران على المدى الطويل، يجب ألا يقتصر على محادثات فقط مع النظام، فكي تنعم إيران — أو أي دولة أخرى — بالاستقرار والديمقراطية يجب أن تكون بها طبقة وسطى قوية. ومن مصلحة الولايات المتحدة أن تعزز كل صور التواصل الاجتماعي والسياسي والاقتصادي مع طوائف المجتمع الإيراني المختلفة، ففي ظل مناخ جديد لن تصبح إقامة المشروعات الأمريكية مع إيران ممنوعة بل مرحبًا بها. وبدلًا من الحد من عدد التأشيرات الممنوحة للإيرانيين سوف تدعو الولايات المتحدة أكبر عدد ممكن من الإيرانيين إليها وتملأ إيران بالأمريكيين، بدءًا من الطلبة والأساتذة إلى الفلاحين وأصحاب المشروعات والكتاب والفنانين.

إن إيران مستعدة كي تنتهز فرصة ذلك النوع من الارتباط، فهي تضم مجتمعًا مدنيًّا مزدهرًا يتعطش إلى الاتصال بالعالم الخارجي ووعيًا ديمقراطيًّا يرجع إلى أكثر من قرن مضى. وكما أوضحت الإخفاقات في العراق، لا يمكن فرض الديمقراطية على دولة من الخارج؛ فالديمقراطية لا تتمثل في إجراء انتخابات، لكنها منهج حياة وطريقة لحل المشكلات، وفي أي مجتمع ينمو الوعي بالقيم الديمقراطية ببطء. وعلى النقيض من الدول الأخرى في المنطقة ظلت إيران تتقدم نحو الديمقراطية منذ إقرار دستورها الأول منذ أكثر من قرن مضى، ولم يكن الدستور الإيراني يُحترم على الدوام ولا كانت الانتخابات الإيرانية دائمًا نزيهة، ولكن طوال تلك الفترة أظهر الشعب الإيراني وعيًا عميقًا بمعنى الديمقراطية ولا يزال هناك العديد من المتعطشين لها. وهناك أيضًا أرض خصبة للتغيير الديمقراطي في إيران أكثر من أي دولة إسلامية أخرى. ومن اللافت للنظر أن العديد من المواطنين الإيرانيين يحملون بقايا إعجاب للولايات المتحدة، ويجب أن يستغل القادة الأمريكيون تلك النقطة لمصلحتهم.

إن فكرة الهجوم على إيران ومحاولة كسر عنق النظام بها تنطوي على افتراض في منتهى الخطورة، وهو أن ذلك الهجوم سوف يليه تحسن في الأوضاع، وقد مر الإيرانيون بتجربة مريرة تنفي صحة ذلك الاعتقاد؛ ففي أواخر السبعينيات من القرن الماضي، توحد الشيوعيون والأصوليون وأنصار مصدق الليبراليون من أجل الإطاحة بالشاه، وذلك لأنهم افترضوا

أن أي نظام يأتي بعد ذلك سوف يكون أفضل، ولكن يعتقد الكثيرون الآن أن ذلك كان خطأ فادحًا.

ويحاول البعض في واشنطن أن يبرهن أن أي نظام جديد في إيران سوف يكون أفضل من نظام الملا القمعي الذي يتميز بكراهية الأجانب، ولكنهم مخطئون بشدة؛ فمن المتوقع أن يؤدي شن هجوم على إيران الآن إلى حالة من الفوضى في البلاد تشبه تلك التي أصابت العراق، وفي مثل تلك البيئة الفوضوية لن يكون هناك سلطة مركزية تسيطر على المتطرفين مرتكبي أحداث العنف. وأكثر ما يدعو للخوف أن يتضمن هؤلاء المتطرفون علماء نوويين غاضبين، فسوف يزيد احتمال استخدام الإيرانيين خبراتهم التكنولوجية لنقل أسلحة الدمار الشامل إلى الجماعات الإرهابية عند حدوث هجوم، ولن يكون قصف المنشآت النووية في إيران، بافتراض أنها يمكن أن تكتشف وتدمر كلها، سوى حل مؤقت يؤدي قطعًا إلى ظهور تهديدات أكثر خطورة من تلك التي تمثلها إيران الآن، وكما أوضح د. محمد البرادعي مدير الوكالة الدولية للطاقة الذرية، فإن المباني يمكن مهاجمتها وتدميرها، ولكن «العلم لا يمكن قصفه بالقنابل».

وبسحب الولايات المتحدة إيران بعيدًا عن طريق الديمقراطية عام ١٩٥٣، أنشأت دوامة من عدم الاستقرار أدت لاحقًا إلى ظهور تهديدات لم تكن متوقعة. ولم تؤدِّ الحملة الأمريكية الطويلة من فرض العزلة والضغط والتحذيرات إلى أي تغيير في سلوك إيران. ويعني استمرار ذلك الضغط زيادة مضطردة في التوتر الذي يعتقد البعض في واشنطن أنه سوف يؤدي إلى هجوم عسكري، وهو الهجوم الذي سيقودنا إلى عهد جديد من الاضطراب في إيران والمنطقة المحيطة، ولكنه في تلك المرة محاط بخطر الإرهاب النووي.

لقد تسببت الخطة التي وضعتها المخابرات المركزية الأمريكية لخلع رئيس الوزراء مصدق، والتي عرفت بالاسم الكودي عملية أياكس، في مآسٍ لا حصر لها لإيران، وقد ساهمت أيضًا في نشأة الإرهاب المضاد للولايات المتحدة، وأخيرًا تسببت في إضعاف أمن الولايات المتحدة. وتعتبر تلك الحقبة من أوضح الأمثلة تجسيدًا لمفهوم «الضربة المرتدة» في تاريخ القرن العشرين. واليوم، حيث يزداد الخطاب المضاد لإيران في واشنطن عنفًا وحدة، يجب أن

يدرك الأمريكيون على وجه السرعة مدى خطورة الهجوم الأخير الذي شنته الولايات المتحدة على إيران. وقد يتعين عليهم أيضًا التفكير في المسئولية الأخلاقية التي تتحملها الولايات المتحدة نحو إيران على إثر ذلك التاريخ المؤلم.

لقد أظهر الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون قدرة على تفهم إعادة توازن القوى العالمي عن طريق تجاهل ربع قرن من العداء الأمريكي المرير تجاه الصين، وأدت تلك المغامرة إلى تغيير مجرى التاريخ. واليوم يهتف العالم مطالبًا بقائد أمريكي بمثل تلك الجرأة يمكنه تصور علاقة بين إيران والولايات المتحدة تختلف عن تلك التي نشأت بين البلدين منذ عام ١٩٧٩.

مقدمة

ذات يوم حضرت حفل توقيع كتاب لسيدة إيرانية مسنة كتبت مذكراتها، وقد تحدثت لمدة ساعة عن حياتها الحافلة بالأحداث، ومع أنها لم تتطرق إلى السياسة فإنها ذكرت بصورة عابرة أن عائلتها ترتبط بصلة قرابة مع عائلة محمد مصدق الذي كان رئيس وزراء لإيران لمدة ستة وعشرين شهرًا في بداية الخمسينيات من القرن الماضي، وأطيح به في انقلاب نظمته المخابرات المركزية الأمريكية.

وبعد أن انتهت من حديثها لم أستطع أن أقاوم فضولي فاندفعت قائلًا: «لقد ذكرت مصدق، ما الذي تتذكرينه عن الانقلاب الذي أطاح به؟ هل يمكنك إخبارنا المزيد عن ذلك الأمر؟» وعلى الفور تأثرت السيدة واضطربت، وصاحت: «لماذا فعلتم تلك الفعلة الشنعاء أيها الأمريكيون؟ لطالما أحببنا بلادكم، وكانت الولايات المتحدة في نظرنا هي الدولة العظمى، الدولة المثالية، الدولة التي قدمت لنا يد المساعدة في الوقت الذي كانت فيه الدول الأخرى تستغلنا. ولكن بعد ذلك الحدث لم يثق أي إيراني بالولايات المتحدة مرة أخرى. وأؤكد لك أنكم لو لم تفعلوا ذلك، لما حدثت مشكلة الرهائن الذين احتجزوا في سفارتكم في طهران. لقد بدأت كل مشاكلكم عام ١٩٥٣، لماذا فعلتم ذلك؟»

عكس ذلك الانفجار وجود فجوة كبيرة في المعرفة والإدراك تفصل بين معظم الإيرانيين وغير الإيرانيين، ففي إيران يعلم الجميع تقريبًا منذ عقود أن الولايات المتحدة مسئولة عن إنهاء الحكم الديمقراطي عام ١٩٥٣ وتنصيب الدكتاتور محمد رضا شاه الذي استمر حكمه فترة طويلة، وقد

أدى ذلك الحكم الدكتاتوري إلى نشوب الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩ التي أتت إلى السلطة بدولة ثيوقراطية معادية لأمريكا اعتنقت الإرهاب بوصفه إحدى أدوات الحكم، وقد ألهم تطرف تلك الدولة المتعصبين ضد الغرب في دول عديدة، خاصة أفغانستان حيث وجدت القاعدة وجماعات إرهابية أخرى موطنًا لها.

وتعد تلك الأحداث تحذيرًا صارخًا للولايات المتحدة ولأي دولة تحاول فرض إرادتها على دولة أخرى. وغالبًا ما تتصرف الحكومات التي تدعم الانقلابات أو الثورات أو الغزو المسلح من منطلق أنها سوف تكسب في نهاية الأمر، وغالبًا ما تفعل. ولكن أشباح تلك الانتصارات قد تعاودها، وأحيانًا تكون مدمرة ومأساوية. وينطبق ذلك الأمر بوجه خاص على الشرق الأوسط الحالي ذي الأوضاع المعقدة والمتقلبة، حيث تساهم التقاليد والتاريخ والدين في تشكيل الحياة السياسية بطرق لا يفهمها العديد من الأجانب.

لقد صدم معظم الناس في الولايات المتحدة بالموجة العنيفة من العداء لأمريكا في أعقاب عام ١٩٧٩، فلم يكن لدى الأمريكيين فكرة عن سبب تفجر مشاعر الكراهية العميقة تجاههم في دولة كانوا يتخيلون أن شعبها يكن لهم مشاعر الود، وذلك لأنه لم يكن أحد في الولايات المتحدة يعلم ما الذي فعلته المخابرات المركزية الأمريكية عام ١٩٥٣.

كان محمد مصدق رجلًا عظيمًا في زمانه، فقد تسبب في هز إمبراطورية وتغيير العالم، وكان اسمه معروفًا للناس في كل أنحاء العالم، وحاول قادة العالم التأثير عليه ولاحقًا خلعه، ولذلك لم يفاجأ أحد عندما اختارته مجلة تايم من بين هاري ترومان ودوايت أيزنهاور ووينستون تشرشل كي يحصل على لقب رجل العام عام ١٩٥١.

لقد كانت عملية أياكس — وهو الاسم الكودي الذي أطلقته المخابرات الأمريكية على الانقلاب ضد مصدق — صدمة كبيرة لإيران والشرق الأوسط والعالم الاستعماري، فقد كانت تلك أول مرة تساهم فيها المخابرات المركزية الأمريكية في الإطاحة بحكومة أجنبية، وقد وضعت نموذجًا يحتذى به للأعوام القادمة، وغيرت الطريقة التي ينظر بها ملايين الناس للولايات المتحدة.

إن هذا الكتاب يقص علينا قصة توضح الكثير عن مصادر التيارات العنيفة التي تجتاح العالم الآن، وهو ليس قصة مغامرة رائعة فقط، بل هو رسالة تحذيرية من الماضي ودرس عملي للمستقبل.



شكر وتقدير

كرست مجموعة صغيرة متفانية من الباحثين جهودًا كبيرة لكشف الحقيقة وراء الأحداث التي أحاطت بانقلاب ١٩٥٣. ومن أكثر هؤلاء الباحثين إصرارًا مارك جيه جاسورويسكي الذي أصبح العميد غير الرسمي لتلك المجموعة. ومن الباحثين الآخرين الذين شاركوه تلك المهمة إيرفاند أبراهاميان وفخر الدين عظيمي وجيمس إيه بيل ومازيار بهروس ومالكولم بيرن وريتشارد دابليو كوتام وفرهد ديبا ومصطفى علم وجيمس إف جود وماري آن هايس وهو ما كاتوزيان وويليام روجر لويس وسيبر زابيه. وبفضل جهودهم، أصبح خروج هذا الكتاب للنور ممكنًا.

كان للمخابرات المركزية الأمريكية روايتها الخاصة للانقلاب، ولكنها ظلت سرًّا لفترة طويلة، وعام ٢٠٠٠ تسربت نسخة منها إلى صحيفة نيويورك تايمز فأكدت صحة معظم المعلومات عن الانقلاب وأضافت تفاصيل كثيرة. وأود أن أعرب عن خالص شكري وتقديري للسيد جيمس ريزن الصحفي الذي حصل على ذلك الخبر للدور الذي اضطلع به في نشره.

وأود أيضًا أن أوجه الشكر إلى أمناء المكتبات والأرشيف لتعاونهم واستعدادهم لمشاركة الوقت والخبرة، وأخص بالذكر أمناء المكتبات العامة بشيكاجو وأوك بارك بولاية إلينوي ومكتبة كينت للحقوق بشيكاجو ومكتبة دوايت د. أيزنهاور بمدينة أبيلين بولاية كنزاس ومكتبة هاري ترومان بمدينة إنديبندنس بولاية ميزوري والأرشيف القومي بكوليدج بارك بولاية مريلاند ومكتب السجلات العامة بكيو جاردنز بمقاطعة ساري بإنجلترا.

وأود أيضًا أن أوجه الشكر إلى من قرءوا المسودات الأولى من الكتاب وأبدوا تعليقات مهمة، ومنهم جانيت أفاري وديفيد باربوزا وإلميرا بايراسلي وديفيد شومان وجيمس إم ستون وجون إي وودز. وهم لا يتحملون أي مسئولية تجاه النسخة النهائية للكتاب، ولكنني أود التعبير عن خالص تقديري لهم.

وقد طلب مني معظم الإيرانيين الذين ساعدوني في البحث عند وجودي في إيران ألا أذكر أسماءهم، إنهم يعرفون أنفسهم جيدًا، ولهم أوجّه خالص الشكر والتقدير.

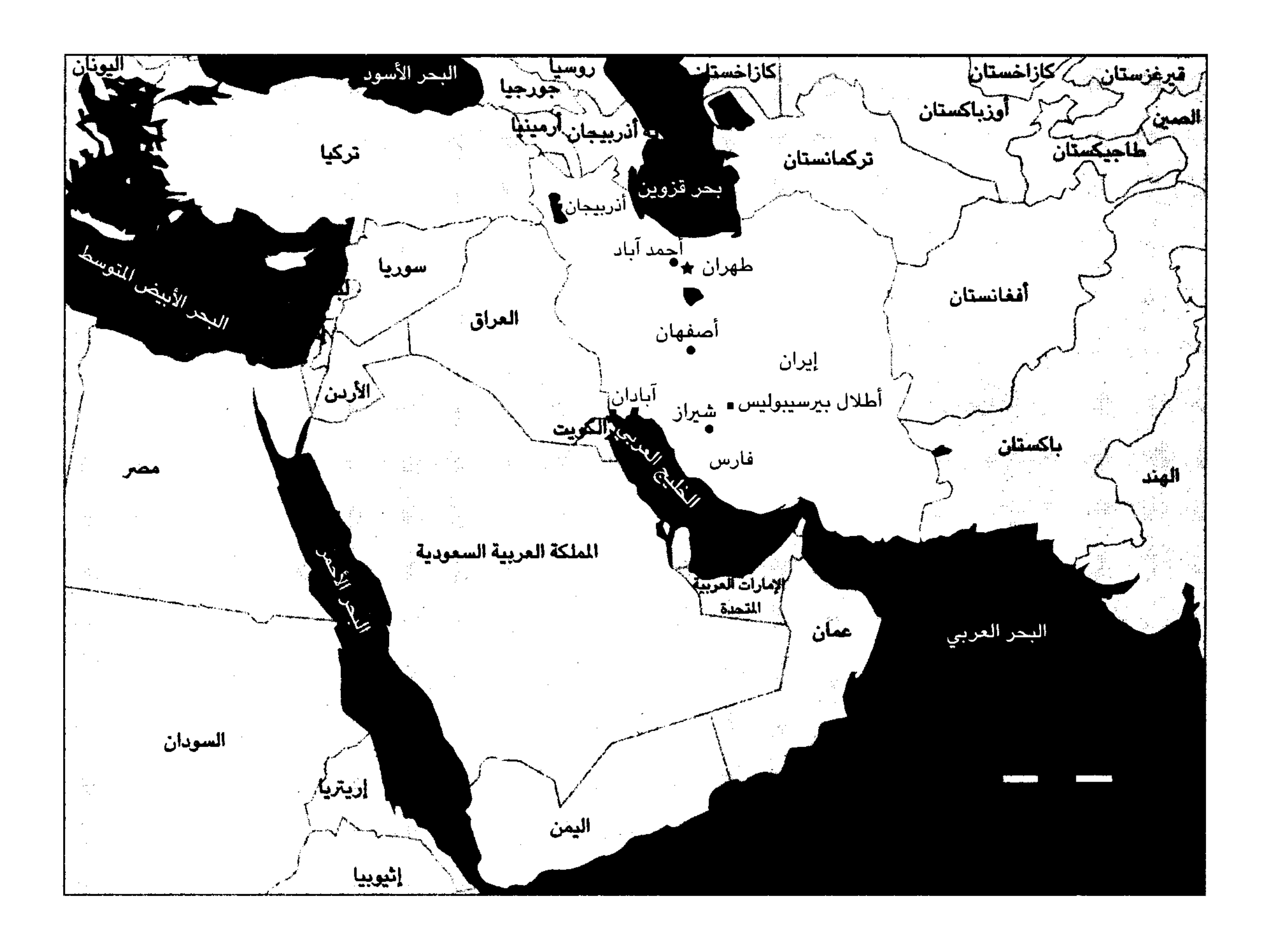
ملاحظات

لا يوجد نظام عالمي لكتابة الحروف الفارسية باللغة الإنجليزية، ولذلك توجد اختلافات عديدة في الهجاء الإنجليزي للأسماء الإيرانية وبعض الكلمات الأخرى، ففي الكتب والمقالات الإنجليزية التي تتحدث عن مصدق، على سبيل المثال، كتب اسمه باثنتي عشرة طريقة مختلفة تقريبًا.

لقد اخترت الهجاء الذي يبدو أقرب ما يكون للنطق الأصلي، ووحدت أيضًا الهجاء وغيرت الصيغ التي وردت في المستندات المستشهد بها كي أصل إلى صيغة موحدة، بالإضافة إلى حذف علامات الإعجام غير المألوفة لقارئ اللغة الإنجليزية.

وفي مواضع عديدة أجريت بعض التعديلات البسيطة في الترجمة وعلامات الترقيم من أجل توضيح المعنى فحسب، ولا تمثل تلك التعديلات أي تغييرات جوهرية.

يطلق على إدارة المخابرات السرية البريطانية التي تعني بالعمليات الخارجية، وكي أتجنب حدوث لبس أشرت إليها باسمها السابق خلال الكتاب.



اليونان
البحر الأسود
روسيا
جورجيا
كازاخستان
كازاخستان
قيرغزستان
أوزباكستان
الصين
أذربيجان
أرمينيا
تركيا
تركمانستان
طاجيكستان
بحر قزوين
أذربيجان
أحمد آباد
طهران
سوريا
البحر الأبيض المتوسط
أفغانستان
العراق
أصفهان
إيران
الأردن
آبادان
أطلال بيرسيبوليس
شيراز
الكويت
باكستان
فارس
مصر
الخليج العربي
الهند
المملكة العربية السعودية
البحر الأحمر
الإمارات العربية المتحدة
عمان
البحر العربي
السودان
إريتريا
اليمن
إثيوبيا

الفصل الأول

مساء الخير يا سيد روزفلت

كانت طهران تغط في نوم عميق عندما انطلقت قافلة سيارات غريبة في الظلام قبيل منتصف الليل، وذلك في الخامس عشر من أغسطس عام ١٩٥٣؛ ففي المقدمة انطلقت سيارة مصفحة تحمل شارات عسكرية، وخلفها سيارتان من طراز جيب وشاحنات عسكرية عديدة محملة بالجنود. لقد كان الجو شديد الحرارة في ذلك اليوم، ولكن حدة القيظ هدأت بقدوم الليل، وكان الهلال بازغًا في الأفق. كانت تلك الليلة هي المثلى لإسقاط الحكومة.

جلس العقيد نعمت الله نصيري قائد الحرس الملكي في السيارة المصفحة شديد الثقة، فقد حمل في جيبه مرسومًا من شاه إيران بإقالة رئيس الوزراء محمد مصدق، وكان في طريقه لتقديم ذلك المرسوم لمصدق والقبض عليه إذا لزم الأمر.

وقد افترض عملاء المخابرات الأمريكيون والبريطانيون الذين خططوا لذلك الانقلاب أن مصدق سوف يستدعي الجيش في الحال من أجل إخماده، فرتبوا الأمر ألا يرد عليه أحد عندما يتصل بالجيش. وكان على العقيد نصيري أن يتوقف أولًا عند منزل رئيس أركان الجيش ويقبض عليه، ثم ينطلق لتوصيل ذلك المرسوم المصيري.

وقد فعل العقيد تمامًا كما طُلب منه، ولكنه عندما بلغ وجهته الأولى وجد ما لم يتوقعه؛ فمع أن الوقت متأخر، لم يكن رئيس الأركان الجنرال تقي رياحي موجودًا في منزله، لم يكن هناك أحد في المنزل على الإطلاق، لا خدم ولا حرس.

ربما تعتقد أن العقيد نصيري قد شعر بوجود شيء ما خطأ، ولكن ذلك لم يحدث، بل ركب سيارته المصفحة مرة أخرى وأمر السائق بالانطلاق نحو الهدف الرئيسي؛ منزل رئيس الوزراء، وانطلقت معه آمال اثنتين من كبرى أجهزة المخابرات في العالم.

لم يكن العقيد نصيري من الحماقة بحيث يقوم بتلك المهمة الجريئة من تلقاء نفسه؛ لقد كان المرسوم الذي يحمله مشكوكًا في صحته القانونية، حيث إنه في جمهورية إيران الديمقراطية لا يمكن تعيين رؤساء الوزارة أو إقالتهم إلا بموافقة البرلمان، ولكن تلك الليلة كانت نتاج أشهر عديدة من التخطيط الذي قامت به المخابرات الأمريكية والبريطانية، وهذا الانقلاب الذي خططوا له كان بناء على أوامر الرئيس الأمريكي دوايت أيزنهاور ورئيس الوزراء البريطاني وينستون تشرشل.

عام ١٩٥٣ كانت الولايات المتحدة لا تزال كيانًا جديدًا بالنسبة لإيران، وكان العديد من الإيرانيين يظنون أن الولايات المتحدة صديق يدعم الكيان الديمقراطي الهش الذي كافحت إيران لمدة نصف قرن من أجل بنائه، وكانت إيران تخشى إنجلترا، لا الولايات المتحدة، بوصفها القوة الاستعمارية الغاشمة التي تستغلها.

ومنذ الأعوام الأولى من القرن العشرين احتكرت شركة بريطانية تابعة للحكومة البريطانية إنتاج النفط الإيراني وبيعه، وقد لعبت الثروة التي تدفقت من الأراضي الإيرانية دورًا حيويًّا في الإبقاء على إنجلترا القوة العظمى في العالم، وعاش معظم الإيرانيين في فقر مدقع ورزحوا تحت وطأة الظلم، واستمر الوضع هكذا حتى عام ١٩٥١ عندما لجئوا إلى مصدق الذي جسد غضبهم من شركة النفط البريطانية الإيرانية، وأخذ على عاتقه أن يطرد تلك الشركة من إيران ويستعيد احتياطي البلاد الهائل من النفط ويحرر إيران من الخضوع للسلطة الأجنبية.

وقد نفذ مصدق وعده بحماس منقطع النظير؛ فوسط هتاف الجماهير أمم الشركة البريطانية الإيرانية، وهي أعلى الشركات البريطانية ربحًا في العالم، وخلال فترة قصيرة استولى الإيرانيون على معامل التكرير الضخمة التابعة للشركة في عبدان التي تقع على الخليج العربي.

وهكذا أخذت إيران حمى الوطنية، وأصبح مصدق بطلًا قوميًّا، وأغضب ذلك الإنجليز الذين اتهموا مصدق بالاستيلاء على ممتلكاتهم؛ فطالبوا أولًا بمحاكمته في محكمة العدل الدولية ومعاقبته بواسطة الأمم المتحدة، ثم أرسلوا سفنًا حربية إلى الخليج العربي، وأخيرًا فرضوا حظرًا تجاريًّا على إيران، مما أدى إلى تحطيم الاقتصاد الإيراني، وعلى الرغم من تلك الحملة فالعديد من الإيرانيين كانوا في قمة الابتهاج بالجرأة التي تمتع بها مصدق، مثلما كان يشعر القادة المناهضون للاستعمار في آسيا وإفريقيا.

ولم يتأثر مصدق مطلقًا بالحملة البريطانية ضده، حيث كتبت إحدى الصحف الأوروبية أن مصدق «يفضل أن يحترق بنار النفط الإيراني عن أن يتنازل للإنجليز». ولفترةٍ ظل الإنجليز يفكرون في إرسال جيش مسلح لاستعادة حقول البترول ومعامل التكرير، ولكنهم تخلوا عن تلك الفكرة عندما رفض الرئيس هاري ترومان دعمها. ولم يتبقَّ سوى خيارين: ترك مصدق في السلطة أو تنظيم انقلاب لخلعه، ولم يواجه رئيس الوزراء البريطاني تشرشل، وهو ربيب الإمبريالية، أي مشكلة في تفضيل خيار الانقلاب.

بدأ العملاء البريطانيون في التآمر للإطاحة بمصدق بعد تأميمه شركة النفط بفترة وجيزة، وكانوا شديدي الحماس والعنف بشكل أضر بهم، وعندما علم مصدق بتآمرهم أغلق السفارة البريطانية في أكتوبر/تشرين الأول ١٩٥٢، واضطر جميع الدبلوماسيين البريطانيين في إيران، بما فيهم العملاء السريون الذين يعملون تحت غطاء دبلوماسي، إلى الرحيل، ولم يبقَ أحد كي ينظم الانقلاب.

وفي الحال طلب البريطانيون المساعدة من الرئيس ترومان، ولكنه كان في أعماقه متعاطفًا مع الحركات القومية من أمثال الحركة التي قادها مصدق، ويحتقر الإمبريالية من الطراز القديم مجسدة في مديري الشركة البريطانية الإيرانية. وبالإضافة إلى ذلك، فإن المخابرات المركزية الأمريكية لم تطح أبدًا بأي حكومة من قبل، ولم يرغب ترومان في أن تكون له السابقة.

ولكن الموقف الأمريكي حيال الانقلاب في إيران تغير تمامًا بعد انتخاب دوايت أيزنهاور رئيسًا في نوفمبر/تشرين الثاني من عام ١٩٥٢؛ ففي

غضون بضعة أيام من الانتخابات قدم كريستوفر مونتاجيو وودهاوس أحد كبار عملاء المخابرات البريطانية إلى واشنطن كي يلتقي بكبار مسئولي المخابرات المركزية ووزارة الخارجية الأمريكية، وقرر وودهاوس بذكاء ألا يلجأ إلى الحجة البريطانية التقليدية، وهي أن مصدق يجب أن يرحل لأنه أمم الممتلكات البريطانية؛ فتلك الحجة لم تكن تلقى قبولًا في واشنطن، وكان وودهاوس يعلم جيدًا ما الذي يثير حماسهم.

كتب وودهاوس في مرحلة لاحقة عن ذلك الأمر قائلًا: «لم أكن أرغب في أن أُتهم بمحاولة استغلال الأمريكيين لمصلحة البريطانيين، لذا فقد قررت أن أؤكد على الخطر الشيوعي الذي تمثله إيران بدلًا من حاجتنا لاستعادة السيطرة على صناعة النفط.»

لقد أُعد هذا الطلب بحيث يحفز الشقيقين اللذين سوف يوجهان السياسة الخارجية الأمريكية بعد تنصيب أيزنهاور رئيسًا، وهما جون فوستر داليس وزير الخارجية المقبل وألان داليس مدير المخابرات المركزية الأمريكية المقبل اللذين كانا من أشرس مقاتلي الحرب الباردة، وكانا يريان العالم ساحة معركة أيديولوجية، وينظران لكل صراع محلي من منظور الصراع الأكبر بين الشرق والغرب. ومن وجهة نظرهما، فإن أي دولة لا ترتبط بتحالف صريح مع الولايات المتحدة تعتبر عدوًّا محتملًا، وقد اعتبرا إيران تحديدًا عدوًّا خطرًا.

كانت إيران تتمتع بثروة نفطية هائلة، ولها حدود ممتدة مع الاتحاد السوفييتي، وبها حزب شيوعي نشط ورئيس وزراء يؤمن بالقومية. وكان الأخوان داليس يعتقدان أن إيران مهددة بالوقوع فريسة للشيوعية قريبًا، وكانت فكرة وجود «صين أخرى» تثير الرعب لديهم، ولذلك عندما قدم البريطانيون اقتراحهم للإطاحة بمصدق واستبدال رئيس وزراء موالٍ للغرب به، أبدى الأمريكيون اهتمامهم على الفور.

وفور تولي الرئيس أيزنهاور الحكم في العشرين من يناير/كانون الثاني ١٩٥٣، أبلغ الأخوان داليس نظيريهما البريطانيين باستعدادهما للتحرك من أجل الإطاحة بمصدق، وأطلقا على ذلك الانقلاب الاسم الكودي عملية أياكس، أو بلغة المخابرات الأمريكية TPAJAX، واختارا لإدارة تلك المهمة أحد مسئولي

المخابرات المركزية الأمريكية الذين يتمتعون بخبرة كبيرة في شئون الشرق الأوسط، وهو كيرمت روزفلت حفيد الرئيس الأمريكي ثيودور روزفلت.

وعلى غرار بقية أفراد عائلته الشهيرة، كان كيرمت روزفلت مولعًا باتخاذ إجراءات مباشرة، وهو معروف بالحسم في أوقات الأزمات، كان يبلغ من العمر سبعة وثلاثين عامًا، ويرأس في ذلك الوقت إدارة الشرق الأدنى وآسيا بالمخابرات المركزية الأمريكية، وكان أستاذًا مشهودًا له بالبراعة في عمله السري، وقد وصفه العميل الروسي كيم فيلبي بالأمريكي النموذجي الهادئ، بالإضافة إلى كونه «رجلًا لطيفًا حلو المعشر من شرق الولايات المتحدة ذا علاقات اجتماعية مثالية، مهذبًا أكثر من كونه مثقفًا، شديد التواضع سواء أكان ضيفًا أم مضيفًا، وله زوجة رائعة، وفي الواقع فإنه آخر شخص يمكن أن تتخيله غارقًا حتى النخاع في الحيل القذرة.»

وفي تلك الأيام كان عملاء المخابرات المركزية الأمريكية يعتنقون نوعًا من التصورات المثالية، حيث يعتقدون أنهم يقومون بالأعمال القذرة اللازمة من أجل تحقيق الحرية، والكثير منهم يمزجون بين روح المفكر والمغامر، ولكن لم يمزج أحدهم بين هاتين الصفتين مثلما فعل كيرمت روزفلت.

وفي بداية شهر يوليو/تموز تجاهل روزفلت أوامر طبيب المخابرات المركزية الأمريكية بالخضوع لجراحة عاجلة في الكلى وسافر إلى بيروت لإجراء مهمته السرية، ومن هناك انطلق بالسيارة عبر صحراء سوريا والعراق، وكاد يظهر مشاعره وهو يدخل إيران عن طريق معبر ناءٍ:

> تذكرت ما كتبه والدي حول وصوله إلى أفريقيا مع والده ثيودور روزفلت عام ١٩٠٩ على متن رحلة African Game Trails: «لقد كانت مغامرة رائعة، وكان العالم بأكمله صغيرًا.» وفي تلك اللحظة شعرت بما كان يشعر به آنذاك؛ اضطربت أعصابي وحلقت روحي عاليًا ونحن نتحرك في الطريق الجبلي. وفي التاسع عشر من يوليو/تموز عام ١٩٥٣، كان مسئول الجمارك والهجرة الذي قابلنا في مدينة خانقين[1] شديد التبلد والغباء وشبه أمي.

[1] مدينة تقع ضمن محافظة ديالى في العراق بالقرب من الحدود مع إيران. (المترجمة)

> وفي تلك الأيام كانت جوازات السفر الأمريكية تتضمن وصفًا مختصرًا لأي علامات مميزة في حاملها، وليس كما هو الحال الآن. وبمساعدة وتشجيع مني كتب الحارس اسمي بصعوبة باللغة كالتالي «السيد ذو الندبة على الناحية اليمنى من الجبهة»، وقد شعرت أن ذلك فأل حسن.

قضى روزفلت أسبوعين في طهران يدير أعماله من المقر الذي استأجره له أحد العملاء الأمريكيين، وقد أصبحت العقود التي قضيت في المكائد البريطانية في إيران، بالإضافة إلى تدخل المخابرات المركزية الأمريكية حديثًا، مصدر قوة له في ميدان المعركة. ومن ضمن مصادر القوة التي تمتع بها أيضًا حفنة من العملاء الإيرانيين ذوي الخبرة وسعة الحيلة الذين قضوا أعوامًا في بناء شبكة سرية من السياسيين وضباط الجيش ورجال الدين ومحرري الأخبار وعصابات الشوارع المؤيدين لهم، وكانت المخابرات المركزية الأمريكية تدفع لهؤلاء العملاء عشرات الآلاف من الدولارات شهريًّا، واستحقوا كل سنت منها. وخلال ربيع وصيف عام ١٩٥٣، لم يمر يوم دون أن يوجه أحد الملالي أو المعلقين على الأخبار أو السياسيين الذين تدعمهم المخابرات المركزية الأمريكية النقد إلى مصدق، وقد رفض رئيس الوزراء الذي يحترم حرية الصحافة منع تلك الحملة الموجهة ضده.

لم يكن العملاء الإيرانيون الذين يأتون إلى فيلا روزفلت يعرفون سوى اسمه المستعار جيمس لوكريدج، وبمرور الوقت نما بينهم نوع من الصداقة وبدأ بعض الإيرانيين ينادونه باسم «جيم»، وهو ما كان مثار تندر له، وكانت الأوقات الوحيدة التي يكاد يفضح فيها سره أثناء لعب التنس الذي كان يمارسه بانتظام في السفارة التركية وفي مقر المعهد الفرنسي؛ فعندما يخطئ في إحدى الرميات يلعن نفسه قائلًا: «يا لك من غبي يا روزفلت!» وقد سئل أكثر من مرة عن سبب تلك العادة، فكان يجيب قائلًا إنه جمهوري متحمس، ولذلك فهو يكره فرانكلين دي روزفلت حتى إنه يستخدم اسمه في السباب.

وقد تضمنت الخطة الموضوعة لعملية أياكس شن حملة نفسية مكثفة ضد مصدق، كانت المخابرات المركزية الأمريكية قد بدأتها بالفعل، وتلاها

إعلان عن طرد الشاه له من منصبه. وعلى الجماعات والوحدات العسكرية التي حصل قادتها على مرتبات من المخابرات المركزية الأمريكية أن يقضوا على أي محاولة للمقاومة من جانب مصدق، ويتلو ذلك الإعلان عن اختيار الشاه للجنرال فضل الله زاهدي — وهو ضابط متقاعد حصل على ما يزيد عن مائة ألف دولار من المخابرات المركزية الأمريكية — رئيسًا جديدًا للوزراء.

ومع حلول شهر أغسطس كانت إيران تضطرم بنار الفتنة، حيث نظم الغوغاء الذين يعملون لحساب المخابرات المركزية الأمريكية احتجاجات ضد مصدق ومسيرات في الشوارع حاملين صور الشاه ومرددين الشعارات الملكية، وقدم العملاء الأجانب رشوة لأعضاء البرلمان وكل الأشخاص الآخرين الذين رأوهم ذوي نفع في محاولة الانقلاب المقبلة.

وصل هجوم الصحافة على مصدق إلى مستويات غير مسبوقة من الحدة والعنف. فقد اتهم في المقالات الصحفية بامتلاكه ميولًا شيوعية ومخططات ضد مصلحة العرش، واتهم أيضًا بانحداره من أصول يهودية وبتعاطفه سرًّا مع البريطانيين. ولم يعلم مصدق أن معظم ذلك النقد موجه من المخابرات المركزية الأمريكية أو كتبه محترفو الدعاية في واشنطن، وقدر ريتشارد كوتام أحد محترفي الدعاية أن أربعة أخماس الصحف في طهران كانت واقعة تحت تأثير المخابرات المركزية الأمريكية.

وقد قال كوتام بعد ذلك بأعوام عديدة: «كان أي مقال أكتبه ينشر في اليوم التالي مباشرة في الصحف الإيرانية، وهو ما كان يعطيني شعورًا بالقوة؛ فقد رتبوا للأمر بحيث يظهر مصدق في صورة المتآمر الشيوعي المتعصب.»

وحين اكتسبت الخطة قوة قابل روزفلت أكثر العقبات خطورة في طريقه: محمد رضا شاه؛ فالعاهل الذي يبلغ من العمر اثنين وثلاثين عامًا والشاه الثاني في أسرة بهلوي ذو طبيعة تتميز بالجبن والتردد، ورفض بإصرار شديد أن يتورط في تلك الخطة الجريئة، وقد وصفه أحد الدبلوماسيين البريطانيين قائلًا: «إنه يكره اتخاذ القرارات ولا يمكن الاعتماد عليه للالتزام بها بعد اتخاذها، فهو لا يمتلك شجاعة أخلاقية ويستسلم بسهولة للخوف.»

ولم تكن الصفات الشخصية فحسب هي ما يقيد الشاه؛ فمصدق أكثر الشخصيات شعبية في تاريخ إيران الحديث، ومع أن الحملة البريطانية للتدمير والتخريب الاقتصادي قد أضعفته فإنه كان في ذلك الوقت لا يزال محبوبًا على نطاق واسع، ولم يكن مؤكدًا هل يملك الشاه السلطة القانونية اللازمة لإقالته، ومن الممكن أن تعطي تلك الخطة نتائج عكسية وتعرض حياة الشاه للخطر، بل تعرض النظام الملكي ذاته أيضًا.

ولكن أيًّا من ذلك لم يثبط من عزم روزفلت، ومن أجل تنفيذ الانقلاب كان يحتاج إلى قرارات موقعة من الشاه بطرد مصدق ووضع الجنرال زاهدي بدلًا منه، ولم يشك روزفلت أبدًا في إمكانية الحصول على تلك القرارات؛ فقد كانت معركته مع الشاه غير متكافئة منذ البداية، فروزفلت ذكيّ متمرس، وتوجد قوى عالمية هائلة تسانده، والشاه ضعيف وساذج ووحيد.

تمثلت مناورة روزفلت الأولى في إرسال مندوبين قد يكون لهم تأثير خاص على الشاه، فأرسل له شقيقته التوأم الأميرة أشرف كي تزوره وتقوي من عزيمته؛ كانت الأميرة على النقيض من شقيقها، فبقدر ما كان هو متبلد الحس كسولًا كانت هي متوقدة الذهن حادة الطباع، والتقريع الذي توجهه له لا يصدق، حيث طالبته ذات مرة بحضور وفد من الدبلوماسيين الأجانب أن يصبح رجلًا وإلا فسوف تبوح للجميع بجبنه الشديد. وكانت الأميرة تكره مصدق لأنه كان عدوًّا للسلطة الملكية، وأصبح هجومها على حكومته حادًّا حتى إن الشاه شعر أنه من الأفضل إرسالها خارج البلاد، ومن منفى الأميرة الذهبي في أوروبا كانت تشاهد الأحداث التي تجري في موطنها بحماس شديد.

كانت الأميرة أشرف تستمتع بالحياة في نوادي القمار والملاهي الليلية بفرنسا عندما اتصل بها أسد الله راشيديان، وهو أحد أهم العملاء الإيرانيين الذين يعملون لحساب روزفلت، ولكنها لم ترحب بالدعوة، فزارها في اليوم التالي وفد من العملاء البريطانيين والأمريكيين كي يكرروا عليها الدعوة بشكل أقوى، وكان قائد الوفد — وهو أحد كبار العملاء البريطانيين ويدعى نورمان داربيشاير — يتمتع ببصيرة ثاقبة، حيث أحضر معه معطفًا من

الفراء وحقيبة من النقود هدايا للأميرة. وذكر داربيشاير لاحقًا أن الأميرة عندما رأت تلك الإغراءات «لمعت عيناها» وانهارت مقاومتها ووافقت على السفر إلى طهران، ودخلت البلاد باسم عائلة زوجها (مدام شفيق). وفي بادئ الأمر رفض شقيقها استقبالها، ولكن بعد أن ضغط عليه بشدة زملاء على صلة بالمخابرات المركزية الأمريكية لان قليلًا. وكان لقاء الأخ والأخت في مساء التاسع والعشرين من يوليو/تموز حافلًا بالتوتر، وأخفقت في إقناعه بإصدار تلك القرارات المصيرية، ومما زاد الأمر سوءًا أن أنباء وجودها تسربت وأدت إلى انطلاق عاصفة من الاحتجاج، وابتهج الجميع بعودتها إلى أوروبا سريعًا.

ذهب روزفلت بعد ذلك إلى الجنرال إتش نورمان شوارتسكوف الذي قضى معظم عقد الأربعينيات في إيران يقود فوجًا عسكريًّا، والذي كان الشاه يشعر بالامتنان له، وقد أعطت المخابرات المركزية الأمريكية الجنرال شوارتسكوف «مهمة تغطية» من الاجتماعات والمعاينات في لبنان وباكستان ومصر بحيث تفسر زيارته لإيران بأنها مجرد محطة توقف قصيرة. وطبقًا لإحدى الروايات فقد وصل إلى هناك حاملًا «حقيبتين كبيرتين» ملئتا بملايين الدولارات نقدًا، فقابل روزفلت أولًا ثم المسئولين الإيرانيين عن العملية الذين وزع أموالًا كثيرة عليهم. وفي الأول من أغسطس زار الشاه في قصر سعد أباد.

وكانت تلك المقابلة غريبة؛ ففي بداية الأمر رفض الشاه أن يوجه أي كلمة إلى ضيفه، مشيرًا بيده إلى احتمال وجود أجهزة تنصت، ثم قاد شوارتسكوف إلى قاعة رقص كبيرة وسحب منضدة إلى وسط القاعة وجلس فوقها وطلب من الجنرال أن ينضم إليه، ثم همس له بأنه لم يقرر بعد هل سيوقع على القرارات التي يريدها روزفلت أم لا، فهو يشك في استجابة الجيش لأي قرار يصدره، ولم يكن يرغب في أن ينضم للطرف الخاسر في مثل تلك العملية الخطرة.

شعر شوارتسكوف وهو يستمع أن مقاومة الشاه بدأت تضعف، وأن زائرًا واحدًا آخر يكفي لتحقيق النتيجة المطلوبة، وذلك الزائر يجب أن يكون روزفلت نفسه، كان ذلك الاقتراح خطرًا، فإذا شوهد روزفلت في القصر قد تتسرب أنباء وجوده في إيران وتعرض العملية للخطر، ولكن شوارتسكوف أخبره أنه لا يوجد بديل.

كان روزفلت يتوقع تلك النصيحة، وكتب عن ذلك الأمر لاحقًا: «كنت متأكدًا منذ البداية أن اللقاء الشخصي سوف يكون ضروريًّا، فيمكننا أنا والشاه أن نحل المشاكل العديدة التي تواجهنا إذا جلسنا على انفراد في مكان آمن، ولا يمكن القيام بذلك إلا في لقاء شخصي. وعلى الأغلب يجب أن نتقابل مرات عديدة وليس مرة واحدة، لذلك كلما عجلنا ذلك اللقاء كان أفضل.»

أرسل روزفلت العميل الثقة أسد الله راشيديان لمقابلة الشاه في الثاني من أغسطس كي يمهد الطريق لزيارته، والرسالة التي كلف راشيديان بتوصيلها بسيطة: إن البريطانيين والأمريكيين يخططون لانقلاب ولن يثنيهم عنه شيء. وفي تلك الظروف، كما لاحظ راشيديان بدهاء، لم يكن الشاه يملك خيارًا سوى التعاون معهم، وهز الشاه رأسه في صمت موافقًا.

لكن روزفلت وحده هو الذي يملك إبرام الاتفاق، فطلب من أحد العملاء في البلاط الملكي الذي كان يعرف باسم روزينكرانتز أن يخبر الشاه بأن «هناك رجلًا أمريكيًّا مفوضًا بالحديث نيابة عن أيزنهاور وتشرشل يطلب مقابلة خاصة.» وفي خلال بضع ساعات وافق الشاه على العرض وأمر بإرسال سيارة إلى فيلا روزفلت في ذلك المساء عند منتصف الليل.

وبعد استلامه للرسالة فكر روزفلت قائلًا: «ساعتان من الانتظار! لأعد ثيابي إذن. لم تكن تلك الثياب صالحة لمقابلة ملكية، ولكنها على الأقل كانت تصلح في تلك الظروف الغريبة؛ ارتديت قميصًا غامق اللون وسروالًا رماديًّا وحذاء أسود مريحًا، لم تكن تلك الثياب في قمة الأناقة، ولكنها كانت تؤدي الغرض ولا تلفت الأنظار.»

انتظر روزفلت — الذي أجرى حوارًا مع الشاه منذ ستة أعوام أثناء قيامه ببحث لتأليف كتاب بعنوان «العرب والنفط والتاريخ» — قدوم الميعاد وبصحبته مجموعة من العملاء، وفضل ألا يتناول الشراب، ولكن رفاقه لم يكن لديهم مثل تلك التحفظات، وعند منتصف الليل خرج من البوابة الأمامية، وكانت سيارة بانتظاره، فركب في المقعد الخلفي.

لم يتحرك أي شيء في الطرقات بينما كان روزفلت يتجه نحو القصر الفخم، وعندما كانت السيارة تصعد التل الذي يقع فوقه القصر قرر أنه يجب أن يختفي عن الأنظار، وكان مضيفوه قد تركوا له غطاء ثقيلًا على مقعد السيارة، واستفاد منه خير استفادة، فرقد على الأرض وتدثر به.

لم تكن هناك أي مشكلة في عبور بوابة الحراسة، بل مجرد تحية روتينية، وتابعت السيارة سيرها للحظات ثم توقفت قبيل السلم الرخامي العريض للقصر، وهنا رفع روزفلت الغطاء عنه وقام واقفًا، فرأى شبحًا ضئيلًا يقترب نحوه، أدرك في الحال أنه الشاه نفسه، الذي اقترب من السيارة وفتح الباب ودلف إليها، وهنا تسلل السائق خلسة إلى مكان آخر.

«مساء الخير يا سيد روزفلت» كانت تلك أول كلمة تفوه بها الشاه مادًّا يده للمصافحة، وتابع قائلًا «لم أكن أتوقع مجيئك، ولكنه حدث سار.»

أخبر روزفلت الشاه بأنه موجود في إيران بصفته ممثلًا لأجهزة المخابرات الأمريكية والبريطانية، وأن الشاه يمكنه التأكد من ذلك عن طريق كلمة سر سوف تذاع في البي بي سي في الليلة التالية؛ فقد رتب تشرشل الأمر بحيث تختتم إذاعة البي بي سي إرسالها بعبارة «الساعة الآن منتصف الليل تمامًا» بدلًا من «الساعة الآن منتصف الليل» كالمعتاد؛ ولم يكن الشاه في حاجة لمثل تلك التأكيدات، فالرجلان يفهم أحدهما الآخر.

ولكن برغم ذلك كان الشاه مترددًا في الاشتراك في تلك الخطة، حيث أخبر روزفلت أنه ليس مغامرًا، ولا يمكنه تحمل نتائج المغامرة، وهنا زادت نبرة صوت روزفلت حدة، وأخبر الشاه أن ترك مصدق في السلطة سوف يؤدي إلى «أن تصبح إيران دولة شيوعية أو نسخة أخرى من كوريا»، وهو ما لم يكن القادة في الغرب مستعدين لقبوله، ولتجنب حدوث ذلك فقد اتفقوا على خطة للإطاحة بمصدق، وفي الوقت ذاته زيادة السلطة الممنوحة للشاه، وعليه أن يوافق على تنفيذ تلك الخطة في غضون بضعة أيام، وإلا فسوف يغادر روزفلت البلاد ويفكر في «خطة بديلة».

لم يعطِ الشاه إجابة مباشرة، ولكنه اقترح أن يتقابلا مرة أخرى في اليوم التالي، وقبل أن يترجل الشاه من السيارة ويدلف إلى الظلام، ألقى نظرة أخرى على روزفلت وقال «يسعدني أن أرحب بك مرة أخرى في بلادي.»

ومنذ تلك الليلة ظل روزفلت يقابل الشاه كل يوم تقريبًا عند منتصف الليل، ويدخل القصر راكبًا نفس السيارة على المقعد الخلفي ومتدثرًا بنفس الغطاء، وقبل كل اجتماع وبعده كان يتشاور مع العملاء الإيرانيين. وعندما شكت الشرطة الإيرانية في الفيلا التي كان يقيم بها توقف عن العمل هناك

وتوصل إلى طريقة أخرى لعقد اجتماعاته، فاشترى سيارة أجرة إيرانية، وفي المواعيد المتفق عليها يقودها إلى مكان هادئ رافعًا لافتة «تحت الطلب»، ثم يترجل ويأخذ في السير جيئة وذهابًا حتى يأتي أحد العملاء شديدي الحماس للعملية ويصطحبه في سيارة من طراز كرايزلر أو بويك، حيث يضعون خططًا يومية أثناء تجوالهم في ضواحي المدينة الجبلية.

وأثناء محادثاتهما أخبر روزفلت الشاه أنه يمتلك تحت تصرفه «ما يوازي مليون دولار تقريبًا»، بالإضافة إلى العديد من «المنظمين ذوي الكفاءة والخبرة» الذين يمكنهم «توزيع المنشورات وتنظيم الجماهير وتعقب المعارضة.» وقد وصف عملية أياكس بأنها مبنية على «أربعة محاور للهجوم»؛ أولًا: شن حملة في المساجد والصحف والشوارع تقلل من شعبية مصدق. ثانيًا: توصيل الضباط الملكيين قرار طرده. ثالثًا: يمسك الغوغاء بزمام الأمور في الشارع. رابعًا: يظهر الجنرال زاهدي منتصرًا ويقبل ترشيح الشاه له في منصب رئيس الوزراء.

كانت تلك الخطة جذابة، ولكنها لم تكن مقنعة بالدرجة الكافية، وظل الشاه مترددًا، وتحول مزاجه إلى ما أطلق عليه روزفلت «التردد العنيد»، ولكن كان من المستحيل الاستمرار في ذلك الأمر دون معاونة الشاه كما أخبر بذلك روزفلت رؤساءه في المخابرات المركزية الأمريكية في برقية بعث بها إليهم، ولذلك فقد استمر روزفلت في الضغط على الشاه، وأخيرًا، كان من المحتم أن تنهار مقاومة الشاه، فوافق على توقيع الفرمانات، ولكن بشرط أن يسمح له بمغادرة طهران إلى مكان آمن بعدها مباشرة.

لم يعرف محمد رضا شاه بالشجاعة قط، ولذلك لم يُفاجأ روزفلت بذلك الاحتياط الأخير، وقرر الرجلان أن أكثر الأماكن أمانًا كي يختبئ فيها الشاه هو كوخ صيد تمتلكه العائلة المالكة بالقرب من رامسار على ساحل بحر قزوين، وكان هناك مطار قريب منه، وهو ما وجده الشاه مطمئنًا، وقال الشاه بحدة: «إذا حدثت أي مشاكل فسوف نرحل أنا والإمبراطورة بالطائرة إلى بغداد.»

تقابل الرجلان للمرة الأخيرة قبيل فجر التاسع من أغسطس، وقبل أن يودع روزفلت الشاه شعر أنه من اللائق أن يشكره على اتخاذه قرارًا

بالتعاون، رغم أنه اتخذ ذلك القرار على مضض. كانت تلك اللحظة تاريخية، ولذا فقد كانت تتطلب قولًا غير عادي، وفي نهاية الأمر وجد روزفلت طريقة رائعة يصوغ بها رسالته، حيث توصل إلى كذبة صغيرة يجمل بها الموقف، فصاح قائلًا: «مولاي، لقد استلمت برقية هذا المساء من واشنطن طلب مني فيها الرئيس أيزنهاور أن أبلغك بما يأتي: أتمنى لجلالتكم التوفيق، وإذا كان بهلوي وروزفلت لا يمكنهم حل تلك المشكلة الصغيرة معًا، فلا يوجد أمل في أي شيء، وإنني على ثقة تامة من قدرتك على تحقيق ذلك الأمر.»

تم الاتفاق على إحضار ساعي المخابرات المركزية الأمريكية الفرمانات المهمة إلى القصر في الصباح الباكر، على أن يوقعها الشاه ويرحل في الحال إلى مخبئه في رامسار. كان كل شيء على ما يرام.

وعندما عاد روزفلت إلى الفيلا حاملًا تلك الأخبار العظيمة، أقام هو وعملاؤه احتفالًا ضخمًا وأسرفوا في الشراب، ولم يخلد إلى النوم إلا في الخامسة صباحًا، وبعد بضع ساعات استيقظ على أخبار مفزعة؛ فقد حدث خطأ في اللحظة الأخيرة، حيث وصل الساعي الذي كان من المفترض أن يحصل على توقيعات الشاه إلى القصر متأخرًا، وعندما وصل كان الشاه والملكة قد رحلا.

وسواء أكان ذلك خطأً بسيطًا غير مقصود في التوقيتات أم محاولة من الشاه للهروب من توقيع الفرمانات، فروزفلت صمم على عدم السماح لذلك الأمر بإفساد الخطة، فتلك الفرمانات تلعب دورًا أساسيًّا في الانقلاب الذي خطط له، فلم تكن تمثل ورقة توت من الشرعية فحسب، بل إنها أيضًا قلب الخطة، وإذا لم يكن الشاه في طهران كي يوقعها، يجب أن تبعث إليه أينما كان.

أدرك روزفلت بسرعة أن الشخص الأفضل كي يقدم المساعدة في تلك اللحظة هو العقيد نصيري من الحرس الملكي الذي كان مناصرًا للملكية، ويمكنه العثور على طائرة والإقلاع بها، ويرتبط بعلاقة قوية مع الشاه. تمت الترتيبات بسرعة فائقة، وفي تلك المرة نجح الأمر، حيث انطلق نصيري إلى رامسار وحصل على توقيع الشاه على الفرمانات، ونظرًا لسوء الأحوال الجوية الذي أعاقه عن الإقلاع بالطائرة أرسلها إلى طهران بالسيارة.

قضى روزفلت ورفاقه نهارهم ينتظرون بفارغ الصبر حول حمام السباحة، غير مدركين ما الذي جعل نصيري يتأخر إلى هذا الحد، وعند قدوم الليل بدءوا في التدخين ولعب الورق واحتساء الفودكا. كانت طهران تخضع لحظر تجول بعد التاسعة مساء، ولكن بعد أن تجاوزت الساعة التاسعة كانوا لا يزالون يأملون في ظهور أي أخبار. وكان الليل قد انتصف تقريبًا عندما سمعوا ضجيجًا عند البوابة، فهرعوا إليها، فوجدوا مجموعة صغيرة من الإيرانيين شعثي الشعر المتحمسين الذين لم يتعرفوا على معظمهم، ودفع هؤلاء الإيرانيين بلفافة إلى روزفلت فتحها بحذر شديد، فوجد داخلها الفرمانات الموقعة من قبل الشاه.

وبعد أن عانق روزفلت أصدقاءه الجدد فرحًا، فكر في سرعة التحرك على الفور، ولكنه استاء عندما أخبره العملاء أنه لا زال هناك سبب يدعو للتأخير، فالعطلة الأسبوعية التي تشمل يومي الخميس والجمعة في إيران على وشك البدء، ولم يكن الإيرانيون يحبون العمل أثناء العطلات الأسبوعية، فما بالك إذا كان هذا العمل يتمثل في إسقاط حكومة؟ وافق روزفلت على مضض أن يؤجل الانقلاب حتى مساء السبت الموافق الخامس عشر من أغسطس.

كان روزفلت ورفاقه واثقين من نجاح خطتهم، ولكنهم أيضًا كانوا مدركين أن كل ساعة تمر تزيد من احتمال وقوعهم فريسة للخيانة، وهكذا فقد قضوا ثلاثة أيام حول حمام السباحة وهم في معاناة شديدة، وكان يوم السبت هو الأصعب، وذلك لأن لحظة الحقيقة اقتربت جدًّا، وكتب روزفلت لاحقًا أن ذلك اليوم «كان أبطأ يوم مر عليهم من قبل.»

وفي ذلك الوقت كان روزفلت قد نقل مقره إلى قبو بمجمع السفارة الأمريكية، وقلت زيارات العملاء الإيرانيين له، ولكنهم كانوا منشغلين أكثر من ذي قبل في عملهم التخريبي كما يوضح أحد تقارير المخابرات المركزية الأمريكية حول الانقلاب:

> في الوقت ذاته بلغت الحرب النفسية ضد مصدق ذروتها، والصحافة التي وضعت تحت السيطرة تبذل أقصى ما في وسعها للوقوف في وجه مصدق، بينما [حذف] تحت إشراف المحطة كان يطبع مواد تراها المحطة مفيدة. وكان عملاء المخابرات المركزية الأمريكية

ينتبهون لتحذير الزعماء الدينيين في طهران عن طريق نشر الدعاية السوداء باسم حزب تودة [الشيوعي]، مع تهديد هؤلاء الزعماء بالعقاب الشديد في حالة معارضتهم لمصدق، بالإضافة للمكالمات الهاتفية التهديدية باسم حزب تودة والقصف المزيف لمنازل هؤلاء الزعماء.

وقد انتشر خبر دعم الشاه للعمليات المباشرة انتشار النار في الهشيم من خلال مؤامرة العقيد التي تدعمها المحطة. وقد رأى زاهدي العميل الرئيس للمحطة العقيد [حذف] وعينه في منصب ضابط الاتصال مع الأمريكيين، واختاره أيضًا كي يشرف على تخطيط الفريق للعملية ...

وفي الرابع عشر من أغسطس أرسلت المحطة برقية تفيد بأنه عند الانتهاء من العملية TPAJAX سوف تكون خزانة الدولة الفارغة في حاجة إلى تمويل عاجل، واقترحت مبلغ ٥٠٠٠٠٠ (خمسمائة ألف دولار)، وطلبت من المخابرات المركزية الأمريكية توفير ذلك المبلغ خلال ساعات من انتهاء العملية.

وحسب ما ورد في تقرير المخابرات المركزية الأمريكية: «لم يكن هناك شيء يمكن للمقر فعله سوى انتظار بدء الأحداث.» وعند غروب شمس الخامس عشر من أغسطس على طهران استقل روزفلت سيارة الأجرة ورفع لافتة «تحت الطلب» وانطلق إلى منزل آمن قريب اجتمع فيه العملاء في انتظار أخبار النصر، وبينما كئوس الفودكا تدور أخذوا يغنون على ألحان عروض برودواي، ولحنهم المفضل «أيها الحظ فلتكن معنا الليلة» من المسرحية الموسيقية «الرجال والدمى»، وقد حرفوها لتصبح النشيد الرسمي لعملية أياكس.

عاد روزفلت إلى السفارة الأمريكية متأخرًا في ذلك المساء، ومر في طريقه على مقر الجنرال رياحي رئيس الأركان، سُرّ روزفلت بتلك المصادفة؛ فإذا نجحت خطته فسوف يصبح الجنرال رياحي في السجن خلال بضع ساعات.

كان العقيد نصيري الذي اختاره روزفلت كي ينفذ مهمة القبض على رئيس الوزراء في تلك الليلة هو الرجل المناسب لتلك العملية؛ فهو يؤمن

بأحقية السلطة الملكية في الصدارة ويكره مصدق، وقد أعطته قيادته للحرس الملكي المكون من سبعمائة رجل صلاحية التحكم في موارد كثيرة، وبحصوله على الفرمانات المهمة في وقت حرج تمكن من إثبات جدارته.

ولكن في ليلة الخامس عشر من أغسطس لم يكن نصيري يفكر كما ينبغي، فالساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ليلًا عندما وصل إلى منزل الجنرال رياحي ووجده خاليًا، ومع ذلك ظل مطمئنًا هادئ البال، وطلب من رجاله أن يتقدموا نحو منزل مصدق. ولم يكن يعلم أن قافلة عسكرية أخرى في طريقها إلى هناك، لقد علم الجنرال رياحي بالانقلاب وأرسل قوات لإفساده.

لم يعلم أحد قط هوية من أفشى ذلك الخبر، ولكن الشبهات تدور حول ضابط ينتمي إلى خلية شيوعية سرية، وربما اشترك أكثر من شخص في إفشاء الخبر. ولكن في نهاية الأمر، حدث ما كان روزفلت يخشاه؛ تسربت أنباء الخطة إلى أشخاص أكثر من اللازم على مدار فترات طويلة، وكان تسرب الخبر محتمًا.

وفي الساعات المربكة التي تلت منتصف الليل كانت طهران تجيش بالخطط والخطط المضادة، لقد علم بعض الضباط المتمردين بالخيانة في وقت مناسب فأوقفوا المهام المكلفين بها، وانطلق آخرون لتنفيذ مهامهم غير عالمين بالخطر المحدق بهم، واستولى أحدهم على مكتب الاتصالات في السوق، وأيقظ آخر وزير الخارجية حسين فاطمي من نومه وأخرجه إلى الشارع حافيًا صارخًا.

كان مستقبل الحكم الدستوري في إيران يعتمد على قافلة الجنود التي تتمكن من الوصول إلى منزل مصدق أولًا، وقبيل الواحدة صباحًا انطلقت القافلة المتمردة في شارع كاخ حتى تجاوزت ركن حشمت دولة ثم توقفت حيث كان مصدق يقيم مع زوجته في شقة صغيرة تعتبر جزءًا من مجمع سكني كبير امتلكته عائلته لفترة طويلة، كانت البوابة مغلقة، فتقدم العقيد نصيري كي يطلب الإذن بالدخول حاملًا في يده الفرمان الخاص بطرد مصدق من منصبه، وخلفه اصطف عدة طوابير من الجنود.

لقد وصل العقيد نصيري متأخرًا؛ فبعد وصوله إلى البوابة بلحظات ظهر العديد من القادة العسكريين المخلصين واقتادوه إلى سيارة من طراز

جيب إلى مقر قيادة الأركان العامة، وهناك اتهمه الجنرال رياحي بالخيانة وجرده من الزي العسكري وحبسه في زنزانة، وأصبح الرجل — الذي من المفترض أن يلقي القبض على مصدق — سجينًا.

لم يكن روزفلت يملك أي وسيلة يعلم بها ما حدث، كان جالسًا في مقر القيادة بالسفارة ينتظر مكالمة من العقيد نصيري، وتحركت الدبابات عدة مرات، لكن الهاتف لم يرن، ازدادت مخاوف روزفلت عمقًا مع بزوغ الفجر، فلم تبدأ إذاعة طهران إرسالها في السادسة صباحًا كالمعتاد، وبعد مرور ساعة دبت فيها الحياة فجأة وبدأت بإذاعة الموسيقى العسكرية، تلاها إعلان بيان رسمي. لم يكن روزفلت يتحدث الفارسية، لكنه توقع الأسوأ عندما سمع اسم مصدق، ثم ظهر مصدق نفسه على الهواء مباشرة معلنًا إخماد محاولة للانقلاب نظمها الشاه بالتعاون مع «عناصر أجنبية».

كان الشاه الذي انكمش مرتعدًا في فيلته المطلة على البحر يستمع هو أيضًا للبيان، وفور أن علم ما حدث أيقظ زوجته وأخبرها أن وقت الهرب قد حان، فأعدا في عجلة حقيبتين صغيرتين وأخذا ما تيسر حمله من الملابس وهرعا إلى طائرتهما ذات المحركين، كان الشاه طيارًا متمرسًا، فتولى القيادة وطار إلى بغداد، وعند وصوله هناك أخبر السفير الأمريكي أنه «سوف يبحث عن عمل قريبًا، حيث إنه يعول أسرة كبيرة ولا يملك سوى القليل من الموارد المالية خارج إيران.»

وأثناء هروب الشاه أخذت الوحدات العسكرية الموالية للحكومة تنتشر في كل أنحاء طهران، وسرعان ما عادت الحياة في المدينة إلى طبيعتها، حيث ألقي القبض على العديد من المتآمرين واختبأ البعض الآخر، ورصدت مكافأة للقبض على الجنرال زاهدي، واندفع عملاء المخابرات المركزية الأمريكية هاربين إلى السفارة الأمريكية أو المنازل الآمنة، وهللت الجماهير في الشوارع تنشد «النصر للأمة» و«انتصر مصدق».

داخل مقر السفارة شعر روزفلت بأنه «على حافة اليأس»، ولم يكن لديه خيار سوى إرسال برقية إلى واشنطن يخبرهم فيها بأن الأمور قد ساءت بشدة، وتلقى جون والر مدير مكتب إيران بالمخابرات المركزية الأمريكية تلك البرقية بإحباط شديد؛ كان والر قلقًا على حياة عملائه، فبعث إلى

روزفلت ردًّا عاجلًا، ولكن لا توجد نسخة من ذلك الرد محفوظة حتى الآن. وطبقًا للمعلومات المتداولة في المخابرات المركزية الأمريكية حملت البرقية أمرًا لروزفلت بمغادرة إيران في الحال، لكن والر أعلن بعدها بأعوام أن نص البرقية لم يكن حاسمًا إلى تلك الدرجة، حيث يتذكر أنه كتب فيها «إذا كنت في مأزق فاحضر كي تنجو بحياتك، وإن لم تكن في مأزق فاستمر في أداء واجبك.»

بدا الوضع كئيبًا للمتآمرين؛ فقدوا عنصر المفاجأة، وأصبح العديد من عملائهم الرئيسيين غير صالحين للعمل، واضطر رئيس وزرائهم المرشح إلى الاختباء، وفر الشاه هاربًا، وبعد أن قضى فاطمي وزير الخارجية عدة ساعات في سجن المتمردين خرج يلقي خطبًا نارية يتهم فيها الشاه بالتعاون مع العملاء الأجانب.

هتف فاطمي أمام حشد من الجماهير «أيها الخائن! في اللحظة التي سمعت فيها في إذاعة طهران أن مؤامرتك الأجنبية قد فشلت، لذت بالفرار إلى أقرب دولة توجد بها سفارة بريطانية.»

فشلت عملية أياكس، وأعلنت إذاعة طهران أن الموقف «تحت السيطرة»، وبالفعل بدا الأمر كذلك، وترددت أصداء الصدمة في مقر المخابرات المركزية الأمريكية بواشنطن.

ولكن فجأة عند منتصف المساء تقريبًا بعث روزفلت برقية غير متوقعة على الإطلاق؛ لقد قرر أن يمكث في طهران وأن يفكر في طعنة أخرى يوجهها لمصدق، لقد أرسلته المخابرات المركزية الأمريكية كي يطيح بالحكومة الإيرانية، وهو مصمم على ألا يرحل قبل أن ينفذ ما جاء من أجله.

الفصل الثاني

ملعون ذلك المصير

تشهد أطلال مدينة برسيبوليس[1] على عظمة بلاد فارس، حيث تطل شامخة مهيبة على صحراء جنوبي إيران، وتضيف الجبال المتباعدة المزيد إلى جلال ذلك المشهد، كانت تلك هي العاصمة الرسمية والروحية للإمبراطورية الشاسعة التي بناها قورش وداريوس وخشايار شاه، وهم الملوك العظام الذين لا تزال أصداء أسمائهم تتردد في التاريخ، وكانت التماثيل العملاقة للثيران المجنحة تحرس بوابة كل الأمم التي يمر أمراء الدول التابعة بها مرة كل عام كي يقدموا فروض الطاعة والولاء لسادتهم الفرس، وكان طول القاعة الكبرى ذات بهو الأعمدة — حيث كان الأمراء يمثلون أمام «سيدهم» بكل ما تحمله الكلمة من معنى — يماثل ثلاثة ملاعب كرة قدم، وكان سقفها مرفوعًا بواسطة ستة وثلاثين عمودًا شاهقًا لا يزال بعضها قائمًا حتى الآن، وهناك أيضًا سلمان أثريان يقودان إلى قاعة مزينة بنقوش بالغة الدقة تصور الطقوس السنوية للطاعة والولاء التي تؤدى يوم الاعتدال الربيعي، واليوم تعطينا تلك النقوش صورة واضحة عن مدى تحكم أباطرة الفرس ذات يوم في أكثر بلاد الأرض ثراء.

وتوضح النقوش حكام الدول التابعة وهم يسيرون في صف طويل أمام قائدهم الأعلى حاملين الهدايا التي تعبر عن ثراء بلادهم، وقد تمكن علماء الآثار من تحديد معظمهم، وذكر أسمائهم فقط يستدعي إلى الأذهان عظمة

[1] عاصمة الإمبراطورية الأخمينية (٥٥٠–٣٣٠ ق.م.)، وتبعد مسافة ٧٠ كم شمال شرق مدينة شيراز في محافظة فارس في إيران، وتعرف أيضًا باسم تخت جمشيد. (المترجمة)

العصور القديمة؛ هاهم العيلاميون[٢] المولعون بالحرب الذين عاشوا شرق نهر دجلة يقدمون أسدًا يرمز إلى شراستهم، ويقدم الأراكوسيون[٣] ساكنو وسط آسيا الجمال والفراء، ويقدم الأرمينيون فرسًا ومزهرية متقنة الصنع، ويقدم الحبشيون زرافة وناب فيل، ويقدم الصوماليون جلد ظبي مدبوغًا ومركبة حربية، ويقدم التراقيون[٤] الدروع والرماح، ويقدم الأيونيون[٥] ثيابًا من القماش وأطباقًا من الخزف، ويدخل العرب قائدين جملًا والآشوريون ثورًا والهنود حمارًا محملًا بالسلال المنسوجة. تقدم تلك الإتاوات إلى ملك الملوك، وهو العاهل الذي ساهم حكمه في بسط رقعة النفوذ الفارسي إلى أقصى أنحاء العالم.

تعتبر العديد من دول الشرق الأوسط كيانات مصطنعة رسم المستعمرون الأوروبيون حدودها في القرن التاسع عشر أو العشرين، فلم يراعوا التاريخ أو التقاليد المحلية، وكان لزامًا على قادتها أن يختلقوا الأساطير الخيالية كي يعطوا مواطنيهم شعورًا بالسيادة القومية. ولكن العكس هو الصحيح في حالة إيران، فهي إحدى أعرق الأمم في العالم، وهي تمتلك إرثًا من التاريخ يمتد إلى آلاف السنين عندما كان الفاتحون العظام يبسطون رقعة نفوذهم عبر القارات، الشعراء والفنانون يبدعون أعمالًا رائعة، وازدهرت هناك إحدى أعجب الحضارات الدينية في العالم. وحتى في العصر الحديث الذي تميز بفترات طويلة من الفوضى السياسية والقمع والمعاناة، لا يزال الإيرانيون مرتبطين عاطفيًّا بتراثهم.

يحفل التاريخ الإيراني بموضوعات مهمة عديدة لا تزال تساهم في تشكيل إيران حتى اليوم، ومنها المحاولات المضنية للتوفيق بين الإسلام — الذي

---

[٢] هم قوم ينتمون إلى القبائل الكوتية الكردية وهي أقوام آرية قادمة من جبال زاكروس التي كانت الموطن الأصلي لهم. وتعتبر حضارة عيلام من أقدم الحضارات البشرية، وهي تمتد من منطقة خرم آباد ونهر سيمرة إلى منطقة عيلام في إيران إلى مناطق الكوت وبغداد وخانقين وكركوك وبابل في العراق. (المترجمة)

[٣] نسبة إلى أراكوسيا وهي مدينة قندهار الحالية في أفغانستان. (المترجمة)

[٤] هم شعوب هندوأوروبية سكنت تراقيا والأراضي المجاورة (حاليًا بلغاريا ورومانيا وجمهورية مولدوفا وشمال شرق اليونان وتركيا الأوروبية وشمال غرب تركيا الآسيوية وشرق صربيا وأجزاء من جمهورية مقدونيا). (المترجمة)

[٥] هم مجموعة من اليونانيين القدماء عاشوا في أجزاء مختلفة من بيلوبنيسوس، أي شبه الجزيرة الجنوبي من اليونان، قبل عام ١١٠٠ ق.م.

فرضه على البلاد العرب الفاتحون — وبين التراث الخصب الخاص بفترة ما قبل الإسلام. ومن الموضوعات الأخرى التي يغذيها المذهب الشيعي الذي يعتنقه معظم الإيرانيين حتى الآن التعطش للقيادة العادلة التي لم ينعموا بها إلا قليلاً. ومن الموضوعات الأخرى أيضًا التي صقلتها المعتقدات الشيعية النظرة المأساوية للحياة التي تعتمد على مبدأ الاستشهاد والألم الجماعي. كانت إيران منذ عصور سحيقة هدفًا للغزاة الأجانب وضحية لموقعها الجغرافي الذي وضعها في مفترق أهم الطرق التجارية في العالم وفوق بحر من النفط، وقد ظلت تكافح كي تصل إلى طريقة للتعايش مع الدخلاء الأقوياء، وتضافرت كل تلك الضغوط في منتصف القرن العشرين كي تؤدي إلى ظهور شخص عظيم مثل مصدق ثم تدمره.

أخذ المهاجرون من وسط آسيا وشبه القارة الهندية يتوافدون على إيران منذ أربعة آلاف عام تقريبًا، مدفوعين بنقص الموارد وإغارة القبائل عليهم من الشمال والشرق، وكان من بينهم الآريون[٦] الذين استمدت منهم إيران اسمها الحالي، والإمبراطور الذي يرجع إليه الفضل في توحيد تلك الجماعات المهاجرة لأول مرة هو قورش، وهو أحد الشخصيات التاريخية ذات البصيرة الثاقبة وأول من تخيل قيام إمبراطورية في تلك المنطقة عرفت باسم فارس.

بعد وصوله إلى السلطة عام ٥٥٩ ق.م. أطلق قورش حملة عبقرية تهدف إلى إخضاع القادة الآخرين على الصعيد الإيراني لنفوذه، وتمكن من هزيمة بعضهم، واستمال البعض الآخر عن طريق الحيلة والإقناع، واليوم لا يذكره التاريخ بفضل غزواته فحسب، بل أيضًا بفضل المعاملة الحسنة التي كان يعامل بها رعاياه؛ فقد أدرك أن تلك الطريقة أكثر نجاحًا في بناء إمبراطورية قوية مقارنة باستخدام الوسائل الشائعة مثل الظلم والإرهاب وارتكاب المذابح.

---

[٦] تسمية أطلقت في القرن التاسع عشر على مجموعة من الشعوب الناطقة باللغات الهندوأوروبية، ولكن المصطلح يستخدم اليوم للدلالة على الفرع الشرقي، أي الهندي الإيراني من أسرة اللغات الهندوأوروبية، وبالتالي فهو مصطلح لغوي ولا يتضمن بالضرورة خصائص عرقية أو ثقافية محددة. ويعود أصل هذه الكلمة إلى اللفظة السنسكريتية arya التي تعني «النبلاء»، كما توجد أيضًا في اللغة الفارسية القديمة بصيغة مماثلة ariya بمعنى «السادة». (المترجمة)

عام ٥٤٧ ق.م. زحف قورش بجيوشه نحو آسيا الصغرى واستولى على ساردیس عاصمة ليديا العظيمة، وبعد ذلك بسبعة أعوام تمكن من إخضاع القوة الإقليمية الأخرى، ألا وهي بابل. وخلال العقود التالية حقق هو وخلفاؤه مزيدًا من الانتصارات الكبرى، حيث استولى جيش مكون من مائة وثمانين ألف رجل بقيادة خشايار شاه على مقدونيا وترموبيل وأثينا، وكان ذلك هو الجيش الأضخم في أوروبا في ذلك الوقت. وقد بنت تلك السلالة المعروفة باسم الأخمينيين[٧] أعظم إمبراطورية في ذلك الزمان، وبحلول عام ٥٠٠ ق.م. كان الأخمينيون قد طوقوا شرق البحر المتوسط من ناحية اليونان مارين بتركيا ولبنان وإسرائيل ومصر وليبيا، وامتدت تلك الإمبراطورية شرقًا عبر القوقاز إلى ضفاف نهر السند، وأطلق عليها قورش اسم بلاد فارس لأنها برزت للوجود من القاعدة التي اتخذها في فارس.

كان التوجه السمح المتفهم الذي تميز به الأباطرة الأخمينيون يرجع جزئيًّا إلى ارتباطهم بالديانة الزرادشتية[٨] التي تؤمن بأن المسئولية المقدسة لكل إنسان تتمثل في العمل على تحقيق العدالة الاجتماعية على الأرض، ويؤمن الزرادشتيون بأن الإنسانية كُتِبَ عليها الصراع الأبدي بين الخير والشر، ويقال إن الزرادشتية هي أول ديانة منزلة تبشر بالحساب بعد الموت وبخلود كل نفس في الجنة أو في الجحيم، وطبقًا لمعتقدات تلك الديانة يقرر الله مصير كل شخص وفقًا للفضائل التي كان يتمتع بها في حياته بناء على أفكاره وأقواله وأفعاله، وقد عاش النبي زرادشت في زمن ما بين القرن العاشر والسابع قبل الميلاد فيما يعرف الآن بشمالي شرقي إيران، وبدأ ممارسة الدعوة لعقيدته بعد سلسلة من الرؤى الإلهية، وقد أثرت الديانة الزرادشتية تأثيرًا عميقًا في التاريخ الفارسي، ولا يرجع ذلك إلى استخدام

[٧] هم أسرة ملكية فارسية كونت لها إمبراطورية في فارس عام ٥٥٩ ق.م. واستولت علي ليديا (غرب الأناضول) وبابل وإيران وفلسطين ومصر، وتعتبر فترة حكم هذه الإمبراطورية هي فترة الحضارة الفارسية.

[٨] ديانة أسّسها الحكيم الفارسي زرادشت ترى العالم كصراع مستمر بين القوى الكونية المستقلة. وفي معتقدات هذه الديانة فإن أهورامزدا هو رب الخير أو الحكمة وخالق العالم المادي، وأنجرامينو هو كل الموت وروح الشر، وأن الإنسان كائن حر وعليه واجب الانتصار لأهورامازدا، وقد انتشرت هذه الديانة في إيران خاصة بعد ثمانية قرون من وفاة زرادشت.

قورش لها في حملته الجريئة الناجحة لبناء إمبراطورية فحسب، بل أيضًا بسبب إيمان الكثيرين بها على مدار قرون عديدة.

تعلم الإيرانيون من الديانة الزرادشتية أن المواطنين يتمتعون بحق غير قابل للتنازل في وجود حاكم مستنير، وأن دور الرعايا لا يقتصر على طاعة الملوك الحكماء، بل يتعداه إلى الوقوف في وجه الطالحين منهم. ومع أن الحكام يعتبرون ممثلي الله على الأرض، فإنهم لا يستحقون الطاعة إلا إذا حصلوا على نوع من البركات الإلهية التي تكتسب بفضل السلوك الأخلاقي، وكي يحصلوا على تلك البركة ظل أجيال من قادة الفرس يزورون المعابد الزرادشتية حيث تشتعل النار المقدسة على الدوام مما يرمز إلى أهمية الاحتراز من المظالم.

ربط قورش وسلسلة الملوك الذين خلفوه بين أطراف الإمبراطورية الشاسعة باستخدام الطرق والكباري والعملة الموحدة ووضع نظام فعال للضرائب وإنشاء أول نظام خدمات بريدية بعيد المدى. ولكن في نهاية الأمر كان من المحتم أن ينقلب التاريخ عليهم، فقد بدأت الإمبراطورية تهتز بعد أن خسر داريوس معركة ماراثون الفاصلة عام ٤٩٠ ق.م. وجاءت الضربة القاضية من الإسكندر الذي زحف بجيوشه نحو بلاد فارس فاتحًا عام ٣٣٤ ق.م. مثيرًا عاصفة من الخراب، حيث أمر بنهب مدينة برسيبوليس وحرقها.

وعلى مدار القرون العشرة التالية، وخلال حكم ثلاث سلالات، حافظ الفرس على مشاعر قوية من الكبرياء والنبل، ومما تسبب في ازدهارهم قدرتهم على استيعاب تأثيرات عديدة من الدول المحيطة بهم، خاصة اليونان ومصر والهند، وإعادة تشكيلها في إطار العقيدة الزرادشتية. وفي القرن الثالث الميلادي بدءوا يعودون إلى قمة الهرم العالمي للقوة بمقياس أعاد للأذهان مجد الأباطرة الأوائل، حيث استولوا على أنطاكية وبيت المقدس والإسكندرية وأخذوا يناضلون للوصول إلى أسوار القسطنطينية. وقد تعرضت جيوش الفرس لهزيمة على يد البيزنطيين عام ٦٢٦م، ولكن الهزيمة الأفدح لم تأتِ بعد؛ فبعد بضعة أعوام تحرك جيش من شبه الجزيرة العربية القاحلة متجهًا نحو بلاد فارس، ولم يكن هؤلاء العرب مدججين بأسلحة الحرب التقليدية فحسب، بل كانوا أيضًا حاملين دينًا جديدًا، ألا وهو الإسلام.

كان الغزو على يد العرب — الذين كان الفرس المتحضرون يعتبرونهم همجًا — نقطة تحول فاصلة في تاريخ الأمة الفارسية، وقد تشابه مصير بلاد فارس مع إمبراطوريات عظمى عديدة، حيث أنهكت جيشها الغزوات الطويلة، وهوى قادتها مما أطلق عليه الكهنة الزرادشتيون عالم النور إلى عالم الظلام، وانفصل رجال الدين أنفسهم عن العامة، وعانى الناس الفقر المدقع حيث فرض البلاط الملكي عليهم ضرائب متزايدة بجشع شديد، وقضى الاستبداد على العقد الاجتماعي بين الحاكم والمحكوم الذي يعتبر في العقيدة الزرادشتية أساس الحياة المنظمة. ووفقًا للمعايير السياسية والدينية فقدَ الساسانيون — آخر الأسر التي حكمت قبل الإسلام في بلاد فارس — الحق في الحكم، وفرض قانون التاريخ الذي لا يرحم أن تهزم تلك البلاد على يد شعب نفوذه آخذ في الازدياد تقوده عاطفته المشبوبة نحو قادته والقضية التي يدافع عنها والمعتقد الذي يؤمن به.

ارتكزت قوة الساسانيين في مدينة قطسيفون — العاصمة الرائعة لبلاد ما بين النهرين، ولم تكن تلك المدينة تتميز بالأعمدة الفخمة مثل برسيبوليس، ولكنها كانت مدينة غارقة في الإسراف والتبذير؛ فقد ضم القصر الملكي مجموعات رائعة من المجوهرات، وكان يحرس القصر مجموعة تماثيل مجسمة من الذهب والفضة، وأهم ما يميزه قاعة الملك التي تشبه الكهف وتضم سجادة من الحرير تبلغ مساحتها تسعين قدمًا مربعًا مزينة بنقوش تمثل حديقة مزهرة وترمز بشكل مجازي إلى ثروة الإمبراطور وقوته، وخيطت في تلك السجادة أحجار كريمة مثل الياقوت واللؤلؤ والماس بخيوط من ذهب. وعندما دخل العرب مدينة قطسيفون فاتحين عام ٦٣٨م، نهبوا القصر الملكي وأرسلوا تلك السجادة الرائعة إلى مكة حيث أمر الحكام المسلمون بتمزيقها كي يظهروا احتقارهم للثروات الدنيوية، كما دمروا كنوزًا لا حصر لها بما فيها المكتبة الملكية بأكملها. ويروي الفردوسي — وهو شاعر فارسي عاش في القرن العاشر الميلادي — عن ذلك الغزو قائلًا إن أحد القادة تحسر قائلًا: «ملعون ذلك العالم ... ملعون ذلك الزمان ... ملعون ذلك المصير ... حيث أجبرني العرب الهمجيون على اعتناق الإسلام.»

وفي نفس الملحمة المسماة الشاهنامة — التي يبلغ طولها أربعة أضعاف الإلياذة — والتي استغرقت خمسة وثلاثين عامًا في تأليفها، يصف الفردوسي القائد الفارسي المنهزم رستم وهو يبكي المصاب الذي يراه قادمًا:

«لهفي عليك يا إيران! أين ذهب ملوكك العظام
الذين حكموا بالعدل والمساواة والجود
وزينوك بالأبهة والعظمة؟ رحلوا!
منذ ذلك اليوم الذي باع فيه العرب البدو الهمجيون
أميرتك في سوق النخاسة
لم تشرق عليك شمس يوم سارّ قط
وظللت قابعة في الظلام»

عند الفتح العربي لبلاد فارس كان الفرس قد اكتسبوا خبرة طويلة في استيعاب الثقافات الأجنبية، حيث كانوا يشكلون تلك الثقافات حسب هواهم أو يأخذون منها ما يرتضونه ويرفضون ما لا يناسبهم. وهكذا كان الأمر حين فرض عليهم الإسلام، فلم يكن لديهم خيار سوى قبول كون محمد رسول الله والقرآن كلام الله، ولكن على مدار قرون عديدة توصلوا إلى تفسير للإسلام يختلف عن ذلك الذي آمن به العرب الذين غزوا بلادهم، وقد بني هذا التأثير الذي يطلق عليه التشيع على قراءة مختلفة للتاريخ الإسلامي، ودل على طريقتهم البارعة في استخدام الإسلام لتعزيز المعتقدات الإيرانية القديمة.

يعتنق نحو ٩٠٪ من المسلمين الذين يبلغ عددهم مليار شخص في العالم اليوم المذهب السني، أما البقية فأغلبهم يعتنقون المذهب الشيعي، ويوجد أكبر عدد منهم في إيران، ويرجع الاختلاف بين هاتين الجماعتين إلى التفسيرات المختلفة لاستحقاق خلافة الرسول بعد وفاته عام ٦٣٢م، حيث يعتقد الشيعة أن الخليفة الشرعي هو علي ابن عمه الذي رباه منذ طفولته وزوجه إحدى بناته، وعلي أحد من أملى عليهم الرسول الوحي أو القرآن، بالإضافة إلى كونه عرض حياته للخطر ذات مرة بنومه في فراش الرسول كي يحبط خطة لاغتياله. ولكن بعد وفاة الرسول اختير شخص آخر لمنصب الخليفة، وهكذا

وجد علي نفسه في موقف المنشق، وانتقد المؤسسة الدينية لسعيها إلى امتلاك القوة الدنيوية وإضعاف ميراثها الروحي، وقد انضم الكثيرون إلى صفه سخطًا على الأوضاع الاقتصادية السيئة، وفي النهاية اتخذ الصراع شكلاً عنيفًا.

جرى تجاهل علي مرتين أخريين في الخلافة، فكرس نفسه للدعوة إلى التقوى والعدالة الاجتماعية، مما اجتذب إليه أتباعًا كثيرين خاصة بين الطبقات الدنيا، وفي نهاية الأمر تقلد منصب الخليفة عام ٦٥٦م، ولكن الصراع ازداد حدة، وبعد أقل من خمسة أعوام اغتيل وهو يصلي في مسجد بالكوفة، وهي حامية عراقية كانت موطنًا للصراع الديني، ووفقًا للروايات، كان علي يعلم أنه سوف يقتل في ذلك اليوم، ولكنه رفض الهرب لأنه «لا يمكن منع القدر المحتوم»، وعندما طعن صاح: «يا إلهي! كم أنا سعيد الحظ!»

انتقلت راية المقاومة إلى الحسين بن علي الذي قتل أيضًا وهو يقود اثنين وسبعين رجلًا في مواجهة جيش مكون من ألوف في ثورة انتحارية وقعت في كربلاء عام ٦٨٠م، وإصرارًا من السلطات على محو أثر الحسين أمرت بقتل معظم أفراد عائلته، ثم مرغ جسده في الطين وبترت رأسه وأرسلت إلى دمشق، حيث يعتقد الشيعة أنها ظلت ترتل القرآن والخليفة يضربها بالعصا. ويعتبر تناقل تلك الروايات وغيرها عن الحسين الملقب بـ«سيد الشهداء» هو ما يثير نوبات الانفعال لدى الشيعة في مدينة قم[٩] وغيرها من المدن الإيرانية المقدسة كل عام في ذكرى وفاته.

ساهم استشهاد الحسين دفاعًا عن قضية مقدسة في تشكيل النفسية الجماعية للإيرانيين، فإذا زرت مدينة قم أثناء مراسم الحداد التي تقام في ذكرى استشهاده، فسوف تجد نفسك محاطًا بفيض من المشاعر الحادة التي يصعب على الغرباء فهمها؛ تتحرك مواكب من الرجال والفتيان المتشحين بالسواد ببطء شديد كما لو كانوا فاقدي الوعي نحو بوابة الضريح الرئيس، وهم ينشدون مقاطع شعرية ترثي مصير الحسين، ويجلدون أنفسهم بالسياط حتى يسيل الدم من ظهورهم وأكتافهم، وفي المساجد يقص رجال

[٩] هي إحدى مدن إيران وتقع على بعد ١٥٧كم جنوب العاصمة طهران. (المترجمة)

الدين تلك الأحداث الأليمة بانفعال شديد لدرجة أن الجماهير تخر ساقطة وتنفجر في نوبات بكاء شديدة كما لو كانت تلك المأساة قد أصابتهم للتو. ويدل الصدق الشديد الذي يتميز به ذلك المشهد على نجاح الشيعة الإيرانيين في صياغة مجموعة من المعتقدات الدينية التي تندرج تحت الإسلام ولكنها في الوقت ذاته تحمل الطابع المحلي.

لا يعطي السنيون أهمية كبرى لمصرع علي والحسين بتلك الطريقة العنيفة، ولكن في رأي الشيعة الذين استمدوا اسمهم من تعبير «شيعة علي» أي «أتباع علي» يُعتبر هذان الحادثان كارثة كبرى، ويمثل علي والحسين لهم الروحانية الخاصة بالإسلام الصحيح وحياة التضحية بالذات التي يجب أن يحياها المسلم الحقيقي، ومن هذا المنطلق الذي ساهمت المعتقدات الزرادشتية في تشكيله، تمرد البطلان على مؤسسة أصبحت فاسدة وبالتالي فقدت عدالتها، وهكذا فقد ضحيا بنفسيهما على مذبح الشر كما يجب على المؤمنين الصادقين أن يفعلوا، ووضعا نموذجًا لا يزال يشكل الوعي الإيراني حتى اليوم؛ فقد تركا للشيعة تراثًا من الحماسة الدينية واستعدادًا وتلهفًا لنيل الشهادة على يد أعداء الله، ولا يزال علي يعتبر الشخص الأمثل والقائد الأعظم في التاريخ بعد الرسول، ولا يزال الشيعة يتدبرون خطبه ويحفظون عن ظهر قلب آلاف الحكم والأقوال المأثورة التي تفوه بها. ويجسد الحسين التضحية بالذات التي تعتبر القدر المحتوم لكل من يحب الإسلام والإنسانية بصدق، ويكتسب استشهاده أهمية عالمية أكثر من استشهاد والده، وذلك لأنه — أي الحسين — قتل على يد جنود الحاكم وليس على يد متطرف منفرد، ويعتبر إدراك عمق تلك العاطفة ضروريًّا لفهم مفاتيح إيران الحديثة.

يعتبر الشيعة الإيرانيون عليًّا أول الأئمة الاثني عشر، وهم الخلفاء الشرعيون للرسول، وكان الإمام الثاني عشر شابًّا عندما دخل في حالة غامضة، حيث انفصل عن العالم لكنه لا يزال يدرك المعاناة التي يمر بها، ويؤمن الإيرانيون بأنه لا يزال حيًّا، ويشيرون إليه باسم الإمام الثاني عشر أو الإمام المنتظر أو إمام الزمان، ويدعو الكثيرون الله كل يوم أن يعيده إلى الأرض، وعندما يعود سوف يصبح المهدي المنتظر أو المخلص الذي يعمل على تصحيح الأوضاع الخاطئة ويبدأ عهدًا جديدًا من العدالة المطلقة، وحتى

يحين ذلك الوقت يجب على الحكام الدنيويين أن يعملوا على محاكاة حكمته وصلاحه، وعندما يخفقون في ذلك فهم لا يتعدون على حقوق الإنسان فحسب، بل أيضًا على إرادة الله ذاتها.

كتب العلامة الطباطبائي المفكر الشيعي الكبير بالقرن العشرين: «إن الإمام يرعى الناس روحيًا، وهو على صلة بأرواحهم وإن كان مختفيًا عن أعينهم، ويعتبر وجوده ضروريًا على الدوام، حتى ولو لم يكن الوقت قد حان لظهوره المادي وللإصلاح العالمي الذي سوف يقوم به.»

إن السيطرة العميقة لذلك المعتقد على نفوس الشيعة الإيرانيين تجعل من مذهبهم أكثر من مجرد عقيدة دينية، بل ترفعه إلى مصاف ما أطلق عليه مايكل إم جيه فيشر المتخصص في علوم الإنسان «مأساة عقائدية». وهمَ يوقرون الرسول، لكن مشاعرهم ترتبط ارتباطًا أعمق بالحسين وعلي، وهو ما يطلق عليه فيشر «قصة يمكنها أن تشمل التاريخ وعلم الكون ومشاكل الحياة» تعززها «مأساة شعائرية أو مادية تجسد القصة وتحافظ على مستويات مرتفعة من الاستغلال العاطفي.» فقد جسد علي والحسين نموذجًا يخبرهم كيف يجب أن يحيا المؤمن الخلوق، بل أيضًا كيف يموت.

بعد أن لقي علي والحسين مصرعهما في القرن السابع الميلادي، وصلت الإمبراطورية العربية إلى ذروة مجدها ثم أخذت في الانحدار، وانصهر العرب الذين حكموا إيران تدريجيًا في سكانها المختلطين، وحيث تراجعت قوة العرب ازداد الشيعة قوة، ويرجع ذلك جزئيًا إلى أن تحذيراتهم من فساد السلالات الحاكمة أكدتها الفظائع التي ارتكبها السلاجقة[١٠] الأتراك الذين فتحوا البلاد ووحشية قبائل المغول بقيادة جنكيز خان الذين دمروا إيران بعد غزوها عام ١٢٢٠م، وعندما بدأ المغول يفقدون سطوتهم انتقلت السلطة إلى سلالة الصفويين الثورية التي تأثرت بالمذهب الشيعي، وكان إسماعيل قائد الصفويين شيعيًا مناضلًا أرسل المقاتلين إلى أرض المعركة يهتفون «نحن رجال الحسين، وهذا زماننا! نحن أتباع الإمام المخلصين، الحماس اسمنا والشهادة عنواننا!»

---

[١٠] هي سلالة تركية حكمت في أفغانستان وإيران وأجزاء من الأناضول وسوريا والعراق والجزيرة العربية ما بين ١٠٣٨–١١٥٧م (ثم حتى ١١٩٤م).

وعقب سلسلة من الانتصارات بمساعدة الشيعة الذين احتشدوا إلى جواره من دول أخرى، أعلن اسماعيل تنصيب نفسه ملكًا عام ١٥٠١م. وأول قرار اتخذه بعد الجلوس على العرش إعلان الشيعية المذهب الرسمي للدولة، وهناك لوحة مصغرة شهيرة تصور ذلك المشهد وتحمل التعليق التالي «في يوم الجمعة ذهب جلالة الملك إلى مسجد تبريز وطلب من خطيب المسجد الذي كان أحد أعيان الشيعة أن يصعد المنبر، وتقدم الملك نفسه إلى المنبر واستل سيف سيد الأزمان من غمده ووقف كالشمس المشرقة.»

لم تكن تلك مجرد خطوة دينية بسيطة، ولكنها أهم خطوة في إنشاء الأمة الإيرانية؛ فقد استخدم إسماعيل المذهب الشيعي لمساعدته في بناء إمبراطورية امتدت خلال عشرة أعوام من تتويجه خارج حدود إيران الحالية كي تشمل المنطقة من وسط آسيا إلى بغداد ومن جبال القوقاز المكسوة بالثلج إلى شواطئ الخليج العربي. وأثناء حكم اسماعيل ظهرت ملامح إيران الحالية السياسية والروحية، فالإيرانيون تجمعهم بالفعل روابط الجغرافيا المتغيرة واللغة والذاكرة الجمعية للمجد التليد، ولكن أيًّا من تلك الروابط لم يثر التوهج الذي أثاره التشيع، فباعتناق الإيرانيين تلك العقيدة تقبلوا الإسلام ولكن ليس بنفس الطريقة التي أرادها العرب الفاتحون الذين كانوا يعتنقون المذهب السني، وهكذا تمردوا وهم يظهرون الاستسلام.

وأهم ما في الأمر أن الإيرانيين وجدوا أخيرًا نظامًا يمنحهم الحرية من سلطة الدولة، على الأقل من الجانب الروحي، وقد تخيل إسماعيل والقادة الصفويون الذين تلوه أن باستطاعتهم التحكم في التشيع، وبالفعل تمكنوا من ذلك على مدار القرنين التاليين، ولكن الاعتقاد بأن الحكام لا يستحقون السلطة إلا عندما يقيمون العدل جزء لا يتجزأ من المعتقدات الشيعية كما هو جزء من المعتقدات الزرادشتية، وفي نهاية الأمر أعطى هذا المعتقد للجماهير الشيعية القوة السياسية والوجدانية اللازمة للقضاء على الأنظمة الدنيوية، وبالتالي فقد اكتسب الزعماء الدينيون تلك القوة.

عندما تقلد اسماعيل مقاليد الحكم كان الإيرانيون قد وصلوا بالفعل إلى قمم ثقافية عظيمة، ومنذ القرن التاسع الميلادي والمفكرون الإيرانيون يجوبون العالم الإسلامي بحثًا عن أعظم الفلاسفة والعلماء، وشرعوا في

ترجمة أعمال أفلاطون وأرسطو وأرشميدس وإقليدس وبطليموس والعديد من المفكرين الإغريق ودراستها. وقد حقق الصناع المهرة طفرات هائلة في العمارة وفنون الخزف، وأنشأ رسامو المنمنمات الفارسيون أساليب مقلدة ولكن لم تضاهها أعمال الخبراء من القسطنطينية إلى صحراوات آسيا الوسطى، وعكف الشعراء الموهوبون على تأليف أشعار عامرة بالوجد والعاطفة، ولا تزال تلك الأشعار تقرأ في جميع أنحاء العالم، ويرفض العديد منهم — مثل جلال الدين الرومي الشاعر الصوفي الذي عاش في القرن الثالث عشر الميلادي — المعتقدات التقليدية من أي نوع، حيث يقول:

«أيها المسلمون ما التدبير، وأنا نفسي لا أعرف نفسي
فلا أنا مسيحي، ولا أنا يهودي، ولا أنا مجوسي ولا أنا مسلم
ولا أنا شرقي ولا أنا غربي، ولا أنا بري ولا أنا بحري
ولا أنا من عناصر الأرض والطبيعة، ولا أنا من الأفلاك والسموات
ولا أنا من التراب ولا أنا من الماء، ولا أنا من الهواء ولا أنا من النار.
ولا بهذا الكون ولا ذلك،
ولا في الجنة ولا النار موطني
ولا طردت من عدن ولا يزدان،
ولا من آدم أخذت نسبتي
بل مقام ما أبعده من مقام،
وطريق خفي المعالم
تجردت عن بدني وروحي،
فمن جديد أحيا في روح محبوبي»[١١]

كانت تلك الإنجازات الثقافية مؤشرًا على قدرة الإيرانيين على دخول العصر الحديث واثقين بقوتهم الإبداعية والعسكرية والروحية عندما تمكنوا في نهاية المطاف من تحقيق الوحدة السياسية، ولا يزال عباس شاه الملك الصفوي الذي أعطاهم الإلهام لأعظم إنجازاتهم بطلًا في إيران، وقد جلس

[١١] الأبيات بتصرف.

على العرش لفترة تزيد عن أربعين عامًا، من عام ١٥٨٨ إلى عام ١٦٢٩، ونجاحه في توحيد شعبه وإعطائه شعورًا بالمصير المشترك على نفس مستوى نجاح معاصريه الملكة إليزابيث الأولى في بريطانيا والملك فيليب الثاني في أسبانيا. وقد شق الطرق التي اجتذبت التجار الأوروبيين إلى المدن الإيرانية، وأنشأ مصانع لإنتاج الحرير والفخار والمنتجات الأخرى التي كان التجار يرغبون في شرائها، وتولت الدواوين الحكومية جمع الضرائب وتطبيق العدالة وتنظيم الحياة كما لم تنتظم منذ عهد قورش وداريوس الذي انقضى منذ ألفي عام.

كان عباس نموذجًا تقليديًّا ملائمًا للحكام الإيرانيين، ليس من أجل تفانيه في جلب أفضل ما في العالم إلى مملكته فحسب، بل أيضًا لأنه فرض الاستبداد ولم يتحمل أي نقد موجه للطغيان الذي مارسه، وكان التعذيب والإعدام شيئًا عاديًّا أثناء فترة حكمه، ولمدة أعوام عديدة حبس أبناءه في القصر الملكي حيث أتاح لهم التمتع بالمحظيات، ولكنه حرمهم من التعليم والتدريب الذي يؤهلهم للقيادة في المستقبل، كان عباس يخشى الثورة ضد حكمه، وقد أمر بقتل ابنه البكر وسمل عيني ابنيه الآخرين وشقيقيه ووالده.

كان أعظم تراث مادي تركه عباس للأجيال القادمة العاصمة المتألقة أصفهان التي جعل منها إحدى أعظم المدن في العالم، ولا تزال قبابها الشامخة وقصورها الملكية المصممة تصميمًا معقدًا وقاعات الصلاة المكسوة بالقرميد تثير الهيبة في نفوس الزائرين وتبرر اعتقاد الإيرانيين لأجيال عديدة بأن أصفهان هي نصف العالم. وقد أمر عباس بإحضار صناع أرمينيين يساعدون في بناء المدينة، وتجار هولنديين يساهمون في بسط رقعة السوق الكبير، ودبلوماسيين من كل أنحاء العالم كي يعطوا المدينة طابعًا عالميًّا. وكان تعداد أصفهان يبلغ نصف مليون نسمة، ولم تكن تضاهيها أي مدينة في العالم في عظمتها، ولكنها لا تمثل تألق إيران فحسب، بل أيضًا الجوانب المظلمة لحكم عباس شاه.

كتب أحد المؤلفين المعاصرين: «لم تكن كل أشكال الفنون تهدف إلى الإمتاع فحسب، بل كانت تعززها قوة الملك وسلطانه، من الزخرفة الخزفية للمساجد إلى البحيرات وأحواض الزهور حول الأجنحة الملكية. وهكذا يمكننا

تفهم المزيج الغريب من القسوة والليبرالية، من الهمجية والرقي، من العظمة والدونية الذي ساهم في تشكيل الحضارة الفارسية.»

ونظرًا للوحشية التي تعامل بها عباس شاه مع ورثة عرشه، كان من الطبيعي أن تمر إيران بحالة من الفوضى بعد وفاته، فقد بدأ جيرانها يطمعون فيها، وعام ١٧٢٢ اجتاحتها القبائل الأفغانية التي نهبت مدينة أصفهان نفسها، وفي نهاية الأمر طرد الأفغانيون على يد نادر شاه، وهو آخر القادة العظام في تاريخ إيران، وكان تركيًّا سنيًّا زحف بجيوشه على مدينة دلهي، وكان أحد الكنوز التي نهبها من مدينة دلهي عرش الطاووس المطعم بالمجوهرات الذي أصبح رمزًا للملكية الإيرانية لاحقًا. بعد اغتيال نادر شاه عام ١٧٤٧ بدأت سلسلة من الصراعات على السلطة استمرت ما يقرب من خمسين عامًا وانتهت بوصول القاجاريين إلى الحكم.

تولى القاجاريون — وهم قبيلة تركية تقطن بالقرب من بحر قزوين — حكم إيران منذ أواخر القرن الثامن عشر وحتى عام ١٩٢٥، ويتحمل ملوكها الفاسدون ضيقو الأفق مسئولية الفقر والتخلف في البلاد. وبينما كانت معظم أنحاء العالم تتقدم نحو الحداثة، ظلت إيران راكدة في ظل حكم القاجاريين.

كتب اللورد كيرزون السياسي البريطاني في أواخر فترة حكم القاجاريين: «في دولة كهذه تعاني التخلف الدستوري وتفتقر إلى القوانين والمواثيق وتعتبر محبوسة في قالب تقاليد الشرق العتيقة، فإن العامل الشخصي يكتسب سطوة كبرى كما هو متوقع. وليست حكومة إيران إلا مجموعة من الممارسات التعسفية للسلطة بواسطة مجموعة من الوحدات على نطاق متدرج نزولاً من الملك إلى زعماء القرى الحقيرة.»

لو حكم إيران في القرن التاسع عشر نظام قوي متطور، فربما تمكنت من صد القوى الأجنبية التي طمعت فيها، لكن الضغوط كانت ستشتد عليها على أي حال، فقد تميزت إيران بموقع جغرافي يقع في الطريق بين القوتين العظميين في العالم آنذاك، وهما بريطانيا وروسيا. وقد رأت بريطانيا في إيران أمة تحتل طريقها البري إلى الهند، وهي أهم مستعمراتها وأكثرها ثراء، ورأت روسيا فيها فرصة للتحكم في رقعة كبيرة من الأرض تقع متاخمة لحدودها الجنوبية المكشوفة. وكان ملوك إيران شديدي الضعف والانشغال

بأنفسهم، مما جعل الإغراء لا يقاوم بالنسبة لكلا الإمبراطوريتين، فاندفعت كلتاهما في محاولة لملء فراغ القوة الذي خلفه القاجاريون الجهلاء.

لم يبدُ على الملوك القاجاريين الاستياء وهم يرون إيران تنزلق في هاوية العبودية، وعلى فرض أنهم شعروا بالاستياء فقد صمموا على الاستفادة إلى أقصى حد ممكن مما اعتبروه قدرًا محتومًا، لكن تقديرهم للأمور كان خاطئًا، فقد افترضوا أن الشعب الإيراني سوف يتقبل ما يمليه عليه قادته، ولكن نظرًا لفسادهم واستعدادهم لترك إيران فريسة لسيطرة القوى الأجنبية، وقع الشقاق بين القاجاريين وبين الشعب، وهكذا فقدوا حقهم في الحكم. ثار الإيرانيون كما لم يثوروا من قبل، حيث كانوا مسلحين بالمبادئ الشيعية التي تمنح المواطن العادي سلطة الإطاحة بالطغيان والاستبداد، بالإضافة إلى قيم العالم الجديد الناشئ، وكانت مطالبهم مثيرة للدهشة بقدر ما كانت ثورتهم ذاتها، حيث كانت تتمثل في إنهاء سيطرة القوى الخارجية على البلاد وإنشاء برلمان للتعبير عن إرادة الشعب، كان ذلك أكثر البرامج التي اعتنقها الإيرانيون ثورية، وهو البرنامج الذي سوف يؤدي إلى الإطاحة بسلالة القاجاريين وتشكيل تاريخ إيران فيما بعد.

الفصل الثالث

آخر قطرة من دماء الأمة

أشرقت شمس الديمقراطية على إيران ذات يوم في ديسمبر من عام ١٨٩١ عندما تركت زوجات الشاه غلايينهن وأقسمن ألا يدخنّ مرة أخرى، ولم تكن تلك التضحية بسيطة، فقد كان التبغ أحد المتع الكبرى في حياة الحريم، وتقضي الجواري الفاتنات الساعات في تدخينه وهن يتكئن على الأرائك الوثيرة، وتنازلهن عنه يعني تحديهن الشاه ونظام الحكم الملكي الاستبدادي والنظام الإمبراطوري الذي كانت معظم أنحاء العالم تسير وفقًا له.

عندما اتخذت الحريم تلك الخطوة المصيرية كان زوجهن ناصر الدين شاه جالسًا على عرش الطاووس منذ أكثر من أربعين عامًا، وعلى غرار الحكام القاجاريين الآخرين عُرف بإسرافه الشديد، فكان جناح الحريم الذي يقضي فيه معظم وقته يضم ألفًا وستمائة من الزوجات والمحظيات والخصيان، وأنجب المئات من الأمراء الذين تمتعوا بصلاحية السحب من خزانة الدولة بلا قيود، وكانت قصوره مزينة بعناقيد من المجوهرات المتلألئة، وعندما يعتريه الملل من الملذات المتاحة في بلاده يذهب في رحلة إلى أوروبا ترافقه حاشية ضخمة، وطلب من الآخرين ألا يطلقوا عليه ملك الملوك فحسب، بل أيضًا ملاذ الكون وقاهر الطقس والحكم بين أفراد الشعب وراعي القطيع وفاتح الأراضي وظل الله على الأرض. أما أولئك الذين يرفضون إجلاله فجزاؤهم الجلد بالسياط أو القذف من المدافع أو الدفن أحياء أو الحرق في الميادين العامة.

وكي يرضي ناصر الدين شاه ميوله الإسرافية باع الوظائف الحكومية وفرض ضرائب غاشمة وصادر ثروات التجار الأغنياء، وعندما لم يتبقَّ ما

يستولى عليه توصل إلى فكرة جمع الأموال عن طريق بيع الأوقاف الإيرانية إلى الشركات والحكومات الأجنبية. كان البريطانيون أول عملائه، فقد شعر المسئولون البريطانيون بالقلق حيال الثورات المحلية في الهند واحتاجوا إلى خط تلغراف يربطهم بمقرات القيادة هناك، وعام ١٨٥٧ حصلوا على امتياز لإنشاء خط تلغراف في إيران. وحصل الفرنسيون والألمان والنمساويون على امتيازات عديدة أخرى، وحصل البارون يوليوس دي رويتر، وهو أحد الرعايا البريطانيين ذوي الأصول الألمانية، وتنسب إليه وكالة الأنباء المعروفة، على أعظم تلك الامتيازات على الإطلاق؛ فعام ١٨٧٢ حصل على الحق الحصري في إدارة صناعات الدولة وري مزارعها واستغلال مواردها المعدنية وتطوير السكك الحديدية والشوارع بها وإنشاء البنك الوطني وطباعة العملة، كل ذلك لقاء مبلغ زهيد ووعد بالحصول على العوائد في المستقبل، وقد وصف اللورد كيرزون تلك العملية بأنها «أكبر عملية تنازل تامة غير عادية في التاريخ عن كل الموارد الصناعية للمملكة إلى أيدٍ أجنبية لم تكن تحلم بها فضلًا عن أن تحصل عليها.»

غضب الكثيرون من المحاباة الشديدة التي تميزت بها صفقة رويتر، وبطبيعة الحال فقد غضب الإيرانيون الوطنيون الذين كان عددهم كبيرًا، بالإضافة إلى التجار ورجال الأعمال الذين وجدوا الفرص تنتزع منهم فجأة، وخاف رجال الدين على مكانتهم في دولة تهيمن عليها المصالح الأجنبية بشكل تام، وشعرت روسيا، وهي أقوى جيران إيران في المنطقة، بالخطر وهي ترى النفوذ البريطاني يتسع عبر حدودها الجنوبية، بل إن الحكومة البريطانية التي لم يستشرها رويتر قبل الإقدام على تلك الخطوة شككت في حكمتها، وفي نهاية المطاف أدرك ناصر الدين شاه أنه تخطى حدود المعقول، فألغى الامتياز بعد أقل من عام من منحه.

ولكن طمع الشاه لم يدعه يتنازل عن فكرة بيع الامتيازات، فعلى مدار الأعوام الثلاثة التالية منح ثلاثة امتيازات إلى جمعيات بريطانية، حيث اشترت إحدى الجمعيات حق التنقيب عن المعادن الذي امتلكه رويتر لفترة وجيزة، واشترت جمعية أخرى الحق الحصري في إنشاء البنوك، واشترت جمعية ثالثة الحق الحصري في الاتجار عبر نهر كارون، وهو النهر الوحيد

الذي يصلح للملاحة في إيران. واحتجت روسيا على ذلك، ولكن الشاه تمكن من استرضائها عن طريق إعطاء بعض التجار الروسيين الحق الحصري في استخدام مصايد الكافيار التابعة له. وعن طريق تلك الامتيازات وغيرها انتقل التحكم في موارد الدولة القيمة من يد الإيرانيين إلى يد الأجانب. وقد تكفلت الأموال التي تدفقت على خزانة الدولة الإيرانية من تلك الامتيازات بنفقات بلاط الشاه المسرف لفترة، ولكن ما لبثت الأموال أن نفدت، فلجأ إلى الاقتراض من البنوك البريطانية والروسية.

وحيث كانت إيران تزداد تورطًا في مستنقع الفقر والاعتمادية أصبح الشعب متعطشًا للتغيير، وأصبحت الأسواق في المدن الكبرى مرتعًا للاحتجاج، وأخذ المصلحون الدينيون والماسونيون[1] والاشتراكيون ينشرون أفكارًا ثورية جديدة، وأثارت أخبار النضال من أجل إيجاد الحكم الدستوري في أوروبا والإمبراطورية العثمانية الطبقات المثقفة، فبدأت المقالات والكتب والمنشورات التحريضية تتداولها الأيدي.

كان ناصر الدين شاه معزولًا في عالمه الخاص في البلاط القاجاري غافلًا عن ذلك السخط المتزايد، وعام ١٨٩١ باع شركة التبغ الإيرانية بمبلغ ١٥٠٠٠ (خمسة عشر ألف) جنيهًا استرلينيًّا، وبموجب شروط ذلك الامتياز تعين على كل فلاح يزرع التبغ أن يبيعه إلى شركة التبغ الملكية البريطانية، وتعين أيضًا على كل مدخن للتبغ أن يشتريه من متجر تابع لشبكة التجزئة الخاصة بالشركة الملكية البريطانية.

كانت إيران في ذلك الوقت — ولا تزال — دولة زراعية حافلة بالمدخنين، حيث يزرع الآلاف من الفلاحين الفقراء في البلاد التبغ على رقعة أرض صغيرة، وعملت طبقة كاملة من الوسطاء بحصاد التبغ وتجفيفه وتعبئته وتوزيعه، واعتاد عدد لا يحصى من الإيرانيين على تدخينه، فكان انتزاع ذلك المنتج المحلي من الأشخاص الذين اعتادوا إنتاجه وتحويله إلى أداة

[1] الماسونية هي منظمة أخوية عالمية يتشارك أفرادها عقائد وأفكارًا واحدة فيما يخص الأخلاق وعلوم ما وراء الطبيعة وتفسير الكون والحياة والإيمان بخالق إلهي. تتصف هذه المنظمة بالسرية والغموض وبالذات في شعائرها في بدايات تأسيسها، مما جعلها محط كثير من الأخبار والشائعات بأن هذه المنظمة بسعة انتشارها وتمكنها من الوصول إلى معظم الحكومات العالمية القوية هي من تملك زمام قيادة العالم، ويتهم البعض الماسونية بأنها «من محاربي الفكر الديني» و«ناشري الفكر العلماني». (المترجمة)

ربح حصرية للأجانب إهانة أكبر من أن تحتمَل، ونشأ تحالف من المفكرين والفلاحين والتجار ورجال الدين عاقدًا العزم على المقاومة بشكل لم يُرَ له مثيل في تاريخ إيران من قبل، وأقر الشيخ الشيرازي أكبر رجال الدين في إيران ذلك الاحتجاج، وفي واقعة تمرد ساحقة أصدر الشيرازي فتوى تفيد بأن التدخين يعتبر تحديًا للإمام الثاني عشر «عجل الله ظهوره» ما دام الأجانب يتحكمون في صناعة التبغ، وانتشرت تلك الفتوى بسرعة البرق خلال البلاد عن طريق خطوط التلغراف التي أنشأها البريطانيون منذ عدة عقود، والتزم بالفتوى كل من سمع بها تقريبًا، مما أذهل ناصر الدين شاه وأشعره بالخوف ثم الارتباك من ذلك الإجماع. وعندما توقفت زوجاته عن التدخين أدرك أنه لا يملك خيارًا سوى إلغاء الامتياز، ومما زاد الأمر سوءًا أنه اضطر إلى اقتراض نصف مليون جنيه من أحد البنوك البريطانية كي يعوض الشركة الملكية البريطانية عن خسارتها.

يتغير مسار التاريخ عندما يدرك الناس أن لديهم خيارًا آخر غير الطاعة العمياء، وذلك مثلما حدث في تحدى مارتن لوثر للمؤسسة المسيحية واقتحام سجن الباستيل أثناء الثورة الفرنسية وحفل شاي بوسطن.[٢] أما إيران فكانت بداية النهاية للاستبداد هي ثورة التبغ، وكانت تلك بداية عهد سياسي جديد، فلن يظل الإيرانيون سلبيين في حين يمارس القاجاريون سياسة القمع عليهم ويبيعون أوقاف بلادهم للأجانب.

وبعد مرور عدة أعوام ابتعد فيها ناصر الدين شاه أكثر وأكثر عن واجباته الملكية وانفصل عن الواقع ذاته، أردي قتيلًا عام ١٨٩٦ أثناء زيارته لمسجد بالقرب من طهران، ولم يحزن عليه أحد، فقد خلف دولة يسيطر عليها الأجانب وتعاني انتشار البطالة والتضخم الذي يشل حركة الحياة والعجز الشديد في الموارد الغذائية. وتجاهل ابنه مظفر الذي خلفه على عرش الطاووس العوز والفاقة التي يقاسيها الشعب وانغمس في نفس الرذائل

[٢] في ١٦ ديسمبر عام ١٧٧٣ دمر أمريكيون غاضبون صناديق شحنات الشاي التي أتت على السفن البريطانية إلى ميناء بوسطن، وعرف هذا الحدث فيما بعد باسم «حفل شاي بوسطن»، وكان من الأحداث التي أشعلت الثورة الامريكية. (المترجمة)

التي أدت إلى كراهية الإيرانيين للقاجاريين. وعقب توليه العرش ذهب في جولة أوروبية اتسمت بالبذخ الشديد بأموال مقترضة من أحد البنوك الروسية، وعند عودته أخذ قرضًا آخر من بعض الأثرياء البريطانيين وأعطاهم في المقابل نصيبًا من عائدات الجمارك، فبدأ الإيرانيون الكارهون له يندوون به وبأفعاله على الملأ، وردًّا على ذلك قبض على بعض المحرضين، فانفجرت الاحتجاجات ضد الحكومة في طهران مدن أخرى عديدة.

وبدلًا من أن يحاول مظفر الدين شاه استمالة الإيرانيين إلى صفه اتخذ خطوة ألهبت غضبهم؛ فباع عام ١٩٠١ إلى ويليام نوكس دارسي — وهو أحد أثرياء لندن — «الحق الحصري في الحصول على الغاز الطبيعي والنفط واستغلالهما وتطويرهما وجعلهما صالحين للتجارة ونقلهما وبيعهما ... لمدة ستين عامًا.» ومع أن عقدًا من الزمان على الأقل كان سوف يمر قبل أن يكتشف دارسي النفط، ويتطلب الأمر فترة أطول من ذلك كي يتحول ذلك الامتياز إلى أداة فعالة في سياسة الشركة الملكية البريطانية، فإن قيام مظفر الدين شاه بتلك الخطوة ساهم في تشكيل تاريخ إيران اللاحق.

في العقد الذي تلا ثورة التبغ ازداد الوعي السياسي للإيرانيين بصورة هائلة، حيث أدى اعتقادهم بأن الله يريد للحكام أن يحكموا بالعدل — وهو معتقد رئيس في المذهب الشيعي — إلى اعتناق الكثيرين للتصورات المثالية عن الحكم التي كانت تنتشر في المجتمع. وبحلول القرن العشرين بدأ البعض يشككون في جدوى النظام الملكي ذاته، وتكونت الجمعيات السرية التي تهدف إلى التخريب في مدن عديدة، وانتشرت الكتب التي تتناول الثورة الفرنسية انتشار النار في الهشيم، ومنها ما كان يمدح دانتون[٣] وروبسبيير.[٤] ونما شعور بالقوة المتزايدة بين الناس عندما وصلت أنباء تفيد بأن بريطانيا

---

[٣] محامى بارع وخطيب مفوه من زعماء الثورة الفرنسية. تزعم اليعقوبيين المتطرفين فى الجمعيه الوطنية، ولعب دورًا مهمًا فى إسقاط الملكية فى فرنسا عام ١٧٩٢. رأس الحكومة الجمهورية لفترة مؤقتة، وسيطر على لجنة الأمن العام ونصب محاكم الثورة حتى أعدم في نهاية الأمر بالمقصلة. (المترجمة)

[٤] محام فرنسي وزعيم سياسي أصبح أحد أهم الشخصيات المؤثرة في الثورة الفرنسية والنصير الرئيسي لعهد الإرهاب. وهو من أشهر السفاحين على وجه الأرض، إذ قتل الآلاف من الأشخاص في ستة أسابيع فقط، ولقى مصرعه بنفس الطريقة إعدامًا بالمقصلة. (المترجمة)

التي كانت تعتبر لا تقهر على وشك الانهزام أمام البوير[٥] المحدثين في جنوب أفريقيا، وعزز من ذلك الشعور الاضطراب الذي وقع في روسيا عام ١٩٠٥، حيث أدت الهزيمة العسكرية على يد اليابانيين إلى نشوب ثورة أجبرت القيصر نيقولا الثاني على الموافقة على إنشاء برلمان. كان المسرح مهيأ للثورة في إيران، وكل ما كان يحتاجه الأمر شرارة صغيرة كي تتأجج الأمة بنيران الغضب.

وقد اندلعت تلك الشرارة ذات يوم من شهر ديسمبر عام ١٩٠٥، عندما قبض على مجموعة من التجار في طهران أثناء شجار حول أسعار السكر، وحكم عليهم بالضرب بالفلقة، وهو العقاب القاجاري المفضل الذي يتمثل في تقييد حركة الضحية من الرسغين وجلده على باطن القدمين، وهب الناس محتجين في الأسواق، في بادئ الأمر طالب المتظاهرون بطرد الحاكم المحلي الذي أمر بتوقيع ذلك العقاب، وعندما شعروا بأنهم في موقف قوة بدءوا يطالبون بتخفيض الضرائب، وفي نهاية الأمر، وفي أحد اجتماعاتهم الحاسمة أضافوا طلبًا جديدًا مذهلًا يتمثل فيما يأتي «من أجل القيام بالإصلاحات المنشودة في كل المجالات يجب إنشاء ... جمعية استشارية قومية لضمان تطبيق القانون بالعدل في كل أنحاء إيران، بحيث لا يصبح هناك فرق بين الأغنياء والفقراء ويتمكن الجميع من الحصول على التعويض المناسب لمظالمهم.»

وسرعان ما فاق هذا المطلب كل المطالب الأخرى أهمية. ولما كان الشعب على وشك الانفجار لم يكن لدى مظفر الدين شاه خيار سوى الموافقة على فكرة إنشاء البرلمان الإيراني، ولكن بعد أن وافق على الفكرة أخذ يماطل، ومضت شهور لم يقم خلالها بأي شيء كي يطبق الفكرة على أرض الواقع. وهكذا اندلعت المظاهرات من جديد، ولعب رجال الدين الإسلامي فيها دورًا بارزًا، حيث توسل بعضهم بالإمام الشهيد الحسين، وأقسموا على الدفاع عن الفقراء والمستضعفين حتى وإن كان ذلك يعني تعريض أنفسهم للخطر كما فعل الحسين، وانطلقت الجماهير إلى الشوارع

[٥] هم جماعة من المستوطنين المسيحيين الهولنديين الذين استوطنوا جنوب أفريقيا في أواخر القرن السابع عشر. (المترجمة)

في حماس شديد لذلك الخطاب الحماسي، وذلك في صيف عام ١٩٠٦، ووصلت المشاعر إلى ذروة الاهتياج، وقرر المئات من المتطرفين اتخاذ مأوى في أرض تملكها بعثة دبلوماسية، في محاولة منهم لتنظيم أنفسهم في مكان لا يمكن للقوات مهاجمتهم فيه، فاختاروا المفوضية البريطانية، وهي مجمع مبانٍ ممتد تغطي أراضيه مساحة ستة عشر مربعًا سكنيًّا. وكان معظم أعضاء المفوضية في إجازة صيفية، وأخبر الموظف المحتجين بأنه يتمنى لو تمكنوا من العثور على ملجأ آخر، إلا أنه «لن يلجأ إلى استخدام القوة أو يتسبب في استخدامها لطردهم إذا حضروا، وذلك في ضوء التقاليد المتعارف عليها في إيران وحق اللجوء الموغل في القدم.» وخلال فترة وجيزة أصبح هناك أربعة عشر ألف مواطنًا إيرانيًّا داخل المجمع، وأقاموا في خيم مقسمة حسب طوائفهم وكانوا يطهون الطعام في قدور كبيرة في مطبخ مشترك.

وسرعان ما تحول هذا التجمع إلى مدرسة تكونت فيها المبادئ الأساسية للديمقراطية، فكانت مقالات الصحف الإصلاحية تقرأ بصوت عالٍ للجماهير كل يوم، وأخذ المحرضون يلقون خطبًا عن التقدم الاجتماعي، وأخذ المثقفون الذين تلقوا تعليمًا أجنبيًّا يترجمون أعمال الفلاسفة الأوروبيين. وارتبك الشاه لكنه ظل غير مدرك قوة الحركة، فاقترح تعيين مجلس يمكنه المساعدة في إدارة وزارة العدل، ولم يكن ذلك مرضيًا للمحتجين على الإطلاق، فهم يرغبون في مجلس أو برلمان يمتلك سلطة حقيقية، وليس مجرد مجلس استشاري، وبناء على ذلك أعلنوا في أحد البيانات «يجب أن يكون القانون ما يقرره المجلس، ويجب ألا يتدخل أحد في قوانين المجلس.»

وافق الشاه في نهاية الأمر، ولكن دون حماس ومع اشتراط أن تتطلب القوانين التي يقرها المجلس موافقته قبل أن تصبح سارية. وكانت تلك اللحظة الحاسمة مشابهة للحظة توقيع الماجنا كارتا[٦] في إنجلترا منذ سبعة قرون. وبعث أحد الدبلوماسيين البريطانيين برقية إلى لندن يعرب فيها عن

[٦] هي أول وثيقة دستورية في التاريخ، وهي وثيقة ملكية بريطانية التزم فيها الملك جون بالقانون الإقطاعي والمحافظة على مصالح النبلاء عام ١٢١٥، وتُعدُّ معلمًا بارزًا من معالم تطور الحكومة الدستورية في بريطانيا. (المترجمة)

دهشته قائلًا «من الخصائص المميزة لتلك الثورة — فهي بالفعل تستحق أن نطلق عليها ثورة — أن رجال الدين انحازوا إلى جانب التقدم والحرية، وهو ما لم يسبق له مثيل في تاريخ العالم، فإن تحققت الإصلاحات التي سعى الناس إليها بمساعدتهم فسوف تذهب كل سلطتهم أدراج الرياح.»

وبعد أن وافق الشاه على مضض غادر المحتجون مأواهم وهم في غاية الابتهاج وشرعوا يعملون من أجل وضع قواعد لدولة إيران الجديدة حتى توصلوا إلى مسودة دستور مستمد من الدستور البلجيكي، وهو أكثر الدساتير الأوروبية تقدمًا في ذلك الوقت، ودعوا إلى إجراء انتخابات قومية للمجلس الذي يضم مائتي عضو. وقد انتخب بعض الأعضاء بشكل مباشر واختير البعض الآخر من النقابات المهنية، حيث اختاروا واحدًا من كل طائفة مثل البقالين والحدادين وعمال المطابع والجزارين وصانعي الساعات والأطباء والخياطين إلخ، وعقدوا اجتماعهم التاريخي الأول في السابع من أكتوبر عام ١٩٠٦.

واجهت مجموعة كبيرة من المشاكل المجلس الجديد، فقد أدت العجلة في وضع النظام الجديد وقلة خبرة أولئك الذين حاولوا المساعدة في حكم إيران إلى وقوع الشقاق، وكان العديد من النواب غير متعلمين، ولم تكن هناك أحزاب سياسية تعمل على تشكيلهم في جبهات مستقلة. وتعثرت المفاوضات حول الدستور المقترح، وذلك لأنه لم يكن هناك أحد واثق من الطريقة المثلى لتقسيم السلطات الحكومية. ومما زاد الأمر سوءًا الاضطرار إلى صياغة الدستور في عجالة، وذلك لأن مظفر الدين شاه كان يحتضر، وكان ولي عهده الأمير محمد علي كارهًا لفكرة الديمقراطية. وأقر الدستور أخيرًا في الثلاثين من ديسمبر عام ١٩٠٦، وبذلك خطت إيران أول خطوة في سلم التقدم غير المتساوي نحو الديمقراطية لمدة قرن تالٍ، وبعدها بأسبوع توفي مظفر الدين شاه.

كان العاهل الجديد محمد علي شاه يحتقر المجلس ويتجاهله، وطالب العديد من النواب بخلعه إذا ظل على موقفه هذا، وشن المناصرون للملكية هجومًا مضادًّا، وهكذا اهتزت العاصمة الإيرانية للجدال العنيف الذي ترددت أصداؤه في النزاعات التي دارت في الشوارع، وبدأت الفصائل الإقليمية والقبلية

تنظم احتجاجات أضعفت من الحركة الدستورية، مدفوعين في ذلك بالرشوة والمنظمات الفاسدة، وبدأ عامة الشعب يربطون بين كلمة الدستور وبين الاضطرابات والصراعات.

ومما زاد الأمر سوءًا أن التحالف الهش بين رجال الدين والمصلحين الدنيويين بدأت تنفصم عراه، فقد شعر الملالي الذين دعموا الحركة الإصلاحية بالخطر من مطالب المتطرفين الذين على حد زعمهم «تجاهلوا شريعة الرسول ووضعوا قوانينهم الخاصة بدلاً منها.» وقد استغل البلاط القاجاري مخاوفهم تلك ببراعة متناهية، وتمكن من إقناع العديد منهم بأن مصالحهم الحقيقية مع النظام الملكي.

أعلن أحد رجال الحاشية في خطبة أمام المجلس «لا يحبذ أن تكون حكومة إيران دستورية، ففي الحكومات الدستورية يخضع كل شيء للحرية الشخصية ومن ضمنها حرية اختيار الديانة، وسوف يتمسك بعض الناس بحرية اختيار الديانة، وهو ما يتعارض مع الإسلام.»

وكان رجال دين عديدون يمتلكون نفس المخاوف، فعندما ناقش المجلس مشروع قانون لترخيص المدارس العلمانية، تساءل أحدهم «ألن يؤدي الالتحاق بتلك المدارس إلى القضاء على الإسلام؟ ألن تؤدي دروس اللغات الأجنبية والكيمياء والطبيعة إلى إضعاف معتقدات الطلاب الدينية؟» وناقش آخرون منطق الحركة الإصلاحية ذاته قائلين «باستخدام كلمتين جذابتين وهما العدالة والشورى، استدرج الباحثون عن الحرية إخواننا إلى قضية مشتركة مع الملحدين ... لقد حكم الإسلام العظيم العالم بالعدل والشورى، فماذا حدث كي نستورد قوانين العدالة من باريس وخطة الشورى من لندن؟»

ترددت أصداء ذلك الصراع بين رجال الدين والمصلحين الدنيويين في تاريخ إيران الحديث، وذلك على غرار صراع آخر نشأ في نفس الفترة، وهو الانقسام الذي شهدته البلاد بين رجال الدين أنفسهم، حيث رأى بعض رجال الدين أن الدين المنزل من عند الله قابل للتوافق مع الفكر الحديث، ولكن البعض الآخر رأى تعارضًا بينهما وتجاهل حركة الإصلاح، وقد عكست تلك الاختلافات الصراعات القديمة منذ الأزل في إيران: الأصالة

ضد المعاصرة، والدين ضد العلمانية، والإيمان ضد إعمال المنطق. وطبقًا لأحد المؤرخين فقد أيقظ ذلك الصراع «الطبيعة الفارسية المنفتحة وساعد على الوقوف ضد الطبيعة الإسلامية التي تتميز بالتقوقع والتقليدية.»

كان محمد علي شاه واثقًا من تأييد معظم الزعماء الدينيين له، فبدأ حملة من الإرهاب والعنف ضد المجلس، وفي يونيو/حزيران من عام ١٩٠٨ جمع رجال الشاه مجموعة من رجال العصابات الذين انطلقوا في شوارع طهران ثائرين صائحين «نريد القرآن لا الدستور!» ثم أمر لواء القوزاق بقصف المبنى الذي يقيم فيه المجلس اجتماعاته ونهبه، واندفع الإيرانيون محتجين في مدن عديدة، وقتل كثير منهم في مشاجرات الشوارع، ولفترة من الزمن بدا أن حربًا أهلية عنيفة على وشك الاندلاع، لدرجة أن الشاه نفسه اختبأ لاجئًا في المفوضية الروسية.

أدركت كلا القوتين الملكيتين اللتين حاولتا السيطرة على إيران — بريطانيا وروسيا — أن الحركة الإصلاحية باتت تهدد مكانتهما في البلاد، وشجعا الشاه على الاستمرار في مقاومتها، ولكن المجلس ظل يتقدم بخطوات سريعة، وكان من أهم القرارات الحاسمة التي اتخذها التصويت على تعيين مورجان شوستر، وهو أحد المصرفيين الأمريكيين، في منصب الأمين العام لخزانة الدولة، وبدأ شوستر عمله بحماس شديد، حيث شرع في إلغاء نظم الإعفاء من الضرائب المعقدة والصفقات السرية التي عملت النقابات البريطانية والروسية من خلالها على نهب إيران، مما دفع حكومة كلا الدولتين إلى المطالبة بإقالته من منصبه، وفي خريف ١٩١١ أرسلت روسيا قوات إلى إيران لفرض إرادتها، وعندما رفض المجلس بتحدٍّ سافر إقالته، قرر البلاط الملكي إغلاق المجلس وإلقاء القبض على العديد من أعضائه، وذلك لشعوره بالحماية في وجود القوات الأجنبية، وهكذا انتهت الثورة الدستورية العنيفة في إيران التي استمرت خمس سنوات، والتي كانت أول محاولة نظامية للتوفيق بين التقاليد الإيرانية والديمقراطية الحديثة.

ساهمت التجربة التي خاضتها إيران في تلك السنوات في إعادة تشكيل النفسية الجماعية للإيرانيين بعمق، فلم تكن تلك التجربة مثل ثورة التبغ التي هدفت إلى إبطال إحدى القوانين الغاشمة فحسب، بل إن الثورة الدستورية

هدفت إلى إنشاء نظام اجتماعي وسياسي جديد، وقد باءت تلك التجربة بالفشل بمساعدة قوى أجنبية، ولكن بعد أن تمكنت من إرساء أسس النظام الديمقراطي في إيران. فقد صيغ الدستور وأقره المجلس، وبموجب مواد هذا الدستور سوف تقام الانتخابات بصفة دورية، مما يعني القيام بحملات سياسية ومناظرات عامة حتى وإن كانت صورية. وفي السنوات التالية تجاهل الحكام الإيرانيون الرأي العام وفرضوا نفوذهم عليه، ولكنهم لم يتمكنوا من إطفاء جذوة إيمان الشعب بحقوقه التي لا تستطيع أي حكومة سلبه إياها، وقد ساهمت الدروس المستفادة من ذلك الانفجار الإصلاحي في تشكيل الثورة السلمية التي قادها محمد مصدق بعد ذلك بنصف قرن.

احتشد الإيرانيون تحت لواء الديمقراطية لأنهم اعتقدوا أن تطبيق حكم القانون في البلاد سوف ينتشلهم من هوة الفقر، مدفوعين في ذلك بغضب متزايد موجه إلى هدفين، وهما البلاط القاجاري الذي تمثل في محمد علي شاه البغيض ومن بعده ابنه أحمد الذي تولى السلطة عام ١٩٠٩ وهو في سن الثانية عشرة وكان يتميز بالسمنة المفرطة. أما الهدف الآخر فكان الدور الخانق الذي لعبته القوى الأجنبية في إيران، خاصة بريطانيا وروسيا.

أثناء الثورة الدستورية حاول المصلحون مرارًا انتشال إيران من سيطرة القوى الأجنبية، حيث رفض المجلس قرضًا مقدمًا من بعض البنوك الروسية، وسرعان ما أجري تصويت على إنشاء بنك قومي يديره الإيرانيون، ولكن جهودهم ذهبت أدراج الرياح، فقد سقطت إيران في هاوية الاستعباد حيث ظل القاجاريون يبيعون أصول الدولة.

وعام ١٩٠٧ وقعت كل من بريطانيا وروسيا معاهدة انقسمت بموجبها إيران بينهما، حيث تولت بريطانيا السيطرة على المقاطعات الجنوبية واستولت روسيا على المقاطعات الشمالية. وأعلن شريط بين المنطقتين على الحياد، أي أن الإيرانيين يمكنهم ممارسة سيطرتهم هناك دون أن يضروا بمصالح ضيفيهما العظيمين. ولم تُسْتَشَر إيران في تلك المعاهدة، بل إنها أخبرت بها بعد توقيعها في مدينة سانت بطرسبرج، وهكذا تحول التحكم الأجنبي غير الرسمي في إيران إلى تقسيم صريح لها يدعمه وجود القوات

الروسية والبريطانية. وعندما عرضت تلك المعاهدة على البرلمان البريطاني من أجل التصديق عليها وإعطائها صفة رسمية، أبدى أحد المعارضين أسفه الشديد لأن تلك المعاهدة تركت إيران «بين الحياة والموت، مفككة، مغلوبة على أمرها، وحيدة، مستسلمة.»

كانت روسيا مستنزفة القوى في الحرب الأهلية والثورة، وهكذا فقد بدأ تأثيرها في إيران يضعف، وبعد استيلاء البلاشفة[7] على السلطة عام ١٩١٧ تخلوا عن معظم حقوقهم في إيران وتنازلوا عن الديون التي كانت تدين بها إيران لروسيا القيصرية. وهكذا انتقلت بريطانيا سريعًا لتملأ هذا الفراغ، حيث كانت في ذلك الوقت تتربع على عرش القوة الاستعمارية، والنفط هو هدفها المنشود في تلك المرة، فقد بدأت شركة النفط الإيرانية الإنجليزية التي نتجت عن الامتياز الذي منح لدارسي في استخراج كميات هائلة من النفط من الأراضي الإيرانية، وأطلق عليها وينستون تشرشل «غنيمة من أرض الأحلام تفوق ما حلمنا به.»

وإدراكًا من بريطانيا للقيمة الهائلة لهذا المورد الجديد فرضت عام ١٩١٩ الاتفاقية الإيرانية الإنجليزية الظالمة على نظام أحمد شاه الضعيف، وضمنت موافقته عن طريق رشوة المتفاوضين الإيرانيين. وبموجب تلك الاتفاقية سيطر البريطانيون على الجيش والخزانة وطرق النقل والمواصلات وشبكات الاتصالات في إيران، وضمانًا لإحكام السيطرة فرضوا القانون العرفي وبدءوا يحكمون بنظام الأمر، وقد دافع اللورد كيرزون أحد المخططين للاتفاقية بصفته وزيرًا للخارجية عن ضرورتها من منطلق أنها تجسد قرن كامل من السياسة البريطانية المتبعة نحو إيران بقوله:

> إذا سئلنا لماذا يتعين علينا القيام بتلك المهمة؟ ولماذا لا تترك إيران وشأنها حتى تسقط في هاوية الفساد والانحلال؟ فإننا نجيب بأن موقعها الجغرافي وحجم مصالحنا فيها والأمان المستقبلي

[7] هم التيار الرئيسي الذي نجم عن انقسام حزب العمال الديمقراطي الاشتراكي الروسي. وكان المؤتمر الثاني للحزب والذي عقد عام ١٩٠٣ قد شهد انقسام الحزب إلى تيار البلاشفة وتيار المناشفة أو البلشفيك والمنشفيك، وفي النهاية غدا البلاشفة نواة الحزب الشيوعي السوفييتي، وقد سيطر البلاشفة على السلطة في روسيا عقب ثورة أكتوبر عام ١٩١٧ وأسسوا الاتحاد السوفييتي. (المترجمة)

> لإمبراطوريتنا في الشرق يجعل من المستحيل علينا الآن — كما كان مستحيلًا طوال الخمسين عامًا الماضية — أن نعزل أنفسنا عما يحدث في إيران. وبالإضافة إلى ذلك، فإننا على وشك تولي الانتداب في العراق، وهو ما يجعلنا نشترك مع الحدود الغربية لآسيا، ولذلك لا يمكننا السماح بوجود مرتع للفوضى ومكائد الأعداء والارتباك المالي والاضطراب السياسي بين حدود الإمبراطورية الهندية وبلوتشستان وبين محميتنا الجديدة. وإذا تركنا إيران وحدها، نخشى عليها من اجتياح البلاشفة لها من الشمال. وفي نهاية الأمر، فإننا نمتلك في الجزء الجنوبي الغربي من إيران أصولًا هائلة من حقول النفط، التي ينتفع بها الأسطول البريطاني وتعطينا نفوذًا مسيطرًا في ذلك الجزء من العالم.

قضت الاتفاقية الإيرانية الإنجليزية على ما تبقى من سيادة إيران، ولكنها في الوقت ذاته نفخت روحًا جديدة في الحركة القومية؛ فقد تأثر الوطنيون الإيرانيون بظهور الحركات المضادة للاستعمار في دول أخرى، ومنها دول خاضعة للحكم البريطاني، وأنشأ المتطرفون في المقاطعات الشمالية حزبًا شيوعيًّا، وبعد نزول القوات السوفييتية على ساحل بحر قزوين وإعلان قيام «الجمهورية الاشتراكية الإيرانية السوفييتية» في المنطقة المحيطة، بدا من المتوقع أن تشن أكبر قوتين في العالم الحرب على الأراضي الإيرانية. وفي معظم أنحاء البلاد كان الملايين من الناس يعيشون في أسوأ ظروف ممكنة، واكتسبت الحركات الانفصالية قوة في مقاطعات عديدة. كانت إيران على وشك الاندثار، والظروف مهيأة لظهور قائد يتمتع بالكاريزما، وعام ١٩٢١ ظهر ذلك القائد فجأة للأمة، كان رجلًا صعب المراس يمتطي صهوة جواد، وكان يدعى رضا.

ولد رضا في جبال البرز النائية بالقرب من حدود روسيا، وغادر المنزل في مرحلة المراهقة كي يلتحق بالخدمة العسكرية كعادة أفراد عائلته، وبدلاً من أن يلتحق بالجيش الخاص بقائد محلي، فضل أن ينضم إلى لواء القوزاق، وهي الفرقة الوحيدة الحديثة والمنظمة في البلاد، وقد تأسست تلك الفرقة على يد الضباط الروسيين الذين أرسلهم القيصر، ومهمتها الأساسية توفير حراسة خاصة لمصالح الأجانب والملوك القاجاريين. التحق رضا بوظيفة

عامل في الإسطبل، ولكنه سرعان ما تسلم زيًّا رسميًّا وأخذ يرتقي في المناصب حتى أصبح يلقب بـ«رضا خان»، كان رضا عملاقًا يقارب طوله المترين، وكان مقاتلًا شرسًا سواء وهو يحمل سيفه المعقوف أم مدفعه الرشاش، ومحط إعجاب الجميع لشجاعته الفائقة، ولما كان فظًّا حاد الطباع، ووجهه مشوه من أثر مرض الجدري الذي أصيب به في طفولته، كانت هيئته مخيفة.

خلال الأعوام التي قضاها رضا جنديًّا أتيحت له الفرصة كي يسافر في كل أنحاء إيران ويرى البؤس الذي يعيش فيه معظم الناس، وشارك في عمليات عديدة ضد القبائل والعصابات وقطاع الطرق الذين تحكموا في معظم أنحاء الريف، وأعلن أحد الدبلوماسيين البريطانيين أنه «كلما أرسلت حملة إلى أي جهة في البلاد للقبض على قطاع الطرق أو لإخماد أي اضطرابات، اشترك رضا فيها.»

وسرعان ما انضم رضا إلى الشعب في كراهية الحكام القاجاريين، مما جعله أداة مناسبة للبريطانيين الذين ضاقوا ذرعًا بالتعامل مع زعماء القبائل الماكرين ورغبوا في وجود حكومة مركزية قوية، وهكذا رأوا في القوزاق الوسيلة المناسبة لفرضها. وكي يتولوا السيطرة على الفرقة ويطردوا الضباط الروسيين منها قرروا تنظيم انقلاب وتعيين رئيس وزراء آخر للشاه من اختيارهم، وكان مرشحهم هو الصحفي السابق المتحمس سيد زيا طباطبائي، وكي يزودوا طباطبائي بالقوة العسكرية التي يحتاجها لجئوا إلى رضا الذي أبدى استعدادًا للتعاون، وفي مساء العشرين من فبراير/شباط عام ١٩٢١ قاد رضا ومجموعة من الضباط ألفي رجل إلى ضواحي طهران حيث أثار حماسهم بخطبة عصماء قال فيها: «أيها الجنود، لقد قدمتم كل تضحية ممكنة دفاعًا عن أرض الآباء والأجداد، ولكن علينا جميعًا أن نعترف أن ولاءنا لم يكن يخدم سوى مصالح مجموعة من الخائنين في العاصمة، وأولئك الحقراء هم نفس العناصر الخائنة التي مصت آخر قطرة من دماء الأمة.»

اشتعلت جذوة الحماس في المعسكر، ولم يكن رضا رجلًا صبورًا، فتمسك بتلك الفرصة، وقبل بزوغ فجر اليوم التالي، كان الجنود قد دخلوا

طهران وقبضوا على رئيس الوزراء وكل أعضاء مجلس الوزراء، وتقدم رضا إلى أحمد شاه بمطلبين: أن يعين سيد زيا رئيسًا للوزراء وأن يصبح هو شخصيًّا قائدًا للواء القوزاق. ولم يكن لدى الشاه الفاسد الإرادة أو الوسيلة اللازمة للمقاومة، وهكذا نجح الانقلاب خلال بضع ساعات دون أي مقاومة تذكر، وأثبت ذلك لقوة البريطانيين والوهن الذي أصاب سلالة القاجاريين والجرأة والثقة بالنفس اللذين يتمتع بهما رضا خان.

شرعت كتائب القوزاق في الحال في تهدئة الأوضاع في البلاد وسحق الجيوش القبلية، وتدفقت القوة إلى يد رضا، حيث طرد سيد زيا بعد ثلاثة أشهر من الانقلاب وأجبره على مغادرة البلاد، وبعد فترة وجيزة أقنع الشاه نفسه بالرحيل بزعم الذهاب في رحلة علاجية مؤقتة، وسرعان ما أصبح هذا الجندي الطموح رئيسًا للوزراء وقائدًا للجيش وزعيمًا مؤثرًا للدولة الإيرانية التي كانت تبعث من جديد.

نادى رضا بالقومية، ولكنه أدرك أيضًا قوة مناصريه البريطانيين والجميل الذي يطوقون عنقه به، وقد توصلت إحدى الدراسات عن الانقلاب إلى أنه «لا يوجد شك في تورط ضباط الجيش البريطانيين فيه، ففي اليوم السابق للتحرك إلى طهران دفع سيد زيا ألفي تومان[8] إلى رضا خان ووزع عشرين ألفًا على رجاله الذين بلغ عددهم ألفي رجل، ولم يكن بمقدور أي إيراني أن يمتلك مثل ذلك المبلغ الضخم خلال فترة وجيزة.»

وفور أن انتهى رضا من سعيه نحو السلطة أصبح عليه اختيار إطار سياسي يحكم من خلاله؛ كان شديد الإعجاب بالمصلح التركي كمال أتاتورك، ففكر في اتباع نموذجه وإعلان إيران جمهورية وتنصيب نفسه رئيسًا، لكن تلك الفكرة أفزعت رجال الدين الذين صدموا بالقرارات التي اتخذها أتاتورك لإلغاء السلطنة والخلافة الإسلامية، وأصروا على أن يحتفظ رضا بالملكية، وفي نهاية الأمر تمكنوا من كسبه إلى صفهم.

ومع أن رضا لم يتعلم، بل كان بالكاد يقرأ ويكتب، فقد كان لديه وعي عميق بطبيعة السياسة الإيرانية، ففي خلال عامين من الانقلاب توصل

---

[8] هي العملة الرسمية في إيران حتى عام ١٩٣٢، وهي عشرة آلاف دينار، وعام ١٩٣٢ استبدل بها الريال الذي يساوي ١٠/١ من التومان.

إلى خطة مسرحية تحمله إلى قمة السلطة، وبالفعل حدث ما كان مخططًا له، حيث أوى إلى قرية صغيرة بزعم التفكير والتأمل، واستقال من كل مناصبه الحكومية، وقبل أن يرحل خطط للأمر بحيث يمطره الناس بوابل من المطالبات بالعودة إلى السلطة، واستمر رضا في التظاهر بالمقاومة لفترة، ولكن في ذلك الحين حدث ما كان يأمل في حدوثه، حيث أعلن أحمد شاه البغيض عن نيته في العودة إلى الديار، وفزع المجلس الذي أعيد إنشاؤه بعد هزيمة ١٩١١ — ولكنه لم يتمكن بعدها من الحصول على أي سلطة فعلية — من ذلك الاحتمال، واتحد المجلس في ثورته، فأعلن نهاية السلالة القاجارية وقدم عرش الطاووس إلى رضا الذي جلس على العرش في الخامس والعشرين من أبريل/نيسان عام ١٩٢٦ وأطلق على نفسه رضا شاه، وأعلن أيضًا أن السلالة الحاكمة الجديدة سوف تعرف باسم عائلته «بهلوي»، وهو اسم لغة كان الفارسيون يتحدثونها قبل الفتح الإسلامي.

لم يكن رضا شاه يعارض التنديد بالبريطانيين علنًا، لكنه كان يمتلك مصالح حيوية مشتركة معهم، حيث كان هو الزعيم القوي الذي يبحثون عنه، وهو شخص يعتمد عليه ويمكنهم التفاوض معه وإذا تطلب الأمر خلعوه، وعلق الدبلوماسي البريطاني اللماح هارولد نيكولسون قائلًا: «كانت الأمة الفارسية القديمة هرمًا مفككًا يرتكز على قاعدته، ويعتبر الهرم الفارسي الجديد بنفس التفكك، ولكنه يرتكز على قمته، مما يعني أنه أسهل في الإطاحة به.»

كان من المستحيل لرضا شاه أن ينتشل بلاده من سيطرة القوى الأجنبية، خاصة البريطانيين الأقوياء، ولكن بعد تعزيز قواه ودعمها عمل بثبات كي يحد من نفوذهم، فلم يقبل أي قروض من المولين الأجانب، وحظر بيع الممتلكات إلى غير الإيرانيين، وألغى امتيازًا للبنك الملكي البريطاني في إيران خاصًّا بالحق الحصري في إصدار العملات الإيرانية، بل إنه منع مسئولي وزارة الخارجية من حضور الحفلات في السفارات الأجنبية، وعندما أصرت بريطانيا على تعيين مهندسين أوروبيين لبناء خط السكة الحديدية الذي كان من أهم الأحلام التي يرغب في تحقيقها، وافق بشرط أن يقف هؤلاء المهندسون وعائلاتهم تحت الكباري التي بنوها عند مرور القطار فوقها للمرة الأولى.

كان إخضاع مساحة إيران الشاسعة بالقوة العسكرية يتطلب جيشًا ضخمًا، وعوضًا من ذلك فرض رضا شاه إرادته بالتخويف التحذيري، وقد فزع الناس للروايات التي تناقلوها عن قسوته في بادئ الأمر ثم هدأ روعهم.

عام ١٩٣٥ دعا الزعماء الدينيون إلى الاحتجاج ضد قرار رضا شاه بحظر الحجاب للنساء وفرض غطاء الرأس على الرجال أثناء الصلاة حتى لا تلمس جباههم الأرض، واحتشد المئات من الناس في مسجد خراسان، وفور أن علم الشاه بتجمعهم أمر جنوده باقتحام المسجد وذبحهم، وبعد أن قتل أكثر من مئة شخص في ذلك اليوم لم يجرؤ أحد على الاعتراض مرة أخرى على الإصلاحات الدينية التي يقوم بها رضا شاه.

ومرة تلو الأخرى، أخذ رضا شاه يحل المشاكل بذلك الحسم الوحشي الذي عرف عنه، فذات مرة أثناء زيارته لمدينة همدان في غربي إيران، اكتشف أن الناس هناك يتضورون جوعًا لأن الخبازين يخزنون القمح كي يرفعوا من الأسعار، فما كان منه إلا أن أمر بإلقاء أول خباز صادفه في الفرن حيًّا، وفي الصباح التالي كان كل مخبز في المدينة يبيع الخبز بأسعار منخفضة.

فزع العديد من الإيرانيين لسماع مثل تلك الروايات، ولكن البعض الآخر التزموا الصمت أو أثنوا عليها، وذلك لأنهم يعلمون أن بلادهم لم تتمتع بالمجد إلا عندما كان يحكمها قائد قوي، ولم يستطع أحد إنكار الإنجازات التي قام بها رضا شاه؛ فقد استهل حكمه بتصفية عصابات قطاع الطرق التي نشرت الذعر في العديد من أنحاء إيران، ثم شرع في تطبيق برنامج إصلاحي ضخم يهدف إلى إنشاء شوارع وميادين وطرق سريعة ومصانع وموانئ ومستشفيات ومبانٍ حكومية وخطوط للسكك الحديدية ومدارس جديدة للفتية والفتيات، وأنشأ أيضًا أول نظام للخدمة العامة في البلاد وكون أول جيش قومي عرفته البلاد منذ قرون عديدة، وهو الذي أدخل النظام المتري والتقويم الحديث واستخدام ألقاب العائلة ونظم الزواج المدني والطلاق، وكان دائم الاحتقار للتقاليد، فحظر ارتداء الزي التقليدي ومنع قوافل الجمال من دخول المدن، وعمل على نشر التشريعات القانونية وأنشأ شبكة من المحاكم المدنية لتطبيقها، وعام ١٩٣٥ أعلن أنه لن يسمح بعد الآن بالإشارة إلى بلاده باسم فارس، وهو اللفظ الذي يستخدمه الأجانب،

وأنه يصر على تسميتها بإيران، وهو الاسم الذي يطلقه عليها مواطنوها، وبإصراره المعهود أمر بإعادة أي خطاب يأتي من الخارج موجهًا لبلاد فارس إلى مرسله دون أن يفتح.

ولكن على الرغم من حب رضا شاه للإصلاح، فإنه لم يتمكن من إحداث تغيير اجتماعي حقيقي؛ ففي ظل حكمه اشتدت الرقابة على الصحف، ومنعت التنظيمات العمالية، وكان مصير المعارضين إما القتل أو السجن أو الاضطرار إلى الهرب، بل إنه أجبر القبائل البدوية التي كان يعتبرها من مخلفات الماضي التي لا يليق أن توجد في دولة حديثة على الإقامة في مستوطنات قاحلة حيث مات الألوف منهم بعد معاناة شديدة، وتركزت التجارة في يد الدولة وشريحة صغيرة من أصحاب المشروعات الذين أثبتوا ولاءهم للدولة، وتضخمت ثروة الشاه نفسه عن طريق الحصول على الرشا من المشروعات الأجنبية وابتزاز الأموال من زعماء القبائل، وصادر الكثير من الأراضي حتى إنه أصبح يمتلك أكبر عدد من الأراضي في البلاد عندما كان في ذروة مجده، وقد علق أحد أعضاء البرلمان البريطاني قائلًا: «لقد قضى رضا شاه على كل اللصوص وقطاع الطرق في إيران، ليدرك الشعب أنه منذ الآن فصاعدًا سوف يصبح هو اللص الوحيد في إيران.»

عام ١٩٣٤ ذهب رضا شاه إلى تركيا كي يقابل أتاتورك، وكان من المعروف عنهما أنهما ينسجمان معًا تمامًا، ولكن بينما كان الشاه يتجول في الريف التركي أصيب بالاكتئاب والإحباط عندما أدرك أن تركيا تتقدم بخطى سريعة نحو الحداثة والعلمانية، وعاد إلى بلاده عازمًا على مضاعفة حملته لتغيير المجتمع الإيراني، وفي فورة حماسه اندفع دون أن يضع أي اعتبار للأنماط الاجتماعية أو المعتقدات الدينية السائدة منذ القدم في البلاد، ولما كان يفتقر إلى الحنكة السياسية التي تمتع بها أتاتورك تسبب في تأليب معظم الشعب ضده.

كان رضا شاه منبهرًا بالحركات الفاشية التي ظهرت في أوروبا خلال فترة الثلاثينيات، حيث رأى أن موسوليني وفرانكو وهتلر قد خاضوا نفس المسار الذي اختاره لنفسه الذي يتمثل في تطهير الأمم الضعيفة وتوحيدها، فأطلق حملة جائرة لمحو هوية الأقليات خاصة الأكراد والأذربيجانيين، وأنشأ

جمعية للإرشاد العام تهدف إلى تمجيد شخصه وأفكاره. وقاد بالدور فون شيراخ رئيس منظمة شباب هتلر مجموعة من أعيان النازيين في زيارة إلى إيران، وتحدث بحماس شديد عن التحالف الألماني الإيراني الناشئ.

أعلنت إحدى الصحف التابعة للشاه أن «الهدف الرئيس للأمة الألمانية يتمثل في استعادة أمجادها الغابرة عن طريق تعزيز الفخر القومي وبث كراهية الأجانب ومنع اليهود والأجانب من الاختلاس وارتكاب الخيانة، وهكذا تتفق أهدافنا معهم بالضبط.»

ونظرًا لأن رضا شاه كان يحتاج إلى صديق أجنبي يشاركه العداء المتزايد نحو بريطانيا والاتحاد السوفييتي، فقد تعاطف بشدة مع القضية الألمانية، وعند نشوب الحرب العالمية الثانية أعلن التزامه بسياسة الحياد التي تميل إلى التحيز لألمانيا، وقد سمح أيضًا للمئات من العملاء الألمان بالعمل في إيران، حيث عمل العديد منهم على بناء شبكات دعم تربط بين القادة العسكريين الإقليميين. وخشي قادة الغرب أن يكون النازيون يخططون لاستخدام إيران كقاعدة تشن منها هجومًا على الحدود الجنوبية للاتحاد السوفييتي، وهو ما سوف يعقد مسار الحرب بشكل كبير، ولمنع حدوث ذلك دخلت القوات البريطانية والسوفييتية إيران في الخامس والعشرين من أغسطس/آب عام ١٩٤١، وأسقطت طائراتهم منشورات على طهران كتب فيها «لقد قررنا أن على الألمان أن يرحلوا، وإن لم تطردهم إيران فسوف يتولى الإنجليز والروسيون ذلك الأمر.»

من المؤكد أن بعض الإيرانيين قد شعروا بسخرية المفارقة في ادعاء هاتين الدولتين دور الصديق الذي يرغب في حماية إيران، ولكن لم يكن باستطاعتهم فعل أي شيء، واستسلم الجيش الإيراني في بضعة أيام، وبعد استيلاء قوات الحلفاء على بعض المواقع الاستراتيجية في بعض أنحاء البلاد، طالبوا رضا شاه بقطع العلاقات مع ألمانيا والسماح لقواتهم باستخدام أراضيه بحرية تامة. ولو لم يكن رضا شاه قد عزل نفسه عن كل قطاعات المجتمع الإيراني، ولو كان قد احتفظ بمجموعة من المستشارين الحكماء حوله بدلاً من نفيهم أو قتلهم، ربما تمكن من المقاومة، ولكنه وجد نفسه وحيدًا وقد تحطمت أحلامه على صخرة ضيق أفقه وفساده وغروره الشديد.

لم يكن رضا شاه يرغب في التعاون مع الحلفاء، ولا كانوا هم في حاجة إليه، وهكذا فقد تنازل عن العرش في السادس عشر من سبتمبر/أيلول عام ١٩٤١، وفي اليوم التالي تولى ابنه البكر محمد الذي كان يبلغ من العمر واحدًا وعشرين عامًا مقاليد الحكم، ولم يسمع أحد شيئًا عن رضا بعد ذلك حتى توفي في مدينة جوهانسبرج بعد ذلك بثلاثة أعوام.

ومع أن رضا شاه تخيل نفسه صاحب رؤية مستقبلية عصرية، ففي حقيقة الأمر دعم الاستبداد أو الحكم المطلق الذي يمثل جوهر التاريخ الإيراني، واتسمت الإصلاحات التي قام بها بالسطحية، ونظرًا للقسوة الشديدة التي أجريت بها تلك الإصلاحات فقد كرهها الشعب ورفضها، ولم يحرز أي تقدم يذكر نحو الشعور بقيمة العمل المشترك والمسئولية المدنية التي تمثل جوهر المجتمعات الناجحة، والجهود التي بذلها لتخليص إيران من قبضة النفوذ الأجنبي جديرة بالثناء من الناحية النظرية، ولكنها من الناحية العملية جلبت المصائب لإيران. وفي نهاية الأمر تسببت دوافعه الدكتاتورية في سقوطه عن طريق دفعه إلى إجراء تحالف مع القوى الفاشية، وبرحيله أصبحت إيران لقمة سائغة في يد الأجانب يحكمها ملك صغير السن ضعيف مرتبك، وهكذا أخفق النظام الملكي مرة أخرى في التوصل إلى حل لأزمة التنمية والهوية المستمرة، وبنهاية الحرب العالمية الثانية تعطش الإيرانيون لقائد من نوع جديد.

الفصل الرابع

موجة من النفط

كانت سنوات من الحياة في صحارى إيران الصخرية — حيث ينتشر الجدري ويحكم قطاع الطرق والعصابات ويندر وجود المياه وترتفع الحرارة إلى ما يزيد عن ١٢٠ درجة فهرنهايت — كفيلة بأن تدفع رجالًا أقل شأنًا من جورج رينولدز إلى حافة الجنون أو ما هو أسوأ، ولكن رينولدز كان إحدى الشخصيات الأسطورية التي غيرت تاريخ العالم بفضل إصرارها وشجاعتها؛ كان رينولدز جيولوجيًّا علم نفسه بنفسه ومهندس بترول، يرجع إليه الفضل في القيام برحلات استكشافية عديدة في غابة سومطرة، وفي العقد الأول من القرن العشرين عندما كان في الخمسينيات من العمر اجتاز أراضي إيران القاحلة جيئة وذهابًا بحثًا عن النفط، ومعه طاقم عجيب يساعده في جر حمولته من المعدات وحفر الآبار، وتضم مجموعة من عمال الحفر البولنديين والكنديين، وطبيبًا هنديًّا أخرق، بالإضافة إلى العديد من سكان القبائل الذين لم يعرفوا ما النفط أصلًا، وقد كتب في خطاب بعثه إلى الوطن: «لم أر في حياتي من قبل فريق عمل بائسًا كهذا.»

كان موطن رينولدز الأصلي لندن، حيث كان راعيه المليونير الشهير ويليام نوكس دارسي ينتظر بفارغ الصبر أخبارًا مفرحة، كان دارسي قد كون ثروة من التنقيب عن الذهب في أستراليا، لكن ذلك لم يشبع طموحه، حيث شعر أن النفط قد يصبح أكثر قيمة من الذهب، وكان يعلم أن إيران «بلا ريب أرض بترولية»، وذلك طبقًا لكلام أحد علماء الجيولوجيا الذين أجروا مسحًا لأراضيها، وعام ١٩٠١ وقع دارسي اتفاقية مع مظفر الدين شاه إيران حصل بموجبها حصريًّا على حق التنقيب عن النفط في رقعة

شاسعة من الأراضي الإيرانية تفوق مساحتها مساحة تكساس وكاليفورنيا معًا، وكي يعمل دارسي على تأمين تلك الاتفاقية أعطى الشاه الذي وصفه الوزير البريطاني في طهران بأنه «ليس إلا طفلًا كبيرًا» مبلغ عشرين ألف جنيه استرليني ونصيبًا مساويًا في أسهم الشركة ووعدًا بالحصول على ١٦٪ من الأرباح المستقبلية.

ولما كان دارسي رجلًا مشهورًا بالأناقة في مجتمع لندن معروفًا بالبذخ الشديد حتى إنه استقدم مغني الأوبرا الإيطالي إنريكو كاروزو كي يغني في حفلاته الخاصة التي يقيمها في قصره بميدان جروسفينور، لم يفكر في الذهاب إلى إيران بنفسه قط، بل استخدم رينولدز كي يؤدي تلك المهمة بدلًا منه، وظل شهرًا تلو الآخر وعامًا تلو الآخر يحرر الشيكات لتمويل ذلك المشروع، وحلقت روحه طربًا في يناير/كانون الثاني ١٩٠٤ عندما اكتشف رينولدز النفط أخيرًا، لكنه صدم بعد عدة أشهر عندما جف البئر، وأخذت ثروته تتبدد شيئًا فشيئًا، حتى اضطر في نهاية المطاف إلى بيع معظم حقوقه إلى شركة بورما للنفط الكائن مقرها في جلاسجو، التي كان ثراؤها يفوق ثراءه.

أدرك المولون الاسكتلنديون الذين تولوا مهمة التنقيب عن النفط في إيران أن هناك تغيرًا شديد الأهمية على وشك أن يعيد تشكيل بريطانيا والعالم بأكمله، فسرعان ما سوف تحدث محركات الاحتراق الداخلي انقلابًا في كل جوانب الحياة الإنسانية، فيصبح التحكم في النفط اللازم لتشغيلها مفتاح القوة العالمية. وكان النفط قد اكتشف حول بحر قزوين وفي الهند الشرقية الهولندية[1] والولايات المتحدة، ولكنه لم يكتشف في بريطانيا أو أي من مستعمراتها، وإذا لم يتمكن البريطانيون من العثور على النفط في مكان ما، فلن يصبحوا قادرين على السيطرة على البحار أو على أي شيء آخر.

وبحلول عام ١٩٠٨ كان دارسي وشركاؤه الاسكتلنديون قد استثمروا ما يزيد عن نصف مليون دولار في مشروعهم الإيراني ولم يتوصلوا إلى أي شيء، وفي نهاية الأمر قرروا التوقف عن البحث في هذا المكان واستكشاف

[1] هي المستعمرة الهولندية سابقًا التي أصبحت تعرف بإندونيسيا حديثًا بعد الحرب العالمية الثانية. (المترجمة)

مكان آخر، وفي بداية شهر مايو/أيار أرسلوا برقية إلى رينولدز يخبرونه فيها بإفلاسهم ويطلبون منه «التوقف عن العمل وطرد الفريق وفك أي شيء ذي قيمة للنقل لإعادة شحنه والعودة إلى الديار.»

كانت تلك اللحظة شديدة الصعوبة لرينولدز الذي قضى أعوامًا طويلة في أصعب ظروف يمكن تخيلها يبحث عن كنز يعلم أنه سوف يغير العالم، وفي محاولة يائسة منه لكسب بعض الوقت أخبر رجاله بأنه في مثل تلك المناطق النائية لا يمكن الاعتماد على البرقيات، وأن عليهم الاستمرار في العمل حتى يتأكدوا من صحة الرسالة عن طريق البريد.

في السادس والعشرين من مايو/أيار عام ١٩٠٨ كان رينولدز نائمًا في خيمته بالقرب من قاعدة تدعى مسجد سليمان في غربي إيران عندما استيقظ في الرابعة صباحًا على ضوضاء مزعجة وصياح مرتفع، فاندفع مسرعًا إلى أن رأى النفط يتدفق عاليًا فوق إحدى الروافع؛ ففي واحدة من آخر محاولاته عثر على أكبر آبار النفط التي اكتشفت حتى ذلك الحين.

لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا كي يدرك القادة البريطانيون مدى هذا الاكتشاف وتداعياته، ففي خريف ١٩٠٨ خططوا لإنشاء مؤسسة جديدة بواسطة مجموعة من المستثمرين، وهي شركة النفط البريطانية الفارسية، كي تستوعب الامتياز الممنوح لدارسي وتتولى السيطرة على اكتشاف النفط واستخدامه في إيران. وبعد خمس سنوات، وتحت إلحاح وينستون تشرشل أمير البحار الذي رأى شبح الحرب العالمية يلوح في الأفق وأدرك أنه سوف يحتاج النفط في تزويد السفن بالوقود من أجل الانتصار في الحرب، أنفقت الحكومة البريطانية مليوني جنيه استرليني لشراء ٥١٪ من أسهم الشركة، ومنذ تلك اللحظة أصبحت مصالح بريطانيا وشركة النفط البريطانية الفارسية واحدة غير قابلة للفصل، حيث أكد تشرشل قائلًا: «كانت السيطرة هي جائزة تلك المغامرة.»

خلال سنواتها الأولى حفرت الشركة البريطانية الفارسية آبارًا عديدة ومدت ما يزيد عن مائة ميل من خطوط الأنابيب واستخرجت ملايين البراميل من النفط، وأنشأت أيضًا شبكة من محطات التعبئة في المملكة المتحدة وأخذت تبيع النفط إلى دول أوروبا، بل إلى أستراليا، وأكثر ما

يثير الإعجاب أنها بدأت إنشاء أكبر معمل لتكرير النفط في جزيرة عبدان الصحراوية في الخليج العربي، وهو المعمل الذي ظل الأكبر في العالم طوال خمسين عامًا.

ظهرت عبدان إلى الوجود تدريجيًّا على مدار ألف عام، حيث تكونت من الطمي الذي يسيل من الأنهار التي تكون مجرى شط العرب، وقد بعث آر آر ديفيدسون وهو أول مهندس بعثت به الشركة البريطانية الفارسية إلى هناك عندما كان يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عامًا خطابًا إلى عائلته عام ١٩٠٩ يخبرهم فيه بأنها «أرض مشمسة بها الكثير من الوحل والذباب»، مسطحة لا يوجد بها حصاة أكبر من قبضة اليد، وهي من أشد الأماكن قيظًا على سطح الأرض. ومع كل ذلك ففي عامين كان ديفيدسون قد استخدم أكثر من ألف من سكان القبائل في بناء الجسور ومراكب نقل البضائع والمباني القرميدية، وسرعان ما كانت عبدان تفخر بامتلاك محطة لتوليد الطاقة والعديد من المخازن والورش ومصنعًا لتنقية المياه وسكة حديدية صغيرة، وعام ١٩١١ انتهى العمل في أول خط أنابيب قادم من الحقول، وفي العام التالي بدأ النفط يتدفق.

وسرعان ما أصبحت عبدان مدينة صاخبة يقطن بها ما يزيد عن مائة ألف نسمة معظمهم من العمال الإيرانيين ومن النادي الفارسي الخاص حيث يوجد طاقم أنيق من القائمين على خدمة المدراء البريطانيين إلى الأحياء الضيقة التي يسكنها العمال الإيرانيون والفسقيات التي كتب عليها «ممنوع للإيرانيين»، كانت عبدان مقاطعة استعمارية تقليدية، ومعظم الفنيين والإداريين من البريطانيين، وحصل العديد منهم على منازل فخمة تحتوي على شرفات وحدائق مقلمة الأشجار، ومن وجهة نظرهم كانت عبدان مكانًا شاعريًّا لهم ولعائلاتهم.

أما عشرات الآلاف من العمال الإيرانيين فحياتهم اختلفت عن ذلك تمامًا، حيث عاشوا في أحياء عشوائية وغرف مشتركة بها نظام صحي بدائي، والمحلات ودور السينما والحافلات والمزايا الأخرى محظورة عليهم، ولكنهم شاركوا أصحاب العمل البريطانيين الحياة وسط شبكات من الأنابيب العملاقة وتحت صهاريج التخزين الضخمة وفي ظلال المداخن الشاهقة التي

تتراقص فيها ألسنة اللهب ليل نهار، كان الهواء مشبعًا بأدخنة الكبريت، وهو ما يعتبر تذكيرًا مستمرًّا بالثروات الهائلة التي تتدفق من الأراضي الإيرانية إلى خزائن الشركة البريطانية الفارسية.

تبددت أي شكوك حول قيمة هذا المورد الجديد بعد خوض تجربة الحرب العالمية الأولى التي وصف اللورد كيرزون انتصار الحلفاء فيها بأنهم «عبروا إلى النصر على موجة من النفط.» وخلال الأعوام التالية زاد تدفق النفط من عبدان بانتظام من أقل من ثلاثة آلاف طن عام ١٩١٤ إلى خمسة أضعاف هذا المقدار عام ١٩٢٠، وكانت الشركة البريطانية الفارسية تعطي الأولوية للبحرية البريطانية التي تشتري النفط منها بأسعار مخفضة بشدة، أما ما تبقى فيباع إلى العملاء الصناعيين والسائقين في بريطانيا، ثم عندما زادت الإمدادات أخذوا يبيعونها إلى الآخرين في كل أنحاء العالم.

كان من الممكن أن يمد النفط الملوك القاجاريين بالثراء والقوة مع أنهم لم يكونوا يملكون الموارد اللازمة لاكتشاف النفط أو استخدامه دون مساعدة أجنبية، ولكن بمزيد من البصيرة كان يمكنهم عقد اتفاق أفضل مع شركائهم البريطانيين، ولكنهم بدلًا من ذلك باعوا حقهم لقاء مقابل زهيد، حيث بلغت عائدات إيران لعام ١٩٢٠ طبقًا لاتفاقية الامتياز التي تقضي بحصولهم على ١٦٪ من صافي أرباح الشركة ٤٧٠٠٠ جنيه استرليني، لكن أحمد شاه اعتبر ذلك المبلغ نعمة لا يحلم بمثلها، مع أنه كان مبلغًا ضئيلًا بالمقارنة بما يصب في خزائن شركة النفط.

شهد العام التالي سقوط القاجاريين وصعود نجم رضا خان، وبينما كان رضا يعمل على توطيد حكمه لإيران ظل ينظر بازدراء إلى الشركة البريطانية الفارسية وامتياز دارسي الذي كان يعتبر أهم أصولها، كانت الشركة تحقق أرباحًا فلكية، وفي الوقت ذاته الطريقة التي تحسب بها نسبة إيران من العائد البالغة ١٦٪ موضع شبهة، والفجوة بين الظروف المعيشية للموظفين الإيرانيين والبريطانيين آخذة في الاتساع بانتظام. عام ١٩٢٨ أعطى رضا شاه أوامره للوزراء كي يحاولوا عقد اتفاق جديد أكثر عدلًا مع الشركة، لكن البريطانيين لم يأخذوا ذلك الأمر على محمل الجد، وطوال أربعة أعوام نحوا مطالبه جانبًا بمزيج من الرفض والمماطلة. وبينما كان

القلق يعصف به انتشر الكساد العالمي وبدأت العوائد التي تدفعها الشركة البريطانية الفارسية إلى إيران في الانخفاض، وكان من المحتم في نهاية الأمر أن ينفجر رضا شاه غضبًا، ففي اجتماع وزاري عقد في السادس والعشرين من نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩٣٢ وجه السباب إلى الوزراء لإخفاقهم ثم طالبهم بإظهار الملف الخاص بالمباحثات التي أجريت على مدار أربعة أعوام، وعندما أحضروا له الملف وجه إليهم المزيد من السباب ثم ألقى به في موقد مشتعل، وفي اليوم التالي أعلن للشركة البريطانية الفارسية قراره بإلغاء امتياز دارسي.

لو أتيح لذلك القرار الصمود كان سيعني نهاية عمل الشركة البريطانية الفارسية في إيران ومن ثم انهيار الشركة، شعر المسئولون البريطانيون بالصدمة والغضب واليأس حيال هذا القرار، فتقدموا بشكوى إلى عصبة الأمم، ولكنهم قوبلوا بهجوم مضاد عنيف من المسئولين الإيرانيين الذين اتهموا الشركة البريطانية الفارسية بتزوير حساباتها كي تحرم إيران من حقها في العوائد. وأدرك السير جون كادمان رئيس مجلس إدارة الشركة البريطانية الفارسية أن عليه التفاوض مباشرة مع رضا شاه الذي كان قد حضر حفل تتويجه قبل ثمانية أعوام. وسافر كادمان إلى طهران، ولم يستغرق الأمر سوى بضعة أيام كي يتوصل الصديقان إلى تسوية اتفقا بموجبها على: تخفيض ثلاثة أرباع المساحة التي يغطيها امتياز دارسي، وضمان حق إيران في الحصول على مبلغ ٩٧٥٠٠٠ جنيه استرليني سنويًّا على الأقل، وتحسين ظروف العمل في عبدان، وفي المقابل وافق رضا شاه على مد فترة الامتياز الذي كان مقررًا له أن ينتهي عام ١٩٦١ لمدة اثنين وثلاثين عامًا أخرى، واتفقا أيضًا على تغيير اسم الشركة إلى شركة النفط البريطانية الإيرانية، حيث إن الشاه لا يحب اسم فارس.

بعث كادمان برقية إلى بلاده يقول فيها: «إنني راضٍ كل الرضا عن الامتياز الجديد، فسوف يكون بداية عهد جديد من العلاقات مع إيران بكل المقاييس.»

ساهمت اتفاقية ١٩٣٣ في استقرار أوضاع شركة النفط حتى نهاية حكم رضا شاه، ولكن عندما أجبره القادة البريطانيون على التنازل عن

العرش بعد ذلك بثمانية أعوام، أطاحوا بالقائد الوحيد الذي كان قويًا بما يمكنه من فرض حكمه بالأمر على دولة متزايدة الاضطرابات والقلاقل. وأثناء الحرب العالمية الثانية ازداد السخط والاستياء من الامتيازات الهائلة التي تتمتع بها الشركة، حيث زادت كمية النفط التي تستخرجها من ٦,٥ مليون طن عام ١٩٤١ إلى ١٦,٥ مليون طن عام ١٩٤٥.

في مارس/آذار عام ١٩٤٦، وبعد أقل من عام من نهاية الحرب العالمية الثانية، أعلن العمال في عبدان الإضراب عن العمل، وهو ما لم يكونوا يجرءون على التفكير فيه أثناء حكم رضا شاه، وانطلقوا في الشوارع المزدحمة حاملين اللافتات ومرددين الشعارات التي يطالبون فيها بالحصول على مساكن أفضل ورعاية صحية لائقة والتزام أصحاب العمل بقوانين العمل الإيرانية. ولما كانت بريطانيا قد اكتسبت خبرة كبيرة في التعامل مع تحديات غضب المواطنين، لم ترفض التفاوض فحسب بل أيضًا اختارت طريق المقاومة الإيجابية، حيث أنشأت اتحادًا وهميًا من المجموعات العرقية العربية وسكان القبائل المنشقين من المناطق المجاورة وأرسلتهم كي يواجهوا المضربين، ووقعت أعمال شغب دموية خلفت العشرات من القتلى والمئات من المصابين، ولم تنتهِ إلا عندما وافق مديرو الشركة البريطانية الإيرانية على مضض على الالتزام بقانون العمل الإيراني، ولكنهم لم يفعلوا، وتذكيرًا للإيرانيين بقوتهم أرسلوا سفينتين حربيتين بريطانيتين كي تقوما بمناورات تهديدية على مرأى من عبدان، وبذلك الاستعراض لقوتهم تخيلوا أن الأزمة قد انتهت، ولكنهم في حقيقة الأمر أشعلوا فتيل الرأي العام ضدهم وخطوا خطوة أخرى نحو الهاوية.

لم تكن الحركة العمالية الإيرانية هي المؤسسة الخاملة الوحيدة التي بعثت فيها الحياة من جديد بعد رحيل رضا شاه، بل كان المجلس أيضًا كذلك؛ فالمجلس لم يغلق أبوابه قط، لكن رضا شاه لم يسمح له بأن يؤدي مهامه بحرية، وفي تلك الآونة بدأ المجلس يعيد إثبات نفسه، حيث أشعلت أعمال الشغب التي وقعت في عبدان غضبه، مثله في ذلك مثل بقية أنحاء إيران، وعام ١٩٤٧ أصدر المجلس قرارًا جريئًا بمنع منح أي امتيازات أخرى للشركات الأجنبية وتوجيه الحكومة إلى إعادة التفاوض بشأن الامتياز الحالي الممنوح للشركة البريطانية الإيرانية.

كان ذلك القانون الضربة الأولى في معركة طويلة، حيث تسبب في وضع إيران في سلسلة من المواجهات الكارثية مع بريطانيا. كان النائب الذي كتب مسودة هذا القرار وعرضها على المجلس قوميًّا ناشطًا في الأعوام الأولى من القرن العشرين، ولكن رضا شاه أبعده بالقوة عن مجال السياسة فغاب عن الساحة عشرين عامًا، ثم عاد مدافعًا عن المصالح الإيرانية بنفس الحماس السابق، هذا الرجل هو محمد مصدق.

ساهم معتقدان رئيسان في تشكيل وعي مصدق السياسي؛ أولهما: إيمان عميق بسلطة القانون جعله عدوًّا للاستبداد والحكم المطلق، وخاصة حكم رضا شاه، وثانيهما: قناعة بأن الإيرانيين يجب أن يحكموا أنفسهم وألا يستسلموا لإرادة الأجانب، وهو ما جعل منه مصدر عذاب وغريمًا وخصمًا عنيدًا لشركة النفط البريطانية الإيرانية، وفي منتصف القرن العشرين حدثت مواجهة بطولية بينه وبين الشركة، وقد جمعهما القدر فلا يمكننا ذكر قصة أحدهما دون أن نذكر قصة الآخر.

منذ لحظة ميلاده في التاسع عشر من مايو/أيار عام ١٨٨٢، تمتع مصدق بامتيازات قلما حصل عليها أحد مواطنيه، فوالدته أميرة قاجارية تنحدر من عائلة ضمت الكثير من المحافظين والوزراء والسفراء، ووالده ينحدر من قبيلة الأشتياني المعروفة وعمل وزيرًا للمالية لأكثر من عشرين عامًا في ظل حكم ناصر الدين شاه. وتوفي الأب عندما كان ابنه طفلًا، وطبقًا للعرف تلقى الطفل تعليمًا يعده كي يمتهن نفس مهنة والده، وفي سن السادسة عشرة اختير كي يشغل منصبه الحكومي الأول، ولم تكن وظيفة صورية، بل شغل منصب كبير مراجعي حسابات الضرائب في مسقط رأسه خراسان، وقد عرفته تلك الوظيفة على عالم المالية العامة المعقد، وأيضًا على الفساد والفوضى التي تضرب بأطنابها في السلالة القاجارية، وقد أجمع الكل على أنه أبلى بلاء حسنًا في ذلك المنصب. وقدر أحد الأشخاص الذين زاروه ذات يوم بعد توليه المنصب بفترة وجيزة عمره بمنتصف العشرينات، وكان هذا الزائر ذا بصيرة ثاقبة، حيث كتب في يومياته:

> لا يضاهيه أحد من الرجال المشهود لهم بالذكاء والعلم في لباقته وكياسته، فهو يتحدث ويتصرف ويستقبل الناس بمزيج من

الاحترام والتواضع والمجاملة دون أن يقلل ذلك من مكانته الرفيعة. وقد يكون في بعض الأوقات قد عامل زملاءه من كبار المسئولين ووزراء المالية بنوع من الاحتقار، ولكن تعامله مع الناس الآخرين أظهر فيضًا من المشاعر الإنسانية واللطف والتواضع. ومثل هذا الشاب المثير للإعجاب يجب أن يصبح من العظماء.

بلغ مصدق سن الرشد في فترة حرجة من التاريخ الإيراني، وكان عمره ثمانية أعوام عندما اندلعت ثورة التبغ، ونظرًا إلى نضجه المبكر وانخراط والديه في الحياة العامة يمكننا أن نفترض أنه تابع مسارها باهتمام. وقد لعب العديد من أقاربه ومنهم عمه الأمير العظيم فارمان فارما أدوارًا مهمة في الثورة الدستورية. وعندما عقدت الدعوة لإجراء أول انتخابات للمجلس عام ١٩٠٦ ترشح مصدق وفاز بمقعد عن دائرة أصفهان، ومع أنه لم يتمكن من تولي هذا المنصب لأنه لم يكن قد بلغ السن القانونية بعد، وهي ثلاثين عامًا، فإن مستقبله السياسي كان يتخذ مجراه.

وفي تلك الأعوام المبكرة كوّن مصدق أكثر من مجرد وجهة نظر سياسية، وظهرت عليه أيضًا طبائع انفعالية غير اعتيادية، وكانت ثقته اللامتناهية بنفسه تدفعه إلى القتال بشراسة دفاعًا عن مبادئه، ولكنه عندما لا يجد استجابة من الآخرين يغرق في فترات طويلة من الصمت والاكتئاب، وهذا ما حدث عام ١٩٠٩ عندما شن محمد علي شاه هجومه الدموي على المجلس، فبدلًا من أن يبقى كي يواصل الكفاح مع رفاقه المناصرين للديمقراطية، توصل إلى أن إيران لا تزال غير مستعدة للتنوير وغادر البلاد متجهًا إلى باريس التي اعتبرها قلب العالم المتحضر، مثله في ذلك مثل العديد من الإيرانيين الذين ينتمون إلى طبقته، كي يواصل دراسته في مدرسة العلوم السياسية.

وأثناء إقامته في فرنسا أصيب مصدق بأمراض لازمته طوال حياته ولم يتمكن أحد من تشخيصها؛ كانت تلك الأمراض جسدية، وكانت تهاجمه على نحو دوري مسببة القرح والنزيف وإفرازات المعدة وأعراض أخرى، ولها أيضًا أعراض عصبية تؤدي إلى حدوث نوبات وانهيارات، لم تكن تلك الأعراض جسمانية ولا نفسية بالكامل، لكنها عكست شخصية مصدق

وأصبحت جزءًا منها. كان مصدق أكثر السياسيين الذين عرفتهم إيران درامية، ففي بعض الأحيان يبلغ ذروة انفعاله أثناء إلقاء الخطب أن يذرف الدموع، وأحيانًا أخرى يسقط مغشيًا عليه، سواء بسبب الانفعال أم الحالة الصحية. وعندما أصبح شخصًا معروفًا على مستوى العالم استغل أعداؤه في العواصم الأجنبية هذا الجانب من شخصيته كي يسخروا منه ويقللوا من شأنه، ولكن في إيران حيث ساهمت قرون طويلة من الإيمان بالمذهب الشيعي في إثارة عواطف الجماهير إثارة لا يتخيلها الغرب لم يكن هذا الأمر مقبولًا فحسب، بل كان موضع احتفاء، حيث يثبت مدى شعوره بمعاناة الشعب ومشاطرته أحزانه.

اضطر مصدق بعد إصابته بالمرض وظهور أعراضه عليه أن يترك دراسته في فرنسا ويعود إلى إيران بعد عام واحد، وهناك شعر بالارتياح قليلًا لأن الحاكم الذي كان يبغضه من أعماق قلبه محمد علي شاه كان قد طرد من منصبه، وبعد شفائه عاد إلى أوروبا، وتحديدًا إلى مدينة نيوشاتل السويسرية، بصحبة زوجته وأطفاله الثلاثة ووالدته الحبيبة، والتحق بالجامعة هناك حتى حصل على دكتوراة في القانون عام ١٩١٤، وهو أول إيراني يحصل على تلك الشهادة من جامعة أوروبية، ثم قرر أن يقدم طلبًا للحصول على الجنسية السويسرية، ولكن كان عليه العودة للوطن أولًا كي يستكمل تأليف كتاب حول الشريعة الإسلامية.

عاد مصدق إلى دولة تتأجج فيها نيران الصراع، فقد منحت الثورة الدستورية للإيرانيين مذاق فاكهة الديمقراطية المحرمة فتلهفوا على المزيد منها، وكانت السلالة القاجارية تتهاوى، وأهم ما في الأمر أن اندلاع الحرب العالمية الأولى قد قضى على كل الحقائق السياسية الأكيدة وفتح المجال لكل الاحتمالات. ولما قسمت بريطانيا وروسيا إيران بينهما عام ١٩٠٧، كانا ما يزالان يمسكان بزمام الأمور هناك، ولكن الاستياء حيال ذلك جعل العديد من الإيرانيين يتعاطفون مع ألمانيا القيصرية، وأنشأت مجموعة من المثقفين بقيادة حسن تقي زادة الذي كان أحد الأشخاص المحوريين في الثورة الدستورية «لجنة تحرير» في برلين، وأصدرت تلك اللجنة جريدة متطرفة، تهدف إلى الاستيلاء على السلطة في طهران. تحمس مصدق لتلك الحركات،

وبدلًا من العودة إلى سويسرا التحق بكلية الحقوق والعلوم السياسية بطهران التي كانت في طريقها لتصبح أول جامعة حديثة في إيران، وفي كتابه الذي يحمل عنوان «إيران واتفاقيات الامتيازات الأجنبية» قال إن إيران يمكنها امتلاك نظم سياسية وقانونية حديثة على الطراز الأوروبي إذا اتخذت خطوة مهمة واحدة، وهي تطبيق القانون بالعدل على الجميع بما فيهم الأجانب وعدم منح امتيازات خاصة لأحد.

وبعد عودة مصدق إلى الوطن بأقل من عام طلب منه عمه فارمان فارما الذي أصبح رئيسًا للوزراء أن يتولى منصب وزير المالية، ولكن مصدق رفض لأنه لم يرغب في أن يقال إنه وصل إلى السلطة عن طريق الصلات العائلية. وعام ١٩١٧ أصيب بالتهاب الزائدة الدودية وأجرى عملية لاستئصالها في باكو، وبينما كان يتماثل للشفاء تلقى عرضًا آخر بأن يصبح نائب وزير المالية، في ذلك الوقت كان عمه قد ترك رئاسة الوزارة، وتحت إلحاح من والدته قبل المنصب، ولكنه أحبط زملاءه الجدد باكتشافه سلسلة من المخططات الإفسادية وإصراره على معاقبة المجرمين، وبعد أقل من عامين أقيل من منصبه. ومرة أخرى رأى أن إيران لا تستحق خدماته وعاد إلى نيوشاتل، وهكذا أثبت كونه صاحب رؤية وليس رجلًا نفعيًّا، وهو المبدأ الذي ظل ثابتًا عليه طوال حياته، حيث فضل الهزيمة في سبيل قضية عظمى عن القبول بما اعتبره تسوية مذلة.

كان مصدق في نيوشاتل عندما علم بالاتفاقية البريطانية الإيرانية سيئة السمعة التي أجريت عام ١٩١٩ والتي جعلت من إيران دولة تابعة لبريطانيا، فغضب غضبًا شديدًا وفعل كل ما في وسعه كي يعبر عن احتجاجه كما ذكر أحد كتاب السيرة الإيرانيين قائلًا:

> أخذ يخاطب الشخصيات الإيرانية البارزة في أوروبا ويراسلهم، وأخذ يصدر المنشورات ويرسل احتجاجات ضد الاتفاقية إلى عصبة الأمم، بل إنه سافر إلى برن من أجل إحضار ختم مطاطي خاص بلجنة المقاومة الشعبية ختمت به البيانات المناهضة للاتفاقية. ومن المؤكد أن الغضب والإحباط والوحدة كان لها تأثيرها السلبي على أعصابه، فمن المستبعد أنه كان في تلك الفترة مراقبًا من

العملاء البريطانيين كما كان يتخيل، وأن أحد هؤلاء العملاء كان متخفيًا في صورة امرأة أنيقة جذابة مليئة بالحيوية تسكن بجواره نادته ذات مرة من الشرفة قائلة: «هل ترغب في التدخين هذا المساء؟» وشعرت بالإحباط عندما رد مصدق: «إنني في غاية الأسف يا سيدتي، إنني مريض، إنني مشغول، إنني متعب، ليس عندي وقت، بعد إذنك سيدتي.»

شعر مصدق بالإحباط الشديد لإخفاق مواطنيه في اتخاذ موقف غاضب من الاتفاقية البريطانية الإيرانية، وخلال بضعة شهور توصل إلى أن القضية الوطنية الإيرانية قضية خاسرة وأنه لا مكان له في وطنه، وقرر أن يتقدم بطلب للحصول على الجنسية السويسرية ويقضي بقية عمره يمارس المحاماة هناك. ولكن للأسف كانت قوانين الهجرة السويسرية قد زادت صعوبة منذ آخر مرة فكر فيها في هذا الأمر، مما أدى إلى تأخير طلبه، ففكر في إنشاء شركة استيراد وتصدير وقرر السفر إلى إيران كي يقوم ببعض الترتيبات مع التجار هناك. وما إن وطئت قدمه أرض إيران حتى وجد نفسه متورطًا في السياسة مرة أخرى؛ ففي طريقه إلى طهران مر بمحافظة فارس الجنوبية، وعندما علم أعيان المنطقة بوجوده عرضوا عليه مبلغًا ضخمًا من المال كي يمكث هناك ويتولى منصب المحافظ، فوافق على البقاء ولكنه رفض العرض المالي وأصر على ألا يتقاضى راتبًا.

عند وصول رضا خان إلى السلطة عام ١٩٢١ حاول الاستفادة من مواهب مصدق الواضحة، ولكن شراكتهما كانت قصيرة المدى وحافلة بالأحداث التعيسة، حيث تولى مصدق منصب وزير المالية، وهو المنصب الذي كان مؤهلًا له تمامًا، لكنه عند توليه المنصب شن حملة ضد الفساد شكلت تهديدًا على رضا شاه وأصدقائه، وسرعان ما اضطر للاستقالة من منصبه. وبعد ذلك عين محافظًا لأذربيجان حيث كان السوفييت يحاولون إشعال ثورة انفصالية، ولكنه استقال عندما رفض رضا شاه أن يعطيه سلطة على القوات المتمركزة هناك، ثم تولى منصب وزير الخارجية لبضعة أشهر. وفي نهاية الأمر توصل إلى أن رضا شاه لا يشاركه طبيعته الديمقراطية ولا معتقداته المناهضة للاستعمار، فاستقال من وزارة الخارجية وترشح في

المجلس وفاز في الانتخابات بسهولة، وهكذا نال حريته وسرعان ما أصبح من أشرس المعارضين لرضا شاه.

عندما انضم مصدق إلى المجلس عام ١٩٢٤، كان بالفعل سياسيًّا بكل ما تحمله الكلمة من معنى، حيث أصبح يملك وعيًا عميقًا ببلاده ونظامها السياسي ونقاط ضعفها التي عزا معظمها إلى جشع السادة الأجانب، ولكنه لم يكن جزءًا من أي مؤسسة سياسية أو غير سياسية. وقد اعتبره العديد من الإيرانيين الأثرياء وذوي النفوذ خائنًا لطبقته الاجتماعية، وذلك بسبب إصراره على الحكم عليهم بنصوص القانون وليس بروحه، بل إن بعض مؤيديه كانوا يشعرون بالغضب من ثقته الشديدة بنفسه التي تدفعه إلى وصف منتقديه بأنهم أوغاد أو حمقى.

كانت هيئة مصدق بمثل غرابة شخصيته؛ فارع الطول لكن أكتافه منحنية كما لو كان يحمل حملًا ثقيلًا، مما أعطاه هيئة رجل مدان يسير برزانة نحو تنفيذ حكم الإعدام، ووجهه طويل تميزه عينان حزينتان وأنف طويل بارز يحلو لأعدائه أن يشبهوه بمنقار النسر، وبشرته رقيقة ذات لون أبيض شاحب، ولكنه رغم ذلك يملك عزمًا وإصرارًا تأثر به العديد من مواطنيه، وكان مصدر إلهام لهم. وكان يفوق معظمهم في الفكر والتعليم، وهو ما يعتبر نقطة ضعف للسياسي في بعض الدول، ولكن ليس في إيران حيث يتطلع غير المفكرين باحترام شديد إلى المفكرين. وكان دخوله المجلس بداية مرحلة جديدة في حياته المهنية المميزة كما ذكر أحد أبناء عمه في مذكراته:

> لم يكن مصدق بعينيه الناعستين اللتين تشبهان عيني كلاب الصيد وجبهته الأرستقراطية يبدو شخصًا يمكنه أن يهز أمة بأسرها ... فهو يرى أن البرلمان هو الناطق الوحيد بلسان الشعب الإيراني، ومهما كانت الانتخابات صورية أو كان النواب فاسدين، فالبرلمان هو الجهة الوحيدة التي لا تعتمد في سلطتها على نفوذ خارجي أو على البلاط [الملكي] ولكن على سلطة الدستور، وهكذا أصبح المجلس هو المتنفس الوحيد له. وعندما أعاد أهالي طهران انتخابه مرات عديدة استخدم ذلك في إدانة سوء تصرف

البريطانيين والروسيين ولاحقًا الأمريكيين. وعندما صرح قائلًا «إن الإيراني نفسه أفضل من يدير منزله»، لم تكن تلك مجرد قناعة ولكن سياسة سوف يستمر في اتباعها بعزم لا يلين حتى ظهرت صورته على غلاف مجلة تايم وتسبب في هز قواعد مؤسسة النفط العالمية.

ومع أن مصدق كان يدافع عن حق الإيرانيين في تقرير المصير، فلم يكن يثق كثيرًا بزملائه النواب، ولم يسلم من سياط لسانه اللاذعة إلا قليل منهم، حيث اتهمهم بالجبن والافتقار إلى روح المبادرة بل بعدم الوطنية، والانتقادات التي يوجهها من على المنبر مخيفة وتتميز بالطابع المسرحي، حيث تشير يداه بحدة وتمتدان لا شعوريًا كي تمسحا الدموع التي تنسال تلقائيًا عند شعوره بالتوتر أو الغضب، وينتقد مستمعيه كما يفعل القس الذي يشاطر الضحايا آلامهم حتى وهو يكشف أقنعتهم. ولما كان شخصية بارزة تتميز بالعاطفية الشديدة والأرستقراطية، آمن ببلاده بشدة حتى إن كلماته تصل إلى قلوب الجميع وتؤثر في رجل الشارع. كان مصدق أول زعيم شعبي حقيقي في إيران، وهو يعلم ذلك جيدًا.

لو كانت إيران تواجه مشاكل داخلية فحسب، فسيذكر التاريخ مصدق بوصفه مدافعًا نشطًا عن الإصلاح والتحديث فحسب، ولكن أزمة إيران الكبرى تمثلت في علاقتها بالقوى الخارجية خاصة بريطانيا وعلى وجه التحديد شركة النفط البريطانية الإيرانية، وقد استسلم العديد من الإيرانيين لاستغلال تلك القوى، ولكن مصدق لم يكن أحدهم.

خلال الأشهر الأولى له في المجلس كان مصدق كثيرًا ما يطلب الكلمة، ويتناول موضوعات تتراوح بين الفساد العسكري والاحتياجات الصناعية الجديدة في إيران، لكن الموضوعات الرئيسة التي اهتم بها شملت الديمقراطية والاعتماد على النفس، حيث أكد في إحدى خطبه قائلًا: «لو كان الازدهار يتحقق في أي بلد عن طريق تدخل الدول الأخرى، لاستقدمت كل دولة

أجانب إليها، ولو أن الاستعباد مفيد لما سعت أي دولة إلى نيل حريتها عن طريق خوض الحروب الدامية وتكبد الخسائر الثقيلة.»

وفي التاسع والعشرين من أكتوبر/تشرين الأول عام ١٩٢٥ تلقى المجلس أقوى الاقتراحات في تاريخه على الإطلاق، وكان مقدموه هم مؤيدو رضا، حيث طالبوا بإنهاء حكم السلالة القاجارية وتعيين رضا في منصب الشاه، فزع مصدق لذلك الطلب، وعندما أتى دوره للحديث صمت جميع النواب، استهل مصدق حديثه بأن أتى بنسخة من المصحف وطالب الجميع بالوقوف كي يقسموا عليه على الدفاع عن النظام الدستوري. وبعد أن نفذ الجميع هذا الطلب ألقى مصدق أطول الخطب في ذلك اليوم وأكثرها عاطفية، حيث أشاد بإنجازات رضا، لكنه أكد أن رضا لو كان يرغب في حكم البلاد فعليه أن يتولى منصب رئيس الوزراء وليس الشاه، حيث يعتبر تركيز السلطة الملكية والإدارية في يد رجل واحد نوعًا من «الرجعية والاستبداد»، وهو نظام فاسد لدرجة أنه «لا يوجد حتى في بلاد زنزبار.» وبنوع من التشاؤم حذر مصدق من ميول رضا الاستبدادية، وتنبأ بأن جلوسه على العرش سوف يقود البلاد إلى الحكم الدكتاتوري المطلق، وتساءل مصدق: «هل ضحى الناس بأرواحهم في الثورة الدستورية من أجل تحقيق الدكتاتورية؟ أقسم أنهم لو قطعوا رأسي ومثلوا بجثتي فلن أوافق على مثل هذا القرار.»

لم يكن مصدق يتوهم أن بإمكانه منع رضا من الجلوس على العرش، فقد كان رضا نموذجًا للقوة الصاعدة في دولة على شفا الانقراض، وبعد يومين من خطاب مصدق الناري أدرك المجلس تلك الحقيقة ووافق على تتويجه، في تلك المناسبة وضع رضا التاج المزين بالريش والمرصع بالجواهر على رأسه مثلما فعل نابليون، مما يرمز إلى عقده النية على الحكم حسب مشيئته الخاصة، ولبضعة أشهر حكم بمفرده، وبعد أن وطد دعائم حكمه عين رئيسًا للوزراء وطالبه بتعيين مصدق وزيرًا للخارجية، وهي حركة ذكية منه، فمصدق يتمتع بشعبية جارفة وأوراق اعتماد للمبادئ القومية لا تشوبها شائبة بإمكانها أن تفيد النظام الجديد، ولكن لم يفاجأ أحد برفض مصدق لذلك العرض، فقد كان مستمتعًا بالعمل الحر، وأدرك بلا

ريب أن رفضه للدكتاتورية سوف يضعه قريبًا في صراع مع الشاه الجديد. ولم يكتف برفضه عرض الانضمام إلى مجلس الوزراء، بل ندد بهذا المجلس عند تشكيله. وفي خطابه اتهم اثنين من الوزراء القادمين بالخيانة بسبب دورهما في التفاوض بشأن الاتفاقية البريطانية الإيرانية.

وعلى مدار الشهور التالية عرض رضا شاه على مصدق مناصب عديدة في الحكومة، بما فيها قاضي القضاة ورئيس الوزراء، ولكن مصدق رفضها كلها. وبعد إعادة انتخابه في المجلس في نهاية عام ١٩٢٦، رفض أن يؤدي القسم لأنه كان يتضمن تعهدًا باحترام سلطة الشاه، وكان من المفترض أن يمنعه ذلك من تولي منصبه، ولكن نظرًا إلى قوة حضوره وإرادته لم يجرؤ أحد على تحديه.

وعلى غرار المؤسسات الأخرى في إيران، سرعان ما تقلص دور المجلس إلى الموافقة الروتينية فقط على القرارات التي يتخذها رضا شاه، فقد حظر إنشاء أحزاب المعارضة وحرم زعماءها من ممارسة الحياة العامة، وفور أن بدأت تلك الحملة القمعية كان لا بد أن يكون مصدق من قائمة ضحاياها، وعند اقتراب الانتخابات التي أجريت عام ١٩٢٨ أصدر رضا شاه أوامره بإحصاء الأصوات الانتخابية بطريقة تضمن ألا يفوز أي معارض له، فكان مصدق من ضمن الخاسرين، وفي سن الخامسة والأربعين بدا أن مستقبله السياسي قد انتهى.

كانت هناك العديد من المسارات المتاحة أمام السياسي المخلوع، فيمكنه تخفيف حدة معارضته لرضا شاه ومحاولة العمل داخل إطار النظام، ونظرًا إلى قوة مبادئه أصبح هذا الخيار مستحيلًا، ويمكنه تحدي النظام عن طريق إطلاق حملة تخريبية، وهو ما كان من الممكن أن يؤدي إلى اغتياله، حيث إن العديد من حلفاء رضا شاه القدامى لاقوا نفس المصير عندما بدأ يشك في إخلاصهم. أما الخيار الأخير فقد كان الأمثل ليس لتلك المرحلة فحسب، بل أيضًا لشخصية مصدق، فقد اختفى عن الأنظار وعاد إلى ضيعته الريفية في أحمد آباد التي تقع ستين ميلًا غرب طهران، وكرس نفسه للدراسة وإجراء التجارب الزراعية، واختفى اسمه تمامًا من الصحف ومن الخطاب الشعبي، وبينما كانت قوة رضا شاه آخذة في الازدياد، أخذت

صورة مصدق تبهت حتى اختفت تقريبًا، وافترض معظم الإيرانيين أن أهميته قد انتهت، وحتى هو شخصيًّا اعتقد ذلك.

وبعد مرور الأعوام الأولى من منفاه الاختياري، وبعد أن أرهقه عناء الوحدة وصدمته أخبار اتفاقية ١٩٣٣ التي أعاد رضا شاه بموجبها تأكيد حق الشركة البريطانية الإيرانية في إدارة صناعة النفط في البلاد، سقط مصدق فريسة للمرض، كان ينزف من فمه بغزارة حتى إنه سافر عام ١٩٣٦ إلى ألمانيا لاستشارة الأطباء المختصين، ولكنهم لم يتمكنوا من تشخيص تلك الحالة. ولكن حتى وهو في تلك الحالة من الضعف، كان رضا شاه يخشاه، وفي يوم من عام ١٩٤٠ اقتحم الجنود منزله في أحمد آباد وفتشوه بدقة بحثًا عن أدلة قد تورطه في عمليات التخريب، ثم قبضوا عليه رغم أنهم لم يجدوا شيئًا، وفي قسم الشرطة احتج مصدق ساخطًا على الضابط مستشهدًا بقانون يجب بموجبه إما توجيه تهمة محددة إلى السجين أو إطلاق سراحه خلال أربع وعشرين ساعة، لكن الضابط رد قائلًا إن القانون الوحيد الذي يعلمه هو إرادة رضا شاه الذي أمر بإيداع مصدق السجن لأجل غير مسمى دون تهمة محددة، مما جعل مصدق يشتعل غضبًا، واضطروا إلى سحبه إلى السيارة التي كانت بانتظاره كي تقله إلى السجن. وفي الطريق إلى السجن تناول جرعة زائدة من المهدئات في محاولة منه للانتحار، ولكنه سقط في غيبوبة فحسب. وفي الزنزانة ظهرت عليه علامات «الهستيريا المزمنة» طبقًا لوصف سجانه، حيث حاول الانتحار بشفرات الحلاقة والإضراب عن الطعام. وبعد عدة أشهر، وبفضل شفاعة إرنست بيرون — وهو صديق سويسري للشاه تلقى علاجًا ذات مرة في إحدى المستشفيات التي تبرعت بإنشائها والدة مصدق — سمح له بالعودة إلى أحمد آباد تحت الإقامة الجبرية في المنزل.

وطوال عشرين عامًا قضى مصدق بعضها في العمل السياسي والبقية في غياهب النسيان، ظل مصدق يعتبر الشاه ونظامه أكبر أعداء إيران. وفجأة رحل رضا شاه، مما غير كل شيء للأمة ولمصدق نفسه. كانت الانتخابات التي أجريت عام ١٩٤٣ أول انتخابات حرة منذ سنوات عديدة، وخرج مصدق من عزلته ورشح نفسه مرة أخرى في المجلس، وحصل على أصوات

أكثر من بقية المرشحين. ومع أن عدوه القديم خُلع عن عرشه، فهناك عدو جديد أكثر قوة يقف في طريق أحلامه لإيران، فالبريطانيون وتحديدًا شركة النفط البريطانية الإيرانية تسيطر على البلاد سيطرة غير مسبوقة، وهنا كان على مصدق أن يتفرغ لهم.

الفصل الخامس

أوامر سيده

في أواخر الأربعينيات من القرن العشرين، عندما كانت إيران تمزقها الثورات الانفصالية وتستنزفها شركة النفط البريطانية الإيرانية، كان محمد رضا شاه مهتمًا بالسيارات الرياضية وسباق الخيل والنساء، بل إنه أصبح ضيفًا ثابتًا في الحفلات الدولية، حيث كان يفضل ملاهي لندن الليلية وأقام سلسلة من العلاقات مع بعض ممثلات الدرجة الثانية من أمثال إيفون دي كارلو وجين تيرني وسيلفانا مانجانو. وقد حاول أكثر من مرة أن يعمل على توطيد مركزه المتزعزع في بلاده عن طريق القمع والتلاعب بالأصوات، لكنه لم ينجح إلا في أن يجعل من نفسه أضحوكة، حيث أطلقت عليه الصحف خادم بريطانيا المطيع، وعقدت اللقاءات الجماهيرية من أجل التنديد به، وهو غافل عن الاحتقار الذي يكنه له العديد من الإيرانيين، ولم يكن يتخيل أن هناك أي خطر على حياته عندما زار جامعة طهران كي يحضر احتفالًا بإحدى المناسبات.

كان الثلج يتساقط في ذلك اليوم — الرابع من فبراير/شباط عام ١٩٤٩ — وفور أن خرج الشاه من السيارة واقترب من السلم أخرج شاب متنكر في هيئة مصور فوتوغرافي مسدسه وبدأ يطلق الرصاص عليه، المسافة التي فصلت بين الرجلين ستة أقدام فحسب، لكن الرجل أثبت أنه لا يجيد التصويب بأي حال من الأحوال، فقد انطلقت الرصاصات الثلاثة الأولى لتصيب القبعة العسكرية التي يرتديها الشاه، وفي رد فعل عكسي تحول الشاه باتجاهه، فأصابته طلقة رابعة في خده الأيمن، أسرع الحرس واللواءات وضباط الشرطة يختبئون لحماية أنفسهم، ولم يهتم أحد بإنقاذ

حياة الشاه، بل تركوا الرجلين في مواجهة للحظة، وانحنى الشاه بينما كانت الرصاصة الخامسة تدوي وتصيب كتفه، ولم يتبقَ سوى رصاصة واحدة، فصوب الرجل مسدسه إلى صدر الشاه مباشرة وجذب الزناد، ولكن لم يصدر سوى صوت خافت، لقد تعطل المسدس فجأة.

عندما ذهب الخطر انطلق مسئولو الأمن يكيلون الضربات للقاتل وأطلقوا الرصاص عليه، واستغرق الأمر بضعة دقائق من محمد رضا شاه — الذي كان في ذلك الوقت يبلغ من العمر تسعة وعشرين عامًا — كي يتمالك أعصابه، وأعلن — وهو لا يزال يلهث — أن العناية الإلهية قد أنقذته، وقد يكون قد صدق ذلك بالفعل. وفي اليوم التالي أرسل زيه الملطخ بالدماء إلى نادي الضباط وأمر بوضعه في نافذة للعرض، وسرعان ما قرر أن الوقت قد حان كي يفرض إرادته على إيران كما فعل والده من قبل.

كانت إيران قد بدأت عهدًا جديدًا عندما تنازل رضا شاه عن العرش عام ١٩٤١، وشعر العديد من رعاياه بالابتهاج لرحيله، ومنهم الآلاف من العائلات القبلية التي هجرت في الحال المستوطنات البائسة التي جمعهم فيها كالقطيع وعادوا إلى حياتهم البدوية في الجبال. بينما شعر آخرون، ومنهم من اكتووا بنيران حكمه القاسية، بأنهم قد خسروا الحصن الوحيد للبلاد من الفوضى وحكم الأجانب. وشعر معظم الناس بمزيج من الارتياح والتوجس يشبه ما يشعر به الطلاب المشاكسون عندما يصاب معلمهم الصارم بالمرض ويتغيب عن المدرسة. وانتعشت الصحف والأحزاب السياسية والاتحادات العمالية والمنظمات الاجتماعية، ولكن صاحب ذلك ازدهار العصابات الإجرامية أيضًا. وشيئًا فشيئًا ذاب الخوف من السلطة الذي غرسه رضا شاه في نفوس الناس، فعندما وبخت إحدى سيدات الطبقة العليا سائقها الخاص لسيره عكس الاتجاه أجاب: «لا يهم لقد رحل رضا شاه.»

وبعد إجبار ذلك الزعيم المهاب على التنازل عن العرش، فكر البريطانيون أولًا في إعادة السلالة القاجارية سيئة السمعة إلى الحكم، ولكن بعد أن أدركوا أن المطالب بالعرش الذي يعيش في لندن لا يتحدث الفارسية قرروا السماح لمحمد رضا بالجلوس على العرش. وعقب تتويجه مباشرة طالبوه بتعيين محمد علي فروغي، وهو سياسي مؤيد لبريطانيا، في منصب رئيس

الوزراء، وهكذا حكموا إيران فعليًّا عن طريقه. وكي يثبتوا سلطانهم هناك عملوا على إحياء الطراز القديم الذي قسمت البلاد بموجبه إلى ثلاثة قطاعات، حيث كانت القوات السوفييتية تسيطر على الشمال والبريطانية تسيطر على المقاطعات الجنوبية التي تضم حقول النفط ومعمل التكرير في عبدان والطريق البري إلى الهند، واستمر الإيرانيون في فرض سيطرتهم على طهران وبقية وسط البلاد، ولكن تحت مراقبة المستعمر.

استفاد الحلفاء من إيران أثناء الحرب، ليس عن طريق استخراج كميات ضخمة من النفط فحسب، بل أيضًا عن طريق بناء قواعد إمداد عديدة استخدموها في بدء العمليات العسكرية عبر أنحاء الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. ولكن المواطنين الإيرانيين العاديين وجدوا أن مستوى المعيشة ينخفض بسرعة شديدة، فمعظم الغذاء يذهب إلى العسكريين بدلًا من المدنيين، واستخدمت الشاحنات والسكك الحديدية في الأغراض العسكرية، وارتفعت الأسعار مع انتعاش البورصة، وأدت قلة المحاصيل إلى تضور كثيرين جوعًا، وأقيل فروغي عندما أصبح هدفًا لسخط الجماهير، ولكن من خلفوه في المنصب لم يحققوا أي نجاح يذكر.

طوال فترة الحرب ووقوع إيران في قبضة الاحتلال العسكري صمتت المعارضة تمامًا، ولكن الحياة السياسية بدأت تستأنف ببطء، حيث أدرك الجميع أن الحرب والاحتلال ظروف مؤقتة فقط، وفور أن تنتهي ستوجد أمة جديدة عليهم بناؤها.

لم يتمكن محمد رضا شاه أو رؤساء الوزارة الكثيرون الذين تعاقبوا على إيران من جذب أنظار الجماهير خلال فترة الأربعينيات، وكان الشخص الوحيد الذي تمكن من ذلك هو الجندي الأمريكي الملفت للأنظار إتش نورمان شوارتسكوف الذي دخل البلاد عام ١٩٤٢ قائدًا لمهمة عسكرية؛ كان شوارتسكوف قد تخرج من الكلية العسكرية الأمريكية (ويست بوينت) وأصبح رئيسًا لشرطة ولاية نيوجيرسي، وأصبح شخصية معروفة أثناء إدارته التحقيق في قضية اختطاف ليندبرج، وقضى أعوامًا عديدة يؤدي دورًا في الدراما الإذاعية «مروض العصابات»، وعند اندلاع الحرب العالمية الثانية التحق بالجيش مرة أخرى وأرسل إلى إيران، حيث كلفه قادة الحلفاء بتحويل

قوات الشرطة الريفية البسيطة إلى وحدة على أعلى مستوى، وقد أدى تلك المهمة باستمتاع شديد. وطوال ستة أعوام تخللتها فترات عصيبة من مظاهرات الخبز والاحتجاجات الأخرى، يظهر هو ورجال الشرطة الملكية الإيرانية أينما حدثت مشكلة، وفي الوقت ذاته يشرف على تدريب فرقة أمنية سرية أصبحت فيما بعد الأداة التي يُعاقب بها اليساريون والمنشقون. وقد أصيب العديد من الإيرانيين بالذعر من ذلك الشخص الجبار، ذلك المنتقم المخيف الذي حمل سلطة الشاه معه في كل شبر من البلاد، وفي مصادفة تاريخية غريبة عاد ابنه الجنرال إتش نورمان شوارتسكوف أيضًا إلى المنطقة قائدًا لعملية عاصفة الصحراء عام ١٩٩٠-١٩٩١، وترك علامة خالدة في تاريخ المنطقة.

كان الإيرانيون في منتصف القرن العشرين يبحثون عن حلول جديدة لمشاكلهم المزمنة من الفقر والتخلف، وعلى غرار ما حدث في الدول الأخرى اعتنق بعضهم المذهب الشيوعي الناشئ، وفي الثلاثينيات أمر رضا شاه بحبس العشرات من الأساتذة والمنظمين السياسيين ذوي الميول اليسارية، وقد قضوا وقتًا طويلًا يتناقشون في السياسة وهم خلف القضبان، وعند إطلاق سراحهم بعد تنازل رضا شاه عن العرش أنشئوا مجموعة أطلقوا عليها مجموعة الثلاثة والخمسين وشرعوا في البحث عن برنامج سياسي جديد، فانضم بعضهم إلى مجموعة مفككة من الليبراليين والمصلحين والنشطاء الاجتماعيين كي ينشئوا أول حزب سياسي حقيقي في إيران وهو حزب تودة (أي حزب الجماهير). وفي المؤتمر التأسيسي الذي عقد عام ١٩٤٢ تبنى الحزب برنامجًا تقدميًّا يعتمد على مبدأ التزام الحكومة بحماية المواطنين البسطاء من استغلال الأغنياء، وأيد الحزب الإصلاح الشامل رغم أنه لم يكن ثورة أو حزبًا شموليًّا. ولما كان الحزب وطنيًّا مثاليًّا يتمتع بروح الشباب بدا أنه حركة واعدة، وقد سمح له البريطانيون بالعمل، ودعمه المسئولون الحكوميون السوفييت نظرًا لوجود الشيوعيين بين صفوفه.

ولفترة من الزمن ازدهر حزب تودة بوصفه حزبًا عصريًّا على الطراز الأوروبي، لكن المجموعة المؤيدة للسوفييت به ازدادت قوة حتى تمكنت من السيطرة على الحزب عام ١٩٤٤، وهنا تحول حزب تودة نحو الماركسية

وأطلق حملة منظمة بين فقراء المدن، وحققت تلك الحملة نجاحًا باهرًا حتى إنها تمكنت في يوم مهرجان الربيع من عام ١٩٤٦ من ملء شوارع طهران وعبدان بعشرات الآلاف من المتظاهرين المتحمسين، وفاز العديد من قادتها في انتخابات المجلس في ذلك العام، واستمروا في محاولاتهم لإصدار قوانين للحد من عمالة الأطفال وتحديد عدد ساعات العمل بثمانٍ وأربعين ساعة في الأسبوع وضمان حق الأمهات في إجازة رعاية الطفل ووضع حد أدنى للأجور.

أغرت قوة حزب تودة المتزايدة الاتحاد السوفييتي بتوجيه ضربة جريئة إلى إيران، فأثناء الحرب العالمية الثانية اتفقت ثلاثة من قوات الحلفاء على سحب قوات الاحتلال التابعة لها من إيران بعد مضي ستة أشهر على انتهاء الحرب، ولكن عندما جاء ذلك الموعد أوائل عام ١٩٤٦ تجاهله ستالين الذي ذكر تهديدات غامضة موجهة إلى الأمن السوفييتي، وبناء عليه صرح بأن الجيش الأحمر[1] سوف يظل في مقاطعة أذربيجان شمالي إيران. وعندما أعلن نشطاء حزب تودة قيام جمهورية أذربيجان الشعبية أمر ستالين قواته بمنع الجنود الإيرانيين من دخول المقاطعة لإعادة توطيد سلطتهم هناك، وسرعان ما تكون جيش محلي مجهز بأسلحة من موسكو. ولفترة من الزمن بدا أن أذربيجان قد تنفصل تمامًا وتنضم إلى الاتحاد السوفييتي أو تصبح نقطة انطلاق لحركة سوفييتية مضادة لتركيا. لكن الآذريين كانوا يتذكرون رضا شاه جيدًا، ولم يتحملوا فكرة الوقوع في براثن دكتاتور آخر، وسافر رئيس الوزراء أحمد قوام السياسي المحنك إلى موسكو وتمكن من إقناع ستالين بالامتناع عن المواجهة، فأمر بسحب قواته بينما كانت قوات الجنرال شوارتسكوف تزحف إلى العاصمة الإقليمية تبريز، وهكذا طوى التاريخ جمهورية أذربيجان الشعبية بين صفحاته، واحتفل الشعب الآذري بإعدام كل زعماء تودة الذين طالتهم أيديهم على الفور.

كان محمد رضا شاه محقًّا في خشيته من حزب تودة المعادي للملكية، ولكن لعدة أعوام بعد حادث أذربيجان لم يتمكن من العثور على طريقة

---

[1] اختصار جيش العمال والفلاحيين الأحمر، وهو الجيش الذي شيده البلاشفة بعد ثورة أكتوبر لمقاومة حركات البيض المدعومين من قبل القوات الأجنبية (فرنسا والمملكة المتحدة وتشيكوسلوفاكيا والولايات المتحدة واليابان). وعبارة «أحمر» لها مغزى ثوري وتشير إلى الدم. (المترجمة)

للوقوف ضده، وبعد محاولة الاغتيال التي وقعت عام ١٩٤٩ عثر على ضالته المنشودة؛ كانت الأدلة تشير إلى أن منفذ محاولة الاغتيال شخص متعصب دينيًّا، لكن الشاه تجاهلها واتهم حزب تودة بتنظيم تلك المحاولة، وأمر بحظر الحزب وإيداع العشرات من زعمائه السجن.

انتهز الشاه فرصة التعاطف الشعبي الذي خلفته حادثة الاغتيال كي يتخذ المزيد من الخطوات لزيادة قوته، فأمر بإنشاء مجلس تشريعي آخر وهو مجلس الشيوخ الذي صُرح بإنشائه بموجب دستور ١٩٠٦ ولم يدخل حيز التنفيذ قط، حيث كان معجبًا بمادة الدستور التي تمنحه الحق في تعيين نصف أعضاء مجلس الشيوخ، ثم أقنع المجلس بالموافقة على مشروع قانون يمنحه الحق في حل المجلسين والدعوة إلى عقد انتخابات جديدة حسب مشيئته، وفي نهاية الأمر تمكن من حمل المجلس على تغيير الطريقة التي يعين بها رؤساء الوزارة، فبموجب الدستور يختارهم المجلس والشاه يعطي موافقته، ولكن منذ ذلك الحين فصاعدًا سوف يدار الأمر بالعكس، يختار الشاه المرشح ويصوت المجلس عليه بالموافقة أو الرفض.

اتخذ محمد رضا شاه تلك الخطوات بدعم سري من البريطانيين، ولأعوام عديدة ظل البريطانيون يعتبرون أنه من المنطقي أنهم ما داموا يملكون مصالح تجارية حيوية في إيران، فإن عليهم الحفاظ عليها في حالة استقرار، فلم يكن محمد رضا شاه قادرًا على الجلوس على العرش دون موافقتهم، وأدرك هو تمامًا الجميل الذي يطوقون عنقه به، وعندما بدأت الاحتجاجات العنيفة في معمل التكرير عام ١٩٤٦ جاءوا كي يستردوا ذلك الجميل.

أدت أعمال الشغب التي وقعت في عبدان إلى انضمام العديد من الإيرانيين إلى قضية العمال، ليس بدافع التعاطف الغريزي فحسب، بل أيضًا بسبب الشروط الظالمة الخاصة بشركة النفط البريطانية الإيرانية؛ فعام ١٩٤٧ على سبيل المثال حققت الشركة أرباحًا صافية تبلغ قيمتها ٤٠ مليون جنيه استرليني، أو ما يوازي ١١٢ مليون دولار أمريكي، وكان نصيب إيران منها ٧ مليون جنيه استرليني فقط، ومما زاد الأمر سوءًا أنها لم تفِ بالتزاماتها بموجب اتفاقية ١٩٣٣ مع رضا شاه برفع أجور العمال وإتاحة المزيد

من الفرص للترقي، ولم تنشئ أيضًا المدارس والمستشفيات والطرق وشبكة الهواتف التي وعدت بإنشائها، وقد صدم مانوشير فرمان فارمايان الذي أصبح مديرًا للمعهد الإيراني للنفط عام ١٩٤٩ بما وجده في عبدان:

لم تكن الأجور تتجاوز خمسين سنتًا في اليوم، بلا إجازات مدفوعة الأجر ولا إجازات مرضية ولا تعويضات عن الإعاقة. وكان العمال يعيشون في مدينة حقيرة تدعى كاغاز آباد أي مدينة الورق، ولم تكن تلك المدينة بها مياه جارية أو كهرباء، ناهيك عن عوامل الرفاهية مثل الثلاجات والمراوح. في الشتاء تغرق الأرض وتصبح بحيرة كبيرة تنضح بالمياه، ويغوص الناس في الوحل ويستخدمون القوارب في الانتقال عبر الطرق، وعندما تهدأ حدة الأمطار تظهر أسراب من الذباب الصغير من المياه الراكدة لتنتشر في الجو وتتجمع في أكوام سوداء حول حواف قدور الطهي وتتسبب في انسداد المراوح الخاصة بمعمل التكرير بمادة زلقة.

والصيف أسوأ حالًا، يبدأ فجأة دون أي بادرة من بوادر الربيع، والحرارة قاتلة والرطوبة خانقة تزهق الأنفاس، والرياح وعواصف الصحراء تلفح الأرض بعنف، وتحولت مساكن كاغاز آباد المصنوعة بطريقة بدائية من صفائح النفط الصدئة إلى أفران خانقة، وفي كل ركن تفوح رائحة النفط المحترق الكبريتية الخانقة، وهو ما يعد تذكيرًا يوميًّا مؤلمًا بأن عشرين ألف برميل من النفط، أو ما يوازي مليون طن سنويًّا، تستهلك في تشغيل معمل التكرير، ولكن شركة النفط لم تدفع مليمًا للحكومة في المقابل.

كان طاقم إدارة شركة النفط في قمصانهم الفاتحة المكوية ومكاتبهم المكيفة يعتبرون العمال عالة عليهم ... ففي القسم البريطاني من عبدان مروج وأحواض للزهور وملاعب للتنس وحمامات للسباحة ونوادٍ، أما في كاغاز آباد فلم يكن هناك شيء على الإطلاق، لا مقاهٍ ولا حمامات ولا أشجار، بل إن حمام السباحة المكسو بالبلاط العاكس للضوء والميدان الرئيس المظلل اللذين كانا علامة مميزة في كل المدن الإيرانية مهما كانت فقيرة أو مجدبة

لم يكونا موجودين، والممرات غير المرصوفة تملؤها الفئران، يبيع البقال بضاعته وهو جالس في برميل من الماء كي يلطف من حدة الجو. لم يكن هناك باعث على الأمل سوى المسجد المتهالك المبني بالطوب اللبن في الحي القديم، وهو رمز الخلاص الإلهي.

تحت قيادة السير ويليام فريزر، وهو رجل اسكتلندي عرف عنه العناد وكراهية المساومة، رفضت شركة النفط كل المطالب بالإصلاح، ولم يكن الموقف العدواني لفريزر والحكومة البريطانية مستغربًا، فقد تربعت بريطانيا على عرش القوة العالمية بسبب نجاحها في استغلال الموارد الطبيعية للدول التابعة لها، وكانت أكثر من نصف أرباح شركة النفط تصب مباشرة في جيوب الحكومة البريطانية التي كانت تمتلك ٥١٪ من الأسهم، وكانت الشركة تدفع الملايين من الجنيهات سنويًّا على هيئة ضرائب، بالإضافة إلى إمدادها للقوات البحرية البريطانية بالنفط الذي تحتاجه في مقابل جزء بسيط من أسعار السوق، ولم يكن وزير الخارجية إرنست بيفين يبالغ عندما علق قائلًا إنه لولا النفط الإيراني «لما كان هناك أمل في تحقيق مستوى المعيشة الذي نحلم به في بريطانيا العظمى.»

بالطبع كان من الصعب أن يتعاطف الإيرانيون مع البريطانيين، فبدأ أعضاء المجلس يطالبون شركة النفط بتقديم عرض أفضل لإيران، وعام ١٩٤٩ تقدم عشرة من الأعضاء بمشروع قانون لإلغاء الامتياز الممنوح للشركة، وأصبح الضغط الذي يمارسونه والخطر الواضح لاستمرار العنف في عبدان أشد من أن يتجاهله البريطانيون، فكانوا في حاجة إلى إطار جديد لإعادة إضفاء ثوب من الشرعية على وضعهم في إيران.

بعد ثلاثة أشهر من محاولة اغتيال الشاه وصل فريزر إلى طهران كي يقدم عرضه، وعرف العقد الذي تقدم به باسم الاتفاقية التكميلية، وذلك لأنها كانت تكمل الاتفاقية التي وقعها رضا شاه عام ١٩٣٣، وضمت تلك الاتفاقية امتيازات عديدة لإيران، مثل ضمان ألا تقل الأرباح السنوية للشركة عن ٤ مليون جنيه استرليني وتقليل المساحة المسموح فيها للشركة بالحفر ووعد بتدريب المزيد من الإيرانيين على تولي الوظائف الإدارية، ولكنها لم تمنح الإيرانيين المزيد من الحقوق في إدارة الشركة أو مراقبة دفاتر حساباتها،

وقد اعتبر رئيس الوزراء الإيراني هذا العرض أساسًا للمناقشة ودعا فريزر إلى التفاوض، ولكن فريزر طرده وأعلن أن ذلك العرض نهائي لا يقبل المناقشة وغادر البلاد متجهًا إلى لندن على متن طائرته الخاصة.

وبعد خروج فريزر غاضبًا من طهران قال وزير المالية عباس أوغلي جولشايان متحسرًا: «إن البريطانيين يريدون الاستيلاء على العالم بأكمله.» ولكن محمد رضا شاه الذي كان يدرك جيدًا أن عليه تنفيذ رغبات البريطانيين أمر مجلس الوزراء بالموافقة على الاتفاقية التكميلية، وبالفعل أصدر مجلس الوزراء موافقته عليها في السابع عشر من يوليو/تموز عام ١٩٤٩، ولكن كي تدخل حيز التنفيذ كان يتحتم أن تحصل على موافقة المجلس، وهو ما كان خارج نطاق سلطة الشاه.

استنكر العديد من أعضاء المجلس تلك الاتفاقية علانيةً، وذلك حتى قبل أن يصدر مجلس الوزراء موافقته عليها، وانقلب البعض الآخر ضدها عندما قدم جولشايان وزير المالية — الذي من المفترض أن يجعله منصبه خادمًا مطيعًا للبريطانيين — تقريرًا من خمسين صفحة كُلِّفَ بكتابته جيلبرت جيدل أستاذ القانون الدولي المعروف بجامعة باريس يثبت فيه الخدع المحاسبية التي كانت شركة النفط بموجبها تحرم إيران من حقها في الحصول على مبالغ مالية ضخمة. وألقى عباس إسكندري أحد النواب الغاضبين خطبة نارية يشجب فيها الاتفاقية، وأنهى خطبته بتحذير بعيد المدى لم يكن هو شخصيًّا يتخيل تداعياته، حيث طالب شركة النفط بتوزيع الأرباح مناصفة مع إيران كما تفعل شركات النفط الأمريكية في دول عديدة، وإلا سوف «تؤمم إيران صناعة النفط وتستخرج النفط الخام بنفسها.»

كانت دورة المجلس قد أوشكت على الانتهاء والانتخابات على الأبواب، والعديد من النواب لا يريدون إثارة غضب الشاه عن طريق معارضة الاتفاقية، ولكن نظرًا إلى هياج الرأي العام لم يتمكنوا من الموافقة عليها، فاختاروا المماطلة، وطوال أربعة أيام ترددت في المجلس أصوات الاحتجاجات ما بين معارض للاتفاقية ومستنكر للخيانة العظمى في حق بريطانيا، وفي نهاية الأمر انتهى الوقت وتركت الاتفاقية للمجلس التالي كي يقرر مصيرها.

لم يكن محمد رضا شاه راضيًا عن مجرى الأحداث، وقرر أن يبذل كل ما في وسعه كي يضمن أن يأخذ المجلس التالي رأيه في الاعتبار، وباستخدام

مجموعة من الوسائل التي تتراوح بين اختيار المرشحين المؤيدين للشاه إلى الرشوة والتزوير الانتخابي الفاضح، تمكن الشاه من ضمان انتخاب العديد من النواب القابلين للإذعان، ولكن ثبت خطأ افتراضه بأنه قد يتمكن من خداع الناخبين كما فعل والده من قبل، فقد كان الإيرانيون متعطشين للديمقراطية ولم يعد ترويعهم لإجبارهم على الصمت ممكنًا، وهكذا اندلعت الاحتجاجات في مدن كثيرة، وأصبح الغضب على أشده في طهران حيث خسر المرشحون القوميون بقيادة البطل الشعبي محمد مصدق في الانتخابات.

أصدر مصدق بيانًا يدعو فيه كل من يؤمن بالانتخابات النزيهة إلى التجمع أمام منزله في الثالث عشر من أكتوبر/تشرين الأول، وبالفعل تجمع الآلاف من الناس أمام منزله وقادهم إلى القصر الملكي، وعندما وصلوا إلى بوابة القصر استدار كي يواجههم وألقى عليهم خطبة نارية، ثم أعلن أنه لن يتحرك من مكانه إلا إذا وافق الشاه على إقامة انتخابات جديدة نزيهة، وبالفعل أوفى بوعده، وطوال ثلاثة أيام وليالٍ ظل هو والعشرات من الديمقراطيين جالسين في حديقة القصر، وفي نهاية الأمر استسلم الشاه، حيث كان على وشك أن يبدأ جولة في الولايات المتحدة، ولم يكن يرغب في الشعور بالإحراج أمام العالم.

باتخاذه قرارًا بالسفر إلى الولايات المتحدة، كان الشاه يدرك ظهور قوة عالمية جديدة سوف تساهم في تشكيل التاريخ الإيراني أكثر مما يتخيل أحد، وكان الرئيس ترومان يأمل في استغلال الزيارة التي امتدت لعدة أسابيع في شهري نوفمبر/تشرين الثاني وديسمبر/كانون الأول في إقناع العاهل الشاب بتكريس جهوده لتحسين الظروف المعيشية لشعبه، فقد كان مقتنعًا بأن الإصلاح الاجتماعي وليس القوة العسكرية هو ما يحمي إيران من خطر الشيوعية.

أرسل ترومان طائرته الخاصة إنديبندنس كي تقل الشاه إلى واشنطن لاستضافته في بلير هاوس[٢]، ثم ذهب الشاه إلى نيويورك حيث كُرِّم في متحف

[٢] هو بيت الضيافة الرسمي في الولايات المتحدة والكائن مقره في واشنطن. (المترجمة)

الفن بالعاصمة، وانطلق بعد ذلك إلى مجموعة من الأماكن التي لا توجد غالبًا في مسار الرحلات الخاص بالشخصيات الأجنبية المهمة، ومنها إيداهو وكنتاكي وأريزونا وأوهيو، وأقامت كبرى الشركات مثل لوكهيد وجنرال موتورز ولائم عشاء ضخمة احتفالًا به، وأقامت وزارة الخارجية ترتيبات لتكريمه في برينستون وجامعة ميتشجين، وشاهد مباراة في كرة القدم بين جورج تاون وجورج واشنطن، وقبل بدء المباراة تقلد منصب المدرب الشرفي لفريق جورج واشنطن، وفي كل من ويست بوينت وأنابوليس حيوه بإحدى وعشرين طلقة.

ولكن خلف الكواليس لم تسر زيارة الشاه على ما يرام، ففي اجتماعاته مع ترومان ووزير الخارجية دين أتشيسون والجنرال عمر برادلي رئيس مجلس الأركان أصر على أن إيران بحاجة إلى جيش أكبر ومزيد من الأسلحة، فطالب بالمزيد من الدبابات والأسلحة المضادة للدبابات والشاحنات ومستودعات ضخمة من الذخائر، بالإضافة إلى الأموال اللازمة لتجنيد عشرات الآلاف من الجنود وإعطاء دورات تدريبية متقدمة لمزيد من فرق الضباط. وكانت عقليته الأحادية مفهومة، فبموجب الدستور الإيراني يتحكم الشاه في الجيش فحسب، ولذلك كان وجود جيش قوي مفتاحًا لقوته. وعندما حاول مضيفوه إدارة عجلة الحديث إلى قضية الاحتياجات الاجتماعية لإيران، أصبح غير مبالٍ بالأمر، ولفت أتشيسون نظره إلى أهمية الانتباه إلى ما حدث في الصين، فالزعيم القومي شيانج كاي شيك تمتع بالتفوق العسكري ولكنه خسر في مواجهة مجموعة من الشيوعيين الغوغاء، وذلك بسبب اعتماده على «القوة العسكرية فحسب»، ولم يتمكن الطرفان من التوصل لاتفاق، وفي نهاية الأمر أرسل ترومان ضيفه عائدًا إلى الديار دون المساعدات العسكرية التي طلبها، وأعلن في البيان المشترك الذي صدر عند رحيل الشاه أن الولايات المتحدة سوف «تفكر» في مطالبه من المساعدات العسكرية.

وبعد إخفاقه في إقناع الأمريكيين بتمويل القاعدة العسكرية التي كانت مطلبه المنشود، عاد الشاه إلى إيران كي يجد خصومه أكثر تنظيمًا لصفوفهم من ذي قبل، حيث كشفت موافقته على إلغاء نتائج الانتخابات المزورة عن قوته المحدودة، وكان لها أيضًا تأثير آخر أبعد مدى، فبعد أن

غادر المعتصمون القصر عقب نجاح اعتصامهم اجتمع عشرون منهم في منزل مصدق واتخذوا قرارًا في غاية الأهمية باستثمار النجاح الذي حققوه عن طريق تشكيل تحالف جديد من الأحزاب السياسية والاتحادات العمالية والمجموعات المدنية والمنظمات الأخرى يهدف إلى تعزيز الديمقراطية والحد من النفوذ الأجنبي في إيران، وأطلقوا على ذلك التحالف اسم الجبهة الوطنية، واختير مصدق بالإجماع قائدًا لها، وبوقوف منظمة رسمية إلى جواره لأول مرة وتعاطف الرأي العام معه، كان مؤسس الجماعة البالغ من العمر سبعة وستين عامًا يمتلك كل الأدوات اللازمة لتحدي النظام السياسي على نحو سافر.

فاز مصدق وستة آخرون من أعضاء الجبهة الوطنية في انتخابات المجلس التي أجبروا الشاه على إعادتها، وكان فوزهم بداية مرحلة جديدة في السياسة الإيرانية، وهي جبهة معارضة منظمة متطورة تتمتع بالحماس القومي والثقة في الدعم الجماهيري الشامل، وظهورها عقبة كبرى في طريق تحقيق هدف الشاه العاجل، وهو الحصول على الموافقة على الاتفاقية التكميلية، ومشروعه طويل الأجل الخاص بإعادة توطيد النفوذ الملكي، وهكذا تعارضت صورتان متضادتان لمستقبل إيران أكثر من أي وقت مضى.

كان الشاه يفضل أن يكون رئيس الوزراء ضعيفًا متخاذلًا كي يتمكن من إخضاعه لإرادته، ولكن في بداية عام ١٩٥٠ احتاج الشاه والبريطانيون إلى رئيس وزراء قوي يمكنه إرغام المجلس على الموافقة على الاتفاقية التكميلية، وكان اختياره الأول محمد سعيد غير متحمس للاتفاقية، بل إنه رفض طرحها للتصويت، وبعد شهرين استبدل به الشاه رجلًا أكثر موالاة لبريطانيا وهو علي منصور، ولكنه لم يبدِ أيضًا استعدادًا للدفاع عن الاتفاقية، وهنا نفد صبر البريطانيين، وفي أبريل/نيسان أرسلوا سفيرًا جديدًا إلى طهران وهو السير فرانسيس شيبرد الذي كانت كل خبرته في السلك الدبلوماسي في دول يحكمها الطغاة أو القوى الأجنبية مثل السلفادور وهاييتي وبيرو والكونغو البلجيكية والهند الشرقية الهولندية، وفي إحدى أولى البرقيات التي أرسلها إلى مكتب وزارة الخارجية، قال شيبرد إنه بالرغم من أن الشاه قد أمر منصور «بضمان إقرار اتفاقية النفط التكميلية في أسرع وقت ممكن، فيبدو أن منصور لا ينوي إطاعة أوامر سيده.»

لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا كي تدرك وزارة الخارجية وشركة النفط أن منصور ليس رجلهما المنشود، فقد كانوا يحتاجون إلى رئيس وزراء أكثر حزمًا، ولم يكن مرشحهم مدنيًّا كما هو متعارف عليه في إيران، ولكنه الجنرال علي رازمارا وهو من أكثر الضباط الثقات في جيش الجنرال شوارتسكوف وأصبح فيما بعد رئيس أركان الجيش، حيث اعتقدوا أن مثل ذلك الرجل بحزمه الشديد يعتبر قويًّا بما فيه الكفاية كي يواجه مصدق والجبهة الوطنية.

في العشرين من يونيو/حزيران صوت المجلس على إنشاء لجنة مكونة من ثمانية عشر عضوًا لدراسة الاتفاقية التكميلية، وهو ما اعتبره البريطانيون تحديًا لهم، فأوعزوا إلى الشاه بالرد على تلك الخطوة عن طريق طرد منصور وتعيين الجنرال رازمارا بدلًا منه، ولم يكن بوسعه تجاهل تلك النصيحة.

كانت قامة رازمارا النحيلة وابتسامته اللطيفة تخفي حيويته وذكاءه وطموحه الذي لا يهدأ، وكان ذلك الرجل العسكري البالغ من العمر سبعة وأربعين عامًا معروفًا بالقسوة الشديدة وغلظة القلب. وعلى غرار معظم الضباط الإيرانيين فقد انتهز فرص فساد عديدة، ولكنه كان أيضًا صاحب موهبة لا تخطئها العين. وكان مثله الأعلى رضا شاه الذي شاركه الاعتقاد بأن إيران لن تنهض إلا تحت حكم طاغية قاسٍ لا يرحم، ولكن على النقيض من رضا شاه فهو مثقف متحرر من الأحقاد القومية، حيث تلقى تعليمه في الكلية العسكرية الفرنسية وعلى دراية تامة بأهمية استرضاء الزعماء الإيرانيين للقوى الأجنبية، فقد وصل إلى السلطة عن طريق مساندتهم له. وهكذا وعد البريطانيين بسرعة إقرار الاتفاقية التكميلية، ووعد الروسيين بإطلاق سراح زعماء تودة الذين أودعهم محمد رضا شاه السجن عقب محاولة اغتياله، أما الأمريكيون الذين تزايد اهتمامهم بالشرق الأوسط فقد وعدهم بأن يجدوا أذنًا متعاطفة معهم ومساندة في حملتهم ضد الشيوعية.

اجتمع المجلس في نهاية شهر يونيو/حزيران كي يناقش ترشيح رازمارا لمنصب رئيس الوزراء، ولم يفاجأ أحد عندما ألقى مصدق خطبة ثورية يصف فيها رازمارا بأنه عميل للقوى الأجنبية ومشروع دكتاتور، ولكن بعد الانتهاء من الخطب لم يفاجأ أحد أيضًا بالموافقة على رازمارا بفارق

أصوات كبير، فقد استخدم نفوذه في مساندة الحملات الانتخابية لأكثر من نصف أعضاء المجلس، وكانوا يسددون الدين الذي يطوق عنقهم به.

تولى رازمارا منصبه وهو يعتقد أن القدر قد اختاره كي يقود إيران نحو العظمة، وكان كل من مصدق والشاه يعتقد نفس الشيء، ولكن أحدهم فقط سوف ينتصر في المواجهة القادمة.

كانت الأيام الأولى لرازمارا في منصبه في صيف عام ١٩٥٠ كفيلة بأن تثبط عزيمة من هم أقل منه شأنًا، حيث أدى وصول السفير الأمريكي الجديد هنري جريدي إلى اندلاع عاصفة من الاحتجاجات قُتِلَ فيها كثيرون. لم يكن أحد يملك ثأرًا شخصيًّا مع جريدي، ولكن الإيرانيين الذين انخرطوا في عالم السياسة أصبحوا يغضبون بشدة من جراء التدخل الأجنبي في شئونهم الداخلية حتى إن ظهور حاكم استعماري جديد فقط كافٍ لخروج الآلاف في مظاهرات في الشوارع، وعلى رازمارا أن يأخذ تلك القومية الصاعدة بعين الاعتبار وهو يضع الاستراتيجية السياسية للبلاد، فأخبر رعاته البريطانيين أن بوسعه الحصول على الموافقة على الاتفاقية التكميلية، ولكن بشرط أن تراجع وتعدل، حيث اقترح أن تحسن شركة النفط من عرضها عن طريق فتح دفاتر حساباتها للمراقبين الإيرانيين وتدريب الإيرانيين على تولي الوظائف الإدارية وسداد بعض العوائد مقدمًا كدليل على دعمها للتنمية القومية.

كان ذلك العرض دالًّا على الذكاء، ولو قبلته شركة النفط فستضعف من شوكة الجبهة الوطنية وتؤدي إلى استقرار وضع الشركة لفترة طويلة، ولكن البريطانيين رفضوا هذا العرض نهائيًّا دون تفكير مما أثار إحباط رازمارا، وأخبره السفير شيبرد بأن عرض الشركة نهائي وأن التحسين الوحيد الذي يمكنهم قبوله هو «تقديم علاج مجاني لبعض النواب المصابين بالهستيريا الذين ما زالوا يرفضون الاتفاقية التكميلية.» لم يدرك البريطانيون أن عصر الاستعمار كان موشكًا على الانتهاء، وأن بوسعهم الحفاظ على نفوذهم العالمي عن طريق التعاون مع القوى الوطنية الصاعدة، وهكذا فقد خسروا فرصة تاريخية في غاية الأهمية.

لم يكن لدى رازمارا خيار سوى الانصياع لإرادة الشاه ووزارة الخارجية وشركة النفط، فأمر بتعيين وزير للمالية معروف بموالاته للبريطانيين واستأنف حملته للتصديق على الاتفاقية التكميلية، وكان أحد أهم حلفائه نجم إذاعي مشهور يدعى باهرام شاروغ الذي عرف باعتباره أحد دعاة النازية، وفي أوائل الأربعينيات من القرن العشرين رأس شاروغ الإذاعة الإيرانية في راديو برلين، وكان صوته المتحمس يحمل للإيرانيين جرعتهم اليومية من الأخبار عن انتصارات دول المحور والمستقبل المشرق للعلاقات الألمانية الإيرانية، وبرامجه حافلة بالنقد اللاذع للبريطانيين، وتغذي كراهية الاستعمار البريطاني التي انتشرت في إيران. ولكن عندما تغير مسار الحرب ترك وظيفته في ظروف غامضة، حيث اتهمه بعض ضباط الأمن النازيين بأنه عميل بريطانيّ، وبعد فترة وجيزة دهش مستمعوه عندما ظهر فجأة في راديو طهران وبدأ يذيع تعليقات مؤيدة للبريطانيين بشدة، وعينه رازمارا في منصب مدير الإذاعة والدعاية، وأخذ يدافع عن شركة النفط بحماس يماثل ذلك الذي أبداه للنازية منذ عقد مضى، وبالإضافة إلى إذاعة العديد من التقارير الحماسية بنفسه، ساعد شركة النفط على انتقاء كتاب الأعمدة ومحرري الصحف القابلين للرشوة وتقديم الرشوة لهم.

وفي ذلك الوقت كان المجلس قد اختار أعضاء لجنة النفط، ومصدق بالطبع أحدهم، وفي الاجتماع الأول للجنة انتُخب رئيسًا لها، كانت اللجنة تنعقد مرتين أسبوعيًّا، ولم يكن العديد من أعضائها مهتمين ولا شركة النفط مهتمة بالتوصل إلى تسوية، وقد حضر مانوشير فارمان مدير المعهد الإيراني للنفط العديد من جلساتهم وكتب عنهم فيما بعد:

> في ظاهر الأمر أنشئت اللجنة كي تدرس الاتفاقية التكميلية وتسعى إلى التوصل لتسوية، ولكن الجوانب الفنية والاقتصادية كانت نادرًا ما تطرح للمناقشة، فلم يكن النواب على دراية كافية بالنفط، ولم يكونوا مهتمين به إلا من الجانب السياسي، وبدلًا من ذلك اهتموا بالتكلفة البشرية ... كان مصدق يسيطر على الاجتماعات وينتقد كل شيء بسخرية لاذعة، وهو أسلوب برع فيه على مدار خمسة وعشرين عامًا لم يفعل فيها شيئًا سوى الشكوى بلا داعٍ

وإلقاء اللوم على الآخرين ... لم يكن مصدق يهتم بالنقود أو بعدد البراميل التي تستخرج يوميًّا، ولكن الموضوع الأهم عنده السيادة القومية، فقد كانت سيادة إيران تتعرض للخطر على يد شركة تضحي بأرواح الإيرانيين من أجل تحقيق المصالح البريطانية، وهو ما أغضبه بشأن استعداد الحكومة للبحث عن تسوية، وهو أيضًا ما جعله يقرر أن شركة النفط يجب أن ترحل بلا رجعة.

عندما هدأت حدة القيظ في إيران في ذلك الخريف ارتفعت درجة حرارة الرأي العام بشدة، فقد تسبب البريطانيون برفضهم التسوية في توحيد قطاع عريض من الشعب الناشط سياسيًّا ضدهم، بل إنهم تسببوا في انضمام الجماعات الدينية الملتزمة بالشريعة الإسلامية إلى تحالف مع مصدق والعديد من العلمانيين الليبراليين الآخرين، ورفض بعض الملالي، ومنهم الملا الشاب روح الله الخميني — الذي سيصبح بعد ثلاثين عامًا زعيمًا للبلاد — الانضمام لهذا التحالف، لأنهم كانوا يعتقدون أن مصدق وحلفاءه قد تخلوا عن الإسلام. ولكن معظم الملالي ذوي الأهمية انضموا في تحالف تكتيكي مع الجبهة الوطنية، وكان أهمهم الملا المتحمس آية الله أبو القاسم كاشاني الذي لم يكن عالمًا دينيًّا كبيرًا ولكنه أصبح شخصًا محوريًّا في الحركة الإيرانية المناهضة للاستعمار؛ قتل والد كاشاني وهو يحارب البريطانيين في العراق أثناء الحرب العالمية الأولى، وأسر هو شخصيًّا في معسكر اعتقال بريطاني أثناء الاحتلال المشترك لإيران في الحرب العالمية الثانية، وبعد إطلاق سراحه سرعان ما أصبح زعيمًا شعبيًّا مثيرًا للتحريض، وحاول محمد رضا شاه أن يحمله على الصمت عن طريق إرساله إلى المنفى عقب محاولة الاغتيال التي وقعت عام ١٩٤٩، ولكنه من مقره في بيروت ترشح لعضوية المجلس وفاز بها، وأدى الضغط الشعبي إلى إجبار الشاه على السماح له بالعودة، وخرج مئات الآلاف من الجماهير في استقباله، وفي خطابه الذي ألقاه أمام الجماهير، وجه التحية إلى مصدق وأعضاء الجبهة الوطنية بوصفهم أكثر الوطنيين إخلاصًا في إيران.

كان كاشاني معاديًا للغرب بشدة، ويكره الأفكار الليبرالية ويؤمن بأن المسلمين عليهم ألا يتبعوا القوانين العلمانية إلا إذا توافقت مع الشريعة

الإسلامية، ولم يكن مؤمنًا بالقومية إلا بالمعنى المحدود، فقد كان يرغب في إدارة الإيرانيين لشئونهم الداخلية، ولكنه يعتقد أيضًا أنه بمجرد التخلص من الكفار سوف تصبح إيران جزءًا من اتحاد إسلامي شامل يتحدى الكتلتين الغربية والشيوعية. وعلى غرار الملالي الذين ساندوا الثورة الدستورية منذ نصف قرن اعتبر الحملة المناهضة لبريطانيا واجبًا مقدسًا، واضطلاعًا منه بذلك الواجب انخرط في عالم السياسة، حيث أنشأ حزبه الخاص في المجلس وعمل بجهد من أجل تعبئة الجماهير في صف مصدق، وقد أعلن في أحد التجمعات متوعدًا «إن الإسلام يحذر أتباعه من الاستسلام لسياط القهر الأجنبية.»

ومع إشعال رجل الدين الملتحي كاشاني والأرستقراطي الذي تلقى تعليمًا سويسريًّا مصدق فتيل الغضب ضد بريطانيا، انقلب رأي المجلس ضد الاتفاقية التكميلية أكثر من ذي قبل، وحاول رازمارا أن يلقي خطبة في المجلس في شهر أكتوبر/تشرين الأول يطالب فيها بإقرار الاتفاقية، ولكن صوته ضاع وسط عاصفة من النقد والاتهامات، وبعد أن أنهى خطبته رد العشرات من النواب عليه، فوصفوا شركة النفط بالوحش الكاسر ورازمارا بخادمها المطيع، وكان مصدق صاحب أكثر الخطب انفعالًا، حيث وصف الاتفاقية التكميلية بأنها أداة عبودية، وفي مقطع ختامي رائع توجه إلى رازمارا قائلًا: «إذا صدقت على هذه الاتفاقية فسوف تحمل عارًا لن تتمكن الأيام من محوه.»

في الخامس والعشرين من نوفمبر/تشرين الثاني طرح مصدق الاتفاقية التكميلية للتصويت أمام اللجنة البرلمانية التي يرأسها، واجتمعت اللجنة كالعادة في إحدى غرف الانتظار بالمجلس، وأشرقت الشمس على الأرض المكسوة بطبقة رقيقة من الثلج بالخارج، واقترح مصدق وأعضاء اللجنة الأربعة الآخرين الحل الجذري المتمثل في تأميم شركة النفط البريطانية الإيرانية، ولكن بقية الأعضاء لم يكونوا مستعدين لمثل تلك الخطوة الجريئة، أما الموضوع المطروح للمناقشة فلم يكن عليه خلاف، وصوتت اللجنة بالإجماع على رفض الاتفاقية.

وهنا بدأت الأحداث تتخذ زخمًا كبيرًا، فقد كانت السياسة الإيرانية تخطو نحو منطقة مجهولة، ولم تكن هناك يد ثابتة تقود الدولة، وكانت

المناصب تشهد كل يوم المزيد من الانقسام، ولم تكن أي جماعة مقتنعة بالنية الحسنة للجماعات الأخرى، وأصبحت لغة الخطاب هي الإهانة والتوبيخ.

وفي نهاية شهر ديسمبر/كانون الأول وصلت أنباء إلى طهران تفيد بأن شركة النفط العربية الأمريكية المعروفة باسم أرامكو قد عقدت اتفاقًا جديدًا مع المملكة العربية السعودية اتفقت بموجبه على مناصفة الأرباح مع السعوديين، وفي الحال بعث السفير شيبرد برقية إلى لندن يحث فيها شركة النفط البريطانية الإيرانية على اتخاذ نفس الموقف مع إيران، ولكن وزارة الخارجية وشركة النفط رفضتا الفكرة، وهكذا خسرا فرصة أخرى لحل الأزمة التي يلوح شبحها في الأفق قبل أن تتحول إلى كارثة، ونصح إي جي دي نورثكروفت مدير شركة النفط في طهران وزارة الخارجية بألا «تعطي اهتمامًا» للحركة القومية.

كان الموقف البريطاني منفصلًا عن الواقع بشدة حتى إن مصطفى فاتح مساعد نورثروب وأعلى الموظفين الإيرانيين منصبًا في الشركة — الذي ظل لعدة عقود يخدمها بإخلاص — شعر بأن عليه الاحتجاج، فكتب خطابًا حماسيًّا مكونًا من ثلاث وعشرين صفحة إلى إدوارد إلكينجتون عضو مجلس إدارة شركة النفط الذي تعرف عليه عندما كان يعمل في إيران؛ كان الخطاب تحذيرًا بليغًا للشركة بأن عليها إدراك «الحركة القومية الصاعدة والوعي السياسي للشعوب الآسيوية» وإظهار «سعة الأفق وتقبل وجهة نظر الآخر والتفكير بمنطقية كي تتجنب وقوع الكوارث.» ووصف في ذلك الخطاب تحالف شركة النفط مع «الطبقات الحاكمة الفاسدة» و«النظم البيروقراطية التي تمتص دماء الشعوب» بأنه «كارثي، عتيق الطراز، وغير عملي.» وقال فاتح إنه لا يزال هناك دعم كافٍ في المجلس يمكّن الاتفاقية التكميلية من الظهور للنور، وذلك بشرط أن تعمل الشركة على مراجعتها وتعديلها على أن تضم بندًا خاصًّا بمناصفة الأرباح وتقلل من مدة الاتفاقية، وإلا فإن تلك الاتفاقية محكوم عليها بالفشل، حيث إن سياسات الشركة قد «عزلت الطبقات الليبرالية التقدمية عن بريطانيا»، ولكن توسلاته البليغة ذهبت أدراج الرياح، حيث أعلن أحد الدبلوماسيين البريطانيين باستياء عندما أطلعه إلكينجتون على ذلك الخطاب أن فاتح «ليس أهلًا للثقة بدرجة كبيرة.»

كانت المواجهة تبدو حتمية، وقد أثارت تلك الفكرة حماس القوميين الإيرانيين الذين اعتقدوا أن التاريخ أخيرًا يمنحهم فرصة كي ينتشلوا بلادهم من حكم المستعمرين البريطانيين، وفي يناير/كانون الثاني من عام ١٩٥١ دعوا إلى اجتماع حاشد لإطلاق حملة جماهيرية تهدف إلى تأميم شركة النفط، وبالفعل اجتمع حشد هائل من الناس، وكان أول المتحدثين من الجبهة الوطنية وقوبلوا بهتاف حماسي عند طرح قضيتهم، وكانت تلك البداية فقط، فبعد أن انتهى السياسيون من إلقاء خطبهم تقدم مجموعة من الملالي إلى المنبر كي يؤكدوا أن كل مسلم صالح عليه واجب مقدس في مساندة التأميم، وأطلق آخرهم فتوى تفيد بأن الرسول محمدًا نفسه من موقعه في الجنة يدين حكومة رازمارا لبيعها حق إيران إلى الأجانب الكفار، ولم يكن علمانيو الجبهة الوطنية أو الأصوليون الدينيون الذين يتبعون آية الله كاشاني راضين عن تحالفهما معًا لكنهم نحوا خلافاتهم العميقة دفاعًا عن القضية الكبرى.

أصبح رازمارا المسكين الآن في موقف لا يحسد عليه، فقد قررت الجماهير منذ وقت طويل أنه على أفضل الفروض أداة في يد البريطانيين وعلى أسوأها خائن، وأجاب هو مرارًا وتكرارًا بأن المحتجين سواء داخل المجلس أم خارجه يطاردون سرابًا، وأن مصلحة الدولة تتطلب عقد اتفاق مع البريطانيين. ولكن بالرغم من عمله بحماس منقطع النظير كي ينقذ بريطانيا من ذلك الموقف، لم تمد له شركة النفط أو وزارة الخارجية يد المساعدة، بل إن السفير شيبرد أرسل إليه خطابًا ينصحه بأن يتخذ «موقفًا حازمًا» ضد ناكري الجميل الذين لم يقدروا «الخدمات الهائلة التي قدمتها بريطانيا للبشرية مؤخرًا.»

أصر رازمارا على موقفه بشجاعة، ففي الثالث من مارس/آذار مَثُل أمام لجنة النفط التي يرأسها مصدق وأوضح مرة أخرى معارضته لفكرة التأميم، حيث أكد أنها فكرة غير قانونية سوف تدفع البريطانيين إلى الانتقام بطريقة لا يمكن التنبؤ بها وتؤدي إلى الإضرار بالاقتصاد الإيراني، وفي تلك الليلة بعث السفير شيبرد برقية إلى الوطن قال فيها إنه هو شخصيًّا صاحب مضمون الخطبة التي ألقاها رازمارا.

كان الإيرانيون قد توقعوا ذلك، وكان رد فعلهم عاصفة أخرى من الاحتجاجات، ففي مظاهرة حاشدة يوم السابع من مارس/آذار أخذت الجماهير تردد «الموت للبريطانيين!» بدلًا من الدعوة للتأميم. انتهى زمن رازمارا، وأدرك الشاه نفسه ذلك، فأخذ يسأل قطاعات عريضة من السياسيين سرًّا عن اقتراحاتهم لرئيس الوزراء الجديد، وكانت إجابتهم واحدة: مصدق.

أدرك الجميع أن أيام رازمارا باتت معدودة، ولكن أحدًا لم يتخيل أن نهايته سوف تكون عنيفة إلى هذا الحد؛ ففي نفس اليوم الذي احتشد فيه آلاف المتظاهرين في طهران كي يعبروا عن كراهيتهم لبريطانيا، ذهب رازمارا بمصاحبة أسد الله علم — وهو أحد أصدقاء الشاه — إلى مسجد طهران لحضور جنازة أحد الزعماء الدينيين، فتقدم شاب من بين الجماهير يحمل مسدسًا وأطلق عليه الرصاص، فخر رازمارا صريعًا، وقُبض على الرجل المسلح، وهو نجار يدعى خليل تاهماسيبي كان عضوًا في إحدى الجماعات الدينية المتطرفة وتدعى «فدائيو الإسلام.» وعند التحقيق معه قال للمحققين: «لقد أديت خدمة متواضعة لوجه الله كي أخلص الشعب الإيراني المسلم المسكين من العبودية للأجانب.»

لم تتضح ظروف اغتيال رازمارا قط، حيث ظهرت أدلة تشير إلى أن الطلقة القاتلة لم يطلقها تاهماسيبي ولكن جندي يعمل بأوامر من الشاه أو أحد الأفراد المقربين إليه، وأن أسد الله علم اقتاده إلى ذلك الموعد متعمدًا كي يلاقي حتفه، وبعد أعوام عديدة كتب عقيد إيراني متقاعد في مذكراته أن الطلقة القاتلة انطلقت من مسدس من طراز كولت لا يسمح بحمله إلا للجنود، وأكد قائلًا: «اختير رقيب عسكري يرتدي ثيابًا مدنية لتلك المهمة، وأعطي تعليمات بأن يبدأ إطلاق الرصاص على رازمارا مستخدمًا مسدسًا من طراز كولت في نفس اللحظة التي بدأ في تاهماسيبي بإطلاق الرصاص، وأكد من فحصوا الجروح في جثة رازمارا أن تلك الطلقات خرجت من مسدس من طراز كولت وليس مسدس عادي.»

كان رازمارا يمثل الأمل الأخير في التوصل إلى تسوية، وكانت قضيته خاسرة حتى قبل اغتياله، وفي اليوم التالي لإطلاق الرصاص عليه اتخذت لجنة النفط برئاسة مصدق الخطوة المصيرية التي كانت تسعى نحوها،

حيث صوت الأعضاء بالإجماع على توصية المجلس بتأميم شركة النفط البريطانية الإيرانية.

وفي اليوم التالي احتشد آلاف من الناس في احتفال كي يستمعوا إلى آية الله كاشاني وهو يعبر عن موافقته على تصويت اللجنة ويطالب المجلس بسرعة التحرك، ولم تكن أي شخصية عامة لديها القدرة الآن على معارضة التأميم دون إثارة غضب الجماهير أو ما هو أسوأ، بل إن رئيس الوزراء الجديد حسين علاء، وهو دبلوماسي تلقى تعليمه في بريطانيا وكان يدرك المشاكل التي سوف يجلبها التأميم، لم يجرؤ على معارضته.

وفي السفارة البريطانية كان السفير شيبرد لا يزال يعتقد أن لديه فرصة كي يوقف الطوفان، فأطلق حملة كي يقنع أعضاء المجلس بالبقاء في منازلهم يوم التصويت على قرار التأميم، وذلك كي يحول دون اكتمال النصاب القانوني للتصويت، فأرسل رسالة للشاه يحثه فيها على استخدام نفوذه مع النواب المناصرين للملكية والمحافظين، ثم اجتمع مع رئيس الوزراء علاء وأبلغه بشكل فظ بأن «عمليات الشركة لا يمكن إنهاؤها قانونًا عن طريق اتخاذ إجراء مثل التأميم»، ولكنه اقترح لأول مرة أن تدرس الشركة جديًّا فكرة مناصفة الأرباح، أجاب علاء: «إن فكرة مناصفة الأرباح كانت تصلح منذ فترة، لكنها الآن لا تكفي.»

اجتمع المجلس في الخامس عشر من مارس/آذار من أجل طرح التصويت التاريخي، وحضر تسعة وستون نائبًا منهم العديد ممن وعدوا الشاه بالتغيب عن ذلك اليوم، وصوت الجميع بالموافقة على التأميم، وبعد مرور خمسة أيام صوت مجلس الشيوخ ذو السلطة الشكلية — الذي أنشئ منذ بضعة سنوات ونصف أعضائه عينهم الشاه — بالإجماع بالموافقة.

أصبح مصدق بطلًا ملحميًّا، ولم يعد من الممكن أن يخرج إلى الشارع دون أن يتجمهر حوله المعجبون، حيث احتفل زعماء القبائل في المناطق النائية بانتصاره، وكرمه آية الله كاشاني بوصفه محررًا للأمة في عظمة قورش وداريوس، بل إن أعضاء حزب تودة الشيوعيين تقبلوه بصدر رحب، وعلى مدار الأسابيع التالية صوت المجلس بالموافقة على كل مشروع قانون قدمه،

كان واضحًا أن مصدق قد أصبح رجل الساعة، مما دفع برئيس الوزراء علاء إلى الاستقالة، حيث لم يجد سببًا يحمله على الاستمرار في منصبه، وهكذا قدم استقالته في منتصف أبريل/نيسان.

لكن الحكومة البريطانية لم يكن لديها نية الاستسلام، بل إن عزمها قد اشتد عندما استقال بيفين وزير الخارجية لأسباب صحية، الذي كان متعاطفًا بعض الشيء مع القضية الإيرانية، وجاء بدلًا منه هيربيرت موريسون الذي لم يكن مهيأ على الإطلاق لمثل هذا المنصب، كان موريسون قد قضى ثلاثين عامًا يشق طريقه في صفوف حزب العمال، ولم يدّعِ قط أنه يمتلك خبرة في الشئون الدولية، وأهم إنجازاته التي يفخر بها بناء جسر واترلو جديد وإعادة تنظيم طرق النقل في لندن، وهكذا اعتبر التحدي الخاص بإيران ليس إلا تمردًا من السكان المحليين الجهلاء ضد قوى الحضارة، وفي واحد من أول تصريحاته بعد توليه منصب وزير الخارجية، حث على تحريك القوات البريطانية نحو إيران كي تصبح «مستعدة للتدخل إذا لزم الأمر في حقول النفط الإيرانية.»

بناء على إلحاح موريسون اجتمع صناع السياسات على أعلى مستوى في وزارة الخارجية وسلاح البحرية وبنك إنجلترا ووزارة النفط والطاقة كي يكونوا «فريق عمل خاصًّا بإيران»، وقد كلفت تلك المجموعة بإجراء دراسات عديدة كي تكوّن خلفية من المعلومات العامة اللازمة للتعامل مع الأزمة، وكانت إحدى تلك الدراسات تتناول نفسية الشعب الإيراني، حيث أكد مؤلفها — وهو دبلوماسي بريطاني — أن الإيراني النموذجي تحركه دوافع

> الكذب دون أن يطرف له جفن والنظرة القدرية وعدم الاكتراث بالألم ... إن المواطن الإيراني العادي مغرور مجرد من المبادئ ومستعد بأن يعد بما لا يملك القدرة على تحقيقه أو ينويه، وهو يتمسك بالتسويف ويفتقر إلى الجلد والحيوية، ولكنه في الوقت ذاته سهل الانقياد للنظام، وقبل كل شيء فهو يستمرئ الخداع ويلجأ إلى المراوغة والاحتيال كلما تلوح له الفرصة لتحقيق مكاسب شخصية، ورغم براعته في الكذب فإنه لا يتوقع أن يصدقه

الآخرون، وهو يكتسب بسرعة معرفة سطحية بالموضوعات التقنية ويوهم نفسه بأنه يمتلك معرفة عميقة.

بالطبع كان التعامل مع مثل هؤلاء الناس على قدم المساواة أو على أساس من الاحترام ضربًا من المحال، ولكن وزارة الخارجية وضعت استراتيجية مكونة من ثلاثة محاور كي تضمن السيطرة عليهم؛ أولًا: إقناع محمد رضا شاه بحل المجلس، وثانيًا: تعيين سيد ضياء الرجل الهرم الأثير لدى البريطانيين والذي ساعد رضا شاه في الوصول للحكم منذ ثلاثين عامًا في منصب رئيس الوزراء، وثالثًا: حث إدارة ترومان في واشنطن على «ألا تظهر أي معارضة أو اختلاف عن وجهة نظرنا على الأقل.» وأثناء صياغة تلك السياسة قررت شركة النفط أن تثبت إصرارها على موقفها عن طريق تخفيض بدل السكن الذي يحصل عليه العمال الإيرانيون، فاستقال الآلاف من وظائفهم محتجين.

وسرعان ما بدأ البريطانيون يرسلون سفنًا حربية إلى المياه بالقرب من عبدان، وبحلول منتصف أبريل/نيسان كانت ثلاث بوارج وطوافتان تقبع على مرمى البصر من معمل التكرير، وهو ما زاد من حدة التوتر، حيث انطلق عمال النفط بأعداد كبيرة في الشوارع في تحدٍّ سافر، وأدت مجموعة من الاشتباكات إلى مصرع ستة من الإيرانيين واثنين من عمال النفط البريطانيين وبحار بريطاني، وتوصل بعض الإيرانيين إلى أن البريطانيين قد بدءوا حملة استفزازية متعمدة كي يقدموا ذريعة للتدخل العسكري.

كان السفير شيبرد مقتنعًا أن بوسعه السيطرة على الموقف في حالة تعيين رئيس وزراء إيراني جديد أكثر موالاة للبريطانيين، فأصر على أن يرشح الشاه سيد ضياء لهذا المنصب، ووافق الشاه مذعنًا، وحدد المجلس موعدًا للتصويت على ترشيحه في الثامن والعشرين من أبريل/نيسان. وفي صباح ذلك اليوم أصدر شيبرد بيانًا يؤكد فيه أن الحكومة البريطانية لن تجري أي مفاوضات تحت تهديد التأميم، واعتقد أنه بذلك الإظهار للقوة وبرئاسة صديقه سيد ضياء للحكومة سوف تأخذ الأحداث مجرى مختلفًا، ولكن هذا التخيل كان غير واقعي على الإطلاق، وأثبت مرة أخرى أن البريطانيين قد أخطئوا في الحكم على الإيرانيين.

ولكن لم يكن أكثر القوميين حماسًا بوسعه التنبؤ بما حدث عندما اجتمع المجلس كي يناقش ترشيح سيد ضياء، وبالطبع كانت كل الأنظار شاخصة إلى مصدق بطل الساعة، وتوقع الجميع أن يبدأ هو المعارضة بإحدى خطبه العنيفة ضد البريطانيين ورسلهم الخائنين، ولكن عندما تساءل رئيس المجلس عمن يود افتتاح المناقشة، ظل مصدق جالسًا صامتًا لا يبدي أي انفعال، وبدلًا منه اعتلى المنصة جمال إمامي الذي كان أحد النواب المحافظين ويتلقى راتبًا من بريطانيا؛ لم يذكر إمامي سيد ضياء في حديثه مطلقًا، بل انصب هجومه على مصدق شخصيًّا، حيث أدانه لإدخاله المجلس في حالة من الجمود وتسببه في حالة من الشلل في البلاد عن طريق شكاواه المستمرة بلا داعٍ، وقال باحتقار إنه إذا كان مصدق راغبًا في خوض تحدٍّ حقيقي، عليه أن يصبح رئيسًا للوزراء ويرى بنفسه كم هو شاق ذلك المنصب. كان مصدق قد رفض عدة اقتراحات من قبل لتولي رئاسة الحكومة، وكان إمامي يزعم أنه يعلم السبب، حيث إن مصدق كان على حد زعمه مدعٍ غير قادر على تحمل المسئولية يجد متعته في إلقاء الخطب عن أخطاء الآخرين، لكنه لا يقدم أي شيء إيجابي في المقابل.

صمت الجميع في المجلس بعد انتهاء إمامي من حديثه، وظل مصدق صامتًا لبرهة ثم قام واقفًا، وتحدث ببطء قائلًا إن هذا الاقتراح شرف عظيم له وأنه يقبل ترشيحه لمنصب رئيس الوزراء، وذهل الجميع وأولهم إمامي، وسرعان ما تحولت الصدمة إلى هرج ومرج، وصدر اقتراح رسمي بترشيح مصدق لمنصب رئيس الوزراء ودعا رئيس المجلس إلى تصويت فوري، وكانت نتيجة التصويت تسعة وسبعين صوتًا مؤيدًا واثني عشر صوتًا معارضًا.

ولما استشعر مصدق القوة التي أصبح يمتلكها، أعلن أنه لن يصبح رئيسًا للوزراء إلا إذا صوت المجلس بالموافقة على قانون لتأميم شركة النفط البريطانية الإيرانية، وبموجب هذا القانون سوف تتولى لجنة برلمانية مراجعة حسابات الشركة ودراسة مطالب الطرفين من أجل التعويض وإرسال الإيرانيين للخارج كي يتعلموا مهارات إدارة صناعة النفط ووضع البنود التأسيسية لشركة النفط الإيرانية القومية، ووافق المجلس بالإجماع على هذا القانون في ذلك المساء.

وهكذا تحقق المحال الذي لا يصدقه عقل، فقد وصل مصدق رمز القومية الإيرانية ومقاومة النفوذ الملكي فجأة إلى قمة السلطة. كانت لحظة ابتهاج، ولكن في الوقت ذاته لم يكن أي شيء مؤكدًا، وأدرك الجميع أن صراع العمالقة على وشك أن يبدأ، ولم يجرؤ أحد على أن يفترض ما قد يعنيه ذلك لإيران والعالم أجمع.

الفصل السادس

أعداء غير مرئيين في كل مكان

في صباح السادس والعشرين من يونيو/حزيران عام ١٩٥٠ التف الملايين من الإيرانيين والأمريكيين حول أجهزة الراديو في توجس، حيث كانوا جميعًا يدركون أنهم على وشك سماع أنباء قد تغير مجرى حياتهم للأبد، ومعظمهم يشعر بالخوف ويخيم عليهم الصمت، لكن الأزمة التي على وشك الوقوع في إيران لم يكن لها علاقة بالأزمة التي أصابت الولايات المتحدة على حين غرة.

وفي ذلك اليوم أعلن شاه إيران عن ترشيحه للجنرال علي رازمارا القائد العسكري المشئوم في منصب رئيس الوزراء، واحتشد الناس في المحلات والمصانع والمقاهي في كل أنحاء إيران يتساءلون عما قد يعنيه ذلك، وهل سيتمكن رازمارا من عقد صفقة مع البريطانيين في اللحظة الأخيرة، وإذا لم يتمكن من ذلك، ما الذي سوف يحدث؟ هل تغزو القوات البريطانية إيران؟ هل ستندلع ثورة؟ أتتجه الأمة نحو الخلاص أم نحو كارثة؟

أما الأمريكيون فقد كانوا مشغولين بأنباء أخرى، فقد تدفق الجنود الشيوعيون بأعداد كبيرة عبر خط عرض ٣٨ في كوريا وأخذوا يتقدمون جنوبًا، وعقد مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة جلسة طارئة حذر فيها الغزاة من أنه في حالة عدم انسحابهم فسوف تندلع الحرب، ولما كانت كلتا القوتين العظميين في العالم تمتلك ترسانة أسلحة نووية، خشي العديد من الأمريكيين من وقوع أرماجيدون.[١]

---

[١] هي المعركة الفاصلة بين الخير والشر وتكون على إثرها نهاية العالم، وتقع هضبة «مجيدو» في منطقة فلسطين على بعد ٩٠ كم شمال القدس و ٣٠ كم جنوب شرق مدينة حيفا، وكانت مسرحًا لحروب ضارية في الماضي كما تعتبر موقعًا أثريًا هامًا. وهي عقيدة مسيحية ويهودية مشتركة تؤمن بمجيء يوم يحدث فيه صدام بين قوى الخير والشر، وسوف تقوم تلك المعركة في أرض فلسطين في منطقة مجدو أو وادي مجدو. (المترجمة)

عكست الفجوة الكبيرة بين ما شغل بال الإيرانيين وما شغل بال الأمريكيين في ذلك اليوم من شهر يونيو/حزيران الهواجس التي أصابت دولتيهما مع بدء النصف الثاني من القرن العشرين، فالإيرانيون يتقدمون نحو مواجهة حاسمة — لكنها في الوقت ذاته مخيفة — مع بريطانيا العظمى وشركة النفط البريطانية الإيرانية، والأمريكيون في مواجهة احتمال لا يقل خطورة، فالحرب في كوريا دليل نهائي على أن بلادهم قد علقت في صراع عالمي ضد عدو مخيف.

وبطريقة غير مفهومة لكلا الدولتين أصبحت هاتان الأزمتان في نهاية الأمر أزمة واحدة؛ لما كانت الولايات المتحدة تواجه المد الشيوعي الذي لا يرحم، فقد توقفت تدريجيًّا عن اعتبار إيران دولة ذات تاريخ خاص تواجه تحديًا سياسيًّا فريدًا من نوعه، بل إن صراعها مع بريطانيا اتخذ شكل الصراع بين الشرق والغرب.

ساهم شعور قوي بالخوف — وخاصة الخوف من الحصار — في تشكيل الوعي الأمريكي في تلك المرحلة، وتعاهد قادة الحلفاء الذين التقوا في مدينة بوتسدام بعد نهاية الحرب العالمية الثانية بشهرين على التعاون على أساس ديمقراطي سلمي، ولكن كان خلف وعودهم البراقة شعور قوي بالشك وسوء الظن، فالقوات السوفييتية تمكنت بالفعل من إخضاع لاتفيا وليتوانيا وإستونيا وفرض الحكومات الشيوعية على بلغاريا ورومانيا عام ١٩٤٦ والمجر وبولندا عام ١٩٤٧ وتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٤٨، وتحولت ألبانيا ويوغوسلافيا أيضًا إلى الشيوعية، وسعى الشيوعيون اليونانيون سعيًا عنيفًا إلى السلطة، وأغلق الجنود السوفييت المعابر البرية إلى برلين ستة عشر شهرًا، وعام ١٩٤٩ نجح الاتحاد السوفييتي في اختبار أول سلاح نووي، وفي نفس العام خسرت القوات المؤيدة للغرب في الصين الحرب الأهلية ضد الشيوعيين بقيادة ماو تسي تونج، وفي واشنطن بدا الأمر كما لو أن الأعداء يتحركون صوبها من كل اتجاه.

وفي استجابة من الرئيس ترومان لذلك المناخ الدولي المتغير صدق على إنشاء المخابرات المركزية الأمريكية عام ١٩٤٧، ومهمتها الأصلية الغامضة تتمثل في تنفيذ «الأعمال والمهام المتعلقة بالاستخبارات التي تؤثر على الأمن

القومي»، وبعد عام امتدت تلك المهمة كي تشمل «التخريب ومناهضة التخريب والتدمير وإجراءات الإخلاء ... وإسقاط نظم الحكم ومساعدة حركات المقاومة السرية وحروب العصابات وحركات تحرير اللاجئين ودعم العناصر الأهلية المناهضة للشيوعية في دول العالم الحر المهددة.» وفي يناير/كانون الثاني ١٩٥٠ أصدر مجلس الأمن القومي وثيقة في غاية الأهمية عرفت باسم NCS-68 أكدت حاجة الولايات المتحدة لمواجهة الحركات الشيوعية، ليس في المناطق الأمنية المهمة فحسب بل أينما ظهرت، وتوصلت الوثيقة إلى أن «الهجوم على المؤسسات الحرة أصبح الآن عالمي النطاق، وفي سياق الاستقطاب الحالي للقوى تعتبر هزيمة المؤسسات الحرة في أي مكان هزيمة للكل.»

دفعت الحرب الباردة الولايات المتحدة إلى ألا تدرك قوة أعدائها فحسب، بل أيضًا أهمية أصدقائها، فعام ١٩٤٩ جمعت أحد عشر من أصدقائها في تحالف عسكري قوي أطلق عليه منظمة حلف شمال الأطلنطي (الناتو)، والتضامن بين الولايات المتحدة وبريطانيا هو حجر الأساس في هذا التحالف الجديد، ولا يسمح للخلافات بشأن كيفية التعامل مع دولة مثل إيران أن تضعفه.

كان الرئيس ترومان مقتنعًا بأن السوفييت يرغبون في استقطاب إيران نحوهم، وفي اليوم التالي لغزو كوريا الشمالية لكوريا الجنوبية أخبر أحد مساعديه بأن كوريا ليست الدولة الوحيدة التي تثير قلقه، وتوجه إلى الكرة الأرضية الموضوعة على مكتبه بالمكتب البيضاوي وأشار بإصبعه إلى إيران قائلًا: «سوف تبدأ المشاكل من هنا إن لم نكن حذرين.»

ظلت بريطانيا وروسيا تعتديان على سيادة إيران طوال ما يزيد عن قرن، وبطبيعة الحال كان العديد من الإيرانيين يكنون لهما الكراهية، ولكن اختلف الوضع فيما يتعلق بالولايات المتحدة، فمعظم الإيرانيين يشعرون نحوها بالإعجاب، فالأمريكيون القلائل الذين تعرفوا عليهم يتميزون بالكرم والإيثار، ولم يهتموا بالثروة أو بالسلطة بل بمساعدة إيران.

كان المواطن الأمريكي الأشهر للإيرانيين معلمًا شابًّا جادًّا يدعى هوارد باسكرفيل قتل عام ١٩٠٩ وهو يقاتل جنبًا إلى جنب مع أصدقائه الإيرانيين في

الثورة الدستورية، فاعتبروه شهيدًا وأطلقوا عليه لقب «لافاييت[2] الأمريكي»، واتخذ البعض من تضحيته دليلًا على لطف الشعب الأمريكي أكثر من الشعوب الأجنبية الأخرى.

عندما لقي باسكرفيل مصرعه على يد جنود الشاه، بدأ خبير تربوي أمريكي ذو رؤية يدعى صامويل جوردان إقامته في طهران التي استمرت ثلاثة وأربعين عامًا، ومدرسة البرز التي أنشأها من أوائل المدارس الثانوية الحديثة في البلاد، وتخرج منها الآلاف الذين انطلقوا يعيدون تشكيل الحياة الإيرانية، وكانت الإرسالية البروتستانتية التي يعمل بها جوردان تدير مستشفى وإحدى مدارس الفتيات المعدودة بالبلاد.

كتب أحد الخريجين فيما بعد: «كانت النظرة العالمية للأمريكيين تنطوي على الإعجاب والتقدير، حيث فاقت المساهمات الأمريكية في تحسين أوضاع بلادنا الفقيرة التي أنهكها الصراع وإعادة الكرامة لها أعدادهم الصغيرة ... ودون أن يحاولوا فرض أسلوب معيشتهم أو ديانتهم على الشعب تعلموا اللغة الفارسية وأنشئوا المدارس والمستشفيات والمستوصفات الطبية في كل أنحاء إيران.»

لم يكن تفاني هؤلاء الرجال والسيدات الذي يحتذى به السبب الوحيد الذي جعل العديد من الإيرانيين معجبين بالولايات المتحدة، فقد دافع المسئولون الأمريكيون مرارًا عن حقوق الإيرانيين، وانتقدت الولايات المتحدة بشدة الاتفاقية البريطانية الإيرانية لعام ١٩١٩ التي اكتسبت بريطانيا بموجبها نفوذًا استعماريًّا في إيران، وفي نفس العام في فرساي، كان الرئيس وودرو ويلسون هو الزعيم الوحيد في العالم الذي دعم مطالبة إيران بتعويضات مالية من بريطانيا وروسيا عن احتلالهما لإيران أثناء الحرب العالمية الأولى، تلك المطالبة التي لم تسفر عن شيء، وفي منتصف العشرينيات من القرن العشرين أعلن مبعوث أمريكي في طهران أن «الإيرانيين من كل الطبقات ما زالوا يمتلكون ثقة مطلقة في الولايات المتحدة.»

حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية لم تكن الولايات المتحدة تنتهج سياسة ناشطة نحو إيران، ولكن بعد الحرب بدأ النفوذ الأمريكي يمتد

---

[2] هو أرستقراطي فرنسي شارك متطوعًا في حرب الاستقلال الأمريكية. (المترجمة)

إلى كل مكان في العالم، وأدى الدور الحيوي الذي لعبه النفط في انتصار الحلفاء إلى تركيز صناع السياسات في واشنطن على الشرق الأوسط، وازداد اهتمامهم مع اشتداد الحرب الباردة.

كان دين أتشيسون شخصية عظيمة الأهمية في التاريخ الدبلوماسي الأمريكي، وأدار سياسة الولايات المتحدة نحو إيران في تلك الفترة، وتعاطف مع الحركات القومية في العالم الثالث، كان أتشيسون بجسده النحيل وحلله الرسمية وقبعته وشاربه المهذب شخصًا أرستقراطيًّا بكل ما تحمله الكلمة من معنى رغم أنه لم يولد ثريًّا، كان في شبابه جمهوريًّا متحمسًا معجبًا بثيودور روزفلت، ثم أصبح بعدُ مؤيدًا للديمقراطية وعمل في إدارة فرانكلين روزفلت، واستشعر ترومان تقاربهما الشديد في التفكير، فبعد فوزه في انتخابات ١٩٤٨ عينه في منصب وزير الخارجية. وصمم الرجلان على أن يثبتا للدول الفقيرة أن الولايات المتحدة وليس الاتحاد السوفييتي هي صديقهم الحقيقي.

وفور أن تولى أتشيسون منصبه عين جورج ماكجي، وهو أحد مواطني تكساس النشطين ذوي العقول المنفتحة، في منصب مساعد الوزير لشئون الشرق الأدنى وجنوب آسيا وأفريقيا، بلغ ماكجي ثمانية وثلاثين عامًا عندما تولى هذا المنصب الحيوي، درس الجيولوجيا في جامعة أوكلاهوما وحصل على منحة رودز في أوكسفورد، وعندما أنهى دراسته عرضت عليه شركة النفط البريطانية الإيرانية منصبًا في إيران، لكنه رفض وعاد إلى الولايات المتحدة كي ينشئ شركة النفط الخاصة به، وزاد نجاحها من ثرائه بصورة جعلته يعمل لحساب وزارة الخارجية بلا مقابل، ولكن خلفيته في صناعة النفط جعلت بعض مسئولي وزارة الخارجية البريطانية لا يثقون به، فقد اتهموه بمحاولة إضعاف شركة النفط البريطانية الإيرانية بحيث تتمكن بعض شركات النفط الأمريكية، ومنها ما كان يملك مصالح خفية فيها، من احتلال مكانها في إيران.

حضر ماكجي اجتماعات عديدة عقدها محمد رضا شاه مع المسئولين الأمريكيين أثناء زيارته لواشنطن في أواخر عام ١٩٤٩، وأحبط من الطموحات العسكرية «المبالغ فيها وغير الواقعية» للعاهل الشاب. وسرعان ما دعا مسئولي

شركة النفط البريطانية الإيرانية إلى اجتماع وأخبرهم بأنه قد قرأ أحدث التقارير السنوية الخاصة بشركتهم وأعجب بالأرباح التي يحققونها، وأعلن أنه قد حان الوقت كي تبدأ الشركة مشاطرة أرباحها مع إيران بطريقة أكثر عدلًا، لكن ضيوفه أبدوا سخريتهم من تلك الفكرة، حتى إن أحدهم أعلن قائلًا إنه لو بدأت شركة النفط البريطانية الإيرانية في الاستسلام لمطالب إيران، «لن يتبقَّى لها شيء في الخزينة.»

احتدم هذا الجدال على مدار الأشهر التالية، وكرر ماكجي تحذيره لمديري شركة النفط البريطانية الإيرانية قائلًا إن عليهم تقديم تنازلات إذا كانوا يرغبون في إنقاذ رازمارا وإقناع المجلس بالموافقة على الاتفاقية التكميلية. وذات مرة عندما غضب من إصرار الشركة على عدم استطاعتها منح المزيد لإيران، طلب من ريتشارد فانكهاوزر خبير النفط بوزارة الخارجية إعداد تقرير حول عمليات الشركة، توصل التقرير إلى أن شركة النفط البريطانية الإيرانية شركة مربحة على نحو استثنائي وأنها تبيع النفط بتكلفة تبلغ عشرة أضعاف تكلفة استخراجه إلى ثلاثين ضعفًا، وأن تكبرها الشديد جعلها «مكروهة بشدة في إيران.»

ولما كان ماكجي قلقًا بشأن الكارثة التي يلوح شبحها في الأفق، قرر السفر إلى لندن لعرض قضيته بنفسه، ولكنه عندما وصل إلى هناك في سبتمبر/أيلول من عام ١٩٥٠ قوبل بفتور بالغ، ورفض كبار مسئولي الحكومة البريطانية وشركة النفط البريطانية الإيرانية تمامًا مطالباته بالتسوية، وأخبروه بأن الشركة لن تتولَّى تدريب المزيد من الإيرانيين على الوظائف الإشرافية ولن تسمح بفتح دفاتر حساباتها لمراقبي الحسابات الإيرانيين ولن تدفع لإيران المزيد في مقابل النفط. وأعلن السير ويليام فريزر رئيس مجلس إدارة الشركة قائلًا: «إذا دفعنا بنسًا آخر لإيران سوف تعلن الشركة إفلاسها.» وعندما سمع ماكجي تلك الكذبة المذهلة أدرك أنه لا جدوى من المباحثات، فتوقف عن محاولاته ورحل متجهًا إلى الديار.

ولما كانت بريطانيا غارقة حتى النخاع في أعرق التقاليد الاستعمارية في العالم، احتار المسئولون البريطانيون لرفض إدارة ترومان الاعتراف بأن بريطانيا يجب أن تجني الأرباح من عملها في الدول الأخرى؛ فما بدا

للأمريكيين — وأكثر منهم الإيرانيون — نزعة استعمارية وحشية بدا طبيعيًّا للبريطانيين، فقد أصروا على أنهم يؤدون خدمة جليلة للعالم بعملهم في إيران على حد زعم السير دونالد فيرجسون وكيل الوزارة الحالي بوزارة النفط والطاقة في مذكراته:

> كانت الجرأة والمهارات والجهود البريطانية هي التي أدت إلى اكتشاف النفط في الأراضي الإيرانية واستخراجه وإلى بناء معمل التكرير وإلى تسويق النفط الإيراني في ثلاثين أو أربعين دولة عن طريق أرصفة الميناء وصهاريج التخزين والمضخات والصهاريج البرية والسكك الحديدية ووسائل التوزيع الأخرى، بالإضافة إلى أسطول ضخم من الصهاريج، وقد فعلنا كل ذلك عندما لم يكن من السهل تسويق النفط الإيراني نظرًا للمنافسة الشديدة مع صناعة النفط الأمريكية الأضخم، ولم تكن الحكومة الإيرانية أو الشعب الإيراني قادرين على تأدية أي عمل من تلك الأعمال.

تجسدت الهوة السحيقة بين التصور الأمريكي والبريطاني للأزمة الوشيكة في إيران في السفيرين اللذين أرسلتهما هاتان الدولتان إلى طهران عام ١٩٥٠، كان هنري جريدي السفير الأمريكي خبيرًا اقتصاديًّا ذا خبرة مباشرة باليونان والهند، وهما دولتان ساهمت الحركات القومية في تشكيل الوضع السياسي بهما، واعتقد جريدي أنه لو لم تؤيد الولايات المتحدة القوى الوطنية في الدول النامية، فسوف تتجه تلك القوى نحو الماركسية والاتحاد السوفييتي، حيث كان معاديًا للشيوعية ولكنه أيضًا معادٍ للاستعمار بنفس القدر.

مثل جريدي النقيض من نظيره البريطاني في طهران — السير فرانسيس شيبرد شديد العنف — من حيث الطباع والتوجه السياسي، والتقارير التي أرسلها السفيران إلى بلاديهما مختلفة وكأنها لا تتحدث عن نفس الدولة، فجريدي رأى دولة فقيرة استغلها البريطانيون الذين امتصوا دماءها وعاملوا الشاه المثير للشفقة كما لو كان خادمًا لهم، أما شيبرد فاعتبر شركة النفط البريطانية الإيرانية شركة عاقلة حكيمة لم تجلب لإيران سوى الخير، ولم

يكن يرحب بالإيرانيين ناكري الجميل أو الدبلوماسيين الأمريكيين المتطفلين الذين يعتقدون عكس ذلك.

وفي فبراير/شباط ١٩٥١ دعا جورج ماكجي كل السفراء الأمريكيين في الشرق الأوسط إلى اجتماع في إسطنبول، وأحد أهم بنود جدول الأعمال هو الخلاف الذي حدث بين الولايات المتحدة وبريطانيا بشأن إيران، وتوصل الدبلوماسيون المجتمعون إلى أن شراسة شركة النفط البريطانية الإيرانية هي «أحد كبار العوائق السياسية التي تؤثر على المصالح المشتركة للولايات المتحدة والمملكة المتحدة في الشرق الأوسط.» وأكدوا في مذكرة سرية أن «السياسات الرجعية العتيقة» التي تتبعها الشركة لا تؤدي إلى موقف شديد الخطورة فحسب، بل إنها أيضًا «تحول دون السيطرة على الشيوعية في إيران.» وكان هذا الإجماع موجِّهًا للسياسة الأمريكية من خلال إدارة ترومان.

اشتدت الأزمة الإيرانية على مدار الأسابيع التالية، حيث اغتيل رئيس الوزراء رازمارا في السابع من مارس/آذار، وفي الخامس عشر من مارس/آذار أجري التصويت التاريخي في المجلس على «قبول مبدأ تأميم النفط في إيران.» وقد يكون بعض النواب قد ظنوا أن البريطانيين سوف يجدون طريقة للتعايش مع هذا القرار، وذلك لأن البرلمان الإنجليزي نفسه قد بدأ في تأميم الصناعات البريطانية الرئيسة، ولذلك فقد تساءل وزير الخارجية إرنست بيفين: «ما الحجة التي يمكنني تقديمها لأي مطالب بالحق في تأميم موارد بلاده؟ إننا نفعل نفس الشيء هنا في بلادنا بمصادر قوتنا مثل الفحم والكهرباء والسكك الحديدية والمواصلات والصلب.» ولكن بيفين لم يكن في السلطة عندما اندلعت الأزمة في إيران، واتفق خلفاؤه في السلطة بالإجماع على أنه رغم كون التأميم مسلكًا حكيمًا في الديار، فإنه لا يمكن اتباعه في الدول الأخرى.

وفور تصويت المجلس على تأميم شركة النفط البريطانية الإيرانية توجه ماكجي إلى طهران، وعندما وصل إلى هناك في السابع عشر من مارس/آذار وجد السفير شيبرد في حالة نفسية سيئة، حيث ألقى اللوم على الأمريكيين، وخاصة شركة أرامكو (شركة النفط العربية الأمريكية)، شاكيًا من أن إعلان أرامكو اعتزامها مناصفة الأرباح مع السعوديين قد أضعف موقف بريطانيا

في المفاوضات، وأجاب ماكجي بأنه أنذر شركة النفط البريطانية الإيرانية منذ أشهر عديدة بدنو اضطرارهم لمناصفة الأرباح، وأن الشركة قد جلبت المتاعب لنفسها «بتعنتها وبطئها في إدراك الموقف الجديد في إيران الذي يتطلب توجهًا جديدًا.»

وفي ذلك المساء توجه ماكجي لزيارة الشاه، وكان اجتماعهما محبطًا للغاية حيث كتب ماكجي عنه بعد ذلك:

> كنت قد قابلت الشاه منذ عام ونصف أثناء زيارته الرسمية المشهورة لواشنطن، وكان حينئذ رجلًا متكبرًا متصلب الرأي مصرًّا على أخذ مطالبه بجدية، ولكن عندما رأيته في قاعة المقابلات الرسمية المظلمة التي استقبلني فيها متكئًا على أريكة شاهدت رجلًا مكتئبًا محطمًا، وشعرت بأنه يخشى أن يغتال هو أيضًا ... هل كان يظن أنه بمساعدتنا يمكن أن يتجنب موضوع التأميم؟
>
> أخبرني الشاه بأنه لا يمكنه فعل ذلك، ورجانا ألا نطلب منه ذلك. لم يكن بإمكانه حتى تشكيل حكومة، كان الجميع خائفين، وهناك أعداء غير مرئيين في كل مكان. بدا الشاه يائسًا كما لو كان يعتقد أن الأمر برمته مستحيل، فتركته وحيدًا في قاعته المظلمة، ولكنني لن أنسى أبدًا النظرة الحزينة المكتئبة التي أطلت من عينيه. كان شبح الموت والفوضى الوشيكة يخيم على طهران كسحابة سوداء، وكنت حزينًا عندما ألقيت عليه تحية الوداع.

وفي طريقه للعودة للديار توقف ماكجي في لندن وقابل السير ويليام فريزر رئيس مجلس إدارة شركة النفط البريطانية الإيرانية وموريسون وزير الخارجية، وكانت تلك الاجتماعات عاصفة حتى إن موريسون قرر إرسال وفد إلى واشنطن كي يعرض قضية بريطانيا، واختار السير أوليفر فرانكس السفير البريطاني في واشنطن — الذي كان مدرس علم الأخلاق لماكجي في جامعة أوكسفورد — رئيسًا لذلك الوفد.

استمرت تلك الاجتماعات تسعة أيام، وحاول المبعوثون البريطانيون أن يبرهنوا أن السماح لإيران بتأميم النفط «سوف يعتبر إلى حد بعيد

انتصارًا للروسيين»، بالإضافة إلى أنه سوف «يؤدي إلى عجز قدره مائة مليون جنيه سنويًّا في ميزان مدفوعات المملكة المتحدة، مما يؤثر بشدة على برنامج إعادة التسليح ومستوى المعيشة في بلادنا.» وأصر فرانكس على أن إيران «لا تملك شكوى حقيقية» من بريطانيا أو شركة النفط، في حين تشعر بريطانيا بالقلق الشديد بشأن فقدان «أحد احتياجاتها الاستراتيجية الأساسية.» ووصف شركة النفط البريطانية الإيرانية بأنها أحد الأصول المهمة للغرب، «ليس من أجل أهميتها في ميزان المدفوعات فحسب، بل أيضًا بسبب القدرة التي أعطتها لنا على التحكم في انتقال المواد الخام.» حيث يعتبر النفط الإيراني حيويًّا «من أجل الدفاع المشترك»، وتعني خسارته لنا تعطيل «قدرتنا على إعادة التسليح.»

على مدار عدة أيام ظل ماكجي يستمع في إحباط صامت، وعندما تحدث في نهاية الأمر حذر البريطانيين مرة أخرى من ضرورة التوصل إلى تسوية مع إيران أو مواجهة الكوارث، وحثهم على بدء مناصفة الأرباح مع إيران، «وهو ما يحمل شعورًا بالعدل إلى رجل الشارع»، ولكن البريطانيين لم يقتنعوا، وكتب عن ذلك الأمر فيما بعد: «في نهاية الأمر كان عليّ للأسف أن أخطر فرانكس في اجتماعنا الأخير الذي عقد في الثامن عشر من أبريل/نيسان بأن عروضهم لا تفي بمتطلبات النجاح من وجهة نظرنا في حالة الاستقرار على خيار التأميم.»

وفور انتهاء المباحثات في واشنطن شرعت إيران في مسلكها الشجاع الجديد، ففي الأول من مايو/أيار عام ١٩٥١ وقع محمد رضا شاه القانون الخطير الخاص بإلغاء امتياز شركة النفط البريطانية الإيرانية وتأسيس شركة النفط الإيرانية القومية بدلًا منها، وفي اليوم التالي طالبت بريطانيا بإيقاف العمل بهذا القانون، وفي السادس من مايو/أيار عرض مصدق وزارته على المجلس وحصل على الموافقة عليها في الحال، وفي نفس اليوم تولى مصدق منصب رئيس الوزراء.

بقدر ما كان وصول مصدق للسلطة لحظة تاريخية للإيرانيين، كان صدمة للبريطانيين، فقد كانوا معتادين على التلاعب برؤساء الوزارات الإيرانيين كما لو كانوا قطعًا من الشطرنج، وفجأة وجدوا أنفسهم في

مواجهة رئيس وزراء يكن لهم الكراهية، وأعلنت إذاعة طهران التابعة للحكومة في برنامج أذيع عقب تولي مصدق السلطة «إن كل أشكال البؤس والتعاسة والفوضى والفساد التي مرت بها إيران خلال الخمسين عامًا الأخيرة ترجع إلى النفط وإلى الابتزاز الذي مارسته شركة النفط.»

ولفترة وجيزة بدا أن رئيس الوزراء أتلي مستعد للتسوية، وكان أتلي اشتراكيًّا ساهم في وضع خطط لتأميم بعض الصناعات الأساسية في بريطانيا، وفي أحد الاجتماعات الوزارية اقترح أن تصدر بريطانيا بيانًا عامًّا تعلن فيه قبول تأميم شركة النفط البريطانية الإيرانية، مما يعطي مصدق «فرصة لحفظ ماء وجهه»، ثم تسعى لعقد صفقة ملتوية تحتفظ الشركة بموجبها بمعظم امتيازاتها، ولكن هربرت موريسون اعترض بشدة وحذر أتلي قائلًا إن أي تنازلات لإيران سوف تصبح سابقة غير مسموح بها وتشجع الحركات القومية في كل مكان. وانخدع أتلي بذلك التحذير وأرسل برقية إلى السفير فرانكس في واشنطن يأمره فيها بأن يخبر أتشيسون بأن «النفط الإيراني شديد الأهمية لاقتصادنا وأننا سوف نبذل كل ما بوسعنا كي نمنع الإيرانيين من الإفلات بجريمة خرق التزاماتهم التعاقدية.»

ولكن أتشيسون كان يعتقد أن مصدق يمثل «ثورة عميقة قومية الطابع لن تكتسح إيران فحسب بل الشرق الأوسط بأكمله»، واستمر هو وآخرون في إدارة ترومان يحثون نظراءهم البريطانيين على تجنب سياسة المواجهة وعرض تسوية قانونية على مصدق، وذلك رغم إدراكهم أن مصدق ليس شخصية من السهل التعامل معها كما أوضحت اللمحة التالية عن حياته في جريدة نيويورك تايمز:

> ألقت الموجة العاتية من الحماس القومي التي اجتاحت شركة النفط البريطانية الإيرانية خلال بضعة أسابيع بأحد أعظم الزعماء الشعبيين في إيران — وهو محمد مصدق — إلى قمة السلطة، ومن وجهة نظر الجماهير يمثل رئيس الوزراء الجديد عدالة القصاص التي حركت البرلمان سريع التأثر وقادته إلى النصر على التنين أو شركة النفط البريطانية الإيرانية التي ظلت من وجهة نظر الكثيرين تقتات على الموارد الأساسية للبلاد طوال سنوات عديدة ...

طلب أحد الدبلوماسيين الأجانب الذين قابلوا د. مصدق مؤخرًا منه بأن يوضح كيف ينوي نزع ملكية شركة النفط البريطانية الإيرانية، وعلى مدار نصف ساعة أخذ مصدق يوضح الجرائم التي ارتكبها الاستعمار البريطاني طوال المائة عام الماضية، وعندما انتهى من حديثه أعاد عليه الدبلوماسي سؤاله، ومرة أخرى ندد رئيس الوزراء بالإمبريالية البريطانية، وانتهى الحوار عند هذا الحد.

ما الخطوة التالية لـ د. مصدق؟ سوف يظل هذا السؤال معلقًا ومفتوحًا لتخيلات الجميع.

لم تنجح الرسائل المتبادلة بين واشنطن ولندن في منتصف عام ١٩٥١ في تقريب وجهات النظر بين الحليفين بشأن كيفية التعامل مع مصدق، وفي الثامن عشر من مايو/أيار أصدرت وزارة الخارجية بيانًا عامًّا تعلن فيه أن الأمريكيين «يدركون تمامًا حق السيادة الذي تتمتع به إيران ويتعاطفون مع رغبة إيران في زيادة الأرباح المستحقة لها من الاستثمار في البترول.» قرأ موريسون هذا البيان بضيق شديد، ثم أرسل برقية إلى السفير فرانكس في ذلك المساء يخبره فيها بأنه «مستاء بشدة من اللامبالاة الأمريكية للموقف الذي قد يصبح خطيرًا علينا جميعًا.»

وسرعان ما أرسل موريسون رسالة إلى أتشيسون حاول فيها توضيح موقف بريطانيا، حيث ذكر أن المشكلة التي تواجهها بريطانيا في إيران «تخص أهم الأصول التي نملكها من المواد الخام، ويعتبر التحكم في هذا الأصل في غاية الأهمية ... فلن يقبل البرلمان والرأي العام في إنجلترا عن طيب نفس التنازل عن التحكم الفعلي في ذلك الأصل عظيم الأهمية.»

ولكن الأمريكيين لم يتأثروا بذلك، وفي الحادي والثلاثين من مايو/أيار أرسل ترومان مذكرة إلى أتلي يحثه فيها على «بدء المفاوضات على الفور» كي يمنع تفاقم «الموقف الخطير» في إيران، وأجاب أتلي بأن السماح لإيران بأن تفلت بجريمة التأميم سوف يكون له «تداعيات شديدة الخطورة على العالم الحر بأكمله»، ولكنه أدرك أنه نظرًا لإصرار ترومان سوف يضطر البريطانيون إلى التظاهر على الأقل بالتواصل البناء مع مصدق.

وبناء على اقتراح أتلي أرسلت شركة النفط البريطانية الإيرانية وفدًا من مسئوليها بقيادة بيزل جاكسون نائب رئيس مجلس إدارة الشركة إلى طهران للتفاوض، ورحب بهم مصدق على طريقته عن طريق تولية ضابطي شرطة إيرانيين السلطة في مقر شركة النفط في مدينة كرمانشاه غربي إيران في يوم وصولهم، وكما لو كان ذلك غير كافٍ لزيادة التوتر في الأجواء، أعاد السفير جريدي تأكيد الموقف الأمريكي في حوار أجراه مع جريدة وول ستريت، فأكد قائلًا: «حيث إن التأميم قد أصبح حقيقة واقعة، فالحكمة تتطلب من البريطانيين أن يتخذوا موقفًا يميل نحو المصالحة، وحزب الجبهة الوطنية الذي يرأسه مصدق يعتبر أقرب ما يكون إلى عنصر سياسي معتدل متوازن في البرلمان الوطني.»

أعلن الإيرانيون على مائدة المفاوضات استعدادهم للحوار، ولكن بعد أن يعلن الضيوف القادمين من لندن قبولهم لتأميم «الشركة المذكورة» بوصفه أمرًا واقعًا، ولكن جاكسون رفض وأصر على أن إيران ملزمة بتنفيذ اتفاقية ١٩٣٣ ولا يمكنها التنصل منها قبل انتهاء مدتها البالغة ستين عامًا، وقدم لهم عرضًا مختلفًا يتمثل في تسديد شركة النفط عشرة ملايين جنيه استرليني لإيران وثلاثة ملايين جنيه استرليني شهريًّا أثناء المفاوضات، بالإضافة إلى استعدادها لتحويل أصولها إلى شركة النفط الإيرانية القومية الجديدة ولكن بشرط إنشاء شركة جديدة تمتلك «الحق الحصري في استخدام تلك الأصول.» وكان ذلك إعلانًا شبه صريح بأن بريطانيا ما زالت ترفض الاعتراف بالتأميم، وأكد ذلك التصريح الموقف الثابت لوزارة الخارجية المتمثل في أن البريطانيين «يمكنهم التحلي بالمرونة في مسألة الأرباح أو الإدارة أو الشراكة، ولكن ليس في مسألة السيطرة والتحكم.» ولم يفاجأ أحد برفض المتفاوضين الإيرانيين لذلك العرض.

في العشرين من يونيو/حزيران أمر مصدق بتعيين مهدي بازارجان، وهو مهندس تلقى تعليمه في فرنسا، في منصب العضو المنتدب لشركة النفط الإيرانية القومية، وانطلق بازارجان في الحال إلى عبدان حيث لا يزال المديرون البريطانيون يديرون معمل التكرير وقدم لهم نفسه بصفته رئيسهم الجديد، وأول أمر أصدره قباطنة ناقلات النفط هو وجوب تقديم

إيصالات قبل الإبحار مذكور فيها كمية النفط المنقولة حتى يمكنه تتبع كمية النفط المصدَّر بدقة.

ولكن البريطانيين لم يتقبلوا ذلك الأمر، فقد كانوا يعتقدون — كما أكد سفيرهم لدى الأمم المتحدة — أن النفط «حق قانوني لشركة النفط البريطانية الإيرانية»، وعندما رفض قباطنة ناقلات النفط تقديم تلك الإيصالات هددهم بازارجان بالقبض على إريك دريك المدير العام لشركة النفط البريطانية الإيرانية بتهمة التخريب، ولما كانت تلك التهمة تؤدي إلى عقوبة الإعدام بموجب مشروع قانون ما زال مطروحًا في المجلس، نصح السفير شيبرد دريك بأن يغادر إيران، ولكن ذلك القانون لم يصدق عليه، وبالفعل غادر دريك البلاد وأخذ يدير الشركة من مكتب يقع مقره في البصرة على ضفاف نهر شط العرب، ومن موقعه هناك استمر في رفض المطالبة بالإيصالات، وعندما أصر الإيرانيون أصدر السير ويليام فريزر أمرًا من موقعه في لندن لقباطنة ناقلات النفط بإعادة ضخ كل النفط في المخازن وترك عبدان خالية من النفط تمامًا.

حتى تلك اللحظة كانت إيران رابع أكبر دولة مصدرة للنفط في العالم، حيث كانت تغطي ٩٠٪ من احتياجات أوروبا للنفط، والآن حيث إنها لم تعد تملك أي ناقلة نفط لم يعد بإمكانها تصدير قطرة نفط واحدة، ولم يكن ذلك الأمر يمثل مشكلة لفريزر الذي ما زال يعتقد أن بإمكانه إجبار الإيرانيين على الخضوع لإرادته، فقد توقع أن الإيرانيين «عندما يحتاجون للمال سوف يأتون زاحفين على بطونهم.»

إن فكرة تأميم إيران لصناعة النفط بدت سخيفة ومستحيلة لفريزر وزملائه في شركة النفط البريطانية الإيرانية، بالإضافة إلى مسئولي الحكومة البريطانية، مع أنها كانت تحدث بالفعل، ولم يتمكنوا من أخذ الأمر على محمل الجد، فمن وجهة نظرهم ليست الحملة بأكملها إلا خدعة هائلة أو حيلة لابتزاز المزيد من المال من بريطانيا، أو غضبة عنيفة سوف تنتهي عندما تتضح عواقبها.

تذكر إريك دريك تلك الأيام فيما بعد قائلًا: «لم يكن أحد يتخيل قبل عام ١٩٥١ أننا لن نظل في إيران للأبد، فقد كنا هناك بموجب اتفاقية دولية

بين حكومة إيران وشركة النفط البريطانية الإيرانية، ولا يوجد سبب يدعو تلك الاتفاقية للانتهاء حسبما نرى.»

ركبت الصحافة البريطانية موجة الهجوم على مصدق بحماس شديد، حيث ألقت جريدة تايمز التي تصدر في لندن اللوم على «السياسيين الإيرانيين المستهترين» في إثارة هياج العامة غير المتعلمين، وأعلنت مجلة ذي إيكونوميست أن شركة النفط البريطانية الإيرانية قد أصبحت «كبش فداء ضخم» وأكدت قائلة: «لا يصدق أي إيراني لديه القدرة على التمييز أن شركة النفط البريطانية الإيرانية مسئولة عن الفقر المدقع الذي تعيش فيه الجماهير.» ووصفت جريدة ذا أوبزرفر مصدق بأنه «متعصب من طراز روبسبيير» و«وحش بائس مهووس بفكرة واحدة تتعلق بكراهية الأجانب.»

وفي الجانب الآخر من المحيط الأطلنطي اختلفت النغمة تمامًا، حيث أكدت جريدة واشنطن بوست أن معظم الإيرانيين يعتبرون شركة النفط «دولة مزدهرة داخل دولة مصابة بالابتلاء ورمز للفقر الذي يرزحون تحت وطأته.» وأعلنت جريدة نيويورك تايمز أن العديد من المختصين في شئون الشرق الأوسط يعتبرون مصدق منقذًا على شاكلة توماس جيفرسون أو توماس بين. وأعلنت جريدة شيكاجو ديلي نيوز أن العديد من البريطانيين يشعرون بالاستياء حيال الطريقة التي تتعامل بها حكومتهم مع الأمر، حيث كتب مراسلها في لندن: «لا يعتقد منتقدو بريطانيا أن ماكجي مسئول بالفعل عن الأزمة الإيرانية، ولكنهم أجمعوا على أن شركة النفط البريطانية الإيرانية تناولت المسألة برمتها بطريقة سيئة، وذلك بالتواطؤ مع وزارة الخارجية كالعادة.»

كان هناك بالفعل معارضة في بريطانيا، حيث كتب المستشار العمالي لشركة النفط البريطانية الإيرانية السير فريدريك ليجيت رسالة إلى صديق له في وزارة الخارجية يخبره فيها بأن الشركة قد أصبحت في ذلك «الموقف المؤسف» بسبب «عدم قدرتها على إدراك الطموحات القومية الإيرانية.» واشتكى وزير الدولة كينيث يونجر في مذكرة بعث بها إلى موريسون من «قصر نظر شركة النفط البريطانية الإيرانية وقلة الوعي السياسي الذي أبدته»، وأكد قائلًا إن الشركة «لم تحاول بجدية قط تقدير الموقف تقديرًا

صحيحًا». وأخبر الإيرل ماونتباتن رؤساءه في إمارة البحر بأنه بدلًا من الاستماع لنصيحة هيربرت موريسون «المعروف بالعدوانية» عن كيفية «ترويع أولئك الأهالي الوقحين»، يجب على بريطانيا أن تدرك أن «التهديدات الاقتصادية والعسكرية سوف تزيد الأمر سوءًا.»

بل إن بعض الدبلوماسيين البريطانيين كانوا يرسلون تقارير معارضة لوزارة الخارجية، حيث أرسل الملحق العمالي في طهران برقية تصف الأوضاع في عبدان بأنها يرثى لها، قائلًا إن العمال هناك يعيشون في «أكواخ مصنوعة من الطوب اللبن بلا كهرباء أو موارد مائية أو استعدادات صحية، أي أنهم يعيشون في أحياء عشوائية بكل ما تحمله الكلمة من معنى.» وأرسل الوزير البريطاني من تل أبيب تقريرًا نشر في جريدة جيروزليم بوست مؤكدًا أن هذا التقرير قد أقنعه بأن شركة النفط البريطانية الإيرانية «تستحق ما حدث لها»، وذلك التقرير كتبه إسرائيلي قضى أعوامًا عديدة يعمل في عبدان مع الإيرانيين الذين وصفهم بأنهم «أكثر الكائنات بؤسًا على سطح الأرض.»

> كانوا يعيشون طوال أشهر الصيف السبعة تحت ظلال الأشجار، وفي الشتاء تنتقل تلك الجماهير إلى قاعات كبيرة بنتها الشركة كي تأوي عددًا كبيرًا من الناس يتراوح بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف شخص دون حوائط أو جدران داخلية تفصل بينهم. وكل عائلة تحتل مساحة لا تزيد عن بطانية واحدة، ولا توجد مراحيض. وحاولنا مرارًا من خلال الجدال مع الزملاء البريطانيين أن نوضح لهم الخطأ الذي يرتكبونه بمعاملة الإيرانيين على هذا النحو، ولكن إجابتهم كانت دائمًا بأن «البريطانيين لديهم مئات من الأعوام من الخبرة في معاملة الأهالي. إن الاشتراكية لا بأس بها في إنجلترا، ولكن هنا عليك أن تكون السيد.»

في الثامن والعشرين من يونيو/حزيران توجه مصدق بمناشدة إلى الفنيين والمديرين البريطانيين في عبدان، أخبرهم فيها بأن إيران ترغب في «الاستفادة من خبراتهم» ووعدهم بأنهم إذا مكثوا في وظائفهم فإن «بلادنا سوف ترحب بكم بشدة.» ولما كان فريزر مصممًا على ألا يسمح لإيران

بأن تتمكن من إدارة معمل التكرير بنفسها، فقد استجاب لتلك المناشدة بإصدار أوامره للموظفين البريطانيين بالرحيل.

ولما كان الإيرانيون قد سيطروا بالفعل على مقر الشركة في كرمانشاه، تمثلت الخطوة التالية لهم في تولي السلطة في مقرات عبدان وطهران، وبالفعل نفذوا ذلك في الأيام الأخيرة من شهر يونيو/حزيران. كان مدير مكتب عبدان ذكيًّا بما يكفي كي ينقل المستندات المهمة إلى مقر القنصلية البريطانية الذي لم يكن مسموحًا للإيرانيين بدخوله، ولكن ريتشارد سيدون مدير مكتب طهران لم يكن يملك نفس سرعة البديهة، فعندما ذهب وفد من الإيرانيين كي يفتشوا منزله وجدوا ملفات كثيرة هناك ومنها ما كان يحترق في المدفأة، وصف أحد المسئولين بوزارة الخارجية البريطانية الذين شهدوا تلك الليلة ذلك الموقف قائلًا:

> مع أن المستندات الخطيرة كانت على حد زعمهم قد أخفيت، فهناك ما يكفي من المستندات كي يثبت مصدق بسهولة أن شركة النفط البريطانية الإيرانية كانت تتدخل في كل جوانب الحياة السياسية في إيران، فالمستندات كشفت عن تأثير الشركة على أعضاء مجلس الشيوخ ونواب المجلس والوزراء السابقين، وأن من كانوا يعارضونها يستبعدون من مناصبهم، وكانت الجرائد تتقاضى أموالًا كي تنشر مقالات تزعم أن العديد من زعماء الجبهة الوطنية في حقيقة الأمر جواسيس لشركة النفط البريطانية الإيرانية ...
>
> ومن ضمن تلك المستندات دليل على أن رئيس الوزراء السابق علي منصور قد توسل إلى شركة النفط كي يسمحوا له بالبقاء في منصبه في مقابل أن يلتزم بتعيين وزير مالية جديد توافق عليه الشركة. وكشفت مجموعة أخرى من الخطابات أن الشركة قد ساعدت باهرام شاروغ على أن يصبح مديرًا لقسم الإذاعة والدعاية بإيران، وأنه قد جُند لخدمة الشركة أثناء رحلته إلى لندن. وهناك أيضًا العديد من التقارير حول إعطاء محافظ طهران تعليمات للطوائف ذات النفوذ بالتمرد على مؤيدي الجبهة الوطنية في السوق.

نشرت الحكومة تلك المستندات على الملأ، واتخذها العديد من الإيرانيين دليلًا آخر على الغش الذي تمارسه شركة النفط، وأعلن مصدق أن تلك المستندات تثبت أن شركة النفط البريطانية الإيرانية شاركت في حملة «شريرة ومرفوضة» للقضاء على الديمقراطية في إيران. وازداد نواب المجلس غضبًا من تلك الأفعال الاستعمارية، وكان معلقو الأخبار أيضًا كذلك، حيث كتب أحدهم في إحدى الجرائد الإيرانية: «والآن بما أن الستار قد رفع عن الهوية الحقيقية للخائنين الذين تخفوا في صورة صحفيين ونواب بالمجلس وحكام بل رؤساء وزارات، يجب إعدام هؤلاء الخائنين رميًا بالرصاص وترك جثثهم كي تنهشها الكلاب.»

كان الرئيس ترومان في ذلك الوقت ما زال يأمل في التوصل لحل لتلك الأزمة، ولذلك فقد عقد اجتماعًا لمجلس الأمن القومي الأمريكي في أواخر شهر يونيو/حزيران، كانت الحقائق المطروحة أمامه مخيفة، فقد فشلت محاولات جورج ماكجي لتغيير رأي وزارة الخارجية وشركة النفط البريطانية الإيرانية فشلًا ذريعًا، وبدأت شركة النفط في إجلاء موظفيها من عبدان، وبدا من المحتمل أن يغلق معمل التكرير أبوابه تمامًا، وظلت السفن الحربية البريطانية تطوف بالشواطئ بطريقة تنذر بسوء، وحذر الخبراء في شئون الشرق الأوسط بمجلس الأمن القومي في تقرير لهم من أنه في حالة تعذر حل مشكلة النفط، «إن خسارة العالم الحر لإيران احتمال قائم.» وأكدوا في تقريرهم أن البريطانيين يفكرون جديًّا في غزو إيران، وحذروا من أن ذلك الغزو «قد يؤدي إلى انقسام العالم الحر ويجعل الحكومة الإيرانية تلجأ إلى الاتحاد السوفييتي طلبًا للمساعدة، بالإضافة إلى إحداث الفوضى في إيران.»

وهكذا ازداد ترومان قلقًا عن ذي قبل، وزادت الرسالتان اللتان تلقاهما في الأيام التالية من حدة مخاوفه؛ الرسالة الأولى من مصدق توضح أن إيران وبريطانيا ما زالتا في طريق التصادم، واشتكى مصدق من الجهود التي تبذلها بريطانيا لتخريب مشروع التأميم الخاص به وأضاف محذرًا «ليس هناك أي خطر على الإطلاق على حياة المواطنين البريطانيين في إيران وأملاكهم، ولكن نشر الإشاعات الكاذبة من جانب عملاء شركة النفط السابقة قد يؤدي إلى إشاعة القلق والاضطراب.»

وفي الأول من يوليو/تموز وجه السفير جريدي نفس التحذيرات التي وجهها مصدق مستخدمًا ألفاظًا أكثر غلظة؛ ففي برقية كئيبة أرسلها إلى ترومان حذره من أن الموقف في إيران «شديد الخطورة» وذكر لأول مرة أن بريطانيا تبحث عن طريقة للإطاحة بمصدق، حيث كتب: «يبدو أن البريطانيين بقيادة السيد موريسون مصممون على اتباع الأسلوب القديم المتمثل في استبعاد الحكومة التي تسبب لها المشاكل، ولكن مصدق يتمتع بتأييد من شعب بلاده تبلغ نسبته ٩٥ إلى ٩٨٪، ولذلك فمن الحماقة التخلص منه.»

ولكن ما اعتبره جريدي «حماقة شديدة» هو بالضبط ما خطط له البريطانيون، فقد يئسوا من إقناع مصدق بالموافقة على تفكيرهم ولم يكونوا مستعدين لتقديم التنازلات التي يريدها، وأرسل السفير شيبرد برقية إلى لندن يقول فيها «لقد حانت اللحظة المناسبة لمحاولة التخلص منه» كي يأتي رئيس وزراء إيراني جديد «يتمتع بالحكمة واللطف» بدلًا من ذلك «المتعنت غير العملي».

أدت الأنباء التي وردت في الخامس من يوليو/تموز إلى زيادة الأمور تعقيدًا، حيث أصدرت محكمة العدل الدولية بناء على طلب بريطانيا «توصية» لإيران بالسماح لشركة النفط بالعمل كالسابق أثناء سير المفاوضات، ولكن إيران رفضت الاشتراك في تلك القضية، فقد كانت المحكمة تملك صلاحية الفصل القضائي في النزاعات بين الدول فحسب، وأكد المسئولون الإيرانيون أن اتفاق ١٩٣٣ عقد بين إيران وبين شركة خاصة، وهكذا فإن محكمة العدل الدولية لا تملك حق التدخل، ورفض الوزير الإيراني المفوض في لاهاي تلك التوصية باعتبارها «باطلة ولاغية» و«تدخلًا في شئوننا الداخلية.»

ولكن كل ذلك لم يزد موريسون إلا إصرارًا، فذهب إلى مجلس العموم البريطاني واعتلى منصة الخطابة كي يعلن أن الموقف في إيران «أصبح لا يحتمل»، وكي يضمن أن مصدق يدرك حدة غضبه أضاف قائلًا إن القوات البحرية البريطانية «قابعة بالقرب من عبدان» وسوف تؤمر بالتحرك «في حالة إخفاق الإيرانيين في القيام بمسئولياتهم.»

وهنا رأى ترومان الخطر القادم أكبر من ذي قبل، وفيما يتعلق به كانت مسألة من يتحكم في النفط الإيراني مسألة ثانوية، ولكنه كان قلقًا

بشأن خروج الخلاف بين الولايات المتحدة وبريطانيا حول كيفية التعامل مع مصدق عن السيطرة وانقسام حلف شمال الأطلنطي، وإصرارًا منه على القيام بمحاولة أخيرة للتسوية كتب رسالة إلى مصدق يقترح فيها أن تتوسط الولايات المتحدة بطريقة مباشرة:

> إن هذا الأمر محفوف بالمخاطر على بلادكم وبريطانيا العظمى والعالم الحر بأكمله، ولذلك فكرت جديًّا في تلك المشاكل ... وقد تابعت بقلق شديد توقف المباحثات وقرب انهيار عمليات النفط وكل الخسائر المصاحبة لذلك لإيران والعالم، وبالطبع تعتبر تلك كارثة يمكن تفاديها بقليل من الحنكة السياسية ...
>
> إنني أعلق آمالًا كثيرة على دعوى محكمة العدل [الدولية] ... ولذلك فإنني أنصح جديًّا بوضع اقتراحها في الاعتبار وألا يعتبر حكمها قرارًا ملزمًا أو غير ملزم بناء على الاعتبارات القانونية، ولكن اقتراحًا صادرًا عن جهة موضوعية تهدف إلى تحقيق العدالة والمساواة وسيادة السلام في العالم ...
>
> سيدي رئيس الوزراء، إن لديّ رغبة صادقة في تقديم المساعدة بقدر الإمكان في تلك الظروف، وقد ناقشت ذلك الأمر بالتفصيل مع السيد دابليو أفريل هاريمان الذي يعتبر كما تعلم أحد مستشارينا المقربين وأحد مواطنينا البارزين، وإذا رغبت في استقباله فإنني على استعداد لأن أرسله إلى طهران بصفته مندوبي الشخصي كي يناقش معكم ذلك الموقف العاجل الملح.

كان أفريل هاريمان دبلوماسيًّا بارعًا؛ عمل سفيرًا للولايات المتحدة في بريطانيا والاتحاد السوفييتي، بالإضافة إلى إدارته لمشروع مارشال[٣] في أوروبا، ويعرف محمد رضا شاه ويمتلك خبرة في الشئون الإيرانية، وفور أن أخبره ترومان بمهمته الجديدة استقبل هاريمان وفدًا رفيع المستوى

[٣] هو المشروع الاقتصادي لإعادة تعمير أوروبا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية الذي وضعه الجنرال جورج مارشال رئيس هيئة أركان الجيش الأمريكي أثناء الحرب العالمية الثانية ووزير الخارجية الأمريكي منذ عام ١٩٤٧. (المترجمة)

في منزله بواشنطن مكونًا من وزير الخارجية أتشيسون ومساعده جورج ماكجي واثنين من المسئولين بوزارة الخارجية والسفير البريطاني السير أوليفر فرانكس، وأجمع الكل على أن الموقف في إيران أصبح شديد الخطورة، فقد كانوا يخشون أن يؤدي وقوع أي حادث بسيط في عبدان إلى التدخل العسكري البريطاني، وهو ما قد يؤدي بدوره إلى استعانة مصدق بالسوفييت، وحتى لو لم يحدث ذلك فمن المحتم أن يؤدي إغلاق معمل التكرير إلى تفجير عاصفة من الاضطراب الاجتماعي والسياسي.

كانت مهمة هاريمان محفوفة بالتحديات من قبل أن تبدأ، فقد عارض البريطانيون الفكرة في حد ذاتها، وفي رسالة أرسلها موريسون إلى أتشيسون تدل على نفاد الصبر أخبره فيها بأن بريطانيا «تمر بمشاكل خطيرة» ولا تحتاج إلى المزيد من المفاوضات ولكن إلى «دعم صادق» من الولايات المتحدة، كتب: «عليّ أن أخبرك بأن إحدى الصعوبات الرئيسة التي تواجهنا في تلك المشكلة العنيدة قد نشأت من اعتقاد العديد من الإيرانيين بوجود خلاف في الرأي بين الأمريكيين والبريطانيين بشأن قضية النفط، وأخشى أن يؤدي تقدم مندوب الرئيس بعرض جديد إلى تشجيع د. مصدق على الاستمرار في هذا الاعتقاد.»

أكدت تلك الرسالة وجهة نظر أتشيسون المتمثلة في أن موريسون «لا يعلم شيئًا عن الشئون الخارجية ولا يشعر بالموقف.» ولم يكن أيضًا يحتمل السفير البريطاني المتعصب السير فرانسيس شيبرد الذي كان يعتبره «تلميذًا خائبًا للمدرسة الدبلوماسية المسماة القمع بالقنابل.» وكانت الكراهية متبادلة بينهما، ففور أن علم شيبرد بأن أتشيسون يعتزم إرسال مبعوث إلى طهران كي يتدخل فيما يعتبره شئونه الخاصة، عقد مؤتمرًا صحفيًّا للتعبير عن «دهشته وضيقه» من جرأة الشعب الأمريكي ووقاحته، وتساءل متعجبًا: «لماذا يأتي هاريمان إلى هنا؟! إننا لا نرحب بالتدخل في هذا الأمر.» كانت تلك الثورة غير دبلوماسية على الإطلاق، وبناء على تعليمات من وزارة الخارجية أعلن شيبرد التراجع عن ذلك التصريح في اليوم التالي.

في ذلك المناخ المتوتر توجه السفير جريدي بزيارة لمصدق كي يسلمه خطاب ترومان، وكان يرتدي قميصًا أبيض وقبعة استوائية أنيقة ويبتسم

ملوحًا للمصورين عند وصوله، ولكن اجتماعهما لم يكلل بالنجاح؛ فبناء على طلب مصدق قرأ جريدي الخطاب بصوت مرتفع، وعندما وصل إلى الفقرة التي يحثه فيها ترومان على قبول توصية المحكمة انفجر مصدق في الضحك الهستيري لمدة تزيد عن نصف دقيقة، وعندما توقف عن الضحك استغرقا في الصمت لبرهة، وأخيرًا أخبر مصدق جريدي بأن إيران تعتقد أن محكمة العدل الدولية لا تتمتع بسلطة قضائية في تلك القضية، ثم بدأ فاصلًا عنيفًا من الاتهامات الغاضبة للولايات المتحدة التي وصفها بأنها كانت تتمتع بالقيم الأخلاقية فيما مضى ولكنها الآن تضعف أمام الضغوط البريطانية، وكان تقريعه شديد القسوة حتى إن جريدي لم يرَ فائدة من التعجيل بزيارة هاريمان المحتملة.

غضب أتشيسون غضبًا شديدًا عندما وصلته أخبار تلك المقابلة، وأرسل رسالة عنيفة إلى جريدي يخبره فيها بأن مهمة هاريمان هي:

> «العنصر الإيجابي الوحيد في اقتراح الرئيس والخطوة التي نعلق عليها أنا والرئيس أهمية كبرى، حيث إنني لا أصدق أن رد الفعل الأول لمصدق هو رأيه النهائي بعد التفكير، وأعتقد أن اعتبارات اللياقة سوف تدفعه إلى التفكير مليًّا في رسالة الرئيس واستقبال مندوب الرئيس الشخصي الذي يمكنه مشاركة التفكير العميق الذي قام به الرئيس في ذلك الأمر وتلقي أي اقتراحات يدلي بها مصدق، لذلك عليك أن تطلب مقابلة مصدق مرة أخرى بأسرع وقت ممكن وحثه على تلك الاعتبارات بطريقتك اللبقة.»

فعل جريدي كما طلب منه، واتضح أن ثقة أتشيسون في قدراته الإقناعية في محلها، فقد تمكن من إقناع مصدق بأن مهمة هاريمان في مصلحة الجميع، وعندما وصل هاريمان إلى طهران في الخامس عشر من يوليو/تموز عام ١٩٥١، استقبلته لجنة من عشرة آلاف إيراني غاضب يصرخون «الموت لهاريمان!»

الفصل السابع

إنك لا تعلم كم هم أشرار

لم تكن الساعات الأولى لهاريمان في طهران مبشرة بالنجاح، فقد اضطر سائق سيارته الليموزين إلى سلوك طريق ملتوٍ من المطار كي يتجنب الجماهير الغاضبة، ووصل بسلام إلى قصر الضيافة المعد لاستقباله ولكنه تناول عشاءه وأصوات إطلاق النيران تدوي حوله، حيث يطلق رجال الشرطة والجنود في السيارات المصفحة النيران على المتظاهرين، وبحلول منتصف الليل كانت المدينة قد غرقت في بحر من الدماء والغازات المسيلة للدموع، ولقي أكثر من عشرين شخصًا مصرعهم وأُصيب مائتان.

لماذا انتهت المظاهرات بتلك المذبحة الرهيبة؟ ألقت الصحف في اليوم التالي اللوم على محمد رضا شاه واللواء فضل الله زاهدي وزير الداخلية المتعنت اللذين قيل إنهما حرضا على العنف متعمدين كي يعطيا هاريمان انطباعًا بأن إيران تمر بحالة من الفوضى، فاستشاط مصدق غضبًا وأقال زاهدي من منصبه قبل نهاية ذلك اليوم.

وفي ذلك المساء توجه هاريمان بزيارته الأولى لمصدق، وكان ذلك الاجتماع مختلفًا عن أي اجتماع آخر في مسيرة هاريمان الدبلوماسية الطويلة، حيث اقتيد إلى غرفة نوم في الطابق العلوي في منزل مصدق المتواضع فوجده مستلقيًا في الفراش يرتدي عباءة من وبر الجمل، ورحب مصدق بضيفه بفتور وأخبره بأنه يأمل أن يكتشف خلال المباحثات هل الولايات المتحدة بالفعل نصير للمظلومين أم أنها ليست إلا ألعوبة في يد البريطانيين الأشرار، وأجاب هاريمان بأنه قد عاش فترة في لندن بين البريطانيين ويعلم جيدًا أن

منهم الصالحين والطالحين، ولكن مصدق غمغم معترضًا «إنك لا تعلمهم جيدًا.»

لم يكن مصدق يرى أي تناقض بين احترامه الشديد للنظام الدستوري البريطاني وبين احتقاره لحكومة بريطانيا وتاريخها الاستعماري، فقد ذكر خلال أحد اجتماعاته مع هاريمان أحد أحفاده المفضلين، وتساءل هاريمان عن المكان الذي يدرس فيه هذا الحفيد، فأجاب مصدق قائلًا: «في إنجلترا بالطبع، أين تتوقع أن يدرس إذن؟»

وفي البرقيات التي أرسلها إلى واشنطن وصف هاريمان مصدق بأنه «شديد التعنت» و«مهووس بفكرة القضاء التام على عمليات شركة النفط البريطانية والنفوذ البريطاني في إيران.» وذكر أحد كتاب السيرة أن انطباعه عن ذلك الرجل العجوز أظهر إحباطه الشديد:

> لما كان [مصدق] مخدوعًا طوال الوقت، كان يستجيب بإطلاق ضحكات طفولية غير مريحة أو اعترافات تمزق نياط القلب تتبعها إعادة لنفس الأسلوب المراوغ مع بعض التغيير الذي لا يجيد إخفاءه. كان ذلك الرجل يجسد قلة الحيلة، ورغم أنه كان مفتونًا بالقوميين المتعصبين بقدر ما كان زعيمًا لهم، لم يكن هناك ما يجعله يلين. وعندما يتعرض للضغوط يخلد إلى فراشه، ويبدو أحيانًا كما لو كان يمتلك سيطرة ضعيفة على الحياة ذاتها وهو يرقد مرتديًا منامته الوردية ويداه معقودتان على صدره وعيناه تطرفان وأنفاسه متقطعة.
>
> ولكن في اللحظة المناسبة يخرج من قوقعة الرجل الضعيف العاجز ويتحول إلى خصم قوي مخادع؛ فقد كان يذهب إلى مدخل قصر الضيافة الذي استقبل هاريمان وهو يجر قدميه ببطء ويتوكأ على عصاه، ولكن ما إن يدخل حتى يلوح بالعصا بعيدًا وأحيانًا ينسى أين وضعها. وعندما تعرف على ماري هاريمان تناول يدها كي يقبلها من باب اللياقة، ولكنه لم يتوقف عن تقبيلها حتى وصل إلى منتصف ذراعها، وشوهد لاحقًا وهو يختلس النظرات إليها بصورة كانت أحيانًا ما تقطع حبل أفكاره تمامًا.

كان هاريمان قد أحضر معه خبيرًا في البترول يدعى والتر جيه ليفي اصطحبه معه في اجتماعات عديدة مع مصدق، وذكر ليفي مرارًا وتكرارًا العقبات التي سوف تواجهها حكومة مصدق إذا حاولت إدارة معمل التكرير في عبدان بنفسها، فلا يوجد أي إيراني تقريبًا مؤهل لتولي الوظائف الإدارية والفنية الكبرى، وحتى إذا تمكنوا بمعجزة من المحافظة على تدفق النفط فإن إيران لا تمتلك ناقلات للنفط كي تنقله إلى الأسواق، وسوف تؤدي خسارة عوائد شركة النفط البريطانية الإيرانية التي بلغت عام ١٩٥٠ حوالي عشرة ملايين جنيه استرليني إلى تقويض استقرار إيران، مما قد يؤدي إلى الإطاحة بمصدق وتعيين حكومة يديرها حزب تودة من موسكو، وهو ما قد يؤدي بدوره إلى التدخل العسكري للدول الغربية في إيران.

ولكن أيًّا من تلك الحجج لم تهتز لها شعرة في رأس مصدق، فقد أصر على أن التدخل الأجنبي هو أصل كل المشاكل في إيران وأنه «بدأ في عهد الإسكندر الأكبر» الذي أمر بحرق مدينة برسيبوليس منذ أربعة وعشرين قرنًا، وكلما توقف ليفي بعدما يوضح نقطة فاصلة في معاناة إيران في حالة إخفاقها في التوصل لاتفاق مع البريطانيين، أدار مصدق عينيه في ملل ورد: «إن ذلك مضر للغاية لنا.»

ولما كان هاريمان ومساعدوه معتادين على الأخذ والعطاء المتبادل في الإجراءات الدبلوماسية التقليدية، فقد ذهلوا من طريقة مصدق في التفاوض التي أثارت جنونهم، وكتب المترجم الفوري الأمريكي فيرنون والترز عن ذلك الأمر: «لقد تعلم د. مصدق أن يتخذ خطوة للأمام كي يتراجع بعدها خطوتين للخلف، فبعد يوم كامل من المباحثات يتمكن السيد هاريمان من إقناع مصدق بوجهة نظر معينة، ولكن في اليوم التالي لم يكن مصدق يغير موقفه عن اليوم السابق فحسب، بل يغير موقفه عن اليوم الذي قبله أيضًا.»

كان والترز في ذلك الوقت ضابطًا برتبة مقدم في الجيش الأمريكي، وقد جذبت مهاراته اللغوية انتباه رؤسائه إليه وساعدته على أن يشق طريقه في مجال مهني ممتاز أدى به إلى حضوره مقابلات مثل لقاء نائب مدير المخابرات المركزية الأمريكية وسفير الولايات المتحدة في ألمانيا. وكان يمتلك قدرة على السخرية غير المهذبة، حيث أبدى ملاحظته ذات مرة بأن أنف

مصدق «تجعل من جيمي ديورانت يبدو كما لو كان مقطوع الأنف.» وأهم من ذلك أنه كان يعلم متى يترجم حرفيًّا ومتى يعيد صياغة التعليقات التي تفتقر إلى اللباقة، فذات مرة على سبيل المثال وجهت زوجة السفير جريدي التحية إلى مصدق قائلة «د. مصدق، إنك تملك وجهًا معبرًا للغاية، ففي كل مرة تكون فيها تفكر في اللاشيء يمكنني أن أدرك ذلك من خلال النظرة الخاوية على وجهك.» ولكن والترز ترجم ذلك التعليق إلى الفرنسية كالتالي «د. مصدق، إنك تملك وجهًا معبرًا للغاية، ففي كل مرة تستغرق فيها في التفكير العميق يمكنني أن أدرك ذلك من خلال نظرة التركيز التي تبدو على وجهك.»

لم تتعثر مباحثات مصدق مع هاريمان بسبب أسلوب مصدق في التفاوض أو إخفاقه في إدراك التفاصيل المعقدة لصناعة النفط، ولكن السبب الحقيقي كان الاختلاف الجوهري في الطريقة التي ينظر بها كلا الرجلين إلى ذلك النزاع؛ فمن وجهة نظر هاريمان كان الأمر مجموعة من الحقائق العملية والتحديات التقنية التي يمكن حلها عن طريق التحليل المنطقي والمناقشة والتسوية، ولكن مصدق رأى الأمر من منظور مختلف تمامًا، فهو يعتقد أن إيران تمر بلحظة التحرر العظيمة، ولما تأصلت في نفسه المثل الشيعية أصبح مصرًّا على السعي نحو تحقيق العدالة حتى ولو كان الثمن استشهاده، وتفاصيل إدارة معمل التكرير أو سعة ناقلات النفط تبدو سخيفة وغير ذات صلة بالموضوع في ذلك الموقف الجليل.

وعندما أصر هاريمان على إيجاد طريقة كي يبني مصدق علاقات جديدة مع البريطانيين، هز الرجل العجوز رأسه نافيًا وقال: «إنك لا تعلم كم هم ماكرون، إنك لا تعلم كم هم أشرار، إنك لا تعلم كم يلوثون أي شيء تلمسه أيديهم.» كان العديد من الإيرانيين يشاركونه نفس الرأي، وأدرك والتر ليفي ذلك عندما افتتح حوارًا مع مجموعة من الناس الذين قابلهم في أحد شوارع طهران وهذا هو الحوار:

ليفي: هل تدركون أنه في حالة مغادرة الفنيين البريطانيين لعبدان سوف يتعين عليكم إدارة الصناعة بأنفسكم؟

الإيرانيون: نعم.

ليفي: وهل تدركون أنكم لن تتمكنوا من إدارة الصناعة دون مساعدة البريطانيين؟

الإيرانيون: نعم.

ليفي: وهكذا لن يستمر إنتاج النفط الإيراني في الأسواق العالمية.

الإيرانيون: نعم.

ليفي: وفي حالة التوقف عن إنتاج النفط الإيراني سوف تفرغ الأموال من خزانة الدولة.

الإيرانيون: نعم.

ليفي: وإذا انعدم رصيدكم من المال فسوف يحدث انهيار مالي واقتصادي في البلاد وهو ما يريده الشيوعيون.

الإيرانيون: نعم.

ليفي: وماذا ستفعلون حيال ذلك؟

الإيرانيون: لا شيء.

ولما تأكد هاريمان أنه لن يتمكن من إقناع مصدق قرر أن يحاول التأثير عليه بطريق غير مباشر، فطلب المساعدة من الشاه أولًا، ولكن الشاه أخبره صراحة بأنه لا يستطيع أن يعارض الرأي العام ويتفوه بكلمة واحدة ضد التأميم، ثم دعا الصحفيين الإيرانيين إلى مؤتمر صحفي وقرأ عليهم بيانًا يدعو فيه إيران إلى مواجهة الأزمة «بمزيج من العقل والحماس.» وفور أن أنهى حديثه اندفع أحد الصحفيين قائلًا: «إن الشعب الإيراني كله يؤيد رئيس الوزراء مصدق وتأميم صناعة النفط»، وانطلق الآخرون في الهتاف وغادروا المكان تاركين هاريمان يهز رأسه في استياء.

وبعد تفكير طويل فيمن يمكنه التأثير على مصدق والجماهير، توصل هاريمان إلى فكرة غريبة تتمثل في الاستعانة بآية الله كاشاني الملا المثير للمشاكل الذي أصبح من أهم الشخصيات العامة في إيران، كان هذان الرجلان شديدي الاختلاف أحدهما عن الآخر؛ فهاريمان ينحدر من إحدى أشد العائلات ثراءً في العالم، وهو عضو في جمعية سكال آند بونز السرية في جامعة ييل، ويمارس رياضتي التزلج على الجليد والبولو، وقضى حياته بين أفراد الطبقة الراقية. أما كاشاني فقد حارب في الصحراء ضد البريطانيين

الذين سجنوه فيما بعد ثم أرسل إلى المنفى بناء على أوامر الشاه، ولكاشاني لحية سوداء طويلة ويرتدي عمامة من نفس اللون، وعالمه يتركز في غرفة صغيرة مكسوة بالسجاد يجلس فيها معظم الوقت كل يوم يتأمل ويصلي ويخطط، ويخرج عدة مرات في الأسبوع لزيارة أحد المساجد أو يندد بعنف بالاستعمار أمام حشود من المؤمنين الذين كادوا يرفعونه إلى مصاف الآلهة.

عندما توجه هاريمان لزيارة كاشاني اقتيد إلى غرفة مظلمة ذات ستائر ثقيلة جلس الرجل فيها ساكنًا، وبعد أن خلع هاريمان حذاءه وجلس على السجاد وعبر عن خالص احترامه، قال إنه يأمل أن يوافقه كاشاني على أن أزمة النفط لا يمكن حلها إلا عن طريق عقد اتفاق بين إيران وبريطانيا، وتجرأ قائلًا إن كاشاني يمكنه المساعدة في الأمر عن طريق إقناع مصدق بالموافقة على استقبال مبعوث بريطاني، وفور ترجمة تلك الجمل الأولى انفجر كاشاني غاضبًا في عاصفة من النقد مفادها أنه لا يوجد إيراني محترم يوافق على مقابلة «الكلاب» البريطانيين وأن الولايات المتحدة قد تحولت إلى عدو لإيران بذلك الاقتراح، وأما النفط الإيراني فيمكنه أن يظل في الأرض، واختتم حديثه قائلًا: «إذا استسلم مصدق فسوف يهدر دمه مثل رازمارا.»

لم يكتفِ كاشاني بذلك التهديد، بل وجه تهديدًا آخر لهاريمان نفسه، حيث سأله هل سمع بشخص يدعى إمبري، ولما أجاب هاريمان بالنفي سرد له كاشاني قصته قائلًا: «إنه رجل أمريكي أتى إلى إيران عام ١٩١١ أو ١٩١٢، وتدخل في مسألة النفط التي لا تعنيه في شيء تدخلًا أثار حنق الشعب عليه، وذات يوم وهو يسير في شوارع طهران أُطلق عليه الرصاص في الشارع، لكنه لم يلقَ مصرعه في الحال واقتادوه إلى المستشفى، ولكن الجماهير الغاضبة تبعته إلى المستشفى واقتحموها وذبحوه على طاولة العمليات الجراحية. هل تفهم؟»

بصعوبة بالغة تمكن هاريمان من تمالك أعصابه وقال ببرود: «يا فضيلة الشيخ، يجب أن تعلم أنني مررت بمواقف خطيرة كثيرة في حياتي ولذلك لا يمكن إخافتي بسهولة»، ولكن كاشاني هز كتفيه بلا مبالاة وقال: «لم يكن هناك ضرر من المحاولة.»

لم يكن احتقار كاشاني لفكرة التسوية — الذي ربما فاق احتقار مصدق لها — هو كل ما أشعر هاريمان بالإحباط، ولكنه كان يحتقر البريطانيين بنفس القدر كما أخبر أتشيسون في برقية بعث بها إليه قائلًا:

مع أن البريطانيين يعتبرون النفط الإيراني أهم أصولهم عبر البحار، لم يتجه أي من الوزراء البريطانيين لزيارة إيران من قبل على حد علمي فيما عدا تشرشل وإيدن في مسائل تتعلق بالحروب، ونادرًا ما زارها مديرو شركة النفط أيضًا. ويعتبر الموقف الحالي هنا مثالًا مأساويًّا على الإدارة المتغيبة مع النمو العالمي للحركات القومية في الدول المتخلفة. ولا شك أن الإيرانيين مستعدون للتضحية بإيرادات النفط من أجل التخلص من الممارسات الاستعمارية البريطانية، وهناك مجموعات كبرى من الناس على استعداد لتحمل أي عواقب من أجل تحقيق هذا الهدف، ومن الواضح أن التقارير والتوصيات البريطانية لم تكن واقعية، وكان ضروريًّا أن يكتشف أعضاء الحكومة البريطانية بأنفسهم ما يحدث هنا.

ولبرهة بدا أنه رغم كل العوائق ما زال التوصل لحل ممكنًا، ففي نهاية الأمر تمكن هاريمان من إقناع مصدق بإصدار بيان يعلن فيه أنه على استعداد للتفاوض مع المبعوث البريطاني إذا «أقرت الحكومة البريطانية نيابة عن شركة النفط البريطانية الإيرانية السابقة مبدأ تأميم صناعة النفط في إيران»، ولكن ما أثار سخطه الشديد أن وزارة الخارجية رفضت ذلك الاقتراح، فقرر أن يذهب بنفسه إلى لندن كي يناشدهم أن يفعلوا الصواب، وفي لندن التقى بأعضاء مجلس الوزراء البريطاني في اجتماع استغرق ثلاث ساعات، وانقسم أعضاء المجلس إلى فريقين، فرأى بعضهم وجوب الاستمرار في اتباع سياسة التعنت، ورأى البعض الآخر أنه من الحكمة إرسال مبعوث إلى طهران. وقرر رئيس الوزراء أتلي أن يرسل حامل ختم الملك السير ريتشارد ستوكس، وهو أحد أثرياء الطبقة الراقية في بريطانيا ولم يكن يملك أي خبرة في شئون الشرق الأوسط.

كُلف ستوكس بإخبار مصدق بأن شركة النفط على استعداد لقبول مبدأ امتلاك إيران للنفط ومناصفة الأرباح معها، ولكن بشرط أن يظل التحكم في عمليات الحفر والتكرير والتصدير في أيدي البريطانيين، كان ذلك العرض في جوهره هو نفس العرض الذي جاء به بيزل جاكسون إلى طهران منذ ستة أسابيع، ولكن ستوكس أُعطي تعليمات بألا يعترف بذلك وبأن يظل داخل حدود عرض جاكسون مع إمكانية «تجميله وعرض بنوده بترتيب مختلف مع تهذيبها وجعلها تبدو أكثر جاذبية حسب المطلوب.»

كان السؤال الأول الذي وجهه مصدق لستوكس عندما تقابلا لأول مرة: هل يعتنق المذهب الكاثوليكي؟ وعندما أجاب ستوكس بالإيجاب أخبره مصدق بأنه غير مناسب لتلك المهمة لأن الكاثوليك لا يؤمنون بالطلاق، وإيران على وشك أن تعلن الطلاق من شركة النفط البريطانية الإيرانية، ولكن ستوكس لم يضحك للدعابة، وأجاب بأن ما يفعله مصدق مع شركة النفط البريطانية الإيرانية يعتبر أقرب للقتل منه للطلاق.

كان ذلك الحوار بداية للشقاق في المحادثات، ومما زاد الأمر تعقيدًا القرار الذي اتخذته شركة النفط البريطانية الإيرانية في الحادي والثلاثين من يوليو/تموز بإغلاق معمل التكرير في عبدان. وأعلن مسئولو الشركة أنهم لا يملكون خيارًا آخر، فقد كانت ناقلات التخزين ممتلئة وناقلات النفط لا يمكنها التحرك لأن قباطنتها قد تلقوا تعليمات بألا يوقعوا الإيصالات التي تطلبها إيران، كانت تلك خطوة صادمة عكست مدى العمق الذي وصلت له الأزمة.

كان ستوكس يعلم جيدًا أنه يقدم لمصدق عرضًا سبق أن رفضه، وفي برقية بعث بها إلى الوطن قال إن جوهر العرض الذي تقدم به هو أن يجعل شركة النفط تستمر في عملها كالسابق ولكن «باسم جديد»، وأعرب عن استيائه الشديد لمحاولته القيام «بعدد من الحيل كي نخفي تلك الحقيقة المرة، ولكن كان كل ما توصل إليه إما خطرًا أو مكشوفًا أكثر من اللازم ولن يقبله الإيرانيون.» ومن جانبه أعلن مصدق عن استعداده للتفاوض بشأن ثلاث نقاط فحسب: استمرار إيران في بيع النفط لبريطانيا كي تفي باحتياجاتها المحلية، ووضع الفنيين البريطانيين في خدمة شركة

النفط القومية الإيرانية الجديدة، والأموال التي يجب على إيران سدادها في مقابل أصول شركة النفط البريطانية الإيرانية التي أممتها.

ولما طالت المباحثات بصورة تنبئ بالفشل المحتوم ذهب ستوكس وهاريمان إلى عبدان كي يلقيا نظرة على الأوضاع هناك، وعكست طريقة كل منهما في قضاء وقته هناك توجهاتهما المختلفة نحو الأزمة، فسرعان ما وضع ستوكس في مأزق دبلوماسي عندما حاول القنصل البريطاني طرد المسئولين الإيرانيين من عبدان، ثم استشاط غضبًا عندما سبقته سيارة إيرانية في الموكب الذي رافقه من المطار، وأرسل القنصل خطابًا غاضبًا إلى الحاكم المحلي يطالب فيه بضمانات «بعدم تعرض مندوب حكومة جلالة الملك إلى مثل تلك الإهانات في المستقبل»، واستجاب وزير خارجية إيران بطرده من البلاد، وقبل أن يرحل بعث برقية إلى لندن يقترح فيها أن يظل في البصرة بحيث يتمكن من المساعدة «في حالة وقوع عمليات عسكرية.»

أما هاريمان فقد استفاد بوقته بطريقة أفضل، حيث قام بجولة في عبدان وأرسل برقية إلى ترومان يخبره فيها بأن الأحياء العشوائية التي شاهدها تعتبر «أردأ من أن تصلح مساكن لموظفي شركة نفط غربية كبرى.» وفي برقيات أخرى اشتكى من أن البريطانيين ما زالوا «يحتفظون بموقفهم الاستعماري الذي يرجع للقرن التاسع عشر نحو إيران»، فبدلًا من التفاوض بصورة جدية أصدروا «بيانات متسرعة» وعبروا «باندفاع شديد عن استيائهم» مما اعتبروه سرقة ممتلكاتهم في إيران، واختتم كلامه قائلًا: «في الواقع إنني أشعر أنه إذا لم تتعاون الحكومة البريطانية فسوف يزيد ذلك من صعوبة مهمتي بشدة إن لم يجعلها مستحيلة.»

ازدادت أعصاب هاريمان توترًا مع إصابته باضطراب معوي واشتداد حر الصيف القائظ، وكان القصر الذي يقيم به في طهران فخمًا، ولكن لم يكن به سوى مراوح ضعيفة قليلة لا تقوى على تحريك الهواء الخانق، وبحثًا عن الراحة قام برحلات طويلة إلى العواصم الإقليمية مستقلًا طائرته الرسمية المكيفة، وأمر بتخفيض درجة الحرارة في مقصورته قدر الإمكان، وتدثر هو ومساعدوه بالأغطية الثقيلة مستمتعين بقشعريرة البرد، وعندما أشار فيرنون والترز إلى أن استخدام طائرة تستهلك ثمانمائة جالون من

الوقود في الساعة من أجل الاستمتاع بالتكييف يعتبر أمرًا زائدًا عن حده، انفجر هاريمان غاضبًا وقال: «لو اطلعت على ضرائب الدخل الخاصة بي لعدة سنوات مضت، لعلمت أنني اشتريت عددًا من هذه الطائرات لحكومة الولايات المتحدة.»

قابل مصدق ستوكس عدة مرات بعد ذلك، وفي إحدى المرات سلمه مذكرة دبلوماسية حملت بصيصًا من الأمل كتب فيها إنه في حالة اعتراف البريطانيين بحق الإيرانيين في إدارة صناعة النفط الخاصة بهم، فسوف يتفاوض «بصورة عادلة وكاملة» بشأن «المطالبات المشروعة» لشركة النفط بالتعويض، وخدع ستوكس بذلك العرض وأرسل برقية إلى وزارة الخارجية يطلب فيها الإذن بدراسة ذلك العرض الذي بدا له مبشرًا بالخير، ولكن الرد كان صارمًا يتضمن أمرين صيغا بطريقة فظة وهما: «عدم القيام بمزيد من التنازلات» وقطع المباحثات والعودة على الفور إلى لندن.

في الثاني والعشرين من أغسطس/آب فرض مجلس الوزراء البريطاني سلسلة من العقوبات الاقتصادية على إيران، حيث منع تصدير أهم السلع البريطانية ومنها السكر والصلب إلى إيران وأمر بسحب الموظفين البريطانيين من حقول النفط الإيرانية فيما عدا ثلاثمائة من «أهم» الإداريين بعبدان وحظر وصول الإيرانيين إلى حساباتهم بالعملة الصعبة في البنوك البريطانية. وفي اليوم التالي غادر ستوكس طهران، وأعلن مصدق في مؤتمر صحفي قائلًا: «لم نتوصل إلى نتيجة، كان الأمر بلا قيمة، لقد انتهى كل شيء.»

وعند رحيل ستوكس أرسل رئيس الوزراء أتلي برقية إلى ترومان يعبر فيها عن شعوره بالانتصار كتب فيها: «أعتقد أنك توافقني الرأي في أن توقف المباحثات كان بسبب الجانب الإيراني، ونأمل أن الطريق الوحيد المتاح الآن هو الدعم الكامل من الولايات المتحدة لموقف حكومة جلالة الملك.» ولكن طلبه قوبل بالتجاهل التام، فقد أحبط ترومان بشدة من فشل مهمة هاريمان، ولكنه ألقى معظم اللوم على تعنت بريطانيا وعنادها، وفي الرد على تلك البرقية أصر على ألا يتخذ البريطانيون أو الأمريكيون أي خطوات «تبدو معارضة للطموحات المشروعة للشعب الإيراني.»

توجه هاريمان لزيارة الشاه قبل أن يغادر طهران، وأثناء اجتماعهما تقدم للشاه على حذر باقتراح جديد، فحيث إن مصدق يقف عثرة في طريق

حل الأزمة بطريقة مرضية للدول الغربية، قد يكون ضروريًّا أن يعزل من منصبه، وكان هاريمان يعلم أن الشاه لا يملك طريقة للإطاحة بمصدق في ذلك الوقت، ولكن مجرد طرقه لذلك الموضوع أنذر بالتدخل الأمريكي في الانقلاب بعد ذلك بعامين.

كتب فيرنون والترز فيما بعد: «لم تكن تلك المهمة كأي مهمة أخرى، فبها طابع خيالي مما جعلني بعد ثلاثة أيام أرسل رسالة إلى سكرتيرة السيد هاريمان وأطلب منها إرسال نسخة من كتاب «أليس في بلاد العجائب» بحيث أعلم ما الخطوة التالية في البرنامج. كانت إلى حد ما مهمة فاشلة، ولكنها مهمة ألقت بظلالها على المشاكل الكبرى التي سوف يمر بها العالم الغربي مع النفط بعد ذلك التاريخ بعقدين ونصف، لم يعش د. مصدق حتى يشهد تلك المشاكل، ولكنه كان السبب الأصلي في حدوثها إلى حد ما.»

بعد إخفاق تلك المحاولات الأخيرة للتفاوض كثف وزير الخارجية موريسون والسفير شيبرد جهودهما من أجل الإطاحة بمصدق، وعندما ناقش شيبرد الفكرة مع أصدقائه الإيرانيين علم مصدق بتلك المناقشات على الفور. وفي السادس من سبتمبر/أيلول ألقى مصدق خطابًا أمام مجلس الشيوخ وجه فيه إليهما تهمة التآمر عليه وحذر البريطانيين من أنهم لو لم يتوقفوا عن التآمر فسوف يطرد كل المواطنين البريطانيين المقيمين في عبدان خلال أسبوعين، واستجاب رئيس الوزراء أتلي لذلك التهديد عن طريق زيادة حجم أسطول السفن الحربية الذي يحوم حول سواحل إيران.

كان البريطانيون يفكرون منذ عام تقريبًا في إرسال قوات إلى إيران كي تعمل على تأمين معمل التكرير وحقول النفط التي يعتبرونها ملكًا لهم، وفي خريف عام ١٩٥٠ أخبر السفير فرانكس المسئولين الأمريكيين في واشنطن بأن حكومته تعتقد أن «إرسال مجموعة صغيرة من القوات البريطانية إلى جنوب إيران سوف يؤدي إلى الاستقرار ولن يكون له تأثير استفزازي.» وفي أبريل/نيسان من العام التالي أرسل السير جورج بولتون المدير التنفيذي لبنك إنجلترا تقريرًا من مستشاره لشئون الشرق الأوسط يقول فيه إن الإيقاع السياسي في إيران «شديد حتى إنه يجب دراسة احتمال التدخل

المباشر المتمثل في الاستيلاء على حقول النفط ومعمل التكرير بالقوة.» وأخبر وزير الدفاع إيمانويل شينويل مجلس الوزراء أن التساهل في تأميم شركة النفط البريطانية الإيرانية سوف يعتبر سابقة مخيفة وأنه «علينا أن نثبت لهم أنه ليس باستطاعتهم لي ذراعنا إلى ما لا نهاية.» وتوقع مسئولو شركة النفط البريطانية الإيرانية في مذكرة أرسلوها إلى وزارة الخارجية أنه في حالة هبوط القوات البريطانية في عبدان «من المحتمل أن يسلم الإيرانيون بخطئهم» وأن الشركة بإمكانها استيراد «الآلاف من العمال الملونين من شرق أفريقيا كي يقوموا بالأعمال التي قد يرفض الإيرانيون أداءها.»

وفي مايو/أيار من عام ١٩٥١، وقبل شهرين من وصول هاريمان، وضع البريطانيون خطتين مفصلتين لغزو إيران واحتلالها؛ حملت الخطة الأولى الاسم الكودي «القرصان» وغُيرت إلى «الخطة ص»، وكانت تعتمد على استخدام قوات مكونة من سبعين ألفًا في «هجوم بحري يصاحبه هجوم بالحد الأقصى للقوات الجوية» التي «تستولى على معمل التكرير وحقول النفط وتعمل على تأمينها». والخطة الأخرى محدودة وحملت الاسم الكودي «عملية القزم» واعتمدت على الاستيلاء على معمل التكرير فحسب إما لمدة أسبوعين حتى تفرغ الناقلات حمولتها المخزنة من النفط أو للأبد بحيث يستخدم المعمل في تكرير النفط القادم من أماكن أخرى في الخليج، ورأى مؤيدو تلك الخطط أنها لن تحافظ على تدفق النفط إلى بريطانيا فحسب، بل إنها أيضًا سوف تشعل لهيب الوطنية عبر البلاد، وأعلن اللورد فريزر أمير البحار أن هجومًا عسكريًّا جريئًا سوف يبدد «حالة الكآبة والحزن» التي تمر بها بريطانيا ويثبت أنها لا تقبل أن «تتلقّى تعليمات من الإيرانيين تافهي الشأن.»

تشكك بعض المسئولين البريطانيين في حكمة تلك الخطط، ولكن الميل لفكرة الغزو كان قويًّا حتى إنه كاد يتغلب لولا المعارضة الشديدة لتلك الفكرة من إدارة ترومان، وفي السادس عشر من مايو/أيار أرسل السفير الأمريكي في بريطانيا والتر جيفورد برقية إلى أتشيسون يخبره فيها «بزيادة قلقه» بشأن «مناخ الحرب» المخيم على لندن، وحذر من أن وزارة الخارجية قد أصبحت تعتقد أن الاعتراض الأمريكي على الغزو «ليس شديدًا ويمكن

التغلب عليه.» وأضاف: «على ضوء هذه الخلفية نخشى أنه نظرًا للتهديدات الضمنية التي أطلقها البريطانيون فقد يجدون أنفسهم مضطرين إلى أحد خيارين: إما تنفيذ ذلك التهديد وتحمل العواقب غير المتوقعة أو التراجع والانسحاب وما ينتج عنه من فقدان الهيبة وربما إضعاف موقفهم بصورة رهيبة، وفي اعتقادنا أن القرار النهائي لبريطانيا سواء باللجوء للقوة أم لا سوف يتحدد على أساس مدى الدعم الذي تقدمه لها الولايات المتحدة.»

فهم أتشيسون على الفور الأهمية العاجلة لتلك الرسالة، فأرسل في استدعاء السفير فرانكس وأخبره بأن الولايات المتحدة تعارض «اللجوء للقوة أو التهديد باللجوء للقوة ضد إيران»، وأن ترومان نفسه «أكد بشدة أنه يجب ألا يسمح لأي موقف بأن يتحول إلى نزاع مسلح بين مجموعة من القوات البريطانية والقوات الإيرانية.» وكان لحدته التأثير المطلوب، حيث أرسل فرانكس على الفور رسالة إلى الوطن يحذر فيها من أنه إذا استمرت بريطانيا في خططها للغزو، من المحتمل أن تصبح «المعارضة للموقف البريطاني في واشنطن أكثر حدة مما هي عليه الآن.»

دعمت الصحافة الأمريكية موقف ترومان بشدة، حيث تعجبت جريدة وول ستريت من اعتماد بريطانيا على «التهديدات من طراز القرن التاسع عشر»، وحذرت جريدة فيلادلفيا إنكوايرر من أن الغزو البريطاني لإيران قد «يعجل بنشوب حرب عالمية ثالثة»، وأكد هوارد كيه سميث المعلق على الأنباء بشبكة سي بي إس التليفزيونية أن دولًا عديدة في الشرق الأوسط وما وراءه تساند إيران، وأن الغزو قد «يحرض سكان جنوب آسيا على الثورة ضد الأجانب ويؤدي إلى وقوع مشاكل خطيرة لكل من بريطانيا والولايات المتحدة.»

أخذ موريسون وزير الخارجية الذي كان يقود الحزب المؤيد للحرب في لندن يحث الأمريكيين على تغيير موقفهم، محاولًا أن يقنعهم بأنها ستصبح كارثة للغرب لو ظهرت بريطانيا بمظهر «الضعيف العاجز» على يد رجل مثل مصدق «الذي يدفعه التعصب إلى حافة الجنون.» وبعد أن أصدرت محكمة العدل الدولية «توصيتها»، توجه موريسون إلى أتشيسون متسائلًا هل سيدعم الأمريكيون الغزو في حالة رفض إيران التسليم بخطئها، أجاب

أتشيسون بالنفي القاطع، حيث إن الغزو البريطاني لإيران تحت أي ظروف سوف يكون له «عواقب سياسية وخيمة.»

كان ذلك كافيًا لرئيس الوزراء أتلي الذي لم يتحمس قط لفكرة غزو إيران، وفي التاسع عشر من يوليو/تموز صوت مجلس الوزراء على إرجاء الحل العسكري وترجيح قرار الموافقة على إرسال ثلاث كتائب مسلحة إلى العراق المجاور، لكن موريسون لم يستسلم؛ فبعد أن أعلن مصدق في سبتمبر/أيلول عن قرب إجلاء البريطانيين عن عبدان أخبر موريسون مجلس الوزراء بأن وقت الغزو قد حان، ووافق أتلي على إجراء استعراض للقوات البحرية في الخليج، ولكنه استبعد تمامًا أي عمليات عسكرية أكثر عنفًا.

صرح أتلي لمجلس الوزراء قائلًا: «ليس بالضرورة أن يؤدي احتلال جزيرة عبدان إلى إحداث تغيير في الحكومة الإيرانية، وقد يؤدي إلى توحيد الشعب الإيراني ضد بلادنا، ولا يمكننا تشغيل آبار النفط أو معمل التكرير دون مساعدة العمال الإيرانيين، فإذا حاولنا إيجاد حل باستخدام القوة لن نتمكن من الحصول على دعم من الأمم المتحدة، وسوف تحذو حكومات أمريكا الجنوبية حذو الولايات المتحدة، وستناصبنا حكومات الدول الآسيوية العداء.»

وعندما أخفق موريسون في إقناع أتلي بالغزو قرر أن يبدأ التحرك في الخفاء، فذهب أولًا إلى باحثين مشهورَين قضيا أعوامًا عديدة في دراسة إيران وكانا متعاطفين مع الموقف البريطاني؛ كانت آن كيه إس لامتون تشغل وظيفة الملحق الصحفي في السفارة البريطانية بطهران خلال الحرب العالمية الثانية، ثم أصبحت أحد كبار الخبراء ببريطانيا في الشئون الإيرانية، وبناء على طلب موريسون بدأت تقترح بعض «أساليب الدعاية المؤثرة» التي يمكن للبريطانيين استخدامها لتأليب الرأي العام الإيراني ضد مصدق.

اقتصر دور لامتون على إعطاء النصائح في لندن. أما الباحث الآخر الذي جنده موريسون بناء على اقتراح لامتون فهو شخص أكثر جذبًا للأنظار، وأراد موريسون منه أكثر من مجرد النصائح، ذلك الشخص هو روبين زينر وهو عميل سريّ محنك عمل للمخابرات البريطانية في إيران،

ويتحدث الإيرانية بطلاقة وعلى صلة وثيقة بكبار الشخصيات الإيرانية في عالم السياسة، وقد وُصِفَ في مذكرة صادرة عن وزارة الخارجية بأنه «رجل شديد المكر والدهاء»، لكن صوته الحاد وغرابة أطواره لم يجعلا منه جاسوسًا تقليديًّا، وقد وصفه أحد الأمريكيين الذين درسوا حياته المهنية بأنه شخصية نابضة بالحياة متعددة الأوجه:

> امتلك زينر قدرة خارقة على المزج بين الفكر النبيل والحياة الوضيعة، واستمتع بالجانب المرح في مهامه، وكان يتمسك بموقفه أثناء الثرثرة أو المناقشات، سواء عن الفلسفة والدين أم عن نقاط الضعف البشرية، ويتناول الخمر بشراهة شديدة. وعلى طريقة ألدوس هاكسلي جرب زينر أيضًا تناول المخدرات كي يزيد من إدراكه الحسي بالحقائق الأبدية ... ولمن يرغب في معرفة المزيد عن السياسة الإيرانية ينصحه بقراءة رواية لويس كارول «عبر المرآة». وكان يميل إلى إخبار رؤسائه بما يودون سماعه، ولم تجعله طباعه ينجرف إلى الجانب القذر من عمليات المخابرات، ولا كان يمتلك قدرة فائقة على ضبط النفس والاحتفاظ بالأسرار، كان زينر رجلًا باحثًا عن المتعةِ آتيًا من أوكسفورد تحول بعد ذلك إلى شبه عميل سري للمخابرات.

في منتصف عام ١٩٥١ عين موريسون زينر في وظيفة «نائب مستشار» بالسفارة البريطانية في طهران، ومع أنه لم يكن ضابط مخابرات من الناحية الفنية فقد كرس زينر معظم وقته لمقابلة زعماء المعارضة واقتراح طرق لتقويض حكومة مصدق، وقد شجعتهم تلك الجهود، وكان للتقارير التي يرسلها إلى وزارة الخارجية أيضًا تأثير كبير، فهو أول أجنبي يرسل إلى إيران في مهمة الإطاحة بحكومة مصدق، وقوى التقدم الذي أحرزه من شوكة المؤمنين بنجاح الحملة الخفية ضد مصدق في لندن.

أمر القادة البريطانيون باتخاذ خطوات عسكرية لتهديد إيران وأطلقوا حملتهم الخفية ضد حكومتها، واتخذوا أيضًا مجموعة من الخطوات الجادة

لإصابة اقتصادها بالشلل، وقد تبدو تلك الاستراتيجية منطقية، حيث إن الإصابة بالألم غالبًا ما تكسر إرادة الشعوب كما تكسر إرادة الإنسان، لكن ما أخفق البريطانيون فيه أو بالأحرى رفضوا إدراكه هو أن مصدق والأغلبية العظمى من الإيرانيين كانوا مستعدين لتقبل آلام كثيرة دفاعًا عن قضيتهم المقدسة، لقد امتزجت التقاليد الشيعية مع العاطفة الوطنية التي تكتسح إيران، فجعلا إرادة الشعب الإيراني قوية كالصلب.

أراد البريطانيون أن يعرقلوا عمل شركة النفط القومية الإيرانية، وأول خطة لجئوا إليها تتمثل في التخريب السري بمعمل التكرير بعبدان، وذكر إريك دريك المدير العام بعبدان عند التأميم بعد ذلك أن المديرين البريطانيين فعلوا كل ما بوسعهم كي يضمنوا تعطل الآلات وعدم معرفة المديرين الجدد بكيفية تشغيل المكان، وأضاف: «لم تكن هناك مقاومة عنيفة، ولكن من الغريب أن تتعطل الأدوات عندما لم يكن من المفترض أن يحدث ذلك.»

لم تكن تلك الخطوات كافية لإيقاف معمل التكرير عن العمل لو كان الفنيون موجودين لإدارته، فنشرت شركة النفط القومية الإيرانية إعلانات في العديد من الصحف والمجلات الأوروبية المتخصصة تعلن عن حاجتها لمثل هؤلاء الفنيين، وانطلق الدبلوماسيون البريطانيون يمنعون وصول أي شخص يصلح للوظيفة إلى عبدان، وتمكنوا من إقناع السويد والنمسا وفرنسا وسويسرا بمنع منح تأشيرات خروج لطلاب تلك الوظيفة، وفي ألمانيا التي كانت تحت احتلال الحلفاء طالبوا الحكومة «برفض إصدار جوازات سفر للمواطنين الألمان الذين يرغبون في السفر إلى إيران» ما لم يثبتوا أنهم غير متخصصين بالنفط، ولم يكن الألمان في موقف يسمح لهم بالمعارضة، وعرضت مؤسسة أمريكية على الحكومة الإيرانية مساعدتها في تعيين ٢٥٠٠ من الفنيين الأمريكيين لإدارة صناعة النفط، ولكنها سحبت العرض بعد تحذير وزارة الخارجية بأنه «يتعارض مع المصالح البريطانية ويضع الولايات المتحدة في موقف حرج.» وتقدم عضو الكونجرس الأمريكي أوين هاريس بمشروع قانون يسمح لوزارة الداخلية بالبحث عن خبراء مؤهلين ومساعدتهم على السفر لإيران، ولكن ذلك المشروع توقف عندما تقدم الدبلوماسيون البريطانيون بتظلم للجنة الشئون الخارجية، وفي بريطانيا

نفسها كان هناك عشرون من موظفي شركة النفط البريطانية الإيرانية الذين غادروا إيران يرغبون في العودة إليها، ولكنهم أُخبروا بأنه بموجب قانون العقوبات الجديد لن يسمح لهم بتحويل مرتباتهم إلى العملة البريطانية.

جعلت تلك الحملة المنسقة الاستمرار في إنتاج النفط أمرًا شبه مستحيل لإيران، ولكن البريطانيين كانوا يخشون أن تجد إيران طريقة لذلك، سواء عن طريق اللجوء لخبراء إيرانيين أو تهريب بعض الأجانب عبر ذلك الحصار، فأصروا على أن يضمنوا أنه في حالة حدوث ذلك لن تجد إيران عملاء يشترون منها النفط.

كانت الشركات في بريطانيا والولايات المتحدة تمتلك أكثر من ثلثي ناقلات النفط في العالم، لكن هناك احتمالًا أن تعتمد إيران في نقل النفط على ناقلات من الاتحاد السوفييتي أو أي مكان آخر، ولمنع حدوث ذلك فكرت وزارة الخارجية أولًا في إعلان «باعتراض سبيل ناقلات النفط الأجنبية في أعالي البحار بدعوى أنها تنقل النفط المسروق من إيران»، ولكن بعد أن أدركت أن ذلك التهديد مخالف للقانون الدولي قررت اللجوء لخطة أخرى؛ فنشرت شركة النفط البريطانية الإيرانية تحذيرات في صحف عديدة في كل أنحاء العالم من أنها سوف تتخذ «كل الإجراءات اللازمة» ضد أي دولة تشتري النفط من إيران، واعتمدت الشركة في هذا التهديد على ذريعة أن النفط الإيراني يعتبر ملكية قانونية لها بموجب «المعاهدة التي عقدت في التاسع والعشرين من أبريل/نيسان عام ١٩٣٣.» كان ذلك الاستخدام اللغوي مضللًا، حيث إن المعاهدات وثائق متبادلة بين الحكومات، ولكن اتفاقية امتياز ١٩٣٣ بين حكومة وشركة، وأدرك المسئولون في دول عديدة تلك الحقيقة ووضعوا خططًا لشراء النفط الذي اختزنته أو قد تنتجه إيران.

وأثناء صيف ١٩٥١ كان في عبدان أكثر من ثلاثمائة بريطاني، وأحدهم وهو نائب المدير العام ويدعى أليك ميسون يملك طريقة لاعتراض سبيل البرقيات التي تأتي إلى شركة النفط القومية الإيرانية، ففي شهر يوليو/تموز اعترض برقيتين من شركتي نفط أمريكيتين تعرضا تزويد شركة النفط القومية الإيرانية بناقلات النفط الخاصة بهما في مقابل أن تبيعهما الشركة عشرة ملايين طن من النفط الخام خلال العام القادم، أخبر ميسون

رؤساءه في لندن بفحوى هاتين البرقيتين، فقدموا التماسًا لوزارة الخارجية التي أقنعت الشركتين بسحب هذا العرض، وأدت مثل تلك المطالبات إلى وأد صفقات أخرى في مهدها بين شركة النفط القومية الإيرانية وشركات إيطالية وبرتغالية، فحاول الإيرانيون عقد صفقات مقايضة مع الهند وتركيا، ولكن الضغط البريطاني أوقف تلك الصفقات أيضًا.

وفي حين استمرت بريطانيا في إحكام المصيدة تعرضت إيران للاضطرابات السياسية، وشهد المجلس الكثير من الجدال العنيف حتى إن أحد نواب المجلس ألقى بحقيبته في وجه أحد الوزراء، وحذر المعتدلون من أن مصدق قد جعل البلاد على شفا كارثة، وحاول المتطرفون أن يبرهنوا بنفس الحماس أنه لا يواجه البريطانيين بالقوة الكافية، وامتلأت الصحف التي أصبحت تتمتع بحرية غير مسبوقة في التاريخ الإيراني بالتنديد والاتهامات وتوقع الهلاك بصورة أو بأخرى، وحذر السفير جريدي في حوار له نشر بالصحف الإيرانية من أن وقوع الحرب مع البريطانيين أو استيلاء الشيوعيين على السلطة قد يكون أمرًا وشيكًا.

كانت تلك التحذيرات آخر ما تفوه به جريدي بصفته سفيرًا، فقد كان دعمه الصريح للقضية الوطنية الإيرانية يثير حنق البريطانيين، وفي نهاية الأمر قرر أتشيسون أن «شخصيته القوية» قد جعلت منه عائقًا، فأقال جريدي من منصبه واستبدل به لوي هندرسون الذي تشكلت رؤيته للعالم من منظور الصراع بين الشرق والغرب والذي سرعان ما توصل إلى أن مصدق «رجل مجنون يمكنه أن يتحالف مع الروسيين.»

وإلى جانب تغير السفير الأمريكي في طهران عمل البريطانيون أيضًا على تعديل استراتيجيتهم، فبعد أن استبعدوا على مضض خيار الغزو المسلح قرروا أن يعرضوا قضيتهم على مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، وكانوا يأملون في الحصول على موافقة على قرار يلزم مصدق بعدم طرد شركتهم من إيران، بالإضافة إلى أن الجدال سوف يعطيهم فرصة لعرض قضيتهم — التي كانوا على ثقة من كونها مقنعة — في ساحات الرأي العام العالمي.

حذر الأمريكيون من هذا الإجراء، وصرح هنري جريدي الذي أصبح سفيرًا سابقًا لإحدى الصحف الإنجليزية بأن البريطانيين يعطون بحماقة

شديدة الفرصة للإيرانيين «لعرض قضيتهم أمام العالم في محفل ضخم وتوضيح ظلم شركة النفط للشعب الإيراني وكيف تعمل الرأسمالية الغربية على التحكم في الدول النامية بل أحيانًا تحطيمها.» وشعرت وزارة الخارجية بالقلق من احتمال استخدام الاتحاد السوفييتي لحق الرفض على أي قرار بريطاني، مما يقوي في الأذهان صورتها كنصير للمظلومين في العالم، وفي مذكرة إلى هربرت موريسون حذر أتشيسون من أن عرض النزاع على الأمم المتحدة بالقوة قد يؤدي إلى «تجميد أبدي للموقف الإيراني.»

ولكن موريسون بطيء الفهم دومًا أصرّ على المضي قدمًا، وعندما توجه السفير الأمريكي في لندن والتر جيفورد لزيارته كي يسلم له رسالة أتشيسون استقبله بفاصل من التعنيف الشديد:

> قابلت موريسون لمدة خمس وأربعين دقيقة في ذلك المساء وكان غاضبًا حاد المزاج ... واندفع في تقريع مطول حول موقفنا حيال الأزمة الإيرانية، وكان محبطًا بشأن [الاقتراحات الأمريكية لتخفيف قرار مجلس الأمن]، وكرر مرات عديدة «لن أقف في قفص الاتهام مع مصدق»، ثم قال: «لقد كنا نحن الملائكة وكان مصدق هو الشرير.» وأكد أنه لا يفهم موقف الولايات المتحدة، حيث كان يتوقع منها دعمًا بنسبة ١٠٠٪ ولكنه لم يحصل إلا على ٢٠٪ فقط ... إننا نصر على التنديد باللجوء للعنف، وعندما لجأت بريطانيا إلى مناشدة الأمم المتحدة لدعم سلطة القانون لم نتشكك في حكمة هذا الإجراء فحسب، بل أيضًا تذكرنا بعض القرارات التي لم تفرق بين الجرم النسبي وبين براءة أطراف النزاع ... وأثناء المناقشات المذكورة احتفظ موريسون برسالة أتشيسون مغلقة أمامه، وفي نهاية الأمر تناولها وقرأها وأخذ يهز رأسه ويغمغم «إن ذلك انهزامية شديدة!»

كان موريسون واثقًا من قدرة مندوب بريطانيا الفصيح في الأمم المتحدة السير جلادوين جيب على السيطرة على المداولات والتغلب على نظيره الإيراني في البلاغة، ولكنه أخطأ بشأن خوف الزعماء الإيرانيين من المواجهة

في تلك الهيئة الموقرة، فقد كان مصدق يعشق المواجهة حتى إنه قرر أن يذهب إلى نيويورك ويعرض قضيته بنفسه.

كانت تلك خطوة في منتهى الذكاء، فأكثر الإيرانيين فصاحة على مدار عدة قرون على وشك أن يعتلي المسرح العالمي، ليس كي يعرض قضية دولة صغيرة ضد شركة عملاقة، ولكن كي يعرض قضية البؤساء في العالم ضد الأثرياء وذوي النفوذ، كان مصدق على وشك أن يصبح المتحدث الرسمي المفوه الذي يعبر عن المشاعر الوطنية التي تتدفق في العالم المستعمر.

الفصل الثامن

عجوز داهية

احتشد المعجبون في مطار طهران كي يهتفوا لمصدق قبل أن يشرع في رحلته التاريخية إلى نيويورك، وعندما توقف في محطته الأولى في روما أحاط المصورون الصحفيون بطائرته، وأخذ رجال الشرطة يجاهدون للسيطرة على الجماهير المحتشدة من المغتربين الإيرانيين المتحمسين وغيرهم من المؤيدين الذين انتظروا نصف النهار ليلقوا عليه ولو نظرة خاطفة، وتكرر نفس المشهد الجنوني في محطته التالية في أمستردام.

انتظرت مدينة نيويورك التي اعتادت استقبال أشهر الشخصيات في العالم وصول مصدق بفضول شديد، فلم يكن مصدق «رمزًا للقومية الصاعدة في إيران» كما أطلقت عليه جريدة نيويورك تايمز فحسب، بل كان أيضًا زعيمًا عالميًّا لديه قصة عظيمة تستحق أن تُروى، بالإضافة إلى طريقة مسرحية اشتهر بها، والجميع باستثناء مندوب بريطانيا لدى الأمم المتحدة ينتظرون ذلك المشهد على أحر من الجمر. وذكرت جريدة ديلي نيوز أنه «سواء أكان مصدق يستدر الدموع بالصدق أو بالكذب، فعليه أن يستخدم كل ما في جعبته من الحيل إذا ظهر على شاشات التلفاز هنا.»

هبط مصدق بحذر شديد من طائرته بعد ظهر الثامن من أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٩٥١، وساعده ابنه وطبيبه الخاص غلام حسين في هبوط سلم الطائرة، ولم يتحدث مصدق، لكنه أصدر بيانًا مكتوبًا للصحفيين الذين كانوا في انتظاره وعد فيه بأن يسمع العالم قريبًا قصة «شركة استعمارية متوحشة» استولت على ممتلكات «شعب بائس مسكين» وتحاول الآن استغلال الأمم المتحدة لتبرير جريمتها.

ومن المطار انطلق مصدق إلى مستشفى نيويورك كي يخضع لفحص طبي، وأعلن الأطباء أنه سليم جسديًّا، فانطلق إلى فندق ريتز تاور في تقاطع بارك أفينيو وشارع ٥٧ حيث قضى معظم وقته يعد الخطبة التي سوف يلقيها في مجلس الأمن. لم يكن العالم قد عرف زعماء من أمثال كاسترو وسوكارنو ونكروما ولومومبا بعد، ولم يكن صوت الدول الفقيرة مسموعًا في مثل تلك المحافل الخاصة بالصفوة، وصوت مصدق هو أول صوت سمعه معظم الغربيين.

وفي الوقت الذي كان مصدق ينتظر فيه لحظته الموعودة، قرأ باهتمام شديد كل ما كتبته الصحف الأمريكية حول عرضه الوشيك، ومن تلك الآراء ما نشرته مجلة نيوزويك التي حمل غلافها عنوان «مصدق: المتعصب العليل.» امتدحت نيوزويك نزاهة مصدق، وذكرت أنه رفض استلام سيارته الليموزين الرسمية وراتبه بصفته رئيسًا للوزراء، وقصت سيرته المهنية بصفته حاكمًا إقليميًّا غير قابل للإفساد، ومحرضًا ضد البريطانيين، وعدوًّا للشاه السابق رضا خان، ومحاربًا للشيوعية، ومؤسسًا للجبهة الوطنية الإرهابية. وأكدت المجلة أيضًا أن معظم الغربيين كانوا يعدونه في بادئ الأمر رجلًا «ضعيفًا مخرفًا وربما مجنونًا»، لكنهم يرونه الآن «عجوزًا داهية ذا إرادة حديدية ونزعة لتضخيم الذات.» واختتمت بسؤال يتردد في معظم دول العالم، وهو ماذا سيفعل ذلك «المريض الأسطوري» في الأيام التالية.

قالت نيوزويك: «كان المسرح معدًّا لواحد من أقوى النزاعات في تاريخ الأمم المتحدة، وهو نزاع رئيس الوزراء المرتعش غريب الأطوار ضد المندوب البريطاني شديد اللباقة السير جلادوين جيب، وقد يكون ذلك هو الفصل الحاسم في المأساة الدرامية السخيفة التي بدأت عندما أعلنت إيران تأميم شركة النفط البريطانية الإيرانية منذ خمسة أشهر.»

كانت المواجهة التي أتى مصدق من أجلها إلى نيويورك قد بدأت قبل وصوله، حيث كان المندوب البريطاني جلادوين جيب قد أعطى مجلس الأمن ملخصًا لموقف حكومة بلاده، وقرأه مصدق بعناية فوجده رفضًا لموقف إيران ينم عن الازدراء، وتصريحًا قاطعًا بأن النفط الذي يوجد في الأراضي الإيرانية «ملك خالص لشركة النفط البريطانية الإيرانية.»

الحقيقة الواضحة هي أن الحكومة الإيرانية تتسبب بسلسلة من الخطوات الحمقاء في توقف مشروع ضخم لا يعود تشغيله بالنفع على المملكة المتحدة وإيران فحسب بل على العالم الحر بأكمله، وما لم توقف عند حدها على الفور سوف يزداد العالم الحر بأكمله فقرًا وضعفًا بما فيه الشعب الإيراني المخدوع نفسه ...

لأسباب خاصة بالحكومة الإيرانية لا تخفى على أحد يحلو دائمًا لها أن تصور شركة النفط البريطانية الإيرانية على أنها عصابة من مصاصي الدماء عديمي الضمير، الذين تستحوذ عليهم فكرة استنزاف ثروات الشعب الإيراني، ولكن تلك الاتهامات المتطرفة غير صحيحة ... ففضلًا عن إسهامات الشركة المالية في الاقتصاد الإيراني، فإن سجلها في إيران مثير للإعجاب من الناحية الاجتماعية، ويجب أن يتخذ نموذجًا للتنمية يفيد المناطق الأقل تطورًا من الناحية الاقتصادية في العالم، ولم تحاول الشركة إعاقة الإيرانيين عن النجاح كما يزعمون، لكنها بذلت أقصى جهودها كي تعمل على تحسين مستوى المعيشة والتعليم لموظفيها بحيث يتمكنون من تأدية دور أكبر في الأعمال العظيمة التي يجب أداؤها في إيران ... ويعتبر تجاهل تلك الأعمال تمامًا وتصوير الشركة وكأنها مسئولة عن الظلم والفساد والخيانة نوعًا من نكران الجميل الدنيء إن لم يكن أمرًا سخيفًا.

طالب جيب مجلس الأمن بأن يتخذ إجراءاته قبل الرابع من أكتوبر/ تشرين الأول، وهو التاريخ الذي أنذر مصدق بطرد البريطانيين من عبدان بحلوله، لكنه عندما أنهى كلمته طلب المندوب الإيراني التأجيل لمدة عشرة أيام كي يتيح لمصدق فرصة للسفر من طهران إلى نيويورك، ووافق رئيس المجلس على التأجيل. وعندما وصل مصدق كان الوضع في عبدان قد تغير بالفعل، ففي الرابع من أكتوبر/تشرين الأول اجتمع آخر المواطنين البريطانيين في أحد ملاجئهم المفضلة في النادي الرياضي، ونُقلوا في مجموعات على متن قوارب إلى السفينة البريطانية موريشيوس التي كانت في انتظارهم كي

تقلهم عبر شط العرب إلى البصرة، وبتلك الخطوة انتهى واحد من أضخم المشروعات التجارية في التاريخ الاستعماري.

توجه مراسل جريدة نيويورك تايمز لزيارة تلك الرقعة الفسيحة الخالية بعد ذلك ببضعة أيام، وكتب: «عندما نظرت إلى مداخن معمل التكرير الفولاذية التي يبلغ عددها بضعًا وخمسين مدخنة من مسافة بعيدة، كانت تبدو كأطلال القاعة الكبرى وقاعة الأعمدة المائة في برسيبوليس التي لا تزال باقية منذ عهد الملك خشايار شاه، ولكن عندما اقتربت سرعان ما اتضح أن ذلك المعدن البراق يمثل الأبراج الصامتة لمدينة عبدان الخاوية بوصفها عملاق العصر الصناعي وليس القرن الخامس قبل الميلاد ... وكانت السيارات والحافلات بريطانية الصنع التي تخص شركة النفط المؤممة تمر والناس يملئون الطرقات، ولكن إذا تفحص الزائر وجوه المارة في تلك المدينة الإنجليزية التي تقع جنوبي إيران فلن يجد أثرًا لأي إنجليزي، بل إن أي أوروبي يحدق إليه الناس بفضول شديد.»

ملأ الترقب الجو عندما اجتمع مجلس الأمن في الخامس عشر من أكتوبر/تشرين الأول كي يستمع إلى مصدق، وصمتت جميع الوفود عند دخوله القاعة، وحدق الجميع في ذلك السياسي الأنيق فارع الطول الذي لفت انتباه العالم منذ أن وصل إلى السلطة قبل ستة أشهر. كان مصدق يبدو مطمئنًّا للغاية، ومعه الحق في ذلك، فقد كان محاميًا بارعًا تلقى تعليمه في أوروبا وتمكن من شحذ قدراته الإقناعية من خلال العديد من المحاكمات والخطب البرلمانية، وأهم من ذلك أنه لم يكن مقتنعًا بعدالة قضيته فحسب، بل أيضًا بأن العناية الإلهية قد أتت به في ذلك الحين. لقد أتى إلى نيويورك كي ينفذ المهمة التي كرس لها حياته.

كان دبلوماسي برازيلي يدعى جواو كارلوس مونيز يرأس مجلس الأمن في ذلك اليوم، وافتتح الجلسة في تمام الثالثة، فوجه الدعوة أولًا لكل من مصدق واللهيار صالح سفير إيران لدى الأمم المتحدة كي يجلسا إلى المائدة المخصصة لأعضاء المجلس، ثم تعرف على جيب الذي أخبر زملاءه الموفدين بأن بريطانيا لم تعد مصرة «على مجرد العودة للوضع الراهن» ولكنها ترغب فحسب في التفاوض من أجل إصلاح «الأضرار الجسيمة التي لم تصبها

وحدها بل أصابت العالم الحر بأكمله من جراء تصرفات الحكومة الإيرانية.» واختتم جيب كلمته بأن استدار كي يواجه «مندوب إيران الذي قطع مسافة طويلة وتكبد مشقة كبيرة لحضور ذلك الاجتماع»، وحث مصدق على «ألا يتخذ موقفًا متطرفًا في الوطنية؛ موقفًا يدنو من الانعزالية، وألا يشغل ذهنه كثيرًا بالمظالم القديمة المتوهمة، بل عليه أن يهتم بالجوانب الأشمل، وأن يبدي ترحيبه بالتوصل إلى حل بناء للمشكلة.»

وهنا حان دور مصدق الذي تحدث بالفرنسية بطلاقة شديدة، وعلى سبيل التقديم أعلن أن الشكوى البريطانية لا أساس لها من الصحة، وأن مجلس الأمن لا سلطة له في ذلك الأمر على أي حال، إذ إن إيران يحق لها التصرف في مواردها الطبيعية على النحو الذي تراه ملائمًا، ولكن نظرًا لأن الأمم المتحدة تعتبر «ملاذ الأمم الضعيفة والمقهورة»، فقد قرر أن «يقطع رحلة طويلة كي يذهب إليها وهو معتل الصحة كي يعبر عن احترام بلاده لتلك المؤسسة المرموقة.» وكانت خطبته طويلة مفصلة حماسية، ولكنه التمس من المجلس أن يعفيه من إلقائها نظرًا لحالته الصحية السيئة، وطلب من صالح أن يقرأ معظمها، ولكنه تحدث أولًا فأعطى ملخصًا موجزًا معبرًا عن القضية التي يعرضها أمام العالم:

> لا يجد أبناء بلادي ضروريات الحياة الأساسية، وأظن أن مستوى معيشتهم من أقل المستويات في العالم. النفط هو أهم ثرواتنا الطبيعية، ولهذا يجب أن يكون مصدر فرص العمل والغذاء للشعب الإيراني، ويجب أن يكون استغلاله صناعتنا الوطنية، وأن تذهب أرباحه إلى تحسين ظروفنا المعيشية، لكن صناعة النفط بوضعها الحالي لم تسهم بشيء في رفاهية الشعب أو التقدم التقني أو الصناعي لبلادي، والدليل على ذلك أننا بعد خمسين عامًا من الاستغلال على يد شركة أجنبية لم نمتلك بعد عددًا كافيًا من الفنيين الإيرانيين وما زلنا نضطر لاستدعاء الخبراء الأجانب.
>
> ومع أن إيران تؤدي دورًا هامًّا في توفير احتياجات العالم من النفط، وأن إنتاجها بلغ ٣١٥ مليون طن خلال خمسين عامًا، فإن

> إجمالي ربحها طبقًا لحسابات الشركة السابقة لم يزد عن ١١٠ ملايين جنيه استرليني. وكي أعطيكم فكرة عن أرباح إيران من هذه الصناعة الضخمة: بلغ صافي أرباح شركة النفط البريطانية الإيرانية السابقة عام ١٩٤٨ طبقًا لدفاتر حساباتها ٦١ مليون جنيه لم تحصل إيران منها إلا على ٩ ملايين جنيه فقط، في حين دخلت ٢٨ مليون جنيه خزانة المملكة المتحدة في صورة ضريبة الدخل ...
>
> ويجب أن أضيف أيضًا أن السكان الذين يعيشون في مناطق النفط جنوبي إيران وفي منطقة عبدان — حيث يوجد أكبر معامل تكرير النفط في العالم — يعانون البؤس الشديد، ولا يجدون أبسط ضروريات الحياة. وإذا استمر استغلال صناعة النفط في المستقبل كما كان عليه في الماضي، وإذا كان علينا أن نحتمل موقفًا يقوم فيه الإيرانيون بدور العمال اليدويين في حقول النفط بمسجد سليمان وأغا جاري وكرمانشاه ومعمل التكرير في عبدان، وإذا استمر المستغلون الأجانب يستأثرون بكل العائد تقريبًا؛ فسوف يظل شعبنا للأبد يرزح تحت وطأة الفقر والبؤس. وتلك هي الأسباب التي حثت البرلمان الإيراني — المكون من المجلس ومجلس الشيوخ — على التصويت بالإجماع لتأميم صناعة النفط.

وهنا جلس مصدق وسلم نص البيان إلى صالح الذي بدأ بقراءة الحجة القانونية الأساسية لإيران التي انتقاها مصدق: «تعد الموارد النفطية لإيران، مثلها مثل التربة والأنهار والجبال، ملكًا للشعب الإيراني، وهم وحدهم يملكون حق تقرير ما يفعلونه به، وكيف يستغلونه، وبالاستعانة بمن.» استغرق الأمر ساعتين كي يقرأ صالح البيان الذي كتبه مصدق والذي كان سردًا لتاريخ التدخل الأجنبي في إيران مع التركيز على الخطوات التي اتخذتها بريطانيا كي «تخضعنا للعبودية الاقتصادية.»

وفي ختام البيان قال: «إن سجل الاستغلال الاقتصادي البريطاني لإيران سجل مؤسف، ويجب ألا يندهش أحد أن النتيجة كانت تأميم صناعة النفط.»

وبعد الانتهاء من قراءة بيان مصدق صوت المجلس على الاجتماع مرة أخرى في اليوم التالي لاستكمال المباحثات، وطلب المصورون الصحفيون الذين كانوا في الانتظار خارج القاعة من الخصمين أن يتصافحا أمام الكاميرات، وبينما أضواء الكاميرات تومض تبادلا حوارًا قصيرًا.

قال جيب لمصدق: «سوف نصبح إن شاء الله أصدقاء مرة أخرى.»

ورد مصدق: «كنا دومًا أصدقاء لإنجلترا، ولكن الشركة السابقة استدرجت بلادكم بلا داعٍ إلى هذا النزاع.»

وفي اليوم التالي ظهرت صور الرجلين في جميع صحف العالم، وظهر فيها مصدق فارع الطول يبتسم ابتسامة عريضة وبدا جيب مشدوهًا مرتبكًا.

بدأت جلسة الثلاثاء بالإشادة برئيس الوزراء الباكستاني لياقات علي خان الذي اغتيل لتوه؛ كان لياقات شبيهًا بمصدق، فقد كان زعيمًا لحركة تهدف لإنهاء الاستعمار البريطاني للهند، وتعاون مع مؤسس باكستان محمد علي جناح من أجل بناء جمهورية إسلامية ديمقراطية في مقاطعات الهند الشمالية، وعقب وفاة جناح أصبح هو «زعيم البلاد بلا منازع» كما أطلق عليه جورج ماكجي الذي قابله عدة مرات، وعلى غرار مصدق كان لياقات سياسيًّا بعيد النظر واسع المعرفة تلقى تعليمًا عاليًا، وكان علمانيًّا متعاطفًا مع القيم الغربية، ولكنه في الوقت ذاته كان محبطًا بسبب آثار الاستعمار المعوِّقة التي تمنع الدول الفقيرة من تحقيق الاستقلال الحقيقي، ولم تحظَ باكستان قط بزعيم في مثل مكانته، كما لم تحظَ إيران بزعيم آخر مثل مصدق.

كان لياقات يجسد روح الأمم المتحدة الشابة، وجاء خبر مقتله صدمة لكثير من المندوبين في الأمم المتحدة الذين كانت تشغلهم بالفعل هموم كثيرة، فقد تزامن تحدي مصدق الخطير للبريطانيين مع حدوث اضطرابات غير عادية في العالم، فقد أجرى الاتحاد السوفييتي لتوه تجربته الثانية للقنبلة الذرية، مما أكد أن خطر الفناء سوف يغير التاريخ لأجيال عديدة لاحقة، وكانت الحرب مشتعلة في كوريا، والموقف متفجر في كشمير التي يتنازع عليها الهند وباكستان، وأعلنت حالة الطوارئ في مصر عقب اندلاع أعمال الشغب ضد البريطانيين.

كان مخططًا إجراء حملة انتخابية في بريطانيا في خريف ذلك العام، حيث ترشح وينستون تشرشل مرة أخرى لمنصبه القديم، وفي العديد من الخطب ألقى اللوم على رئيس الوزراء الحالي أتلي لإخفاقه في مواجهة مصدق بالحزم المطلوب، حيث أخبر الجماهير في ليفربول بأن أتلي قد خان «التعهدات المقدسة» بعدم التنازل عن عبدان، وأعلن غاضبًا: «لم يخلف أحد المسئولين من قبل وعده على نحو مفاجئ هكذا حتى دون أن يحاول تقديم تفسير لذلك.» ومع سير الحملة الانتخابية ازداد موقف تشرشل من قضية إيران عدوانية لدرجة أن موريسون سأله في حدة أثناء إحدى جلسات مجلس العموم هل يدعو إلى الحرب؟ ولم يجب تشرشل، لكنه لم ينكر قط أنه معجب بفكرة غزو إيران.

ولكن رغم كل الأحداث الجارية في العالم ظل مصدق رجل الساعة؛ ففي اتهاماته التي ألقاها جزافًا أمام مجلس الأمن كانت كلماته تقع كالسياط اللاذعة على خصومه، وتشرح صدور معجبيه الذين لا حصر لهم، واستهل يومه الثاني بالسخرية من البريطانيين لمحاولتهم «إقناع الرأي العام العالمي بأن الحمل قد التهم الذئب.»

قال مصدق: «لقد أوضحت حكومة المملكة المتحدة بما لا يدع مجالًا للشك أنها لا ترغب في التفاوض، واستخدمت عوضًا عن ذلك كل ما طالته أيديها من وسائل غير مشروعة للضغط الاقتصادي والنفسي والعسكري كي تحطم إرادتنا، إذ حشدت سفنها الحربية على طول سواحلنا، وجنود المظلات في قواعد قريبة، وتتفاخر بعد هذا كله بحبها للسلام!»

ثم جاء دور جيب في الحديث، فأبدى استياءه وإحباطه من كون خطاب مصدق «شديد السلبية، وهو موقف أخشى أن أقول إنه يميز التوجه الإيراني في المفاوضات الطويلة التي أجريناها حتى اليوم.» وأكد أن مصدق يواجه «موقفًا عصيبًا بسبب حماقته»، فلم يفعل شيئًا منذ أن تولى منصبه سوى التحقير من شأن إنجازات شركة النفط البريطانية الإيرانية «الحكيمة بعيدة النظر»، والإلحاح في تعيين «الإيرانيين غير المؤهلين» في الوظائف الفنية، وانتهاك القانون الدولي عن طريق الأمر «بمصادرة ممتلكات أجنبية»، وقد نشأت تلك الأزمة من جراء «إصرار إيران على رفض الاعتراف بحصانة العقود.»

وفي اليوم الثالث للجلسات ألقى مندوبون من عدة دول كلمات موجزة، ثم طلب مصدق الإذن بالكلمة، فلم يزد على أن قال إنه يشعر «بالتعب الشديد»، وأناب محمد صالح الجالس بجواره في إلقاء خطابه الذي جاء طويلًا حماسيًّا استغرق إعداده معظم اليوم السابق:

> لم أحصِ بدقة الكلمات المسيئة التي استخدمها السير جلادوين جيب في بياناته المتعددة، ولكنكم إذا تصفحتم سجلات الجلسات فسوف تتراءى لأعينكم الإساءات واحدة تلو الأخرى، فقد وصف أعمالنا «بالوحشية» وشعبنا «بالمخدوع»، بالإضافة إلى وصفنا «بالتهور» و«التعسف»، وبأننا جعلنا الحياة «لا تطاق»، ووصف عملية التشريع بأنها «احتيال»، ونعتنا «بالعناد»، واتهمنا بإطلاق التهديدات، واعتبر مظالمنا «اتهامات جزافية» ووصفنا «بالسخافة» و«الجحود الذي يشي بالدناءة»، واتهمنا أيضًا «بالتطرف»، و«باستغلال» شعبنا، وبأننا ننقذ رقابنا عن طريق تحريض شعبنا ضد الأجانب، وهو يرى أهدافنا «وهمية» وطريقنا لتحقيقها «انتحاريًّا»، ويقول إن مثلنا كمثل كسيح يقود أعمى سعيًا وراء سراب ...
>
> لقد أدركنا منذ زمن طويل أن آمالنا في تنمية بلادنا ورفع الظروف المعيشية لشعبنا وزيادة الفرص المتاحة له تعتمد إلى حد بعيد على ذلك المورد القومي شديد الأهمية، ولكن النفط لم يحقق لازدهارنا القومي أكثر مما حققته الفتات التي سمحوا لنا بالتقاطها من على مائدة الشركة السابقة ... ويسرني الاستجابة لطلب مندوب المملكة المتحدة بمواجهة الحقائق العملية للموقف، وأؤكد أنني لا أقل عنه حماسًا للتفاوض، ولكن الشركة السابقة يمكنها أن تمارس نشاطها في أي مكان في العالم ما عدا إيران، فلن نسلم حق استغلال مواردنا النفطية للأجانب، لا عن طريق الوصاية ولا التعاقد.

وهكذا أصبح القرار الذي خففته بريطانيا تحت ضغط الولايات المتحدة قبل عرضه على مجلس الأمن أكثر ضعفًا بعد التعديلات التي طالبت بها

الهند ويوغوسلافيا، ولم يزد في نهاية الأمر على دعوة الطرفين لإبداء النوايا الحسنة، لكن مصدق لم يقبل حتى بذلك، وأصر على أن المجلس لا يملك حق إصدار أي قرار في ذلك الشأن، وكان الانطباع الذي خلفه قويًّا حتى إن معظم الحكومات الأخرى لم تجد خيارًا سوى موافقته على رأيه، وفي التاسع عشر من أكتوبر/تشرين الأول صوت المجلس على «تأجيل مناقشة ذلك الأمر إلى يوم محدد أو لأجل غير مسمى»، وامتنعت بريطانيا والولايات المتحدة عن التصويت، وكانت هزيمة دبلوماسية مخزية للبريطانيين.

كتب جيمس ريستون في العدد التالي من جريدة نيويورك تايمز: «لقد أحدث النزاع على النفط الإيراني أثرًا لم يحدثه نزاع آخر من قبل في تاريخ الأمم المتحدة، فقد أرسى مبدأ الهزيمة المطلقة، وأثبت أمرًا كان حتى الآن موضع شك، وهو إمكانية نشوب نزاع في الأمم المتحدة تخسر فيه كل الأطراف، بما فيها القوى العظمى والقوى الصغرى والأمم المتحدة نفسها.»

وهكذا أصبح التوصل إلى حل لذلك النزاع على النفط مستبعدًا أكثر من ذي قبل، وظل مصدق على إصراره الذي لا يلين على الاستمرار في مشروع التأميم، وظل البريطانيون أيضًا على عزمهم على إحباط جهوده، وفي محاولة أخيرة من الرئيس ترومان للتسوية وجه الدعوة إلى الزعيم الإيراني للذهاب إلى واشنطن.

كان مصدق قد أثبت بالفعل مهارته في التأثير على الشعب الأمريكي واستمالته، فقد ظهر عدة مرات على شاشات التلفاز وتمكن من كسب تعاطف الكثيرين بالمنطق الواضح لقضيته التي دأب على تشبيهها بالصراع من أجل الاستقلال الأمريكي، وكانت صفاته الشخصية المميزة مثل وجهه الأرستقراطي الطويل الذي ينفجر ضحكًا فجأة والطريقة التي يتكئ بها برأسه المتعبة على عصاه وحركات ذراعيه تزيد من جاذبيته، فقد أعطته الهيئة المحببة لعم أو جد قريب إلى قلبك لكنه غريب الأطوار، وهكذا لاحقه المصورون في كل مكان أينما ذهب في نيويورك.

وقبل أن يرحل مصدق إلى واشنطن خطب في الطلاب الإيرانيين بجامعة كولومبيا وأخبرهم بأنهم إذا كانوا يرغبون في مساعدة بلادهم فعليهم أن يتعلموا كيف يديرون صناعة النفط، وفي صباح اليوم التالي استقل القطار،

ولكن بدلًا من أن يتجه مباشرة إلى واشنطن توقف في لفتة ذكية منه في فيلادلفيا حيث توجه لزيارة قاعة الاستقلال التي قال إنها ترمز إلى الطموحات التي وحدت بين الشعبين الأمريكي والإيراني، وهتف المئات من المشاهدين مهللين وقت التقاط الصور الفوتوغرافية له بجوار جرس الحرية.

كان ترومان قد حصل على تقرير سري عن مصدق يعكس وجهة النظر الأمريكية عنه، وذكر التقرير أنه «يتمتع بتأييد أغلبية الشعب»، ووصفه بأنه رجل «ذكي» «دمث الخلق» «صريح» «واسع الاطلاع»، ولكن وجهة النظر البريطانية فيه كانت على النقيض تمامًا، فطبقًا للعديد من البرقيات والمذكرات الدبلوماسية كان مصدق «طائشًا» «شاذًّا» «غريب الأطوار» «مجنونًا» «مجرمًا» «متعصبًا» «أحمق» «مستبدًّا» «زعيمًا للدهماء» «مثيرًا للشغب» «ماكرًا» «مراوغًا» «عديم الضمير» «غير متوازن»، فضلًا على كونه «رجلًا شرقيًّا خبيثًا» «يشبه أحصنة جر العربات» و«تفوح منه رائحة الأفيون».

كانت لحظة وصول مصدق إلى محطة القطار في واشنطن في الثالث والعشرين من أكتوبر/تشرين الأول عام ١٩٥١ لحظة لا تنسى، فقد غادر القطار بصعوبة شديدة معتمدًا على عصاه من ناحية وعلى قبضة ابنه الثابتة من ناحية أخرى، وبدا أنه على وشك السقوط في أي لحظة، وفجأة رأى وزير الخارجية أتشيسون الذي كان معجبًا به ولكنه لم يقابله من قبل، فأشرق وجهه وبدا أنه استعاد شبابه على الفور، فألقى عصاه ودفع ابنه جانبًا بقوة وقفز عبر صالة الوصول كي يعانق مضيفه.

وفي اليوم التالي عبر الرئيس ترومان الشارع من البيت الأبيض كي يقابل مصدق في بلير هاوس، ومرة أخرى أصبح مصدق ذلك المريض المتهالك الذي يرغب — وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة — في الدفاع عن شعبه المظلوم ضد قوى الشر، وانحنى مصدق نحو ترومان قائلًا بضعف شديد: «سيدي الرئيس، إنني أتحدث باسم دولة تعاني الفقر المدقع؛ دولة كلها صحراء ليس بها سوى الرمال وبعض الجمال والخراف ...»

لكن أتشيسون قاطعه قائلًا: «نعم والنفط أيضًا، مثل تكساس بالضبط.» وأعجب مصدق بذلك التعليق، فمال إلى الخلف في مقعده وانفجر في إحدى نوبات الضحك التي اشتهر بها مثل نوبات البكاء.

استهل ترومان حديثه بإخبار مصدق بأنه شديد التعاطف مع القضية الإيرانية، ولكنه يخشى أنه في حالة خروج أزمة النفط عن السيطرة فقد تسقط إيران في أيدي السوفييت الذين كانوا «جالسين كالنسر على السور في انتظار لحظة الانقضاض»، وحذره قائلًا: «إذا استولى السوفييت على إيران فسوف يصبحون في وضع يتيح لهم شن حرب عالمية جديدة.» وأعلن مصدق أنه يستشعر نفس الخطر، ولكنه أصر على أن التعنت البريطاني هو ما سيلقي بإيران في هاوية الفوضى.

ولما أدرك ترومان استحالة التوصل إلى تسوية في ذلك اليوم، وجه الدعوة لمصدق كي يظل في واشنطن ويقضي بعض الوقت بصحبة أتشيسون وجورج ماكجي، وكي يلطف من الدعوة أجرى ترتيبات لإقامة مصدق في مستشفى والتر ريد حيث يمكنه الراحة وإجراء مجموعة كاملة من الفحوصات الطبية، كان ذلك العرض لا يقاوم لشخص مصاب بالعديد من الأمراض ويعتقد أنه مصاب بالكثير غيرها ويشعر بالراحة في الفراش ويرحب دائمًا بالعناية الطبية. اقتيد مصدق إلى المستشفى في ذلك المساء، وابتهج عندما وجد أن الجناح الرئاسي قد أعد له.

وفي اليوم التالي توجه أتشيسون وماكجي لزيارته كي يتفقوا على شروط تسوية رأوا أنها ستكون عادلة مع البريطانيين، والصيغة التي توصلا إليها — على حد تعبير جريدة نيويورك تايمز — تمثلت في «ضمان تحكم إيران في مواردها النفطية مع إعطاء السلطة الكاملة لشركة وصفتها بأنها «محايدة» في تشغيل معامل التكرير ومرافق التوزيع الضخمة وإدارتها، بالإضافة إلى تمكين بريطانيا من تسويق النفط.» ولكن مصدق رفض ذلك العرض دون تفكير.

قُدِّم العرض نفسه للبريطانيين، وقبل أن يعلموا برد فعل مصدق رفضوه أيضًا، وأطلق السير ويليام سترانج أحد كبار الدبلوماسيين في وزارة الخارجية على ذلك العرض «مصادرة للأملاك على حساب المصالح البريطانية.» وأكد مستشار خزانة الدولة آر إيه باتلر أن ذلك العرض أخفق في إدراك حقيقة أن «مصلحتنا الاقتصادية في خطر، وهي تفوق مصلحة إيران في الأهمية.»

كان هناك العديد من الاجتماعات والمباحثات الأخرى، ومنها جدال امتد طويلًا حول الثمن الذي ستطلبه إيران في مقابل النفط عندما يبدأ في التدفق مرة أخرى، إذا حدث ذلك أصلًا، ولكن تلك المباحثات لم تسفر عن أي نجاح. وبعد مرور أسبوع على وجود مصدق في واشنطن كتب جيمس ريستون: «إن الإحساس العام هنا هو أن الولايات المتحدة قد تدخلت في القضية في وقت متأخر جدًّا، وأنه لا يمكن التوصل الآن لتسوية ترضي جميع الأطراف: الولايات المتحدة وبريطانيا وإيران.»

كان الأمريكيون بالفعل حديثي العهد بالشرق الأوسط، ورآهم البريطانيون — وهم محقون بعض الشيء — سذجًا قليلي الخبرة، وكان الأمريكيون بطبيعتهم ينفرون من الغطرسة الاستعمارية التي تميز بريطانيا، خاصة في إيران، لكنهم لم يتمتعوا بالثقة الكافية للتصرف بحسم من تلقاء أنفسهم.

لم يكن إخفاق الولايات المتحدة في التوصل لاتفاق مع مصدق خلال زيارته لها ناتجًا عن تقصير من جورج ماكجي، فقد ظل يزور مصدق يومًا بعد يوم وهو في المستشفى ثم في جناحه بفندق شوريهام بعد خروجه من المستشفى بشهادة صحية تفيد سلامته، وكتب فيما بعد: «على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلتها لم أتمكن من إقناعه بحقائق الأمور في صناعة النفط العالمية، فعندما أتحدث إليه عن أسعار النفط أو الاستقطاعات أو الفنيين كان في نهاية الأمر دائمًا يبتسم قائلًا: «لا يهمني ذلك. أنت لا تفهم المسألة، إنها قضية سياسية.»»

وفي منتصف شهر نوفمبر/تشرين الثاني استسلم ماكجي أخيرًا بعد سلسلة من الاجتماعات مع مصدق استغرقت سبعين ساعة في الإجمالي، وعندما أتى كي يخبر مصدق بذلك كان الرجل العجوز يعلم ما الذي سيحدث، حيث ابتدر ماكجي قائلًا: «لقد أتيت كي ترسلني إلى الديار، أليس كذلك؟»

أجاب ماكجي: «بلى، ويؤسفني أن أخبرك أننا لا نستطيع رأب الصدع بينك وبين البريطانيين، وهو شيء مخيب للآمال لنا كما هو لك بالتأكيد.»

تقبل مصدق تلك الأخبار بهدوء، وقبل أن يغادر واشنطن قَبِل دعوة موجهة إليه لإلقاء خطاب في النادي الوطني للصحافة، وكان خطابه شجبًا

لبريطانيا وإدانة لها ممتزجين بمهارة بالثناء على الولايات المتحدة وطلب المساعدة المالية، وأعلن متحدث باسم وزارة الخارجية أن طلب المساعدة سوف «يوضع في الاعتبار»، لكنه أخبر مصدق سرًّا بأنه يستحيل إعطاؤه قرضًا لأن البريطانيين سوف يعارضون ذلك بشدة.

جاءت أعمق تعليقات مصدق أثرًا قبل أن يغادر واشنطن في الثامن عشر من نوفمبر/تشرين الثاني إلى فيرنون والترز الذي زاره وحده بناء على طلب أفريل هاريمان كي يتأكد من أنه لم يغير موقفه في اللحظة الأخيرة، ففور أن دخل والترز من الباب ابتدره مصدق قائلًا: «إنني أعلم لماذا جئت، وإجابتي لا تزال لا.»

أجاب والترز: «د. مصدق، لقد مكثتَ هنا فترة طويلة، وكانت لدينا آمال عريضة في أن تحقق زيارتك نتائج إيجابية، لكنك الآن تعود إلى إيران صفر اليدين.»

هنا حدق مصدق في وجه ضيفه قائلًا: «ألا تدرك أنني إذ أعود إلى إيران صفر اليدين فإنني أعود في موقف أقوى كثيرًا من عودتي باتفاق يصبح عليّ أن أقنع به أنصاري المتحمسين؟»

وفي طريقه للعودة إلى الديار توقف مصدق في مصر حيث لاقى استقبالًا حارًّا، فالمصريون كانوا بالفعل قد أصابتهم حمى مناهضة الاستعمار التي أدت إلى وقوع أزمة قناة السويس بعد ذلك ببضع سنوات، وكلما ظهر مصدق للعامة استقبلوه بالتهليل الحماسي، وأطلقت عليه الصحف لقب البطل «قاهر التاريخ» الذي «ظفر بالحرية والكرامة لبلاده». ومكث في مصر بضعة أيام استقبله فيها الملك فاروق ووقع فيها معاهدة صداقة مع رئيس الوزراء المصري النحاس باشا، وأكدت المعاهدة أن «اتحاد إيران ومصر سوف يضع حدًّا للاستعمار البريطاني.»

وحينما كان مصدق في الولايات المتحدة حدث تغير سياسي خطير في بريطانيا، إذ فاز حزب المحافظين بقيادة وينستون تشرشل في الانتخابات ليحل محل حكومة حزب العمل بقيادة أتلي، وعلى غرار العديد من الزعماء البريطانيين الذين ينتمون لنفس الجيل، كان من الصعب على تشرشل — البالغ

من العمر اثنين وسبعين عامًا — أن يتخلى عن كون بريطانيا قوة استعمارية؛ فعندما كان جنديًّا شابًّا عام ١٨٩٨ أغار على الدراويش في معركة أم درمان الفاصلة التي وطدت الاستعمار البريطاني للسودان، وأثناء الحرب العالمية الأولى ساهم في وضع خطة لحملة جاليبولي[1] بتركيا التي لم تلق نجاحًا، وفيما بعد تولى إدارة الجهود البريطانية للسيطرة على فلسطين والعراق، وعارض بشدة منح الهند الاستقلال. وظل دائمًا ينظر لإيران نفس النظرة؛ على أنها مصدر يعتمد عليه للحصول على النفط بسعر منخفض، وإيران أيضًا إحدى أكبر القواعد الأمامية التي بقيت لبريطانيا، وكان تشرشل يعلم أنه لو خسرت بريطانيا إيران فسوف يتضاءل الأمل في المحافظة على السويس أو القواعد الأخرى المتبقية، وكان الوقوف بإصرار في وجه القومية الصاعدة في العالم الثالث إحدى حملاته العنيفة التي استمرت مدى الحياة، وفي أواخر مشواره المهني صمَّم على أن يحاول محاولة أخيرة.

أقام تشرشل حملته الانتخابية على أساس اتهام أتلي بأنه «فر هاربًا من عبدان في الوقت الذي كانت فيه أصوات البنادق تكفي لحسم الأمر.» وفي واحد من أوائل القرارات التي اتخذها تشرشل فور توليه منصبه أرسل وزير الخارجية الجديد أنتوني إيدن كي يقابل أتشيسون، وأعطى أوامره لإيدن بأن يلح في مسألة إيران وأن «يظل متمسكًا بموقفه حتى لو احتدم الموقف.»

ثبت أن التغيير في الحكومة البريطانية كان حاسمًا فيما يتعلق بإيران، فقد فعل أتلي كل ما يراه مناسبًا نيابة عن شركة النفط البريطانية الإيرانية، ولم يتورع عن فعل شيء إلا استخدام العنف، أما تشرشل الذي اعتبر مصدق «كهلًا مجنونًا مصممًا على تحطيم بلاده وتسليمها فريسة للشيوعيين»، فقد كان مستعدًّا لأن يتخطى تلك الحدود، وأثبت الحماس الذي استُقبل به مصدق في مصر لتشرشل أنه لا يمثل خطرًا على مخزون النفط الخاص

[1] هي معركة دارت في شبه الجزيرة التركية عام ١٩١٥ خلال الحرب العالمية الأولى حاولت فيها قوات بريطانية وفرنسية مشتركة احتلال العاصمة العثمانية إسطنبول، لكن المحاولة باءت بالفشل وقتل نحو ٥٥ ألف جندي من قوات التحالف (بريطانيا وأستراليا ونيوزيلندا وفرنسا) ونحو ٩٠ ألف جندي عثماني (تركي) بالإضافة إلى مئات الآلاف من الجرحى من الطرفين. (المترجمة)

ببريطانيا فحسب، بل يمثل أيضًا رمزًا غير مقبول لمعاداة البريطانيين في كل أنحاء العالم.

وفي الحال ازدادت سياسة بريطانيا تجاه مصدق قسوة وخشونة، إذ أخبر إيدن أتشيسون بأن الأمريكيين قد قضوا وقتًا أطول من اللازم في استرضاء مصدق، وأن دعوته إلى واشنطن كانت خطأً كبيرًا، وأعلن أنه منذ ذلك الحين سوف تركز بريطانيا جهودها على الإطاحة به.

كان جورج ماكجي من أشد الأمريكيين إحباطًا بقرار بريطانيا باللجوء للعنف، فمن وجهة نظره كانت تلك الضربة القاضية في حملة انتحار جماعي أو «تقريبًا نهاية العالم.» كان صديقه هنري جريدي قد أقيل منذ بضعة أسابيع من منصبه سفيرًا لدى إيران، وعندما كان مصدق يغادر واشنطن بدأ ماكجي منصبه الجديد سفيرًا لدى تركيا، وكان كلاهما يملك حماسًا بلا حدود لفكرة التسوية مع إيران، ولكن تلك الفكرة قد ماتت.

عام ١٩٥١ ظهر مصدق على المسرح العالمي وسيطر عليه، وأصبح شخصًا تساهم أفكاره في تشكيل التاريخ سواء للأفضل أم للأسوأ، ولذلك لم يفاجأ أحد عندما اختارته مجلة تايم «رجل العام» متخطية هاري ترومان ودوايت أيزنهاور ووينستون تشرشل.

بدا مصدق مهيبًا وقورًا على غلاف مجلة تايم، وحفل المقال الطويل الذي كتب عنه في المجلة بالإهانات الموجهة إلى «زعيم تلك الدولة البائسة الباكي الضعيف» الذي كان «انتهازيًّا متعنتًا» وينفجر في نوبات الغضب «كالطفل العنيد»، لكنه وُصِفَ أيضًا بأنه «جورج واشنطن الإيراني» و«أشهر شخص في العالم أنجبته تلك السلالة العريقة منذ عدة قرون.»

عكست مجلة تايم التناقض في رؤية الولايات المتحدة لمصدق، فقد وصفته بأنه شخص غير ناضج مثير للغيظ، لكنه في الوقت ذاته يملك قضية شرعية يدافع عنها:

> ذات يوم كان هناك رجل نبيل يعيش في منطقة جبلية تقع بين بغداد وبحر قزوين، وبعد أن قضى ذلك الرجل النبيل عمره في الشكوى من الطريقة التي تدار بها المملكة أصبح هو كبير الوزراء. وخلال بضعة أشهر أصبح العالم بأكمله ينتبه لحديثه

وأفعاله ودعاباته ودموعه ونوبات غضبه. وخلف سلوكه الغريب تكمن قضايا كبرى خاصة بالسلام أو الحرب يمكنها أن تؤثر على العديد من الأماكن التي تتجاوز نطاق الجبال التي يعيش فيها ...

كان هذا الرجل محمد مصدق رئيس وزراء إيران عام ١٩٥١، ورجل العام، وقد زج بشهرزاد في قضية النفط وفتح الباب على مصراعيه للفوضى، وتمكنت دموعه المريرة من إذابة أحد الأعمدة الباقية لإمبراطورية عظمى، وبصوته الحزين الرخيم أطلق تحديات أفرزتها كراهية وحقد لا يكاد يفهمهما الغرب ...

إن موقف بريطانيا في [الشرق الأوسط] بأكمله ميئوس منه، حيث يكن لها الجميع تقريبًا الكراهية وعدم الثقة، لقد انتهت العلاقة الاستعمارية القديمة، ولا يمكن لأي قوة أخرى أن تحل محل بريطانيا ... أما الولايات المتحدة — التي سوف يتعين عليها أن تشكل سياسة الغرب تجاه الشرق الأوسط سواء أرغبت في ذلك أم لا — فلم تكوّن سياسة محددة نحوه بعد ... حيث إن ريادتها للدول غير الشيوعية تفرض عليها بعض المسئوليات الجسيمة، وإحداها مواجهة التحدي الأخلاقي الذي يفرضه الساحر العجوز غريب الأطوار الذي يعيش في منطقة جبلية، والذي أصبح للأسف رجل العام لعام ١٩٥١.



الفصل التاسع

البريطانيون الحمقى

ذات يوم مشمس من شهر يوليو/تموز عام ١٩٥٢، وبعد ثمانية أشهر من عودة مصدق من واشنطن، اقتيد عبر ممر تظله أشجار الدردار إلى قصر سعد آباد من أجل مواجهة حاسمة مع محمد رضا شاه، فلم تعد إيران تتسع لكليهما، وخلف الأبواب المغلقة في القصر تواجها في مبارزة في الذكاء والقوة انتهت بسقوط مصدق فاقد الوعي تحت أقدام الشاه.

كان من المفترض أن يكون هذا الاجتماع إجراء شكليًّا فقط، فقد أتم مصدق عامين في منصب رئيس الوزراء، وطبقًا للعرف يفترض أن يقدم للشاه قائمة بأسماء الوزراء في حكومته، لكنه انتهز الفرصة كي يقدم طلبًا لم يجرؤ أي رئيس وزراء إيراني على تقديمه من قبل، حيث رغب مصدق في أن يقر الشاه بسلطة الحكومة المنتخبة عن طريق التنازل عن السيطرة على وزارة الحربية، لكن الشاه استشاط غضبًا، فبدون السيطرة على وزارة الحربية سوف يفقد السيطرة على الجيش الذي يعتبر الحصن الوقائي لسلطته ويصبح رئيسًا صوريًّا فقط، فأخبر مصدق أنه يفضل بدلًا من أن يفقد جيشه أن «يلم حقائبه ويرحل.»

لم يتفوه مصدق الذي أتقن فن المسرح السياسي قبل أن يولد الشاه بكلمة، بل صمت قليلًا يفكر ثم نهض كي ينصرف، وخشي الشاه أن ينطلق مصدق في الشوارع ويحرض الجماهير ضده، فهب واقفًا واندفع نحو الباب كي يمنع مصدق من الخروج، لكن مصدق أصر على أن يبتعد الشاه، أجاب الشاه بأن ذلك مستحيل؛ فالمناقشة يجب أن تستمر، واستمر هذا الموقف

دقيقة أو دقيقتين، ثم ضاق تنفس مصدق وعاد خطوتين للوراء ثم سقط مغشيًّا عليه.

بموجب ملحق لدستور ١٩٠٦ أصبحَ الشاه القائد الأعلى للجيش الإيراني، ووجب عليه أيضًا التعاون مع الحكومة المنتخبة في الشئون السياسية، وكان رؤساء الوزراء دائمًا يفسرون ذلك بالسماح للشاه بتعيين وزير الحربية، لكن مصدق تسبب في حدوث أزمة بمخالفته ذلك التقليد، وبينما كان مستلقيًا في فراشه يتعافى من الانهيار الذي أصابه، قرر أن يحل الأزمة بطريقة صادمة للبلاد، وفي صباح اليوم التالي الموافق السابع عشر من يوليو/تموز استقال من منصبه.

كتب مصدق للشاه: «في ظل الظروف الحالية يستحيل الانتهاء من المرحلة الأخيرة من الكفاح الوطني، وأخشى أنني لا يمكنني الاستمرار في منصبي دون أن أكون مسئولًا عن وزارة الحربية، وحيث إن جلالتك لم تمنحني تلك السلطة أشعر أنني لا أتمتع بثقتكم، ولذلك فإنني أقدم استقالتي كي أمهد الطريق لحكومة أخرى تتمكن من تنفيذ رغبات جلالتك.»

هل كان مصدق يرغب بالفعل في ترك السلطة؟ أم أن تلك مناورة منه فقط للحصول على المزيد من المزايا السياسية؟ في العديد من اللحظات الحاسمة في مشواره المهني فضل أن ينسحب من الحياة العامة عن أن يلطخ سمعته، فقد شعر بالخزي الشديد عندما عقدت الاتفاقية البريطانية الفارسية عام ١٩١٩ حتى إنه قدم طلبًا للإقامة في سويسرا وأخبر عائلته أنه قرر قضاء بقية حياته في المنفى، وخلال حكم رضا شاه الذي استمر فترة طويلة ظل بمعزل عن السياسة، وعام ١٩٤٧ بعد إلغاء مشروع قانون كان قد تقدم به إلى المجلس انسحب إلى ضيعته بأحمد آباد وأعلن نهاية مشواره السياسي تمامًا، وقد عكست تلك الأحداث مسحة استشهادية في شخصية مصدق عززتها العقيدة الشيعية وجعلته يفضل احتمال المعاناة على قبول الظلم.

بحلول منتصف عام ١٩٥٢ كان مصدق يواجه العديد من المشاكل، فقد كان لمقاطعة بريطانيا للنفط الإيراني آثار مدمرة، وعلم أن العملاء البريطانيين في طهران يخططون لإسقاط حكومته، ولبرهة كان يأمل في أن ينجو من الأزمة عن طريق المساعدة الأمريكية، لكن الرئيس ترومان الذي

كان واقعًا تحت ضغط شديد من لندن لم يتمكن من تقديم يد المساعدة له، فحاول الحصول على المساعدة من البنك الدولي، ولكن تلك المحاولة أيضًا أخفقت، وكان الإيرانيون يزدادون فقرًا وبؤسًا كل يوم، والتحالف السياسي لمصدق يتداعى، وفي ولايته الجديدة توقع أن يواجه حشدًا من الأعداء.

ولكن من السذاجة الاعتقاد بأن مصدق كان مستعدًّا بالفعل أن يتخلى عن المكانة الرفيعة التي وصل إليها في قلوب الإيرانيين والملايين من الناس حول العالم، فلم يرغب في الاستقالة بل في إجبار الإيرانيين على أن يقرروا هل يريدونه زعيمًا لهم أم لا، وهكذا كانت الاستقالة مقامرة ذكية.

وطوال معظم فترة الربيع من ذلك العام انشغل مصدق بالانتخابات البرلمانية، ولم يخشَ التصويت الحر، فعلى الرغم من المشاكل التي تعانيها البلاد فقد اعتبره الكثيرون بطلًا، لكن التصويت الحر لم يكن يتفق مع مخططات بعض الناس الآخرين، فقد انتشر العملاء البريطانيون في البلاد وأخذوا يقدمون الرشوة للمرشحين والمفوضين الإقليميين الذين يسيطرون عليهم آملين أن يملئوا المجلس بنواب يصوتون على خلع مصدق، وهكذا ينفذون الانقلاب بطريقة تبدو قانونية.

استغرقت الانتخابات الإيرانية عدة أسابيع كي تقام بسبب صعوبة المواصلات والاتصالات، وجاءت النتائج الأولى من المدن الكبرى مشجعة لمصدق؛ ففي طهران فاز مرشحو الجبهة الوطنية الاثنا عشر، ولكن النتائج اختلفت في أماكن أخرى من البلاد حيث لم يكن هناك أحد يشرف على عملية التصويت، ولم تكن النتائج نفسها ما سبب إزعاجًا لمصدق الذي كانت ثقته في الإرادة الشعبية بلا حدود، ولكنه شعر بالقلق عقب اندلاع أحداث العنف في عبدان والعديد من الأماكن الأخرى حيث اشتد الصراع في الانتخابات، وأخبره مساعدوه أن بعض المرشحين المنتخبين كانوا واقعين تحت السيطرة المباشرة للعملاء البريطانيين. وكان مصدق على وشك أن يذهب إلى لاهاي كي يدافع عن إيران في دعوى قضائية أخرى مقامة من بريطانيا في محكمة العدل الدولية، لكنه خشي أن يؤدي غيابه إلى إزالة العقبات الأخيرة في طريق التزوير الانتخابي الذي يمارسه أعداؤه، وفي شهر يونيو/حزيران وبعد أن صدق على فوز ثمانين مرشحًا في المجلس الذي يضم ١٣٦ مقعدًا، صوت

مجلس الوزراء على إيقاف الانتخابات، وفي بيان أصدره مصدق أكد أنه حيث إن «العملاء الأجانب» يستغلون الحملة الانتخابية لتقويض استقرار إيران، «تتطلب المصلحة العليا للبلاد إيقاف الانتخابات حتى يعود الوفد الإيراني من لاهاي.»

كان مصدق يمتلك قانونًا حق اتخاذ تلك الخطوة ما دام الأعضاء الثمانون لم يعترضوا عليها، ويمكنه أيضًا المطالبة بإجراء للشرعية الأخلاقية، فقد كان يدافع عن إيران ضد التخريب الأجنبي، ومع ذلك ألقى عليه هذا الحادث ضوءًا سلبيًّا، فقد سمح لمنتقديه بتصويره في صورة رجل غير ديمقراطي طامع في النفوذ الشخصي.

وفي الوقت الذي كان مصدق يواجه هذا التحدي كان عليه مواجهة تحدٍّ آخر اعتبره معظم الإيرانيين أكثر أهمية؛ فبلادهم تسقط في هاوية الإفلاس، وفقد عشرات الآلاف وظائفهم في معمل التكرير بعبدان، ومع أن معظمهم تفهموا فكرة التأميم وتعاطفوا معها، فقد أملوا بطبيعة الحال في أن يجد مصدق طريقة كي يعيدهم إلى العمل، والطريق الوحيد المتاح هو بيع النفط.

خلال النصف الأول من عام ١٩٥٢ تمكنت بعض ناقلات النفط من الأرجنتين واليابان من الدخول والخروج من الموانئ الإيرانية رغم الحظر التجاري الذي فرضته بريطانيا، وأحضرت ناقلة أخرى أربعة آلاف طن من النفط من عبدان إلى فينيسيا، وعندما رفضت محكمة إيطالية الاحتجاج البريطاني اتهم وينستون تشرشل «الإيطاليين بأنهم ليسوا أصدقاء ولا حلفاء.» وأدرك تشرشل أنه إذا لم يفرض الحصار بشكل أقوى فسوف ينهار تمامًا.

وفي منتصف يونيو/حزيران استقبل عمال ميناء بندر معشور في الخليج العربي ناقلة النفط روزماري التي استأجرتها شركة نفط إيطالية خاصة ترغب في شراء عشرين مليون طن من النفط الخام الإيراني على مدار العقد التالي، ونظمت الشركة تلك «الرحلة التجريبية» كي تتحدى الحظر التجاري الذي فرضته بريطانيا، فإذا تمكنت روزماري من العودة بسلام إلى إيطاليا فسوف ينكسر الحصار الاقتصادي وتصبح إيران في طريقها للتعافي الاقتصادي.

وبينما كانت بريطانيا وإيران تستعدان للمواجهة في أعالي البحار دخلا أيضًا في معركة في ساحات محكمة العدل الدولية، حيث سعى البريطانيون إلى استصدار قرار يؤكد أحقيتهم في معمل التكرير بعبدان وحقول النفط المحيطة به، وأقام محاموهم حججًا بليغة، ولكن آمالهم في السيطرة على سير الدعوى تبخرت بقدوم مصدق الذي قوبل باستقبال حافل من الجماهير في قصر السلام، الذين أخذوا يهتفون بحماس شديد ويرددون اسمه بصورة إيقاعية، وألقى مصدق خطبة قصيرة يطالب فيها القضاة بأخذ الجوانب الأخلاقية والسياسية للقضية في الاعتبار بالإضافة إلى الجوانب القانونية، مؤكدًا أن تأميم شركة النفط البريطانية الإيرانية كان رد الفعل الوحيد للطريقة غير المحتملة التي ظلت الشركة لأعوام عديدة تعامل بها الموظفين الإيرانيين «وكأنهم حيوانات» وتستغل الحكومات الإيرانية كي تضمن استمرارها في نهب أهم الموارد الطبيعية في البلاد.

وبعد أن ألقى مصدق خطبته ذهب إلى الفندق ولم يظهر مرة أخرى في المحكمة، وعلى مدار ثلاثة أيام تولى فريق من المحامين الإيرانيين ومحامٍ بلجيكي شهير يدعى هنري رولين، وهو أستاذ القانون الدولي والرئيس السابق لمجلس الشيوخ البلجيكي، الدفاع عن قضية إيران، وأخذ رولين يؤكد مرارًا وتكرارًا حجته الأساسية وهي أن المحكمة لا تمتلك سلطة الفصل في تلك القضية، فهي لا تتعلق بنزاع بين دولتين بل بين دولة وشركة خاصة.

كان مصدق جالسًا في الفندق عندما أتت أنباء تفيد بأن السفن الحربية البريطانية قد اعترضت سبيل روزماري وأجبرتها على أن ترسو في محمية عدن البريطانية، وحاول المحامون البريطانيون في إحدى المحاكم بعدن أن يثبتوا أن شركة النفط البريطانية الإيرانية هي المالك الشرعي للنفط الإيراني، وهكذا فإن روزماري تنقل ممتلكات مسروقة، وتأخر صدور الحكم — الذي أتى بالطبع في مصلحة بريطانيا — لعدة أشهر، ولكن أنباء اعتراض البحرية البريطانية لناقلات النفط الإيراني كانت كافية كي تصيب العملاء الآخرين بالذعر، ودعا مصدق إلى عقد مؤتمر صحفي يشجب فيه ذلك الاستيلاء الذي اعتبره «مثالًا حيًّا على الطريقة التي تحاول بها بريطانيا تقييد حريتنا.»

وتعاطف معه العديد من الأوروبيين، وأرسل السفير البريطاني برقية إلى لندن يقول فيها: «أخشى أن د. مصدق قد تمكن من أن يخلف انطباعًا إيجابيًّا بصورة عامة في لاهاي.»

كان استيلاء بريطانيا على ناقلة النفط روزماري ضربة قاتلة لمصدق وحكومته، فلن تقبل أي شركة نفط بعد ذلك التعامل مع إيران، وهكذا خسرت البلاد مصدرها الرئيس للدخل، لقد ربحت إيران ٤٥ مليون جنيه استرليني من صادرات النفط عام ١٩٥٠، وهو ما يمثل أكثر من ٧٠٪ من إجمالي صادراتها، ولكن ذلك المبلغ انخفض إلى النصف عام ١٩٥١ ثم أصبح لا شيء تقريبًا عام ١٩٥٢.

أخبر مصدق الإيرانيين بأن حملة استعادة الكرامة الوطنية تتطلب الكثير من «الحرمان والتضحية والإخلاص»، ومع أن معظمهم وافق على ذلك فقد عانوا معاناة شديدة، لكنه تمكن من تخفيف آلامهم بعض الشيء عن طريق زيادة الصادرات من المنتجات الأخرى غير النفطية، وخاصة المنسوجات والمواد الغذائية، والتفاوض بشأن إجراء صفقات مقايضة مع العديد من الدول، وحافظت تلك الخطوات وغيرها على إيران من الانهيار، ولكنها لم تكن بديلًا عن الدخل المكتسب من صادرات النفط.

كانت الانتخابات المسببة للخلاف والحصار البريطاني الخانق على النفط والقضية المنظورة أمام محكمة العدل الدولية تمثل عبئًا على مصدق عندما عاد من لاهاي في نهاية شهر يونيو/حزيران، بعد ذلك بأسبوعين حدثت نوبة الإغماء التي تعرض لها في قصر الشاه، وفي اليوم التالي استقال من منصبه، كانت استقالته هدية من السماء لأعدائه البريطانيين وللشاه، فقد كانوا يأملون في التأثير في المجلس بحيث يعرقل إعادة انتخابه، ولكنه قدم لهم خدمة لم يحلموا بها بتقديم استقالته بمحض إرادته.

اختار المسئولون البريطانيون الشخص الذي يريدونه خليفة لمصدق، وهو السياسي الماكر البالغ من العمر اثنين وسبعين عامًا أحمد قوام الذي كان رئيسًا للوزراء في منتصف الأربعينيات، وأعلن العالم والعميل البريطاني روبين زينر من موقعه في طهران أنها «كانت رغبة قوام في أن يتعاون مع البريطانيين ويحافظ على مصالحهم الشرعية في إيران ... حيث كان يفضل

النفوذ البريطاني في إيران بدلًا من النفوذ الأمريكي أو الروسي، فالشعب الأمريكي يتمتع بالحماقة وقلة الخبرة، والروسيون يعتبرون أعداء لإيران.»

في بداية الأمر عارض الشاه تأييد قوام؛ فقد أثارت تجربته مع مصدق كراهيته لأي رئيس وزراء قوي الشخصية، وكان يفضل أن يكون رئيس الوزراء ضعيف الشخصية سهل الانقياد، ولم يكن قوام يتمتع بتلك الصفات، ولكن البريطانيين أصروا عليه، وفي الساعات التي تلت تقديم مصدق لاستقالته في السابع عشر من يوليو/تموز استغرق الشاه في التفكير في الخطوات التالية دون أن يتوصل إلى نتيجة، وفي تلك الليلة اجتمع أربعون من أعضاء المجلس المؤيدين لبريطانيا ورشحوا قوام لمنصب رئيس الوزراء، واجتمع سبعة وعشرون آخرون على مقربة منهم كي يعلنوا ولاءهم الأبدي لمصدق بصفته الشخص الوحيد الذي يستطيع حكم إيران «في تلك الفترة العصيبة من تاريخنا.»

وفي نهاية الأمر استسلم الشاه للضغوط البريطانية كما اعتاد دائمًا ووافق على تعيين قوام الذي تصور بحماقة أنه قد امتلك زمام السلطة تمامًا، فبدأ يصدر تصريحات صارمة تفيد بأن يوم الجزاء قد حان، واتهم مصدق بالإخفاق في حل أزمة النفط وبشن «حملة واسعة النطاق ضد دولة أجنبية»، وأعلن أيضًا أن إيران على وشك التغيير معلنًا في أول تصريح له بصفته رئيسًا للوزراء «هذا القائد يتخذ مسارًا مختلفًا.» وتوعد من يعترض على سياساته الجديدة بالقبض عليه وتسليمه إلى «يد القانون التي لا ترحم.»

لم يدرك العديد من الإيرانيين أن مصدق قد خرج من السلطة حتى استمعوا إلى تصريح قوام في المذياع الذي أثار عاصفة من الاحتجاجات، فاندفعت الجماهير في شوارع طهران والعديد من المدن الأخرى تهتف «إما مصدق وإما الموت!» وأعطى قوام أوامره للشرطة بالهجوم عليهم وإخماد تلك الثورة، لكن العديد من الضباط رفضوا وانضم بعضهم للمتظاهرين الذين رحبوا بهم.

كان ذلك الانفجار العفوي تعبيرًا عن التأييد الشعبي لقرار مصدق بتحدي شركة النفط البريطانية الإيرانية، ولكن ما اجتذب العديد من الإيرانيين إليه أيضًا التزامه بالإصلاح الاجتماعي، فقد حرر الفلاحين من العمل بالسخرة

لدى ملاك الأراضي، وأجبر أصحاب المصانع على تقديم إعانات مالية للعمال المصابين والمرضى، وأنشأ نظامًا لإعانات البطالة، واقتطع ٢٠٪ من الإيجارات التي يحصلها الملاك وأنشأ منها اعتمادًا ماليًّا كي ينفقه في مشروعات تنموية مثل مكافحة الآفات وإنشاء المساكن الريفية والحمامات العامة، وكان يؤيد حقوق المرأة ويدافع عن الحريات الدينية، بالإضافة إلى سماحه للمحاكم والجامعات بالعمل بحرية، وقبل كل شيء كان معروفًا لأعدائه بشدة الأمانة وعدم القابلية للفساد المنتشر في السياسة الإيرانية، فكانت فكرة خسارته على نحو مفاجئ واستبدال نظام حكومي مدعم من الخارج به فوق احتمال الشعب الثائر.

في الحادي والعشرين من يوليو/تموز دعا زعماء الجبهة الوطنية إلى تنظيم إضراب عام كي يظهروا معارضة الأمة لقوام ودعمها لمصدق الذي يعتبر «الشخص الوحيد الذي يتمتع بالشعبية والذي يمكنه قيادة الكفاح الوطني.» وخلال بضع ساعات كانت معظم البلاد قد أصيبت بالشلل، وعندما علم آية الله كاشاني بأن قوام ينوي اعتقاله أصدر فتوى يطالب فيها الجنود بالانضمام إلى الثورة التي أطلق عليها «حربًا مقدسة ضد المستعمرين.» أما مقاتلو حزب تودة الذين كانوا ما زالوا غاضبين من قوام من أجل تدبيره انسحاب القوات السوفييتية من أذربيجان عام ١٩٤٧ فقد انضموا بسرور إلى ذلك الصراع وأخذوا يهتفون «يسقط الشاه! نريد جمهورية شعبية!»

صدم كل من قوام والشاه بتلك الثورة، وكان رد فعلهم استدعاء القوات العسكرية الخاصة، فأطلق الجنود النار على المتظاهرين في العديد من أجزاء طهران مما أدى إلى سقوط العشرات من القتلى، وعندما شعر صغار ضباط الجيش بالخوف من تلك المذبحة بدءوا يفكرون في إعلان التمرد، وهكذا فقد الشاه السيطرة على الموقف تمامًا، ولم يعد أمامه خيار سوى مطالبة قوام بالاستقالة، وبالفعل قدم رئيس الوزراء استقالته في ذلك المساء في الرابعة عصرًا، وفور أن استلمها الشاه أرسل في استدعاء مصدق، وكان لقاؤهما وديًّا على غير المتوقع، حيث أكد الشاه أنه مستعد الآن لتقبل مصدق في منصب رئيس الوزراء ومنحه السيطرة على وزارة الحربية، وتساءل هل يرغب مصدق في الاحتفاظ بالملكية، وافق مصدق ولكن بافتراض تقبل الملوك

لسيادة الزعماء المنتخبين، وقال للشاه: «قد يتذكرك التاريخ بصفتك ملكًا ذا شعبية هائلة إذا تعاونت مع القوى الديمقراطية والوطنية.»

وفي اليوم التالي صوت المجلس بأغلبية ساحقة على إعادة انتخاب مصدق رئيسًا للوزراء، ولم يستغرق قوام سوى أربعة أيام في الحكم، وكان سقوطه يوم «الاثنين الدموي» انتصارًا ضخمًا غير متوقع للقوميين الإيرانيين، بالإضافة إلى كونه انتصارًا شخصيًّا أكبر لمصدق، فدون أن يلقي خطبة واحدة أو يغادر منزله عاد إلى السلطة بمساعدة الشعب الممتن له.

وفي اليوم التالي استيقظت البلاد على أخبار مثيرة، فقد رفضت محكمة العدل الدولية الدعوى التي تقدمت بها بريطانيا نائية بنفسها عن أن تتدخل في نزاع على النفط، وفي لندن صدرت جريدة ديلي اكسبريس تحمل العنوان الرئيس «يوم انتصار مصدق»، وكان بالفعل يوم انتصار مصدق بل أكثر.

كان الدعم الذي يحصل عليه مصدق الآن كبيرًا حتى إنه كان يمكنه الإطاحة بالشاه وإعلان نهاية أسرة بهلوي وإنشاء جمهورية وتنصيب نفسه رئيسًا لها إذا كان يرغب في ذلك، لكنه بدلًا من ذلك أرسل للشاه نسخة من المصحف هدية، كتب عليها بخط اليد «اعتبرني عدوًّا للقرآن إذا اتخذت أي خطوة تخالف الدستور أو قبلت تولي الرئاسة في حالة إلغاء الدستور وتغيير شكل حكومة بلادنا.»

كان ذلك التطور في الأحداث هزيمة مخيبة للآمال للبريطانيين، ففي خلال أسبوع انتقلوا من التآمر الخفي إلى انتصار ساحق ثم إلى هزيمة نكراء، ولكن برغم الأخطار المحدقة لم يكونوا على استعداد للاستسلام، بل أخذوا يستعرضون ما حدث كي يكتشفوا أخطاءهم، وبالفعل وجدوا أنهم كانوا مخطئين في عدة أمور، فقد ترك ضباط المخابرات البريطانية الكثير من التخطيط والتنفيذ للإيرانيين، بالإضافة إلى أنهم وضعوا ثقتهم في قوام مع كونه شخصًا مدنيًّا وليس عسكريًّا، وأهم من ذلك كله أنهم عملوا بمفردهم دون مساعدة الأمريكيين. ولكن في المرة التالية لن يكرروا تلك الأخطاء، فقد كانوا مصرين على أن تكون هناك مرة تالية.

تكونت الجولة التالية من التآمر البريطاني من مجموعة من البرقيات الدالة على الفهم العميق التي أرسلها جورج ميدلتون القائم بأعمال السفارة

البريطانية في طهران في الأيام التي تلت انتفاضة يوليو/تموز؛ فقد اعتبر ميدلتون تلك الانتفاضة «نقطة تحول في التاريخ الإيراني»، وذلك لأنها كانت بداية ظهور قوة سياسية جديدة ألا وهي الجماهير، فقد فشلت خطة بريطانيا في استبدال مصدق بسبب تدخل الجماهير، فكتب إنه يجب على البريطانيين في المرة التالية أن يكسبوا الجماهير في صفهم.

لاحظ ميدلتون أيضًا أنه أثناء الانتفاضة أبدى عدد كبير من ضباط الجيش ضعف ولائهم لمصدق، وإذا توفرت الظروف المناسبة يمكنهم الانضمام للتمرد ضده، ولكن يجب جمعهم تحت لواء القضية عن طريق ضابط يحترمونه ويثقون به، وكان لدى ميدلتون اسم ذلك الضابط، فاقترح وزير الداخلية السابق في وزارة مصدق الجنرال فضل الله زاهدي.

كان هذا الاختيار لا بأس به، فلم يكن زاهدي مرشحًا مثاليًّا، حيث وصفته جريدة نيويورك تايمز بأنه «أحد أفراد الطبقة الراقية المولعين بالقمار والنساء الجميلات»، ولكنه أفضل المرشحين المتاحين، فقد قضى معظم حياته في الجيش وعلى معرفة شخصية بكل ضباط الجيش الإيراني تقريبًا.

في سن الثالثة والعشرين — وعندما كان زاهدي يشغل منصب قائد سرية — قاد مجموعة من القوات في معركة ضد رجال القبائل المتمردين في المقاطعات الشمالية، وبعد ذلك بعامين منحه رضا شاه رتبة العميد، وإعجابًا منه بإخلاصه وقبضته الحديدية عينه الشاه عام ١٩٢٦ حاكمًا لخوزستان، وهي المقاطعة التي يوجد بها معمل التكرير، وعام ١٩٣٢ جعله رئيسًا لشرطة طهران، وعام ١٩٤١ جعله قائدًا لحامية أصفهان ذات الأهمية الاستراتيجية.

كان زاهدي ورضا شاه يتفقان بشأن ما تحتاجه إيران، وكلاهما يتميز بالطباع العسكرية من القوة والشراسة والطموح، وعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية سعى كلاهما إلى تقديم المساعدة للألمان، وبعد أن أطاح البريطانيون برضا شاه وأرسلوه إلى المنفى ازداد اهتمامهم بزاهدي، فقد رأياه استغلاليًّا يجني أرباحًا ضخمة من تخزين الحبوب، وكان من الممكن أن يتركاه وشأنه لولا علاقاته الوثيقة بالعملاء النازيين، فعندما اكتشفا أنه يخطط لثورة قبلية تتزامن مع هجوم ألماني محتمل على إيران قررا التدخل.

وفي سبتمبر/أيلول ١٩٤٢ استدعى كبار ضباط المخابرات السرية العميل الأسطورة فيتزروي ماكلين الذي قادته أعماله البطولية في ساحات معارك خفية من طرابلس إلى طشقند ثم إلى اجتماع في لندن حيث أخبروه بأنهم يريدون رحيل زاهدي، وكتب ماكلين عن ذلك الأمر: «تركوني كي أقرر بنفسي كيف أنفذ تلك المهمة، ولم يكن هناك سوى شرطين فقط: أن أحافظ عليه على قيد الحياة وألا أتسبب في حدوث أي اضطراب.»

كانت أبسط طريقة تتمثل في اختطاف زاهدي من منزله، ولكن عندما وصل ماكلين إلى أصفهان اكتشف أن منزل زاهدي محاط بحراسة مشددة، وكانت فكرته التالية اختطاف الجنرال من سيارته، لكن اتضح أنها فكرة غير عملية بسبب الحراسة الأمنية المشددة، فقرر ماكلين أن يتوصل إلى حيلة تمكنه من المثول أمام زاهدي.

كانت خطته التي أوضحها في برقية مشفرة أرسلها إلى لندن تتمثل في التنكر في زي عميد في الجيش البريطاني مقيم في بغداد وإرسال رسالة لزاهدي يخبره فيها بأنه يمر بأصفهان ويرغب في إلقاء التحية عليه، ثم يذهب بصحبة شخص أو اثنين «واسعي الحيلة»، وعندما ينفرد بالجنرال يبرز مسدسه ويجبره على الركوب في السيارة التي تنتظرهم، على أن تنتظر فصيلة من جنود المشاة على مقربة منهم كي «يقدموا المساعدة في حالة وقوع أي خطأ.» وحصل ماكلين من رؤسائه على كل ما طلب، بما في ذلك الإذن بقتل زاهدي إذا تطلب الأمر ذلك، لكنهم لم يوافقوا على نقطة واحدة، فلم يكن مسموحًا لأي شخص تحت أي ظرف من الظروف بأن يتظاهر بكونه عميدًا في الجيش البريطاني، ولكن من الممكن أن يستعينوا بعميد حقيقي إذا لزم الأمر.

سافر ماكلين إلى مدينة قم التي تبعد مائة وخمسين ميلًا شمال أصفهان حيث كان القائد البريطاني المحلي قد تلقى تعليمات بأن يوفر له ما يحتاجه، وكان يحتاج إلى فصيلة من الجنود، وبالفعل تمكن من جمع الفصيلة بسهولة عندما أشاع أنه يجمع الجنود لتنفيذ مهمة فدائية، وفي حصن مهجور في الصحراء القريبة أجرى هو ورجاله تدريبات لعدة أيام، وفي اليوم السابق للاختطاف توجه إلى أصفهان بصحبة عميد حقيقي وفرته له القنصلية البريطانية في قم، وكان «ضابطًا مميزًا يتمتع بحس الدعابة الذي ساعده على أن يتقمص الدور الغامض الذي كلف به.»

تمت إجراءات مقابلة الجنرال زاهدي تمامًا كما كان مخططًا لها، وأتى ماكلين في سيارة يرفرف عليها العلم البريطاني، واستغرق حارس البوابة في حوار طويل مع العميل البريطاني الذي كان جزءًا من فريق ماكلين ولم يرفع بصره إلا لفترة وجيزة حين كان يمر. ووقفت شاحنتان غريبتان حمولتهما مغطاة بالمشمع في الانتظار على مقربة وبداخلهما الجنود الذين قضى ماكلين الأسبوع الأخير في تدريبهم وظلوا منتظرين في حين يدخل هو مقر الفرقة:

> ظهر الجنرال زاهدي بعد دقيقتين، وكان رجلًا أنيقًا رشيقًا يرتدي زيًّا عسكريًّا رماديًّا محكمًا وحذاء لامعًا، وعندما دخل الغرفة وجد نفسه ينظر إلى فوهة مسدسي الآلي. ولم تكن هناك فائدة من إطالة موقف محرج كهذا، فدون أن أحدث ضجة طلبت من الجنرال أن يرفع يديه وأخبرته بأن لديّ تعليمات بالقبض عليه وإطلاق الرصاص عليه إذا حاول المقاومة أو إصدار أي صوت، ثم جردته من مسدسه ودفعته بقوة عبر النافذة إلى السيارة التي كانت في الانتظار ومحركها دائر ... وسرعان ما وصلنا إلى نفس المكان الذي قضينا فيه ليلتنا الماضية في الصحراء، وهناك سلمت أسيري إلى ضابط وستة رجال كانوا متأهبين كي يصطحبوه في السيارة إلى أقرب مطار حيث كانت طائرة بانتظاره كي تقله إلى فلسطين ... وفي غرفة الجنرال وجدت مجموعة من الأسلحة الآلية ألمانية الصنع والكثير من الملابس الداخلية الحريرية وبعض الأفيون وسجل مصور للعاهرات في أصفهان.

قضى زاهدي بقية فترة الحرب في معتقل بريطاني، وبعد إطلاق سراحه استأنف نشاطه وكأن شيئًا لم يكن، فشغل منصب القائد العسكري في مقاطعة فارس ثم عاد لوظيفته القديمة رئيسًا لشرطة طهران، ورشحه محمد رضا شاه لعضوية مجلس الشيوخ عام ١٩٥٠، وفي العام التالي أقنع مصدق باختياره وزيرًا للداخلية، ولكن مصدق طرده بعد بضعة أشهر عندما أمر بإجراء مذبحة للمتظاهرين الذين احتجوا على زيارة أفريل هاريمان.

ومع أن زاهدي كان قد ترك الجيش، فقد كان رئيسًا لجمعية الضباط المتقاعدين التي تكوّن معظمها من ضباط جردوا من رتبهم العسكرية على يد مصدق وكانوا متعطشين للانتقام منه، وبفضل هؤلاء الأنصار بالإضافة إلى جرأته وقسوته المعروفتين اختاره البريطانيون كي يكون القائد الصوري للانقلاب الذي قاموا به؛ فقد كان كلاهما على استعداد لنسيان الخلافات الماضية.

أصبحت التركيبة التي أوصى بها جورج ميدلتون في برقياته المكونة من الجماهير بالإضافة إلى زاهدي جوهر المؤامرة ضد مصدق ولم تتغير قط، ولكن قبل أن يبدأ البريطانيون التخطيط بصورة جدية كان يجب عليهم كسب الأمريكيين في صفهم، وهكذا قضى تشرشل — الذي كان طبقًا لوصف أحد جواسيسه الأجانب «يستمتع بالعمليات المثيرة ولا يحترم الدبلوماسيين الجبناء» — النصف الثاني من عام ١٩٥٢ يحاول ضم الرئيس ترومان إلى صفه.

وفي شهر أغسطس/آب وجه مصدق الدعوة لأحد كبار الإداريين في مجال النفط في الولايات المتحدة ويدعى ألتون جونز لزيارة إيران، ورحب ترومان بتلك الفكرة وباركها، ولكن عندما علم بها تشرشل انزعج بشدة واعترض مؤكدًا أن أي عروض صداقة من الولايات المتحدة سوف تؤثر سلبًا على حملته لإبعاد مصدق، وانبرى يذكر ترومان بأن بريطانيا تدعم الأمريكيين في كوريا، وهكذا فإنها تتوقع «موقفًا بريطانيًّا أمريكيًّا موحدًا» تجاه إيران.

لم تسفر مهمة جونز عن شيء يذكر، ولكن ذلك لم يضعف من رغبة ترومان أو مستشاريه في التوصل إلى تسوية مع مصدق، وتوصلوا في نهاية الأمر كما قال أتشيسون إلى أن «البريطانيين يقفون عائقًا ويصممون على اتباع سياسة الحكم أو التدمير في إيران حتى إننا إما أن نتبع سياسة مستقلة خاصة بنا أو نجازف باختفاء إيران خلف الستار الحديدي.» وحث ترومان تشرشل على قبول حقيقة التأميم التي «يبدو أنها أصبحت مقدسة لدى الإيرانيين مثل القرآن.» وحذر من أن الاستمرار في مقاومتها قد يؤدي إلى وقوع اضطرابات تجرف إيران مع «المد الشيوعي» وتصبح «كارثة للعالم الحر.»

وردًّا على ذلك اقترح تشرشل أن يرسل هو وترومان «برقية مشتركة شخصية وسرية إلى مصدق» وكتب مسودة لها صيغت بلهجة ودية، ولكنها لم تكن سوى نفس العروض البريطانية القديمة وقد صيغت بطريقة جديدة، فرفض ترومان التوقيع عليها، ولكن تشرشل أصر على وجهة نظره المتمثلة في أن بريطانيا والولايات المتحدة يجب أن «ينطلقا معًا» ضد مصدق، وقال لترومان: «لست أدري لماذا لا يتحالف شخصان في جانب الخير ضد شخص آخر في جانب الشر.»

وفي نهاية الأمر وافق ترومان على التوقيع على نسخة مخففة من خطاب تشرشل يطالب فيها مصدق بتنفيذ أمرين كان قد أقسم ألا يفعلهما، وهما السماح بعودة شركة النفط البريطانية الإيرانية إلى وضعها السابق في إيران وقبول التحكيم في محكمة العدل الدولية بناء على وضع الشركة قبل تأميمها. وإذا استجاب لهذين المطلبين فسوف ترفع بريطانيا الحصار الاقتصادي عن إيران وتقدم لها الولايات المتحدة معونة تبلغ قيمتها عشرة ملايين دولار.

وبعد بضعة أيام من استلام الخطاب قرأه مصدق بتهكم في المجلس معلنًا أنها إهانة بالغة، لأنهم لم يدركوا حتى الآن أن «الشركة السابقة» قد أممت بصورة نهائية لا تقبل التراجع، وأما عرض المعونة فقد أعلن أنه «يفوح برائحة الصدقة» وهو ما لا تريده إيران. وخلال الهتافات المتصاعدة أعلن أن بريطانيا قد «اعتادت على مدار قرون عديدة نهب الأمم الضعيفة» وأن إيران لن تقبل «بشروطها الظالمة» بعد الآن، واختتم حديثه بملحوظة أخلاقية معبرة وهي أن «الالتزام بالقانون.ومراعاة حقوق الضعفاء لا ينتقص من قدر الأقوياء، بل يؤدي إلى تعزيز موقفهم وزيادة مكانتهم العظيمة.»

وهنا طلب مصدق موافقة المجلس على تقديم عرض مضاد، وبالفعل حصل عليها، تمثل العرض في موافقة إيران على التحكيم في محكمة العدل الدولية ولكن بشرطين؛ أولًا: أن تفصل المحكمة في القضية إما طبقًا للقانون الإيراني أو «قوانين أي دولة أخرى تؤمم صناعاتها في ظروف مشابهة»، وثانيًا: في حالة مطالبة بريطانيا بالتعويض يجب السماح لإيران أيضًا بالمطالبة بأرباحها التي استولت عليها بريطانيا.

كان هذان الشرطان معقولين لدرجة أثارت قلق تشرشل، وعلى مدار الأسابيع التالية أرسل مجموعة من البرقيات إلى ترومان يحثه فيها على ألا يخضع لإغراء التفاوض، وأصر قائلًا: «إنني على ثقة أنه ليس باستطاعتنا تحقيق المزيد من الإنجازات في ذلك الوقت الحرج من الصراع، ولن نتوصل إلى تفاهم مع مصدق إلا عندما نواجهه بائتلاف أمريكي بريطاني.»

وبينما كانت تلك البرقيات تتبادل عبر الأطلنطي سمع وزير الخارجية البريطاني أنتوني إيدن أنباء سارة من السفارة البريطانية في طهران، فقد أبدى الجنرال زاهدي استجابة كبيرة للعروض البريطانية، حيث كان على استعداد للمشاركة في انقلاب ضد مصدق على أن يخلفه بالطبع في منصبه، وسر إيدن بهذا التطور في الأحداث، فأرسل مذكرة بلهجة غير ودية إلى مصدق يخبره فيها برفض شروطه.

على النقيض من بعض الأجانب الآخرين الذين ساهموا في التدخل الغربي في إيران، كان إيدن على دراية بالمنطقة؛ فقد درس الفارسية التي اعتبرها «إيطالية الشرق» في جامعة أكسفورد، وقرأ ملحمة الشاهنامة والشعر الفارسي القديم والنقوش المكتوبة بواسطة داريوس، وبعد التخرج التحق بوزارة الخارجية. وكان يشغل منصب وكيل الوزارة عندما كانت بريطانيا تتفاوض بشأن اتفاقية ١٩٣٣ التي أثارت غضب مصدق والعديد من الإيرانيين المؤمنين بالقومية، وفيما بعد زار إيران عدة زيارات طويلة، لكن تلك الزيارات لم تخلف لديه انطباعًا جيدًا عن الإيرانيين.

كان إيدن على غرار تشرشل مدافعًا نشطًا عن النظام الاستعماري، واحتقاره الذي لم يكن يخفيه للقدرات السياسية والعقلية لمواطني الشعوب الفقيرة يدهش بعض الأجانب ومنهم دين أتشيسون الذي فوجئ بوجهة نظر إيدن في الإيرانيين التي تتمثل في كونهم «لا يصلحون إلا لتجارة السجاد، وهكذا عليك ألا تستسلم أبدًا وسوف تجدهم دائمًا يغيرون رأيهم ويحاولون عقد اتفاق معك إذا ظللت ثابتًا على موقفك.»

زادت رسالة إيدن المتعجرفة مصدق اقتناعًا بأن بريطانيا لن تقدم له أي شيء سوى العداء، وتحول اعتقاده إلى يقين عندما علم باجتماعات الجنرال زاهدي مع العملاء البريطانيين، وكان زاهدي قد بدأ أيضًا يعقد

اجتماعات مع آية الله كاشاني الذي اختير كي يكون ناطقًا بلسان المجلس وبدأ يكن العداوة السياسية لمصدق، وامتلأت طهران بالشائعات عن قرب وقوع انقلاب، ولم تكن هناك سوى طريقة واحدة كي يتخلص مصدق من العملاء البريطانيين الذين يخططون له؛ في السادس عشر من أكتوبر/تشرين الأول أعلن قطع العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا، وبنهاية ذلك الشهر كان كل الدبلوماسيين البريطانيين وعملاء المخابرات البريطانية قد رحلوا من إيران، كانت ضربة قاتلة من مصدق حطمت آمال بريطانيا في تنظيم انقلاب، وكي ينفذ ذلك الانقلاب يجب أن ينظمه الأمريكيون.

بعد أن طرد مصدق البريطانيين قبل أن يتمكنوا من هزيمته، سعى هو وحلفاؤه إلى القبض على الجنرال زاهدي وتقديمه للمحاكمة بتهمة الخيانة، ومع أنهم وجدوا في بادئ الأمر عقبة في طريقهم وهي تمتع زاهدي بالحصانة البرلمانية بصفته عضوًا في مجلس الشيوخ، فإن دورة مجلس الشيوخ التي تستمر عامين قد انتهت. ومع أن أعضاء المجلس كانوا قد صوتوا على البقاء في مناصبهم لمدة أربعة أعوام أخرى، فقد كان واضحًا أن دعواهم غير قانونية. وفي الثالث والعشرين من أكتوبر/تشرين الأول أعلن المجلس حل مجلس الشيوخ، وفور أن طبق ذلك القانون أصبح زاهدي عرضة للاعتقال، وكي يتجنب ذلك اختبأ عن الأعين.

والآن لم يعد هناك عملاء مخابرات بريطانيين في إيران، واختفى زاهدي عن الأنظار، وظلت إدارة ترومان ترفض بإصرار فكرة التدخل في إيران، وهكذا توقفت خطط الانقلاب، وهو ما راق لترومان الذي كان مقتنعًا بأن اللوم يقع على البريطانيين في ذلك «الوضع السيئ» بقدر ما يقع على مصدق. وفي خطاب أرسله إلى هنري جريدي السفير الأمريكي السابق في طهران أعلن أسفه قائلًا: «لقد حاولنا أن نجعل البريطانيين الحمقى يعقدون اتفاقًا عادلًا مع إيران، ولكنهم رفضوا تمامًا، فهم يعرفون جيدًا كيف يعالجون الموقف، ومن وجهة نظرهم فإننا نحن الذين لا نعرف كيف نعالج الموقف.»

كان من الممكن أن يشعر البريطانيون باليأس في ذلك الوقت، ولكنهم رأوا بصيصًا من الأمل يلوح في الأفق. كانت الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة قد اقتربت، ولم يرشح ترومان نفسه مرة أخرى، وكان المرشح

الجمهوري دوايت أيزنهاور يملك برنامجًا معاديًا للشيوعية بشدة، وشجعت لغة الخطاب التي يستخدمها أيزنهاور تشرشل وإيدن، وفور ترشحه لمنصب الرئيس توقفوا عن محاولة إقناع ترومان وصبوا اهتمامهم على الفريق الجديد.

وفي يوم الانتخابات كان كيرمت روزفلت في طهران، وكان بحكم وظيفته يدير عمليات المخابرات المركزية الأمريكية في الشرق الأوسط مما أعطاه مصالح مهنية هناك وجعله يزورها من حين إلى آخر، لكن تلك المرة لم تكن مجرد زيارة روتينية، فقد كان الرحيل المفاجئ لضباط المخابرات البريطانية من إيران حدثًا بالغ الأهمية في حياة روزفلت، فقد قضى البريطانيون عقودًا يبنون شبكة سرية هناك، والآن أصبحت تلك الشبكة بلا قائد، كانت تلك فرصة رائعة للولايات المتحدة، وصمم روزفلت على استغلالها إلى أقصى حد ممكن.

ولد كيرمت روزفلت في العاصمة الأرجنتينية بوينس أيرس حيث يعمل والده، ونشأ في رعاية جده ثيودور روزفلت في ضيعته بجزيرة لونج آيلاند، ودرس في جامعة هارفارد، وهكذا كان نموذجًا ممتازًا للجاسوس عريق الأصل، كان طالبًا في العام الدراسي قبل الأخير في قسم التاريخ بجامعة هارفارد وفي العشرينات من عمره عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية، وتواقًا للمغامرة فالتحق بمكتب الخدمات الاستراتيجية الذي كان سريًّا حتى إن الكثيرين ممن يعلمون بوجوده لم يكونوا يعلمون إلامَ تشير الأحرف الأولى من اسمه OSS. ولم يكن أحد يعلم طبيعة عمل روزفلت عندما كان عميلًا لمكتب الخدمات الاستراتيجية، فهو يقضي أوقاتًا في مصر وإيطاليا، ولكن حتى عائلته لم تكتشف طبيعة مهامه، حيث قالت زوجته بعد أعوام عديدة: «تلك أمور تخص أعمال الجاسوسية، ولم يكن يتحدث فيها معي قط.»

كانت صور روزفلت التي التقطت له في الفترة التي ذهب فيها إلى إيران تصوره نحيلًا ووسيمًا بشكل صبياني يرتدي نظارة ذات إطار غامق اللون ويبتسم ابتسامة خلابة، وكانت عائلته تراه شخصًا مهملًا لا يمكنه تغيير مصباح النور، ولكنه في العمل يعطي انطباعًا مختلفًا، حيث وصفه زملاؤه

في العمل بأنه شديد الثقة بالنفس ولكن ليس لدرجة الغرور، ووصفه أحد الكتاب بأنه «البرود مجسدًا.» وأثناء مهمته الاستكشافية في نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٥٢ لم يقابل أي إيراني يعلم أنه من العملاء البريطانيين، ولكنه كان ذكيًا بما يكفي كي يدرك أن هناك الكثير منهم في كل مكان.

وفي طريقه للديار توقف روزفلت في لندن، كان لديه أصدقاء يشغلون مناصب رفيعة في المخابرات السرية، وظلوا يتشاركون التفكير في طريقة للتعامل مع مصدق على مدار أكثر من عام، والآن ولأول مرة بدأت تلك الأفكار تبدو واقعية، حيث أخبره أصدقاؤه بأنهم أكثر إصرارًا من ذي قبل على تنفيذ الانقلاب وأن إيدن وتشرشل يستحثانهم على ذلك، وخاصة تشرشل الذي يحثهم «بعنف شديد»، وأثار هذا الأمر اهتمام روزفلت بشدة:

> لم يكن يرضيهم سوى الإطاحة بمصدق، ولم يروا فائدة من إضاعة الوقت بالتأجيل، بل رغبوا في البدء في الحال، وكان عليّ أن أوضح أن المشروع يتطلب تصريحًا من حكومة بلادي وأنني لست متأكدًا من نتائجه. وقد ذكرت لزملائي البريطانيين أنني على ثقة من أننا لن نحصل على موافقة إدارة ترومان وأتشيسون الراحلة، ولكن الجمهوريين الجدد قد يكونون مختلفين تمامًا.

الفصل العاشر

شمر عن ذراعيك وابدأ العمل

سرت موجة من الحماس في مراكز صنع القرار في لندن عندما أتت أنباء تفيد بانتخاب دوايت أيزنهاور رئيسًا للولايات المتحدة، فقد أصيب الزعماء البريطانيون بكثير من الإحباط على مدار الشهور الماضية في محاولاتهم لإقناع هاري ترومان بالانضمام لحملتهم ضد الحكومة الإيرانية، وكان إصراره على الرفض يثير إحباطهم بشدة، أما الآن فقد تغير المناخ في واشنطن بصورة جذرية، وما كان يبدو مستحيلًا أصبح فجأة يبدو ممكنًا.

على مدار سنوات عديدة تمكنت بريطانيا من جمع شبكة هائلة من العملاء السريين في إيران. وتحت قيادة «مونتي» وودهاوس الذي تولى منصب مدير مقر المخابرات البريطانية في طهران في بداية الخمسينيات من القرن العشرين، برع هؤلاء العملاء في كل شيء من رشوة السياسيين إلى تنظيم أعمال الشغب. ولكن وودهاوس وغيره من الجواسيس البريطانيين اضطروا إلى مغادرة إيران عندما أغلق رئيس الوزراء مصدق السفارة التي كانوا يعملون من خلالها، ومع ذلك فقد تركوا خلفهم مجموعة لا بأس بها من المخربين.

كان أهم الأشخاص في تلك الشبكة السرية هم الإخوة راشيديان المدهشين، كان والدهم قد كون ثروة من الشحن والأعمال المصرفية والعقارات، ولم يرثوا منه ثروته فحسب بل أيضًا إعجابه الشديد بكل ما هو بريطاني. وبدءًا من أوائل الخمسينيات أخذت المخابرات السرية تدفع لهم عشرة آلاف جنيه استرليني شهريًّا، أو ما يعادل ٢٨ ألف دولار، وهو مبلغ في غاية الضخامة طبقًا للمقاييس الإيرانية، كي يحرضوا الإيرانيين في «مجالات مثل القوات

المسلحة والمجلس (البرلمان الإيراني)، بالإضافة للزعماء الدينيين والصحفيين وعصابات الشوارع والسياسيين وبعض الشخصيات الأخرى المؤثرة.»

كتب أحد المؤرخين عن الإخوة راشيديان: «كان أكبرهم سيف الله مؤلفًا موسيقيًّا وفيلسوفًا، وأكثر إخوته الثلاثة ذكاء، بالإضافة إلى كونه متحدثًا ومضيفًا لبقًا، وكان طالبًا يدرس التاريخ ويفضل الاستشهاد بماكيافيللي. وكان أسد الله مسئولًا عن التنظيم وناشطًا سياسيًّا وكاتم سر الشاه، وكان قدرة الله رجل أعمال وصاحب مشروعات.»

انزعج مديرو المخابرات السرية من فكرة تبديد جهود هؤلاء العملاء البارزين في إيران في الوقت الذي كان فيه الكثير من الأعمال العاجلة ينبغي أن تؤدى هناك. وأعطاهم انتخاب أيزنهاور الأمل في أن يواصل الأمريكيون الأمر من حيث اضطروا هم للتوقف. وأعطاهم كيرمت روزفلت المزيد من التشجيع أثناء زيارته للندن، وكانوا شديدي الحماس للاستمرار في مؤامرتهم حتى إنهم لم ينتظروا تولي أيزنهاور السلطة بصورة رسمية، ففي منتصف نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٥٢، أي بعد أقل من أسبوعين من الانتخابات، أرسلوا وودهاوس إلى واشنطن.

اجتمع وودهاوس بنظرائه في المخابرات المركزية الأمريكية وببعض الأشخاص الذين سوف يتولون مناصب مهمة في إدارة أيزنهاور. ونظرًا لأنه كان يبغض شركة النفط البريطانية الإيرانية، حيث كان يعتبر مديريها حفنة من «الأغبياء الملين المتعنتين ثقيلي الظل»، بالإضافة إلى عدم اكتراث المسئولين الأمريكيين بمشاكلها على أي حال، فقد اعتمدت حجته على فكرة مناهضة الشيوعية:

> أكدت أنه حتى لو نجحت مفاوضات التسوية مع مصدق بشأن النزاع على النفط، وهو ما أشك فيه، فلن يستطيع الصمود أمام انقلاب ينظمه حزب تودة في حالة دعمه بواسطة السوفييت. وهكذا يجب أن يرحل مصدق. وكان معي مخطط تمهيدي لتحقيق ذلك الهدف ...
>
> اعتمدت الخطة على دمج عنصرين منفصلين، وذلك لأننا كنا نمتلك نوعين مختلفين من الوسائل: منظمة مدنية يديرها

الإخوة [راشيديان]، وعدد من زعماء القبائل في الجنوب. وكانت خطتنا تعتمد على تفعيل كليهما في آن واحد. كانت المنظمة المدنية تضم كبار ضباط الجيش والشرطة وعددًا من نواب البرلمان وأعضاء مجلس الشيوخ والملالي والتجار ومحرري الصحف وكبار السياسيين وزعماء الجماهير. وكان على تلك القوات بقيادة الإخوة أن تستولى على مقاليد السلطة في طهران من أجل القبض على مصدق ووزرائه، ويفضل أن يكون ذلك بمساعدة الشاه، ولكن يمكن بدونها إذا لزم الأمر. وفي الوقت ذاته كان على زعماء القبائل أن يستعرضوا قوتهم باتجاه المدن الكبرى في الجنوب ...

لقد حصلت على موافقة وزارة الخارجية على قائمة تضم خمسة عشر سياسيًّا نوافق على أي منهم في منصب رئيس الوزراء إذا وافق عليه الأمريكيون. وكانت القائمة تتكون من ثلاثة فئات تحمل عناوين مبدئية هي «المجموعة القديمة» و«المجموعة الجديدة» و«الوسط». وكانت الفئة الثالثة تتضمن الجنرال فضل الله زاهدي الذي سرعان ما برز اسمه في المناقشات بوصفه الشخص الأكثر احتمالًا لأن يلاقي قبولًا من صناع السياسات البريطانيين والأمريكيين. وكنت على اتصال به قبل أن نطرد من طهران، وكان واضحًا أن الأمريكيين كانوا على اتصال به أيضًا منذ رحيلنا. وكان اختياره مفارقة تدعو للسخرية، فأثناء الحرب العالمية الثانية كان يعتبر عميلًا ألمانيًّا، وفي ذلك الحين نفذ فيتزروي ماكلين عملية لاختطافه وإخفائه عن الأنظار، والآن نلجأ كلنا إليه بوصفه المنقذ المحتمل لإيران.

وأثناء الاجتماعات التي عقدها وودهاوس في واشنطن اكتشف «الاهتمام المتزايد» باقتراحه الذي أطلق عليه البريطانيون «عملية بوت». وكان فرانك ويزنر وهو محامٍ من نيويورك أصبح فيما بعد مدير عمليات المخابرات المركزية الأمريكية وألان داليس رئيسه الجديد شديدي الثقة، في حين كان مسئولو وزارة الخارجية أقل حماسًا، ولكن جون فوستر داليس سوف يقضي على مقاومتهم فور تقلده منصب وزير الخارجية.

وعندما انطلق وودهاوس عائدًا إلى الديار كانت الإدارة الجديدة قد تعهدت، حتى وإن كان بطريقة غير رسمية، بتنفيذ عملية سرية للإطاحة بمصدق، بالإضافة إلى موافقتها على المرشحين البريطانيين اللذين سوف يؤديان الأدوار الأساسية: الجنرال زاهدي في دور منقذ إيران وكيرمت روزفلت في دور القائد الميداني من المخابرات المركزية الأمريكية الذي سوف يقلده منصبه. وكانت الخطة على وشك أن تصبح جاهزة فور تولي أيزنهاور الحكم، وعلى جون فوستر داليس وألان داليس أن يحصلا على موافقته ثم ينفذا العملية.

كان الأخوان داليس — اللذان كان جهدهما عاملًا أساسيًّا في نجاح عملية أياكس — مميزين في التاريخ الأمريكي، فلم يحدث قبل ذلك أو بعده أن تولى شقيقان إدارة الجوانب المعلنة والخفية للسياسة الخارجية للولايات المتحدة في آن واحد. وأثناء توليهما منصبي وزير الخارجية ومدير المخابرات، عملا في تناسق شبه تام من أجل تحقيق أهدافهما المشتركة، ومن أولها وأهمها الإطاحة بمصدق.

ولد الأخوان فوستر وألي كما كان يطلق عليهما في عائلة موسرة، وكان جدهم جون واتسون فوستر وزيرًا للخارجية عندما كانوا أطفالًا، وكان كثيرًا ما يسمح لهم بمقابلة ضيوفه واستراق السمع في الاجتماعات التي يقيمها. وأثناء عهد ماكينلي وثيودور روزفلت قضيا العديد من الأوقات التي ساهمت في تشكيل شخصياتهما في صالونات واشنطن حيث اعتادا على أساليب السلطة. وكان ألي الذي وصفه كاتب سيرته بأنه اعتاد منذ طفولته أن يبدي «فضولًا لا يشبع تجاه الناس المحيطين به» يسجل ملحوظات حول ما يسمعه.

التحق الأخوان بجامعة برينستون وأبديا تفوقًا ملحوظًا فيها، حيث كان فوستر الذي يكبر شقيقه بخمس سنوات الأول على دفعته. ومع أنهما كانا شديدي القرب أحدهما من الآخر فقد كانت شخصياتهما شديدة الاختلاف، حيث كان ألي لطيفًا هادئًا يفضل لعب التنس وتناول الخمر وحضور الحفلات الراقية، وفي فترة من الفترات كانت لديه عشيقة تخضع للتحليل النفسي على يد كارل جوستاف يونج. أما فوستر فقد كان صارمًا فظًّا

عرف عنه استهلال الاجتماعات وختامها بأصوات التأفف بدلًا من الشكر أو الترحيب، وقيل إن أصدقاءه لم يكونوا يحبونه كثيرًا.

وعندما تخرج الأخوان من برينستون كان عمهما روبرت لانسينج يتقلد منصب وزير الخارجية في إدارة وودرو ويلسون، واهتم كلاهما بالشئون العالمية بفضل تأثيره إلى حد ما، فقد التحق ألي بوزارة الخارجية عند اندلاع الحرب العالمية الأولى، فأرسل أولًا إلى برن التي كانت بوصفها عاصمة سويسرا المحايدة مركزًا لحياة اللاجئين، ثم إلى برلين واسطنبول وكلاهما مرتع للخديعة والمؤامرات. وفي كل منصب يتولاه كان يقتحم أعمال المخابرات بسرور، حيث أثبت كفاءة كبيرة في تجنيد المخبرين واستجواب المسافرين ومراقبة الحركات العسكرية وتقييم نقاط القوة والضعف في الحكومات الأجنبية.

وفي حين كان ألي يتعلم أعمال الجاسوسية بدأ فوستر مشواره المهني في المحاماة في نيويورك؛ فبعد أن تخرج في مدرسة الحقوق رتب له جده مقابلة عمل في مؤسسة سوليفان وكرومويل الشهيرة حيث حصل على وظيفة كاتب مبتدئ، وسرعان ما وجد نفسه يعمل وسط مجموعة من أكثر الأشخاص تأثيرًا في العالم. لم تكن شركة سوليفان وكرومويل مؤسسة قانونية عادية فقط، بل كانت مركزًا للتجارة والتمويل الدولي، وكان محاموها يقومون بدور الوسطاء بين الملوك والرؤساء وأصحاب النفوذ والثروة، وضم عملاؤها العديد من أهم البنوك والاتحادات التجارية. وتعامل فوستر مباشرة مع العديد منها بما فيها جيه بيه مورجان وشركة النيكل الدولية وشركة قصب السكر الكوبية، وكان يعرف نفسه بأنه مسئول عن عقد الصفقات رفيعة المستوى وخبير في التمويل الدولي. وعندما توفي شريك المدير في عام ١٩٢٦ تقلد فوستر منصبه، وأحد أول القرارات التي اتخذها تعيين شقيقه.

كان ألان داليس قد تخرج من مدرسة الحقوق منذ فترة قصيرة ولم يكن قد انضم لنقابة المحامين بعد، ولكن مهاراته الاستثنائية وشبكة علاقاته الواسعة جعلت منه مصدر قوة لشركة سوليفان وكرومويل التي أعلنت عن نفسها أنها تمتلك «وسائل استثنائية متنوعة للحصول على المعلومات.» وفي حقيقة الأمر كان ضابط مخابرات حرًّا، وكان يستمتع بعمله ولكنه يتوق

للمزيد من الإثارة. وعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية التحق بمكتب الخدمات الاستراتيجية مثل كيرمت روزفلت، وأرسل إلى أوروبا حيث درس نظام المخابرات النازية كي يعمل على اختراقه وتقويضه.

قضى فوستر سنوات الحرب في بلاده يلقي الخطب وينشر المقالات التي تحذر من الخطر الذي يمثله التوسع السوفييتي على «الحضارة المتراكمة عبر القرون»، وأصبح أحد زعماء السياسة الجمهورية. وفي عام ١٩٤٨ عمل مستشار السياسة الخارجية للمرشح الرئاسي الجمهوري توماس ديوي حاكم نيويورك. وافترض الكثيرون أنه سوف يتولى منصب وزير الخارجية عندما يفوز ديوي، ولكن بعد أن فوجئ الجميع بخسارة ديوي أمام ترومان كان عليه أن يعود إلى ممارسة المحاماة حتى تحين الفرصة المناسبة. وكان ألان الذي التحق مرة أخرى بالشركة بعد الحرب يحلم بأن يصبح سفير ديوي لدى فرنسا، ولكن تلك الخطة أيضًا أفسدتها نتائج الانتخابات.

اهتم الأخوان داليس بإيران بشكل خاص، حيث كان فوستر يذكر إيران دائمًا في خطبه أو كتاباته عن الدول التي يعتقد أنها سوف تسقط فريسة للشيوعية، وتوجه ألان لزيارة طهران في عام ١٩٤٩ بالنيابة عن أحد عملاء شركة سوليفان وكرومويل، وهي شركة هندسية تسعى إلى إبرام عقود إنشائية. وأعطته تلك الرحلة فرصة كي يراقب كلًّا من الشاه البالغ من العمر تسعة وعشرين عامًا الذي أطلقت عليه زوجته «الأمير الكئيب» وزعيم المعارضة العنيف مصدق. وفيما بعد في ذلك العام عندما توجه الشاه لزيارة نيويورك رتب ألان «حفل عشاء خاصًّا له» ولمائة من أعضاء مجلس العلاقات الخارجية.

وفي عام ١٩٤٧ تحول مكتب الخدمات الاستراتيجية الذي أنشئ أثناء الحرب إلى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. كان ألان داليس يمتلك العديد من الأصدقاء في الوكالة الجديدة، وبناء على طلبهم كتب مجموعة من التقارير السرية التي تحث الوكالة على إطلاق برنامج عالمي من «الحرب النفسية الخفية والنشاط السياسي السري والأعمال التخريبية وحروب العصابات.» وفور أن اختير الجنرال والتر بيدل سميث في منصب مدير المخابرات بواسطة الرئيس ترومان أحضر داليس إلى الوكالة حيث عمل مستشارًا في بادئ الأمر ثم تولى منصب نائب المدير.

كان ألان داليس أحد أكثر رجال المخابرات طموحًا في البلاد، وعرف جون فوستر داليس على نطاق واسع بكونه واحدًا من أفضل المحامين الدوليين فتمكن بسهولة من الاندماج في عالم الجمهوريين الراقي، ووصل كلاهما إلى قمة السلطة عندما تولى أيزنهاور منصبه.

ظل بيدل سميث معهما منذ أيام المخابرات المركزية الأمريكية حتى تولى منصب وكيل وزارة الخارجية الأمريكية. وشغل سميث منصب رئيس الأركان في إدارة أيزنهاور أثناء الحرب، وظل أحد أكثر أصدقائه الثقات. وكان اختيارًا مثاليًّا في ذلك المنصب الجديد كي يضمن أن المخابرات المركزية الأمريكية ووزارة الخارجية والبيت الأبيض سوف يعملون بتكامل في مشروعات حساسة مثل الانقلاب ضد مصدق.

وفي أحد أيام الشتاء الباردة قبيل تولي أيزنهاور منصبه، استدعى سميث كيرمت روزفلت في مناقشة غير ودية حول إيران. كان سميث يدعم فكرة الانقلاب أثناء إدارة ترومان، ولكن رؤساءه فرضوا نفوذهم عليه. والآن كان متلهفًا على الاستمرار في تلك الخطة، وبعد مرور شهرين منذ زيارة وودهاوس إلى واشنطن بدأ سميث يفقد صبره.

تساءل سميث: «متى سيأتي هؤلاء البريطانيون الملاعين كي يخاطبوننا؟ ومتى ستبدأ تلك العملية اللعينة؟» أكد له روزفلت أن الجميع مستعدون، ولكن من غير اللائق التحرك قبل تولي أيزنهاور منصبه بصورة رسمية.

ولكن سميث قال له: «شمر عن ذراعيك وابدأ العمل، ولن تواجه أي مشاكل من ناحية لندن، بل إنهم سوف يرحبون بأي شيء نقترحه. وإنني على ثقة من أنك قادر على ابتكار شيء معقول يوافق عليه فوستر، وسوف يوافق أيكي[1] أيضًا.»

تولى أيزنهاور السلطة رسميًّا في العشرين من يناير/كانون الثاني عام ١٩٥٣. وبعد ذلك بعدة أيام بدأ لوي هندرسون السفير الأمريكي لدى طهران يتصل بالإيرانيين الذين يعتقد أنهم سوف يرغبون في الإطاحة بمصدق.

---

[1] لقب الرئيس دوايت أيزنهاور. (المترجمة)

وعلى غرار رؤسائه الجدد في واشنطن، كان هندرسون قد فقد الأمل في التوصل لتسوية. وفي برقية أرسلها إلى واشنطن وصف مصدق بأنه «يفتقر إلى الثبات» و«تحكمه العواطف والأهواء» وبأنه «ليس عاقلًا تمامًا.» وفي برقية أخرى أكد أن الجبهة الوطنية تتكون من «العامة والغوغاء واليسار المتطرف ... والقوميين الإيرانيين المتطرفين وبعض الزعماء الدينيين الأكثر تعصبًا والمفكرين اليساريين الذين تلقى العديد منهم تعليمهم بالخارج ولم يكونوا مدركين أن إيران غير مستعدة للديمقراطية بعد.» واتخذ هو ونظيره البريطاني جورج ميدلتون خطوة غير عادية، وهي كتابة رسالة مشتركة إلى وزارة الداخلية بدولتيهما يعلنان فيها الاستنتاج الذي توصلا إليه، وهو أنه كلما مكث مصدق في السلطة زاد احتمال سقوط إيران فريسة للشيوعية.

وعن طريق أحد المبعوثين فتح هندرسون قناة للاتصال بالجنرال زاهدي الذي «لم يكن مثاليًّا» كما أخبر داليس في إحدى البرقيات، ولكنه يمتلك «فرصة أكبر لقيادة إيران في أيام الاضطراب التي تلت تقديم مصدق استقالته أكثر من أي مرشح آخر في الأفق.» وكان زاهدي قد أكد لهندرسون أنه في حالة توليه السلطة سوف «يتخذ موقفًا حاسمًا من الشيوعيين.» ولكنه أضاف إنه «يستحيل على الإيرانيين التخلص من الحكومة الحالية بجهودهم الخاصة.»

أرسل هندرسون برقية إلى واشنطن يقر فيها وجهة النظر تلك، وقوبلت تلك البرقية بحماس شديد حتى إن بيدل سميث أعطاها إلى أيزنهاور تحت عنوان «بالغ الدقة». وأرسل سميث أيضًا ردًّا إلى هندرسون يخبره بأن الولايات المتحدة قد قررت أنها «لن توافق على حكومة مصدق بعد الآن وتفضل أن تخلفها حكومة أخرى.» وأرسل سميث نسخًا من تلك البرقية إلى مقر المخابرات المركزية الأمريكية في واشنطن وإلى محطة استقبال المخابرات المركزية الأمريكية في إيران. وبلغ الأمر حد إعلان الحرب رسميًّا على مصدق، وإن كان ذلك في السر.

لم يكن هناك سوى شخص واحد في إدارة أيزنهاور لا يزال يطمع في التوصل لتسوية مع مصدق، هو الرئيس أيزنهاور نفسه، فقبل أسبوعين من تولي منصبه اجتمع بتشرشل في نيويورك ولم يبدُ متحمسًا على الإطلاق

عندما أتى تشرشل على ذكر إيران، بل إنه في الواقع اشتكى من أن الجهود التي تبذلها بريطانيا كي تورط الولايات المتحدة في مشاكلها مع إيران لم تؤدِّ إلى شيء سوى أنها «جعلت مصدق يتهمنا بأننا شركاء في إرهاب أمة ضعيفة.»

كان تشرشل ذكيًا بما فيه الكفاية كي يكف عن الإلحاح في تلك اللحظة، فقد كان يعلم أن التخطيط للانقلاب جارٍ وأن الأخوان داليس في صفه، وفي شهر فبراير/شباط أرسل «ج» رئيس المخابرات البريطانية السير جون سينكلير إلى واشنطن كي يعبر عن شدة اهتمامه بالأمر.

وأثناء زيارة سينكلير لواشنطن أشعل زعماء القبائل الإيرانيون الذين يتقاضون رواتب من بريطانيا انتفاضة قصيرة في المقاطعات الجنوبية بالتعاون مع الجنرال زاهدي. وشك مصدق في تورط الشاه في ذلك الأمر، واقترح عليه أن يغادر إيران حتى تهدأ ثائرة النفوس. وبلا شك كان الشاه مستعدًا للرحيل، حيث وصفه وزير البلاط حسين علاء بأنه في «حالة هستيرية» وأنه على وشك الإصابة «بانهيار عصبي حاد والقيام بأفعال غير عقلانية.»

ولكن أعداء مصدق الذين يتلقون دعمًا خارجيًا تمكنوا بمهارة من استغلال الرحلة التي يخطط لها الشاه لمصلحتهم، حيث اتهموا مصدق في الخطب والزوايا ومقالات الصحف بأنه يجبر الشاه على الرحيل رغمًا عنه وأن خطوته التالية سوف تكون بالطبع إلغاء الملكية. وفي ليلة الثامن والعشرين من فبراير/شباط نظموا تجمعًا جماهيريًا أمام منزل مصدق، وبينما كان التجمع يزداد حجمًا اندفعت سيارة مسرعة من طراز جيب تقل عقيدًا في الجيش وأحد أقوى زعماء العصابات في طهران وهو شعبان جعفري الشهير «بالأبله» فحطمت البوابة الأمامية، واضطر مصدق للفرار عبر سور الحديقة الخلفي مرتديًا منامته. وأرسل أحد الدبلوماسيين البريطانيين برقية إلى الديار يؤكد فيها أن ذلك التجمهر «من تنظيم كاشاني بالطبع، وليس تعبيرًا عفويًا عن الولاء العميق أو الكافي كي يشد من أزر الشاه.»

وبحلول المساء التالي كان الهدوء قد عاد لطهران مرة أخرى، وذلك بسبب إعلان الشاه إلغاء قراره بالسفر، ولكن الظهور المفاجئ لجماهير

مدفوعة الأجر واستعدادهم للهجوم على رئيس الوزراء ساهم في خلق حالة من عدم الاستقرار المتزايد، بالإضافة إلى إعطائه سببًا وجيهًا لمخططي الانقلاب في حملتهم لإقناع أيزنهاور بأن إيران تسقط في هاوية الفوضى.

لم يرو أيزنهاور أو أي من المقربين له قصة اقتناعه بتأييد فكرة الانقلاب، ولكن الأدلة تشير إلى أنه اقتنع بالفكرة في شهر مارس/آذار، أي بعد شهرين من توليه منصبه. واستغل الأخوان داليس أحداث العنف التي وقعت في طهران في الثامن والعشرين من فبراير/شباط لمصلحتهما، بل إن السفير هندرسون اعترف بأن تلك المظاهرات كانت مفتعلة ولم تكن حقيقية، ولكن من الواضح أن أحدًا لم يخبر أيزنهاور بذلك، بل أرسل إليه ألان داليس تقريرًا مخابراتيًّا يحذره من أن «الوضع في إيران آخذ في التدهور شيئًا فشيئًا» وأن «احتمالات سيطرة الشيوعيين عليها تتزايد يومًا بعد يوم.»

لم تنطل الحيلة على أيزنهاور بسهولة، ففي اجتماع لمجلس الأمن القومي في الرابع من مارس/آذار تساءل لم لا يمكن أن «نجعل بعض الناس في تلك الدول المقهورة يحبوننا بدلًا من أن يكرهونا.» ولم يرد داليس وزير الخارجية مباشرة، ولكنه أعطى تحليلًا واقعيًّا للوضع في إيران، وكانت كلماته كما ذكر كاتب الجلسة توحي بأن الولايات المتحدة لن تتمكن بعد الآن من الوقوف مكتوفة الأيدي:

> توصل السيد داليس إلى أن النتائج المحتملة للأحداث التي وقعت في الأيام الأخيرة تتمثل في قيام نظام دكتاتوري في إيران بقيادة مصدق. وما دام مصدق حيًّا يظل الخطر ضعيفًا، ولكن اغتياله أو إزاحته من السلطة سوف يخلف فراغًا سياسيًّا في إيران قد يؤدي إلى استيلاء الشيوعيين على السلطة بسهولة. وقد لخص السيد داليس بجدية شديدة نتائج مثل هذا الاستيلاء، فلن يحرم العالم الحر من الأصول الهائلة التي يمثلها إنتاج واحتياطي النفط الإيراني فحسب، بل أيضًا سوف يؤمن الروسيون تلك الأصول ويتحررون من القلق بشأن موقفهم النفطي. والسيناريو الأسوأ من ذلك كما أوضح السيد داليس أنه إذا خضعت إيران للشيوعيين

> فسوف تسقط الدول الأخرى في الشرق الأوسط على الأغلب فريسة للشيوعية في الحال، وهي تمتلك بضعًا وستين بالمائة من احتياطي النفط في العالم.

وفيما بعد في ذلك الأسبوع توجه وزير الخارجية إيدن لزيارة واشنطن. وفي العديد من اجتماعاته رفيعة المستوى طرق إيدن موضوع إيران والانقلاب المقترح، فوجد تأييدًا من الجميع ما عدا أيزنهاور. كان ألتون جونز استشاري النفط الذي سافر إلى إيران منذ عام صديقًا شخصيًا لأيزنهاور الذي أخبر إيدن بأنه يرغب في إرسال جونز مرة أخرى «كي يبذل كل ما بوسعه كي يجعل النفط يتدفق مرة أخرى.» وقال إنه يعتبر مصدق «الأمل الوحيد للغرب في إيران»، وهو نفس الاعتقاد الذي كان يؤمن به ترومان.

دُهِشَ إيدن عندما قال له أيزنهاور: «أريد أن أعطي هذا الرجل عشرة ملايين دولار.» وحاول برفق أن يثنيه عن عزمه حيث قال: «من الأفضل لنا البحث عن بديل لمصدق بدلًا من أن نحاول رشوته.» ولكنه اتبع أفضل الطرق الدبلوماسية وترك العمل الفعلي لضباط المخابرات الذين أحضرهم معه، وفي حين كان يتحدث برفق في البيت الأبيض كانوا يحكمون خيوط مؤامرتهم مع الرفاق في المخابرات المركزية الأمريكية ووزارة الخارجية.

كان الأخوان داليس قد اكتسبا خبرة هائلة في كيفية استدراج رؤسائهم لطريقة تفكيرهم، وفي السابع من مارس/آذار أصدر جون فوستر داليس وإيدن بيانًا مشتركًا يعلنان فيه موافقتهما على عرض جديد يسمح لإيران «بالاحتفاظ بالسيطرة على صناعة النفط واتباع سياسات النفط الخاصة بها.» وبدا ذلك العرض مناسبًا لأيزنهاور، ولكن ذلك البيان لم يوضح بأمانة طبيعة العرض الذي كان ككل العروض البريطانية السابقة خلال العامين الماضيين يعتمد على افتراض عودة البريطانيين لإدارة صناعة النفط الإيرانية. ولكن مصدق رفض هذا العرض وأخبر السفير هندرسون بأنه يشعر بالإحباط لأن إدارة أيزنهاور قد «سمحت للمملكة المتحدة بصياغة سياسات الولايات المتحدة نحو إيران.» وقدم هو العديد من العروض المضادة، بل إنه اقترح ذات مرة الخضوع للتحكيم بواسطة سويسرا أو ألمانيا، ولكن البريطانيين وأصدقاءهم الجدد في واشنطن تجاهلوا تلك العروض.

وفي حين كان إيدن في واشنطن كان الإخوة راشيديان يبذلون أقصى ما بوسعهم كي يثيروا المشاكل في إيران. وبفضل جهودهم أخذت بعض الشخصيات البارزة التي كانت جزءًا من ائتلاف مصدق تنقلب ضده، وأخذ آية الله كاشاني أكثر المنشقين صراحة يدين مصدق بنفس النقد اللاذع الذي كان يوجهه للبريطانيين ذات يوم. وبدأ يستخدم المجرمين كي يروع خصومه، بل إنه طرح مذكرة في المجلس بالعفو عن خليل تاهماسيبي الذي أدين باغتيال رئيس الوزراء رازمارا. وكان حلفاء مصدق السابقون الآخرون الذين اختلفوا معه واتبعوا برنامجهم الخاص يتضمنون مظفر باقي رئيس حزب الشغيلة العمالي وحسين مكي الذي ساعد في الاستيلاء على معمل التكرير بعبدان وكان يعتبر ذات يوم الخليفة المنتظر لمصدق. وكتب روبين زينر في تقرير إلى لندن أن الجهود الناجحة لإبعاد كاشاني وباقي ومكي عن الجبهة الوطنية قد «بدأها الإخوة راشيديان وتولوا قيادتها.»

أضعفت تلك الانشقاقات بشدة من الجبهة الوطنية وتركت مصدق وحيدًا ضعيفًا، وفي الوقت ذاته زادت بشدة من قوة الأخوان داليس في إقناع الرئيس أيزنهاور بأن الوقت قد حان كي تتدخل الولايات المتحدة. وفي اجتماع لمجلس الأمن القومي في الحادي عشر من مارس/آذار أكد داليس وزير الخارجية أن الأمريكيين يجب أن يصبحوا «شركاء رئيسين مع البريطانيين في تلك المنطقة»، ولم يعبر أيزنهاور عن اعتراضه.

ذكر كاتب الجلسة في ذلك الاجتماع قائلًا: «أعلن الرئيس شكه الشديد في أنه حتى إذا أجرينا محاولات أحادية الجانب بإمكاننا التوصل لاتفاق ناجح مع مصدق، فقد شعر أن مثل هذا الاتفاق قد لا يساوي الحبر الذي كتب به، وقد يكون لهذا النموذج تأثيرات خطيرة على امتيازات النفط الخاصة بالولايات المتحدة في أماكن أخرى من العالم.»

توصل أيزنهاور إلى أن إيران تنهار، وأن ذلك الانهيار لا يمكن منعه ما دام مصدق في السلطة، فتوقف عن التساؤل عن إمكانية التسوية، واتخذ المحيطون به ذلك التغير في النبرة دليلًا على أنه لن يقاوم فكرة الانقلاب. وفي الثامن عشر من مارس/آذار أرسل فرانك ويزنر رسالة لنظرائه البريطانيين يخبرهم فيها بأن المخابرات المركزية الأمريكية على استعداد الآن لمناقشة

تفاصيل المؤامرة ضد مصدق. وبعد ذلك بأسبوعين وافق ألان داليس على إرسال مبلغ مليون دولار إلى مقر المخابرات المركزية الأمريكية بطهران كي تستخدم «بأي طريقة تؤدي إلى سقوط مصدق.»

شجعت تلك التطورات البريطانيين تشجيعًا كبيرًا، ففي شهر أبريل/ نيسان تبنت وزارة الخارجية عملية أياكس رسميًّا، ثم في اعتراف صريح بأن السيطرة قد انتقلت من أيديهم إلى أيدي الأمريكيين أرسل العملاء البريطانيون رسالة للإخوة راشيديان يخبرونهم فيها بأن عليهم العمل الآن مع المخابرات المركزية الأمريكية.

قرر الإيرانيون المتصلون بشبكة راشيديان إشاعة المزيد من الفوضى في إيران عن طريق اختطاف كبار المسئولين الحكوميين، وكان هدفاهما المفضلان وزير الخارجية فاطمي والجنرال رياحي رئيس الأركان الذي تولى منصبه حديثًا يسافران مصطحبين الكثير من الحرس، فاختاروا رئيس شرطة طهران الجنرال محمود أفشار طوس. وكان بعض المتآمرين تربطهم به علاقات شخصية، فدعاه أحدهم إلى منزله في التاسع عشر من أبريل/نيسان حيث قُبِضَ عليه واقتيد معصوب العينين إلى كهف خارج المدينة. وتعرف ضباط الشرطة على الخاطفين في الحال، ولكنهم عندما اقتربوا أطلق أحد الخاطفين الرصاص على أسيرهم فأردوه قتيلًا.

كان لجريمة القتل تلك أثرها المطلوب، فقد سببت صدمة في البلاد وتخلصت من ضابط ذي شعبية كان من الممكن أن يكون عقبة كبرى في طريق نجاح الانقلاب الوشيك. وزج باسم الجنرال زاهدي الذي ظهر مرة أخرى على الساحة بعد إسقاط التهم الموجهة إليه بالخيانة في تلك العملية، فلجأ إلى المجلس تحت حماية آية الله كاشاني.

كان مصدق غافلًا عن الموقف الأمريكي الذي أصبح معاديًا له بشدة، فقرر أن يلجأ إلى أيزنهاور مباشرة. وفي خطاب بتاريخ الثامن والعشرين من مايو/أيار ذكر أن الإيرانيين «يعانون الصعاب المالية والمؤامرات السياسية التي تحيكها شركة النفط السابقة والحكومة البريطانية»، وأنهم سوف يشعرون بالامتنان الشديد إذا قدمت لهم الولايات المتحدة «معونة عاجلة فعالة» أو ساعدتهم في الحصول على قرض بقيمة ٢٥ مليون دولار يماطل

في إعطائه لهم بنك الاستيراد والتصدير، أو على الأقل سمحت لهم ببيع النفط إلى الشركات الأمريكية. واستغرق الأمر شهرًا من أيزنهاور كي يرد على ذلك الخطاب، وفي رده اقترح على مصدق أن يعمل على إصلاح الاقتصاد الإيراني عن طريق تسوية خلافاته مع البريطانيين:

> كان إخفاق إيران والمملكة المتحدة في التوصل لاتفاق بشأن التعويض عائقًا أمام الولايات المتحدة في محاولاتها لمساعدة إيران. وهناك شعور قوي يسري في الولايات المتحدة حتى بين المواطنين الأمريكيين المتعاطفين مع إيران والمحبين للشعب الإيراني بأنه ليس من العدل لدافعي الضرائب الأمريكيين أن تمد الحكومة الأمريكية يد المساعدة الاقتصادية لإيران ما دامت إيران تمتلك القدرة على تدبير الموارد المالية عن طريق بيع النفط ... وإنني ألحظ القلق البادي في خطابك بشأن الوضع الحالي الخطير في إيران، وآمل بصدق أن تتخذ الحكومة الإيرانية الخطوات التي تستطيعها لمنع المزيد من التدهور في الموقف قبل أن يفوت الأوان.

كشف ذلك الخطاب لمصدق ما كان أصدقاء أيزنهاور المقربون يعلمونه بالفعل، وهو أن الإدارة الأمريكية الجديدة قد حركت السياسة الأمريكية نحو إيران في الاتجاه المعاكس، فلم تعد هناك محاولات للاستفادة من الموقف بأقل الخسائر الممكنة كما كان الحال في عهد ترومان، ولم يعد هناك انتقادات لتفضيل البريطانيين خيار الانقلاب. وفي الواقع عندما أرسل أيزنهاور رده لمصدق كان كلاهما يعلم ما يحدث.

كان أيزنهاور قد أعطى موافقته الضمنية على خطة الانقلاب، ولكن نظرًا لتداعياتها الخطيرة لم تكن الموافقة الضمنية كافية، وفي الرابع عشر من يونيو/حزيران ذهب ألان داليس إلى البيت الأبيض كي يطلع الرئيس على أحدث الأنباء. ولما شعر داليس أن الرئيس يرغب في ألا يعلم الكثير من التفاصيل، أعطاه «ملخصًا عامًّا للاقتراحات التي تمت حتى الآن.» كان ذلك كل ما يحتاجه أيزنهاور كي يعطي موافقته، وفي الوقت نفسه أعطى تشرشل موافقته السرية الأكثر حماسًا.

كان التخطيط للانقلاب قد قطع شوطًا كبيرًا عندما صدق عليه كل من أيزنهاور وتشرشل رسميًّا. والتقى اثنان من ضباط المخابرات المحنكين، أحدهما أمريكي والآخر بريطاني، في قبرص كي يضعا مخططًا تفصيليًّا، وكان كلاهما خبيرًا بإيران. كان رجل المخابرات الأمريكي يدعى دونالد ويلبر الذي عمل عدة سنوات في وظيفة عالم آثار ومهندس معماري في الشرق الأوسط، وأدى الخدمة العسكرية في إيران أثناء الحرب العالمية الثانية بصفته عميلًا لمكتب الخدمات الاستراتيجية، ثم قسم وقته بين الدراسات العليا في جامعة برينستون والعمل مستشارًا للمخابرات المركزية الأمريكية مختصًّا بالحرب النفسية. وفي عام ١٩٥٢ قضى ويلبر ستة أشهر يدير مكتب «النشاط السياسي» التابع للمخابرات المركزية الأمريكية بطهران، وهي مهمة أعطته خبرة مباشرة بالأحزاب السياسية والعسكرية المؤيدة والمعارضة لمصدق. أما نظيره البريطاني نورمان داربيشاير فقد عمل عدة فترات في إيران بالتعاون مع روبين زينر، وعندما اضطر مقر المخابرات البريطانية في طهران لإغلاق أبوابه انتقل إلى قبرص وعين داربيشاير لرئاسته.

كون هذان العميلان اللذان أصبحت حكومتاهما تحملان نفس الهدف في إيران صداقة عمل قوية كما ذكر ويلبر نفسه في رواية المخابرات المركزية الأمريكية عن الانقلاب:

> سرعان ما اتضح أن د. ويلبر والسيد داربيشاير يحملان نفس وجهة النظر تجاه الشخصيات الإيرانية، بالإضافة إلى توصلهما إلى نفس الاستنتاجات للعوامل التي تتدخل في المشهد السياسي الإيراني. ولم يكن هناك أي خلاف أو اختلاف ملحوظ في الرأي بينهما أثناء المناقشات. وسرعان ما اتضح أيضًا أن المخابرات السرية البريطانية راضية تمام الرضا عن اتباع أي مبادرة تتخذها المخابرات المركزية الأمريكية. وبدا واضحًا لويلبر سرور البريطانيين الشديد بالتعاون النشط الذي تبديه المخابرات المركزية الأمريكية وإصرارهم على ألا يعرضوا الولايات المتحدة للخطر بسبب مشاركتها في ذلك الأمر. وفي الوقت ذاته كان هناك شعور ضئيل بالحسد من كون المخابرات المركزية الأمريكية أفضل تجهيزًا من المخابرات السرية البريطانية من حيث التمويل والعاملين والمرافق.

اتفق ويلبر وداربيشاير على أنه رغم نقاط الضعف لدى الجنرال زاهدي فإنه يعتبر الإيراني الوحيد الذي يتمتع «بالقوة والشجاعة» اللازمين كي يجمع شتات قوى المعارضة. وكانت خطتهم لوضعه في السلطة التي تغيرت فيما بعد عدة مرات قبل توجيه الضربة مدروسة جيدًا ومباشرة:

- من خلال وسائل متعددة سوف يتلاعب العملاء السريون بالرأي العام ويعملون على تأليب أكبر عدد ممكن من الإيرانيين ضد مصدق. وسوف يؤدي ذلك المسعى الذي خصص له ١٥٠ ألف دولار إلى «خلق حالة من العداء الشعبي والارتياب والخوف من حكومة مصدق ونشر تلك الحالة وتعزيزها.» وتهدف تلك الحملة إلى تصوير مصدق في صورة الفاسد المؤيد للشيوعية المعادي للإسلام المصر على تحطيم الروح المعنوية للقوات المسلحة واستعداداتها.
- وفي حين يعمل العملاء الإيرانيون على نشر تلك الأكاذيب، يحصل المجرمون على أموال في مقابل شن هجمات منظمة على الزعماء الدينيين وجعل الأمر يبدو كما لو كان مصدق أو مؤيدوه هم المنظمون لتلك الهجمات.
- وأثناء ذلك يعمل الجنرال زاهدي على إقناع أكبر عدد ممكن من الضباط ورشوتهم كي يستعدوا لأي تدخل عسكري قد يكون مطلوبًا لإتمام الانقلاب. وكان مقررًا له أن يحصل على ٦٠ ألف دولار زادت فيما بعد إلى ١٣٥ ألف دولار كي يتمكن من «كسب المزيد من الأصدقاء» و«التأثير على الشخصيات المهمة.»
- وكان هناك مسعى مشابه خصص له ١١ ألف دولار أسبوعيًّا من أجل إغراء أعضاء المجلس عن طريق الرشوة.
- وفي صباح يوم الانقلاب ينظم آلاف من المتظاهرين المأجورين اجتماعًا حاشدًا ضخمًا ضد الحكومة، ويستجيب المجلس المستعد بتصويت «شبه قانوني» لإقالة مصدق. وإذا أبدى مقاومة فسوف تلقي وحدات الجيش بقيادة زاهدي القبض عليه هو وأهم مؤيديه، ثم تستولي على مقرات القيادة العسكرية وأقسام الشرطة ومكاتب الهاتف والتلغراف ومحطات الإذاعة والبنك الوطني.

بالتعاون مع الرفاق في واشنطن وطهران الذين كانوا على اتصال دائم بهم عبر شبكة إذاعية مقرها في قبرص، انتهى ويلبر وداربيشاير من وضع ذلك المخطط بنهاية شهر مايو/أيار. وفي الثالث من يونيو/حزيران وصل هندرسون إلى واشنطن كي يطلع على ملخص لمحتوياته، وظل هناك كي يحضر اجتماعًا مهمًّا في الخامس والعشرين من يونيو/حزيران وضعت فيه خطة الانقلاب بالتفصيل.

لم يكن الرئيس أيزنهاور يرغب في أن يطلع على تفاصيل العمليات السرية، ولذلك لم يحضر هذا الاجتماع، ولكن مستشاري السياسات الخارجية الأقرب له حضروا الاجتماع. وعقد الاجتماع في مكتب جون فوستر داليس بوزارة الخارجية. وعندما اجتمع المتآمرون أمسك داليس بالتقرير الذي كتبه ويلبر وداربيشاير قائلًا: «هكذا نتخلص من الرجل المجنون الذي يدعى مصدق!»

أوضح كيرمت روزفلت المقترح الخاص به لتنفيذ الانقلاب، وعندما انتهى من حديثه سأل داليس الآخرين عن رأيهم، فأقر ألان داليس وبيدل سميث الخطة بلا تحفظات، وانضم إليهم وزير الدفاع تشارلز ويلسون. ووافق اثنان من كبار مسئولي وزارة الخارجية وهما هنري بيرود مساعد الوزير لشئون الشرق الأوسط وروبرت بوي رئيس مركز تخطيط السياسات، ولكنهما كانا أقل حماسًا، وذلك لأنهما كانا يدركان بالطبع أنهما سوف يفقدان وظيفتيهما إذا اتخذا موقف المعارضة من هذا الأمر. وعندما حان دور هندرسون للحديث أعلن أنه لا يفضل «هذا النوع من الأعمال»، ولكن في تلك الحالة «ليس أمامنا خيار آخر.» وهنا قال داليس وزير الخارجية بابتسامة عريضة على غير العادة «إذن فلنستمر في العمل.»

وبذلك الإجماع أعطت الولايات المتحدة الضوء الأخضر النهائي لعملية أياكس أو عملية بوت كما ظل البريطانيون يسمونها، وأخيرًا اتحدت حكومتا لندن وواشنطن في حماسهما، حيث كانت إحداهما ترغب في استعادة امتياز النفط الخاص بها والأخرى ترى في الأمر فرصة لتوجيه ضربة قاتلة للشيوعية.

كان هناك بعض المعارضة لذلك الاتفاق الجديد، وأتى بعضها من الدبلوماسيين المحترفين مثل تشارلز بولين، وهو سفير سابق للاتحاد

السوفييتي وجه «انتقادات مؤثرة» لأحد الدبلوماسيين البريطانيين في واشنطن ضد الانقلاب المخطط له. وعارض العديد من ضباط المخابرات المركزية الأمريكية أيضًا تلك الفكرة، وكان أحدهم روجر جويران رئيس مقر المخابرات المركزية الأمريكية بطهران.

كان جويران قد بنى شبكة مخابرات ضخمة عرفت بالاسم الكودي بيدامن يهدف نشاطها الدعائي إلى تشويه صورة الاتحاد السوفييتي في إيران، وكانت أيضًا على استعداد لإطلاق حملة من التدمير والتخريب للبلاد في حالة وقوع انقلاب شيوعي. وكانت شبكة بيدامن تتكون من أكثر من مائة عميل وتمتلك ميزانية سنوية قدرها مليون دولار، وهو مبلغ ضخم في ضوء حقيقة أن إجمالي الميزانية العالمية للمخابرات المركزية الأمريكية للعمليات السرية كان ٨٢ مليون دولار فقط. والآن طلب من جويران أن يستخدم تلك الشبكة في تنفيذ انقلاب ضد مصدق، وكان يعتقد أن ذلك سوف يعتبر خطأ كبيرًا، وحذر من أنه في حالة تنفيذ الانقلاب سوف يظل الإيرانيون للأبد ينظرون للولايات المتحدة بوصفها مؤيدًا لما أطلق عليه «الإمبريالية الأنجلوفرنسية.» وكانت معارضته شديدة حتى إن ألان داليس اضطر إلى إقالته من منصبه.

وبينما كان ألان داليس يجمع الموارد لعملية أياكس أصبح جون فوستر داليس المشجع الأشد حماسًا لها، وأخذ يتابع الاستعدادات بمزيج من السرور ونفاد الصبر. وذات مرة شعر بالقلق عندما ذكرت إيران في اجتماع رفيع المستوى ولكن دون أن يذكر الانقلاب المخطط له، وفي الصباح التالي أجرى مكالمة هاتفية إلى شقيقه في المخابرات المركزية الأمريكية كي يسأله بلهفة عما إذا كان هناك خطب ما، وجاء في المذكرة التي دون فيها نص المحادثة: «لقد اتصل السكرتير وقال إنك في حديثك عن إيران في اجتماع أمس لم تذكر الأمر الآخر، هل أصبح لاغيًا؟ وقال ألان داليس إنه لا يتحدث في ذلك الأمر، فقد صدق عليه مباشرة من الرئيس ولا يزال جاريًا ... قال ألان داليس إن الأمور تسير على نحو مُرْض.»

ولما اطمأن داليس وزير الخارجية إلى كون المؤامرة لا تزال تتخذ مجراها، قصر بياناته العامة على إبداء الاستياء العام لمجرى الأحداث في

إيران. وفسر تعليقه في مؤتمر صحفي عقد في شهر يوليو/تموز بأنه تحذير صيغ بلغة شديدة الدبلوماسية، حيث قال: «لقد سببت لنا التطورات الأخيرة في إيران، وخاصة النشاط المتزايد للحزب الشيوعي المحظور، القلق الشديد. وتلك التطورات تزيد من صعوبة الأمر على الولايات المتحدة في مد يد المساعدة لإيران ما دامت الحكومة تجيز ذلك النوع من الأنشطة.»

وعندما دخل كيرمت روزفلت إيران في التاسع عشر من يوليو/تموز كانت البلاد تضطرم بنار الفتنة، فقد صوت مؤيدو مصدق في المجلس على إقالة آية الله كاشاني من منصب الناطق بلسان المجلس، وأدى النزاع الذي نشأ عن ذلك التصويت إلى استقالة أكثر من نصف أعضاء المجلس. وملأت المظاهرات التي تنادي بحل المجلس شوارع طهران، وأعلن مصدق أنه سوف يعقد استفتاء على ذلك الأمر وتعهد بأن يقدم استقالته إذا لم يؤيد الناخبون طرد المجلس الحالي. وكان الاستفتاء الذي دعي له على عجل في بداية شهر أغسطس/آب محاولة مأساوية لتمثيل الديمقراطية، فقد كان هناك صناديق اقتراع منفصلة للتصويت بنعم و أخرى للا، وتجاوزت النتيجة المعلنة ٩٩٪ لطرد المجلس. وأذكى الظلم البين في ذلك الاستفتاء حملة العداء لمصدق.

وبحلول منتصف أغسطس كان روزفلت وفريق العملاء الإيرانيين التابع له قد اتخذوا مواقعهم واستعدوا للهجوم، فقد دفعوا بإيران إلى حافة الفوضى، وأخذت الصحف والزعماء الدينيون يصرخون مطالبين برأس مصدق، وحولت الاحتجاجات وأعمال الشغب التي نظمتها المخابرات المركزية الأمريكية الشوارع إلى ساحات للمعارك. وأعلن دونالد ويلبر أن الدعاية المضادة للحكومة كانت «تتدفق من صحف المخابرات الأمريكية إلى طهران.» وأصبح مصدق أكثر ضعفًا ووحدة من أي وقت مضى. وعلى ضوء تلك الخلفية كان لدى روزفلت الحق في أن يتمتع بالثقة الشديدة عندما أرسل العقيد نصيري كي ينفذ المهمة في ليلة الخامس عشر من أغسطس/آب، وقد وضع خطته بدقة بالغة حتى إنه عندما اكتشف فشل الانقلاب في اليوم التالي قرر المحاولة مرة أخرى.



الفصل الحادي عشر

كنت أعلم ذلك! إنهم يحبونني!

تسببت قرعات عنيفة على باب شقة في أحد أحياء طهران الشمالية في حدوث مواجهة بين اثنين من شركاء المؤامرة يتصفان بالجرأة للمرة الأولى. كان أحدهما أكثر شخص تطارده الشرطة في إيران، والآخر سوف يحتل نفس المكانة وربما أكثر لو علمت الشرطة بوجوده.

كان كيرمت روزفلت يشعر بالقلق الشديد وهو يقرع الباب، ففي الليلة السابقة أخفق هو ورجاله في محاولة الإطاحة برئيس الوزراء مصدق، واستحثه رؤساؤه في المخابرات المركزية الأمريكية بواشنطن على الهرب، ولكن روزفلت قرر أن يجازف بمحاولة أخرى.

في صباح ذلك الأحد الموافق السادس عشر من أغسطس/آب عام ١٩٥٣ امتلأت الشوارع بالمزيد من قوات الشرطة، وانطلقت صفارات الإنذار في حين تهاجم قوات الأمن المتآمرين المتورطين في الانقلاب الفاشل. وقاد روزفلت سيارته بحذر ملتزمًا بتعليمات المرور، ووصل إلى بيت الجنرال زاهدي دون أن يتعرض لأي موقف.

قبل تلك اللحظة كان زاهدي يمني نفسه بأن يصبح رئيسًا للوزراء، ولكنه الآن أصبح هاربًا مطاردًا. وإذا كان لديه الآن أي أمل في النجاح أو حتى في النجاة بنفسه، كان ذلك الأمل يكمن في روزفلت. وأدرك زاهدي من يكون الطارق، ففتح الباب بنفسه.

لم يكن روزفلت مستعدًّا للمزاح، وأعلن أنه أتى كي يوجه سؤالًا واحدًا فقط، وهو ما إذا كان زاهدي مستعدًّا لتكرار المحاولة. ودون تردد أجاب زاهدي بالإيجاب، وكانت تلك الإجابة التي يرغب روزفلت في سماعها.

اتفق الرجلان على أنه من الخطورة على زاهدي أن يظل مكانه، وكان روزفلت قد أجرى ترتيبات لإخفائه في فيلا تابعة لأحد العملاء تبعد ثلاثة مربعات سكنية عن السفارة الأمريكية. فهبطا سلالم البيت وركبا سيارة روزفلت خلسة، وهكذا رقد الزعيم المفترض لإيران على الأرض في مؤخرة السيارة مختبئًا تحت غطاء ثقيل وهو ينطلق إلى مخبئه الجديد.

وبعد أن أخفى روزفلت زاهدي عن الأنظار عاد إلى ما أصبح يطلق عليه «أرض المعركة» في مجمع السفارة، حيث اجتمع باثنين من الدبلوماسيين الأمريكيين كُلِّفا بمراقبة الخطة، وأخبره كلاهما بصراحة بأنهما يعتقدان أن اللعبة قد انتهت. بل إن القلة من المسئولين في واشنطن الذين كانوا يعلمون بأمر عملية أياكس كانوا مستعدين للاستسلام، وأرسل بيدل سميث وكيل وزارة الخارجية الذي كان من أشد أنصار الانقلاب حماسًا رسالة حزينة إلى الرئيس أيزنهاور يخبره فيها بأن الولايات المتحدة «قد تضطر الآن إلى التودد لمصدق.»

ولكن روزفلت كان لديه مصادر قوة مهمة أحدها الجنرال زاهدي الذي يمتلك العديد من الأصدقاء في سلك الضباط وكان مستعدًّا لعمل أي شيء يتطلبه الأمر كي يصل إلى السلطة، بالإضافة إلى شبكة ضخمة مترامية الأطراف من العملاء والعملاء الفرعيين الإيرانيين تكلفت مبلغًا ضخمًا في جمعها وأثبتت قدرتها على نشر الإشاعات التحريضية والمقالات الاستفزازية في الصحف والتلاعب بالسياسيين والتأثير على الملالي وحشد الجماهير المأجورة في وقت قصير جدًّا، ولم تكن تلك الشبكة قد اختبرت بالكامل حتى الآن.

كان روزفلت يحتفظ أيضًا بالفرمانين المهمين اللذين وقعهما الشاه بطرد رئيس الوزراء مصدق وتعيين زاهدي بدلًا منه، فقد أعطيا الانقلاب سيماه الشرعية، فلن يفكر الكثير من الإيرانيين هل لدى الشاه الحق القانوني في إصدار مثل تلك القرارات، فاحترام السلطة الملكية تقليد عتيق عندهم، وهكذا أعطت الفرمانات مخططي عملية أياكس طريقة للاختباء خلف ستار ذلك التقليد.

وفي اجتماعهم العاجل في ذلك الصباح، حث الجنرال زاهدي روزفلت على إصدار نسخ من الفرمان الذي يأمر بتعيينه رئيسًا للوزراء وتوزيعه في

أنحاء المدينة، وخاصة في الأحياء الجنوبية العنيفة التي جند فيها الجماهير. كانت فكرة رائعة، ووافق عليها روزفلت على الفور. وبحلول منتصف النهار كان قد صادر إحدى آلات التصوير القليلة الموجودة في طهران لحسابه، ولم يكتفِ بإرسال نسخ من الفرمان مع كل العملاء المتاحين فحسب، بل إنه أيضًا أرسل نسخًا طبق الأصل كي تتصدر عناوين الصحف في اليوم التالي، وأرسل فيما بعد رسلًا ثقات منهم اثنان من الضباط الإيرانيين المزودين بأوراق هوية مزورة يحملون نسخًا إلى القادة العسكريين في المدن النائية.

ولضمان وصول الفرمان إلى أكبر عدد ممكن من الناس، أرسل روزفلت رسالة إلى المراسلين الصحفيين الأمريكيين في طهران التابعين لكل من وكالة أنباء أسوشييتد بريس وجريدة نيويورك تايمز. وكانت الرسالة تتضمن دعوة لحضور اجتماع سري مع الجنرال زاهدي، ولبى كلاهما الدعوة بسرور، فأرسل سيارة كي تقلهما إلى مكان الاجتماع. ولكنهما عندما وصلا إلى المنزل الآمن لم يجدا زاهدي بل ابنه حاد الذكاء أرديشير الذي قدم لهما نسخًا من الفرمان وبلغة إنجليزية سليمة ألقى خطبة حماسية عن أهميته.

وعلى الرغم من الظروف غير العادية المحيطة فقد كان هذا الاجتماع غريبًا، فلم يظهر الرجل الذي عقد الاجتماع باسمه، وكان المسئول عن الجانب الأمني زوجة المضيف الشابة التي جلست في كرسي هزاز بالقرب من أرديشير زاهدي وهي تخفي مسدسًا تحت الملابس التي تحيكها، ولكن أكثر ما أثار فضول الصحفيين كان الجهاز الضخم غريب الشكل الذي يصدر ضوضاء مرتفعة بالقرب منهما.

تذكر كينيت لوف مراسل نيويورك تايمز ذلك الموقف قائلًا: «انظروا! إنها آلة تصوير عملاقة. كنا في عام ١٩٥٣، وكانت آلة التصوير بحجم ثلاجتين تقريبًا، ولكن في ذلك الوقت لم أكن أدرك أنا أو معظم الصحفيين الأمريكيين بل معظم الشعب الأمريكي ما ترمز له حروف الاختصار سي آي إيه.»

وبحلول مساء الأحد كان روزفلت قد وضع خطته الجديدة، ففي يوم الاثنين والثلاثاء سوف ينتشر عملاؤه في طهران لتقديم الرشوة للسياسيين والملالي وأي شخص آخر يمكنه حشد الجماهير في اللحظات الحاسمة، وفي

هذين اليومين سوف يطلق الجماهير في الشوارع كي يحدثوا الفوضى باسم مصدق. وفي يوم الأربعاء سوف يسحب الجماهير من الشوارع ويستخدم الوحدات العسكرية وقوات الشرطة لاقتحام المباني الحكومية، وتأتي الضربة الأخيرة بالقبض على مصدق.

اعتمد روزفلت في تنفيذ كل ذلك على حفنة من العملاء الإيرانيين الذين ثبتت كفاءتهم وأهمهم الإخوة راشيديان، حيث كان روزفلت على معرفة وثيقة بهم منذ عدة سنوات واتخذ الترتيبات اللازمة لهم كي يسافروا إلى واشنطن ليخضعوا لما أطلق عليه «اختبارات دقيقة لصدقهم»، وكان شديد الإعجاب بمهارتهم في الجاسوسية. وبالإضافة إلى الإخوة راشيديان الذين كانوا مصدر قوة لبريطانيا، استخدم روزفلت أيضًا العديد من الإيرانيين الذين تلقوا تدريبات في المخابرات المركزية الأمريكية، وكان أفضلهم علي جليلي وفاروق كيفاني اللذين بدءا العمل لحساب المخابرات المركزية الأمريكية في عام ١٩٥١ بصفتهما منظمي شبكة الدعاية والتخريب التي عرفت باسم بيدامن، وتوليا تنظيم أعمال الشغب والعديد من المهام السرية الأخرى الناجحة حتى إن المخابرات المركزية الأمريكية اعتبرتهما «عملاء رئيسين شديدي الأهمية لمقر طهران.» وعلى غرار الإخوة راشيديان، أحضرا إلى واشنطن واستجوبا بالتفصيل بواسطة كيرمت روزفلت وبعض العملاء السريين الآخرين التابعين للمخابرات المركزية الأمريكية، وأعطوهما أسماء حركية (أحيانًا كان يطلق عليهما «نوسي» و«كافرون»، وأحيانًا أخرى «نيري» و«سيلي»)، واختيرا عميلين رئيسين في المؤامرة التي تحاك ضد مصدق. ولكنهما لم يلتقيا بالإخوة راشيديان قط، فقد حرص روزفلت على إخفاء هوية أهم العملاء الإيرانيين حتى بعضهم عن بعض.

وفي حين كان روزفلت يستعد لمحاولته الثانية ضد مصدق، طالب هؤلاء العملاء وغيرهم بالترويج لرواية كاذبة عن المحاولة الأولى، حيث كانت الرواية التي طلب منهم نشرها تفيد بأن مصدق حاول الاستيلاء على عرش الشاه ولكن الضباط الوطنيين أحبطوا محاولته. وسارع رؤساء تحرير الصحف الفاسدون إلى جعل تلك الكذبة تتصدر عناوين صحفهم، ولم ينشر الحقيقة سوى قليل منهم، وهي أن مصدق كان ضحية الانقلاب وليس المدبر له.

ولكن مصدق ومساعديه لم يلقوا بالًا لما تنشره الصحف، فقد اعتقدوا أن الشاه هو مدبر الثورة التي وقعت يوم السبت، وإذا كان ذلك صحيحًا فإن هروبه يعني أنه لن تكون هناك محاولات أخرى لما أطلق عليه وزير الخارجية فاطمي «السرقة الملكية لحقوق الشعب»، ولم يتخيلوا قط أن المتآمرين الذين خططوا للانقلاب الذي وقع يوم السبت سرعان ما سيعيدون الكرة.

عندما توجه أحد الصحفيين إلى فاطمي بالسؤال عن كيفية تعامل الحكومة مع المتآمرين الذين قبضوا عليهم، رد بارتجال إن المسئولين لا يزالون «يفكرون في الأمر» و«لم يقرروا أي شيء بعد.» وتخلى بقية الوزراء بما فيهم مصدق نفسه عن الحذر، فسحبوا القوات الموالية للدولة من الشوارع وقضوا ساعات مصيرية يتساءلون عن أمور أثارها هرب الشاه. هل تنازل عن العرش؟ هل يجب عليهم تعيين مجلس وصاية على العرش؟ أتكون هناك سلالة حاكمة جديدة؟ هل يجب إلغاء الملكية؟

وفي الوقت الذي كان المسئولون الحكوميون يناقشون فيه مصير بلادهم على المدى الطويل بسطحية، كان كيرمت روزفلت يعمل بجد من أجل محاولة إعادة تشكيل البلاد في الأيام القليلة القادمة. وكان يعلم أنه سوف يحتاج إلى وحدات عسكرية للمساعدة في تنفيذ الانقلاب، فطلب من الملحق العسكري في السفارة الأمريكية الجنرال روبرت ماكلور أن يزوده ببعضها، وقرر ماكلور الذي كان على معرفة وثيقة بالضباط الإيرانيين أن يبدأ بالرتب الكبرى، فاختار رئيس الأركان الجنرال رياحي.

لم يكن ممكنًا أن يشعر ماكلور بأمل كبير، وذلك لأن رياحي كان معروفًا بولائه الشديد، ولكنه كان يأمل في أن يظل على الحياد حتى ولو لم يغير موقفه وينضم إلى المتآمرين. وتمثلت مناورته الأولى في اقتراحه أن يغادر رياحي المدينة، حيث عرض عليه أن يتوجها إلى الريف لبضعة أيام كي يمارسا الصيد، ولكن رياحي رفض ذلك العرض ببرود، وهنا تغيرت لهجة ماكلور الذي لم تعرف عنه الكياسة قط على نحو مفاجئ، وأخبر رياحي أن مهمته العسكرية قد كلفه بها الشاه، ولذلك فسوف يقر بشرعيته على الدوام، وأضاف بغلظة إن القادة الإيرانيين عليهم أن يفعلوا نفس الشيء، وهنا اشتد سخط رياحي وطرده من منزله.

وفيما بعد في نفس اليوم واجه ماكلور الإخفاق مرة أخرى، فقد أرسله روزفلت بالطائرة إلى أصفهان وأعطاه تعليمات بأن يحاول تجنيد قائد الحامية العسكرية هناك، ولكن أسلوبه المتغطرس أضره مرة أخرى، فقد لوح بنسخة من الفرمان في وجه القائد وأخبره بغلظة أن عليه إرسال قوات لمحاربة مصدق، ولكن القائد أجاب بأنه يتلقى الأوامر من الإيرانيين فحسب وليس من الأمريكيين. وفقد ماكلور أعصابه عندما تلقى الرفض مرتين خلال بضع ساعات، فالتفت إلى القائد وهو يغادر حامية أصفهان وأقسم غاضبًا بأن «يعزل مصدق من منصبه.»

وعندما هبطت طائرة ماكلور مرة أخرى في طهران كانت ثائرته قد هدأت وقرر الخطوة التالية، فاصطحب اثنين من مساعديه في جولة للقواعد العسكرية الصغيرة في العاصمة نفسها، وفي كل موقع كان يغري قائده بالأموال ووعد بالترقية في حالة نجاح الانقلاب، وفي تلك المرة حالفه الحظ، حيث قبل العديد من الضباط المزايا التي عرضها عليهم بما فيهم اثنان من قادة أفواج المشاة وقائد كتيبة الدبابات، ووعدوا بأن يكونوا مستعدين عند الطلب.

أصبح لدى روزفلت الآن وحدات عسكرية مستعدة للقضاء على الاضطرابات والقلاقل في الشوارع، ومهمته التالية إحداث تلك الاضطرابات، فاتصل بالعميلين النشطين ذوي العلاقات المتعددة جليلي وكيفاني، وأخبرهما أولًا بأنه يريد جماهير غاضبة تندفع هائجة في الشوارع تهتف بولائها للشيوعية ولمصدق، على أن يحطموا النوافذ ويضربوا المتفرجين الذين لا ذنب لهم ويطلقوا الرصاص على المساجد ويثيروا غضب المواطنين بصورة عامة. ثم تظهر الجماهير «الوطنية» التي تقمع هؤلاء المشاكسين، ويفضل أن يكون ذلك بمساعدة ضباط الشرطة المؤيدين.

شعر جليلي وكيفاني بالقلق؛ فمع أنها لم تكن أول مرة يقدمان فيها مثل تلك الخدمات، فإن ما اعتزمه روزفلت في تلك المرة أكبر العمليات التي اضطلعا بها على الإطلاق، وكانت تمثل خطورة عليهما وخاصة إذا فشلت العملية، حتى إنهما اقترحا الانسحاب من المؤامرة بأكملها. ولكن روزفلت أقنعهما بالبقاء عن طريق عرض خيارين في غاية البساطة، فإذا

وافقا على البقاء فسوف يحصلان على ٥٠ ألف دولار لنفسيهما وللأشخاص الذين يستأجرانهم، وإذا رفضا فسوف يقتلهما، ففضلا الحصول على المال، وأعطاهما روزفلت إياه في الحال.

بدأ ذلك اليوم بهزيمة نكراء، ولكن بحلول المساء شعر روزفلت بأن الثقة تعود إليه، وقبل أن يخلد إلى النوم أرسل برقية إلى واشنطن يذكر فيها أنه ربما لا يزال يوجد «احتمال ضئيل للنجاح.»

لم يشارك أحد في واشنطن روزفلت في تفاؤله، ففور أن استيقظ من نومه صباح يوم الاثنين تسلم برقية من القيادة تحثه على مغادرة إيران بأسرع وقت ممكن، وكانت تلك المرة الثانية خلال ست وثلاثين ساعة التي ينصحه فيها رؤساؤه بالفرار، وفي تلك المرة أعد خطة للفرار تتضمن رحيله هو وزاهدي ومجموعة من الأشخاص الآخرين على متن طائرة تابعة للملحق الجوي الأمريكي، لكنه لم يمنحها مزيدًا من التفكير.

وفي منتصف النهار بدأت الأنباء السارة تتدفق، حيث كانت مجموعة من رجال العصابات الذين تظاهروا بالتعاطف مع مصدق يشقون طريقهم من الأحياء العشوائية بجنوب طهران إلى وسط المدينة، وانضم إليهم بعض الوطنيين والشيوعيين بحسن نية. وعندما وصلوا إلى ميدان البرلمان الذي يتوسطه تمثال شاهق لرضا شاه يمتطي جوادًا، كان عددهم قد بلغ عشرات الآلاف. ولا أحد يعلم على وجه التحديد كم منهم كانوا مقاتلين حقيقيين وكم كانوا عملاء محرضين، ولكن من المؤكد أنه كان هناك الكثير من كليهما.

تصاعدت الهتافات عندما شرع العديد من الرجال في تسلق التمثال، وحمل أحدهم سلسلة ثقيلة حول عنقه، فلف أحد طرفيها حول عنق الجواد النحاسي وقذف الطرف الآخر إلى الأرض كي يعلق في دعامة سيارة أطلق عليها كينيت لوف «سيارة تبدو عسكرية الطراز.» ثم أخذ الرجل ينشر قاعدة الحصان ويدق عليها بالإزميل، وفي نهاية الأمر سقط التمثال على الأرض محدثًا دويًّا هائلًا، وكان هذا انتصارًا آخر في حملة روزفلت لتحويل إيران إلى أقطاب متنافرة.

كتب روزفلت فيما بعد: «كان ذلك تحقيقًا لأقصى آمالنا، فكلما هتفوا ضد الشاه تأكد الشعب والجيش أنهم أعداء، وحيث إنهم يكرهون الشاه

فإن الشعب والجيش يكرهانهم، وكلما زادوا في نهب المدينة وإتلافها أثاروا غضب أغلبية سكانها. ولم يكن هناك شيء يجسد الصراع أكثر أو أسرع من ذلك، ففي يوم الأحد وقعت بعض أعمال الشغب والسلب والنهب، ووصلت الأحداث إلى ذروتها يوم الاثنين.»

كان مصدق قد أمر قوات الشرطة بحسن نية ألا تتدخل في حق الناس في التظاهر، وهكذا تمكن الجماهير من الثورة وقتما شاءوا. وكانت تلك هدية رائعة لروزفلت، حيث إن أي أعمال شغب حتى تلك التي كانت خارجة عن نطاق سيطرته تصلح لإقناع الإيرانيين بأن بلادهم تسقط في هاوية الفوضى وتحتاج إلى منقذ. ولكن روزفلت ظل يخشى أن يغير مصدق رأيه ويأمر الشرطة بالتدخل، وقد تبدي قوات الشرطة شجاعة كافية لقتال الجنود المتمردين عند وصول الانقلاب لذروته. وظل روزفلت يبحث عن طريقة للحد من قوتهم، ووجد ضالته عندما وصل السفير لوي هندرسون على حين غرة في ذلك المساء، فبعد أن حضر اجتماعًا في واشنطن أعطيت فيه الموافقة النهائية على الانقلاب، توصل هندرسون إلى أنه من الحكمة ألا يعود إلى منصبه حتى يُطاح بمصدق، فذهب إلى منتجع في جبال الألب بالنمسا منتظرًا ورود أنباء. وفي الرابع عشر من أغسطس/آب لم يصبح قادرًا على الانتظار أكثر من ذلك بعيدًا عن الأحداث، فطار متوجهًا إلى بيروت، وعندما استمع إلى تقارير إذاعية تفيد بأن الانقلاب قد فشل استقل طائرة تابعة للأسطول البحري من السفارة الأمريكية المحلية متوجهًا إلى طهران، وعندما وصل إلى السفارة توجه مباشرة إلى روزفلت الذي أطلعه على تفاصيل الموقف الحالي.

اعترف روزفلت مهونًا من الأمر بأنه قد «واجه بعض الصعوبات البسيطة»، وتساءل هندرسون هل توجد أي مساعدة يمكنه تقديمها. وبعد لحظات من التفكير توصل روزفلت إلى فكرة مبتكرة، فسوف يستخدم هندرسون في محاولة لإثارة أعصاب مصدق.

كان روزفلت يعلم أن مصدق رجل مرهف الحس يمكن لمحنة أرملة أو طفل يتيم استدرار دموعه. ولم يكن مصدق متآمرًا بطبيعته، ولذلك فقد كان لديه إيمان ساذج بصدق الآخرين، بالإضافة إلى كونه رجلًا مهذبًا يتمتع

بالشهامة ويحترم التقاليد والطقوس والشكليات الدبلوماسية. ورغم المشاكل التي وقعت في الشهور الأخيرة كان الأمريكيون لا يزالون يمثلون نقطة ضعف عنده. وإذا تمكن روزفلت من استغلال تلك الصفات في شخصية خصمه، فقد يفقد ذلك «العجوز التافه» توازنه ويجبره على القيام بحركة خاطئة. كان ذلك أحد التحديات التقليدية في الحرب النفسية، وسوف ينتج عنه أكثر المعارك غرابة في عملية أياكس.

تساءل هندرسون عندما اقترح روزفلت إرساله إلى مصدق: «ماذا أفعل بحق السماء؟» أجاب روزفلت: «أقترح أن تشكو له من المضايقات التي يتعرض لها الأمريكيون هنا، مثل المكالمات الهاتفية من مجهولين يقولون «أيها الأمريكيون فلتعودوا إلى بلادكم!» أو يوجهون لهم شتائم بذيئة. وحتى إذا كان من يرد على الهاتف طفلًا، لا يسلم من الكلمات النابية التي يوجهها له المتحدث.»

وافق هندرسون على أن ينفذ ما يريده روزفلت، وأضاف إنه إذا سأله مصدق عن الدور الأمريكي في الدمار الذي حل بإيران فسوف «يوضح أننا لا ننوي التدخل في الشئون الداخلية لدولة صديقة.» واعتبرها روزفلت عاطفة نبيلة ولكنه لم يعلق على ذلك.

كان مساء الاثنين أشد الأوقات صعوبة في المقر طبقًا لتحليل المخابرات المركزية الأمريكية للأحداث، وقضى روزفلت أربع ساعات في جلسة تخطيط مكثفة مع عملائه الرئيسين ومنهم الإخوة راشيديان والجنرال زاهدي وابنه أرديشير والجنرال هداية الله جويلانشاه، وهو قائد سابق للقوات الجوية تعهد بالمشاركة في المؤامرة. وكانوا جميعًا يتسللون داخل مجمع السفارة وخارجه مختبئين تحت الأغطية الثقيلة أو في حقائب السيارات.

أصبح روزفلت الآن يعمل على مسئوليته الخاصة، فلم تكن هناك خطة بديلة في حالة فشل الانقلاب الأول، وهكذا فقد أخذ يرتجل الخطة. وكان مشغولًا بصفة مستمرة، فلم يكن لديه الوقت أو الرغبة في أن يوضح قراراته لرؤسائه. وحتى لو كان يرغب في ذلك، فقد كانت تقنيات الاتصالات بطيئة ولا يعتمد عليها، وهكذا ففي تلك الأيام لم يكن أحد في واشنطن أو لندن يمتلك أي فكرة عما يفعله روزفلت.

أدرك روزفلت منذ بادئ الأمر أن مصير حكومة مصدق سوف تحدده الجماهير في نهاية الأمر، وكان لدى عملائه الإيرانيين القدرة على حشد الجماهير على الفور، فوضع خطة تعتمد على استخدام المظاهرات المؤيدة والمعارضة للحكومة، ولكن في نهاية الأمر لم تكن طبيعة مطالب الجماهير مهمة. بالطبع كان رائعًا أن يهتف الجماهير مطالبين بطرد مصدق، ولكن المظاهرات المؤيدة له كانت أيضًا مفيدة لأنها تساعد على انقسام الآراء وربما تحرض جنود الشاه على اتخاذ إجراءات قمعية، ولكن كل ما كان يهم بالفعل هو إثارة حالة من الارتباك والبلبلة في إيران.

ازدادت يوم الثلاثاء حدة المظاهرات التي هزت أرجاء طهران يوم الاثنين، حيث اندفع آلاف من المتظاهرين في الشوارع ينهبون المتاجر ويحطمون صور الشاه ويجتاحون مكاتب الجماعات الموالية للشاه غير مدركين وقوعهم تحت تأثير المخابرات المركزية الأمريكية، وانضم الوطنيون والشيوعيون المتحمسون إلى تلك الفوضى. كانت الشرطة لا تزال تنفذ أوامر مصدق بعدم التدخل، مما أتاح الفرصة للمتظاهرين كي ينفذوا مهمتهم وهي إعطاء الانطباع بأن إيران تنزلق في هاوية الفوضى السياسية. ولمح روزفلت المتظاهرين لمحة عابرة أثناء رحلاته السرية في أنحاء المدينة، وأعلن أنهم «أثاروا خوفي بشدة.»

ولكن الحدث الأهم في ذلك اليوم لم يحدث في الشارع بل خلف الأبواب المغلقة، ففي منتصف المساء توجه السفير هندرسون لزيارة مصدق، فوجد الرجل العجوز في حالة مزرية للغاية. لم يكن مصدق يتخيل أن العملاء السريين في السفارة الأمريكية يعملون ليل نهار من أجل الإطاحة بحكومته، وحيث إنه لم يكن يدرك وجود شخص مثل كيرمت روزفلت، لم يتخيل أن روزفلت يستغل هندرسون كي ينصب له فخًّا. ومع ذلك فقد كان يعلم أن بعض القوى الخارجية تدخلت في محاولة الانقلاب الفاشلة التي وقعت يوم السبت، ولذلك كان عليه أن يأخذ حذره.

استقبل مصدق السفير بالملابس الرسمية في إشارة لأهمية ذلك الاجتماع، وكان شديد الهدوء ولكن هندرسون لاحظ «الغضب الكامن» واضحًا تحت ستار مجاملاته. كان الموقف الرسمي للولايات المتحدة ينص على أن الشاه لا

يزال زعيم إيران، واعترض مصدق على ذلك الدعم الأمريكي «لرجل لم يعد الآن سوى مجرد متمرد.» وأجاب هندرسون بأنه إذا كان الشاه قد هرب، فقد فر النبي محمد أيضًا من مكة، ومنذ ذلك الحين أخذ نفوذه يزداد. أدهشت تلك الملاحظة مصدق، وتوقف قليلًا كي يفكر فيها. وهنا قرر هندرسون أنه قد حان الوقت كي يلقي الخطبة التي أعدها له روزفلت، وأخذ يتحدث عابسًا ونبرة صوته تتصاعد في غضب مصطنع قائلًا: «عليّ أن أخبرك بأن مواطنيّ يتعرضون للمضايقات الشديدة، فهم يتلقون مكالمات تهديدية غالبًا ما يرد عليها الأطفال الذين يسمعونهم كلمات بذيئة لا يفترض بالأطفال أن يسمعوها، وليس ذلك فحسب، بل إنهم أيضًا يتعرضون للإهانات في الشوارع وهم ذاهبون إلى أعمالهم في سلام. وبالإضافة لكل أشكال الاعتداء اللفظي التي يتعرضون لها، تتعرض سياراتهم أيضًا للتحطيم كلما تركت مكشوفة، حيث تسرق قطع الغيار وتهشم المصابيح الأمامية وتفرغ الإطارات من الهواء، وإذا تركت السيارات دون إغلاق القفل يمزق فرشها. وما لم يوقف هذا النوع من المضايقات يا معالي رئيس الوزراء، فسوف أطالب حكومتي بسحب كل الرعايا وكل الأشخاص الذين لا تتطلب مصالحنا الوطنية وجودهم هنا.»

كان حريًّا بمصدق أن يضحك من ذلك المشهد التمثيلي الكاذب، فقد خطط الأمريكيون للثورة في إيران، ولكن هندرسون يصورهم ضحايا تلك الثورة. وقص روايات شديدة المبالغة عن تلك الاعتداءات المزعومة دليلًا على كلامه، ولكن ياللعجب بدا مصدق متألمًا بشدة من تلك القصص الوهمية، وفزع من احتمال مغادرة الأمريكيين لإيران. وروى هندرسون أنه «اهتز بشدة» وسرعان ما «ارتبك وأخذ في الاعتذار.»

تمكن روزفلت من تحليل نفسية خصمه ببراعة شديدة، ولما كان مصدق قد تربى في بيئة غرست فيه اللطف وحسن الضيافة، كان صادمًا له أن تساء معاملة ضيوف إيران هكذا. وتغلبت تلك الصدمة على حسن تقديره للأمور، فقبل أن يغادر هندرسون المكان رفع سماعة الهاتف واتصل برئيس الشرطة كي يخبره بأن الاضطرابات في الشوارع قد أصبحت لا تطاق وأنه قد حان الوقت كي تضع الشرطة حدًّا لها.

وهكذا أرسل مصدق الشرطة كي تهاجم مجموعة من الجماهير تتضمن العديد من أشد مؤيديه حماسًا، وكي يضمن ألا يخرج أنصاره في الشوارع مرة أخرى في اليوم التالي، أصدر قرارًا بمنع المظاهرات الجماهيرية، بل إنه خاطب زعماء الأحزاب الموالية للحكومة وطالبهم بإبقاء الناس في المنازل، وهكذا جرد نفسه من السلاح وأصبح أعزل، وكان ذلك «خطأه القاتل» طبقًا للرواية التي نشرتها مجلة تايم بعد ذلك بأسبوع.

على مدار الساعات التالية ارتكب مصدق العديد من الأخطاء الأخرى، حيث كان مصرًّا على إثبات جديته في قمع مظاهرات الشوارع، ولذلك فقد حشد الجنود بقيادة الجنرال محمد دفتري، وهو ضابط معروف بحماسه الشديد في قمع النضال المدني، ولكن دفتري الذي كان رئيسًا لشرطة طهران في حكومة رازمارا منذ عدة سنوات كان أيضًا مؤيدًا صريحًا للملكية ومقربًا إلى زاهدي. وكان كل شيء يدعو لليقين من أنه إذا أُمِرَ بالتحرك فسوف يوجه رجاله مباشرة إلى جانب المتآمرين، وهو ما حدث بالضبط، وفي اليوم التالي لم يدافعوا عن الحكومة بل انضموا إلى محاولات الإطاحة بها.

وفور أن أصدر مصدق أوامره المصيرية بدأت حملة لفرض النظام، وكتب كينيت لوف في جريدة نيويورك تايمز: «بدأ رجال الشرطة والجنود الليلة الماضية في اتخاذ إجراءات ضد المتظاهرين والمواطنين المتطرفين من أنصار حزب تودة (الحزب الشيوعي)، وبدت القوات كما لو كانت قد أصيبت بالجنون وهي تصطدم بالمتظاهرين مستخدمة الهراوات والبنادق والعصي المضيئة وتقذفهم بقنابل الغازات المسيلة للدموع.»

كان محمد رضا شاه من ضمن أولئك الذين لم يكن لديهم فكرة عن الأحداث الجارية في طهران، وبعد أن وصل إلى بغداد أصر على أنه لم يكن متورطًا في محاولة انقلاب ولكنه أقال مصدق بسبب «انتهاكه الصارخ للدستور.» وعلى غرار جميع من اشتركوا في المؤامرة افترض الشاه أن إخفاق يوم السبت يعني نهاية عملية أياكس. وفي صباح الثلاثاء استقل هو والإمبراطورة ثريا طائرة نفاثة تابعة لشركة الخطوط الجوية البريطانية متجهين إلى روما، وذكرت جريدة لندن تايمز أن «كليهما بدا عليه الإرهاق والكآبة والقلق وهما يغادران الطائرة.»

بدا أن الشاه قد استسلم لفكرة الغياب الطويل عن إيران، فعندما سأله أحد الصحفيين الأمريكيين هل يتوقع العودة، أجاب: «من المحتمل، ولكن ليس في المستقبل القريب.» وتنبأ أحد المراسلين الصحفيين البريطانيين بأنه «ربما ينضم إلى الجالية الصغيرة من الملوك المنفيين الذين يعيشون في روما.»

ولكن في حين كان الشاه ينزل في فندق إكسلسيور بروما، كان روزفلت يبذل جهودًا كبرى لإعادته إلى بلاده. وكان اليوم التالي هو اللحظة الفاصلة، فإذا سار كل شيء كما هو مخطط له فسوف تمتلئ الشوارع بالمظاهرات الصاخبة المؤيدة للشاه بحلول منتصف النهار، وسوف يراهم المواطنون أشخاصًا مهذبين لم يعودوا قادرين على تحمل الفوضى التي وقعت في الأيام الأخيرة، ولن تتدخل قوات الشرطة المتعاطفة معهم.

تمكن روزفلت من تنظيم حشد عجيب من الجماهير بمساعدة عملائه الإيرانيين فائقي الأهمية، فبالإضافة إلى رجال عصابات الشوارع وبعض المجرمين الآخرين، تضمن هؤلاء الجماهير العديد من أعضاء الجمعيات الرياضية بطهران، حيث لم يكن هؤلاء الرياضيون يتفاخرون بقوتهم فحسب، بل أيضًا بالمهارات التي اكتسبوها مثل الشعوذة والحيل البهلوانية، وكانوا ينضمون للاستعراضات أو يقدمون عروضًا خاصة بهم في المناسبات الاحتفالية. لم يكن هؤلاء الناس موسرين، وكان بعضهم يكتسب عيشه من الدخول في مشروعات مثل الاتجار بالخضروات في السوق السوداء، وكانوا يتوقعون من قادتهم أن يعينوهم على كسب عيشهم، فعندما أتت المخابرات المركزية الأمريكية تبحث عن متظاهرين كانوا مستعدين ومتحمسين لتلك المهمة.

قال جون والر مدير مكتب إيران بالمخابرات المركزية الأمريكية متأملًا: «في إيران يمكنك جمع حشد مخيف، أو حشد ودود، أو حشد متوسط بينهما، أو يمكنك تحويل أحدهما إلى الآخر.»

كان روزفلت قد ضمن الحصول على مساعدة قوات الشرطة التي كانت واقعة إلى حد بعيد تحت سيطرة الجنرال دفتري، بالإضافة إلى العديد من الوحدات العسكرية، والآن أصبح لديه أيضًا مزايا امتلاك حشد رائع من

الجماهير. ولكن أسد الله راشيديان الذي لا يستغنى عنه كان قلقًا من ألا يكون عدد الجماهير كافيًا، فحث روزفلت على زيادة موقفه قوة عن طريق عقد اتفاق في اللحظات الأخيرة مع الزعماء الدينيين المسلمين الذين كان العديد منهم يمتلكون الكثير من الأتباع والمريدين ويمكنهم حشد جماهير غفيرة في وقت قصير. وكان أهمهم آية الله كاشاني الذي انقلب على مصدق بالفعل ومن المؤكد أنه سوف يتعاطف معهم، فاقترح راشيديان استخدام النقود كي يشجعه على الانضمام لهم، ووافق روزفلت على تلك الفكرة. وفي صباح الأربعاء أرسل عشرة آلاف دولار إلى أحمد أراماش كاتم سر كاشاني مع تعليمات بإعطائها إلى ذلك الإمام.

كان يوم الأربعاء يوافق التاسع عشر من أغسطس/آب أو الثامن والعشرين من مورداد بالتقويم الفارسي، وفي ذلك اليوم كان روزفلت يأمل في أن يغير مجرى تاريخ أمة بأسرها. وبعد أن جهز النقود لكاشاني وأرسل رسله بها لم يجد شيئًا آخر يفعله، فقد حان الوقت للآخرين كي يعملوا، وما كان عليه إلا أن ينتظر ويراقب الأحداث.

كانت الأنباء التي أتى بها عملاؤه في ساعات الصباح الأولى مشجعة، فقد تجمع الناس بالآلاف في المساجد والميادين العامة، وفي مقدمتهم كان الرياضيون عجيبو الهيئة، مما أعطى الحدث بأكمله جوًّا شبيهًا بالمهرجانات، حيث أخذ بعضهم يلوحون بالأثقال فوق رءوسهم والبعض الآخر يقذفون بالمسامير الثقيلة في الهواء، وكشف العديد منهم عن أجسادهم الضخمة ولم يكونوا يرتدون سوى مآزر ويمتلكون شوارب ضخمة، وحمل العديد منهم أيضًا السكاكين أو الهراوات منزلية الصنع. كانت تلك أغرب مجموعة على الإطلاق تقدمت كي تسقط حكومة:

> بدءوا بعمالقة الزورخانة[1] حاملي الأثقال الذين عملوا على بناء أجسامهم عن طريق مجموعة من التدريبات الرياضية الإيرانية

[1] هي كلمة تعني باللغة الفارسية «**بيت القوة**»، وهو المكان الذي يتدرب فيه المصارعون على رياضة المصارعة الشعبية، وقد اشتهرت في العشرينيات من القرن الماضي في العراق وإيران والكويت. (المترجمة)

القديمة التي تعتمد على حمل أثقال متدرجة في الوزن. وقد تمكن عمالقة الزورخانة من بناء عضلات أكتاف ضخمة وعضلات ذراع هائلة، وانطلقوا في الشوارع معًا مكونين مشهدًا مخيفًا. وبدأ نحو مائتين من حملة الأثقال يومهم بمسيرات في السوق وهم يهتفون «فليحيا الشاه!» ويؤدون حركات مثل الدراويش. وعلى جانبي الحشد رجال يوزعون عملات من فئة عشرة ريالات ... وازداد عدد الجماهير حتى أصبح الهتاف «فليحيا الشاه» يصم الآذان. وعندما مر الحشد بمقرات الصحف المؤيدة لمصدق حطم الرجال النوافذ ونهبوا المكان.

لم يحاول أحد إيقاف المتمردين أثناء زحفهم نحو وسط المدينة، ففي بادئ الأمر شجعهم ضباط الشرطة، وعندما انقضى المساء بدءوا يقودونهم. ولم تكن هناك مظاهرات مضادة، حيث احترم مؤيدو مصدق رغبته والرسالة التي خلفتها ضربات الأمس وفضلوا البقاء في منازلهم.

كانت المجموعة الأخرى الوحيدة التي بإمكانها حشد قواتها للدفاع عن الحكومة هي حزب تودة، ولكن زعماءه قضوا اليوم في اجتماعات غير قادرين على اتخاذ قرار بالتحرك أم لا. ولم يكن مصدق يثق بهم أو يريد مساعدتهم بأي حال، فقد اتصل به أحد زعماء تودة في اليوم السابق وتطوع بإعطائه قوات الصاعقة التابعة لتودة بشرط أن يتولى هو تسليحهم، ولكن مصدق أقسم قائلًا: «فليقطع ذراعي الأيمن إذا وافقت على تزويد أحد الأحزاب السياسية بالسلاح!»

ولكن العداء لمصدق لم يكن السبب الحقيقي الذي لم يجعل زعماء تودة يستدعون مقاتلي الشوارع التابعين لهم في ذلك اليوم العصيب، فعلى غرار معظم الأحزاب الشيوعية في العالم كان حزب تودة يسيطر عليه الاتحاد السوفييتي، وفي أوقات الأزمات يتلقى أوامره من موسكو، ولكن في ذلك اليوم لم تأتِ أي أوامر، حيث كان ستالين قد توفي منذ بضعة أشهر ويمر الكريملين بحالة من الفوضى، وضباط المخابرات الروسيين الذين ينصب اهتمامهم على إيران في الأحوال العادية منشغلون بتحدٍّ أكثر أهمية وهو البقاء على قيد الحياة. هل فكر أحدهم في محاولة الدفاع عن مصدق؟

سوف يظل هذا السؤال أحد ألغاز عملية أياكس. وحاول الباحثون الوصول إلى سجلات في موسكو تمكنهم من حل ذلك اللغز، ولكن طلباتهم قوبلت بالرفض.

ومع انقضاء النهار ملأت الحشود المندفعة من الأحياء العشوائية بجنوب طهران الجو بهتافات «الموت لمصدق!» و«يحيا الشاه!»، وانضم إليهم المئات من الجنود بعضهم في الشاحنات أو فوق الدبابات، وانضم إليهم أيضًا بعض رجال القبائل من خارج المدينة الذين حشدهم الزعماء الذين حصلوا على أموال من عملاء روزفلت. وهاجمت مجموعات من المتظاهرين ثمانية مبانٍ حكومية ومقرات ثلاث صحف مؤيدة للحكومة وأضرمت النيران فيها، بما فيها صحيفة باختار امروز التي يمتلكها وزير الخارجية فاطمي. وهاجم آخرون وزارة الخارجية ومقر القيادة العامة ونقطة الشرطة المركزية، وأطلقوا النيران على المباني الثلاثة فقوبلوا بوابل من الرصاصات وسقط العشرات من القتلى.

ظل عملاء روزفلت يأتون بأنباء سارة، ففي نهاية ذلك الصباح أبلغه أحدهم بأن «الجماهير الغفيرة» قد احتلت كل الميادين الرئيسة في المدينة، وأبلغه آخر بأن قائد الحامية العسكرية في كرمانشاه التي تبعد أربعمائة ميل إلى الغرب قد انضم إليهم وبدأ يقود رجاله نحو العاصمة، وأن مجموعة بقيادة علي جليلي قد استولت على مقر الشرطة العسكرية وأطلقت سراح المتآمرين الذين قُبِضَ عليهم بعد محاولة الانقلاب التي وقعت يوم السبت، ومنهم العقيد نصيري الذي شرع على الفور في تنظيم صفوف الحرس الملكي كي يساعد المتمردين.

كان جزء من عشرات الآلاف الذين سيطروا على الشوارع في ذلك اليوم يعارضون مصدق دومًا لسبب أو لآخر، في حين كان آخرون أنصارًا سابقين انقلبوا عليه أثناء الصراعات السياسية التي حدثت في الشهور الأخيرة، والعديد منهم طبقًا لجريدة نيويورك تايمز من «عصابات الأسواق والبلطجية» الذين لا يملكون أي قناعات سياسية، ولكنهم اشتركوا في المسيرة لأنهم حصلوا على أجرة عمل يوم كامل في مقابل ذلك.

أكد ريتشارد كوتام الذي كان من ضمن فريق عملية أياكس في واشنطن قائلًا: «كانت تلك الجماهير التي أتت إلى شمال طهران مصرة على قلب

نظام الحكم من المرتزقة. لم يكونوا يعتنقون مذهبًا محددًا، وقد حصلوا على أجرتهم بالدولار الأمريكي.»

ولكن الجماهير تحتاج إلى زعيم كي تصبح مؤثرة، ومع أن زعماء العصابات من أمثال شعبان الأبله كانوا يتمتعون بالقوة والضخامة، فإنهم لم يكونوا يتمتعون بالذكاء على الإطلاق. وكان معظم الزعماء الذين ظهروا في ذلك اليوم من الضباط متوسطي الرتب، وعلى غرار نظرائهم من المدنيين كانوا مزيجًا من الملتزمين بالقضية والمحرَّضين عن طريق الرشوة. واقتنع عدد كبير منهم بالانضمام إلى الانقلاب بفضل سلطة الفرمان الذي يقضي بتعيين زاهدي رئيسًا للوزراء، فقد اقتنعوا بأنه إذا كان الشاه قد أمر فعلى الجيش أن يطيع.

أضفى هؤلاء الجنود على الثورة مظهرًا من الشرعية، وأحضروا أيضًا مجموعة كبيرة من الأسلحة بما فيها الدبابات والمدفعية، وقادوا الهجوم على العديد من المباني الحكومية، ولولا سلطتهم الروحية ومهاراتهم في القتال لكان من المحتمل أن يفشل ذلك الانقلاب.

كان كل شيء يسير وفقًا للخطة الموضوعة عندما فتح باب مقر القيادة الخاص بروزفلت فجأة قبيل منتصف النهار، فنظر آملًا أن يرى أحد العملاء يحمل تقريرًا من الجبهة الأمامية، ولكنه رأى عامل الهاتف اللاسلكي تبدو عليه أمارات الذهول ويكاد يبكي، وكان يحمل في يده رسالة عاجلة من بيدل سميث في واشنطن؛ كان سميث قد أرسل تلك الرسالة منذ أربع وعشرين ساعة، ولكنها تعطلت في محطة إعادة البث في قبرص، وكانت الرسالة أمرًا آخر لروزفلت بالفرار في الحال كُتِبَت بلهجة أقوى من الرسالتين السابقتين.

وصلت تلك الرسالة في أسوأ وقت ممكن، وانفجر روزفلت — الذي كان يشعر بأن النصر صار في متناول اليد — ضحكًا عندما قرأها، وقال لعامل الهاتف المرتبك: «لا تبالِ يا صديقي, فأنت مختبئ تحت الأرض ولا يمكنك أن تعلم، ولكن كل شيء قد تغير والأمور تسير الآن بطريقتنا. سوف ينتصر الحق، وسوف يكون كل شيء على ما يرام، وسوف نجمع كل المزايا في آن واحد.»

أرسل روزفلت عامل الهاتف إلى مخبئه محملًا برد للجنرال سميث يقول فيه: «استلمت رسالتك الخاصة بيوم الثامن عشر من أغسطس/آب،

ويسعدني أن أخبرك بأن آر ان زيجلر [الاسم الحركي لزاهدي] قد تقلد منصبه بسلام وأن كيه جي سافوي [الاسم الحركي للشاه] سوف يعود إلى طهران منتصرًا عن قريب، وأرسل لك التحيات والقبلات من الفريق بأكمله.»

كان ذلك الكلام بالطبع سابقًا لأوانه، ولكنه عكس الثقة الشديدة التي كان يشعر بها روزفلت في تلك المرحلة. وفي روايته الخاصة كان «يبتسم ابتسامة عريضة»، ولم يكن قد تناول وجبة مشبعة منذ عدة أيام فشعر فجأة بالجوع الشديد، وكان أحد معارفه مستشارًا للسفير هندرسون ويمتلك منزلًا في مجمع السفارة، فذهب إليه كي يتناول الغداء ويحتسي مشروبًا.

وبالخارج كانت طهران تمور بالثورة، وترددت أصداء الهتافات في الأجواء تتخللها أصوات إطلاق النيران وانفجارات قذائف الهاون، وظلت فرق الجنود والشرطة تندفع عبر بوابة السفارة كل بضع دقائق، ولكن مضيف روزفلت وزوجته كانا مثالًا للحكمة، فلم يوجها له أي سؤال عما يحدث.

كان المذياع مفتوحًا، ومع أن المذيع كان يعلن أسعار القمح فقد استمع روزفلت باهتمام، لقد أرسل أحد الفرق الإيرانية كي تهاجم محطة الإذاعة، وإذا سارت الأمور على ما يرام فسوف يتغير برنامج الإرسال.

وبينما كان الأمريكيون الثلاثة يتناولون طعامهم في صمت، بدأ المذيع يتحدث ببطء شديد كما لو كان يغلبه النعاس، وبعد فترة توقف عن الحديث تمامًا، وكان واضحًا أن هناك شيئًا غير عادي يحدث في محطة الإذاعة، وابتسم روزفلت بخبث إلى رفيقي المائدة اللذين لم يفهما ما حدث. ومرت عدة دقائق من الصمت ارتفعت بعدها أصوات رجال يتشاجرون، وفي نهاية الأمر صاح أحدهم بلهجة آمرة «لا يهم من يقرؤه، ولكن المهم أن يُقرأ!» وبنبرة شديدة العاطفية بدأ يعلن ما أطلق عليه روزفلت «أكاذيب متعمدة أو نصف حقائق»، حيث صاح: «لقد سقطت حكومة مصدق، وتولى رئيس الوزراء الجديد فضل الله زاهدي منصبه، وجلالة الشاه في طريقه للعودة للديار الآن.»

لم يتعرف روزفلت على ذلك الصوت، فقد سبق أحد ضباط الجيش العميل الخاص به إلى الميكروفون، ولكن الرسالة وصلت كما يريدها بالضبط:

«كانت حكومة مصدق متمردة، ولذلك فقد سقطت.» وترك روزفلت المائدة وشكر مضيفيه على حسن ضيافتهما وانسحب.

عاد روزفلت إلى مقر القيادة بعد أن تجاوزت الساعة الثانية بقليل، فوجد رفاقه الذين كانوا يستمعون إلى المذياع أيضًا في حالة ابتهاج، وعندما ظهر روزفلت نظروا إليه، ومرت لحظة صمت استمتعوا فيها بإدراك أن اليوم يوم نجاحهم، وبعد لحظات بدءوا يرقصون في الغرفة الضيقة، ويتذكر روزفلت أنهم كانوا بالفعل «يفيضون بالابتهاج.»

ما الخطوة التالية؟ افترض أحد العملاء أن الجماهير الآن في قمة حماسها، فاقترح أنه قد حان الوقت لتقديم زاهدي، ولكن روزفلت رفض قائلًا إن الوقت لا يزال مبكرًا لاتخاذ تلك الخطوة، وأكد بقوله: «ليس هناك ما يدعونا للعجلة، فلننتظر حتى تصل الجماهير إلى منزل مصدق، وسوف تكون تلك لحظة مناسبة كي يظهر فيها بطلنا.»

كانت الوحدات العسكرية بقيادة الضباط المعادين لمصدق قد بدأت بالفعل في التجمع أمام منزله، وبالداخل أخذ الجنود المخلصون يقيمون التحصينات ويستعدون للمعركة، وكانوا مسلحين بالبنادق والمدافع الرشاشة ودبابات شيرمان مثبت عليها مدافع من عيار ٧٥ ملليمترًا، وبدأ الهجوم في أواخر ذلك المساء، وتمكن المدافعون من صد هجمة تلو الأخرى، وملأت الجثث الأرصفة، وبعد ساعة من القتال من طرف واحد هلل المهاجمون فرحًا، فقد وصلت وحدات الجيش الصديقة مزودة بالدبابات، وسرعان ما بدأ اشتباك المدفعية، وكانت عملية أياكس تقترب من الذروة.

وفور أن علم روزفلت ببدء الهجوم، قرر أن يحضر الجنرال زاهدي من مخبئه الذي ظل قابعًا فيه لمدة يومين، وقبل أن يرحل استدعى الجنرال جويلانشاه الذي كان جالسًا في أحد المنازل الآمنة التابعة للمخابرات المركزية الأمريكية مثل زاهدي ينتظر التعليمات بفارغ الصبر، وطلب روزفلت من الجنرال أن يحضر دبابة ويقودها إلى مخبأ زاهدي، وكتب له العنوان على قصاصة من الورق ثم ذهب إلى هناك بنفسه.

عندما وصل روزفلت كان زاهدي جالسًا في إحدى حجرات الطابق الأرضي مرتديًا ملابسه الداخلية، واهتز طربًا عندما علم أن لحظة النصر قد

حانت، وبينما كان يرتدي زيه العسكري سمع جلبة بالخارج؛ لقد وصل الجنرال جويلانشاه ومعه دبابتان وحشد من الناس يهتفون مهللين.

بعد ذلك بأعوام عديدة، وربما بفضل سمعة جد روزفلت الذي كان مغامرًا جريئًا، انتشرت إشاعة تفيد بأن روزفلت جلس منتصرًا فوق الدبابة الأمامية وهي تشق طريقها في شوارع طهران متجهة نحو منزل مصدق، ولكن في حقيقة الأمر أدرك روزفلت فور أن سمع الحشد المصاحب للجنرال جويلانشاه أنه يجب ألا يشاهد في حضرة زاهدي، وبينما كان باب القبو يفتح بالقوة قفز يختبئ في فجوة صغيرة خلف الموقد، ومن مخبئه رأى الحشد المتهلل يعانق زاهدي ويحمله على الأكتاف إلى الخارج.

وبعد رحيل ذلك الحشد تسلل روزفلت خارجًا من مخبئه وانطلق إلى سيارته وقادها عبر الشوارع الهائجة متجهًا إلى السفارة حيث شرب هو ومساعدوه نخب النصر الوشيك، وكتب فيما بعد: «في الواقع لم يكن النصر وشيكًا بل كان قد تحقق من كل الجوانب. لم يكن العقيد الآتي من الغرب [من كرمانشاه] سوف يبلغ طهران قبل المساء، ولكن إشاعة تحركه قد أعطتنا كل ما نحتاجه، وأضاف وصول قواته المزيد من الحماس لمدينة غارقة بالفعل في النصر حتى الثمالة.»

اتجهت الدبابة التي يركبها زاهدي أولًا نحو محطة إذاعة طهران، وشق طريقه وسط المعجبين شديدي الانفعال عبر سلالم المحطة. كان قد تقرر أن تنطلق الموسيقى العسكرية قبل أن يخاطب زاهدي الشعب، وكان أحد عملاء روزفلت قد أحضر معه بعض الأسطوانات المناسبة من مكتبة السفارة، وعندما كان زاهدي يقترب بدأ أحد الفنيين تشغيل الأغنية الأولى، وأحرج الجميع عندما اتضح أن تلك الأغنية هي النشيد الوطني الأمريكي، ثم اختيرت مقطوعة أخرى مجهولة بسرعة، وهنا تقدم زاهدي إلى الميكروفون وقدم نفسه بصفته «رئيس الوزراء الشرعي للبلاد طبقًا لأوامر الشاه»، ووعد بأن النظام الجديد سوف ينفذ الكثير من الإصلاحات، مثل بناء الطرق وتقديم الرعاية الصحية المجانية ورفع الأجور وضمان الحريات والأمن، ولكنه لم يقل أي شيء عن النفط.

كانت الوحدات العسكرية والشرطة التي تدين بالولاء لزاهدي تسيطر على طهران، فاستولت إحداها على مكتب التلغراف وأخذت ترسل الرسائل

في كافة أنحاء البلاد تعلن الإطاحة بمصدق. وتولت وحدة أخرى القبض على الجنرال رياحي رئيس أركان الجيش، وانضم العديد منها إلى المعركة التي تدور خارج منزل مصدق.

وفي تلك اللحظة لم يكن محمد رضا شاه المكتئب يدرك وقوع تلك الأحداث، وكان يتناول عشاءه في الفندق الذي يقيم به بروما بصحبة زوجته واثنين من مساعديه، وفجأة اندفع مجموعة من المراسلين الصحفيين إلى المطعم متجهين نحو مائدة الشاه ووضعوا تقارير وكالات الأنباء التي أتت من طهران بين يديه. في بادئ الأمر لم يصدق الشاه واندفع قائلًا دون تفكير: «أيكون ذلك حقيقيًّا؟» وشحب وجهه وارتعشت يداه بشدة، ثم قفز واقفًا وصاح: «كنت أعلم ذلك! كنت أعلم ذلك! إنهم يحبونني!» أما الإمبراطورة ثريا التي كانت أقل تأثرًا فقد وقفت وأمسكت بذراع زوجها كي تهدئ من روعه، وهمست: «يا له من أمر مثير!»

وبعد أن ذهبت آثار الصدمة استعاد الشاه رباطة جأشه، والتفت إلى المراسلين الصحفيين قائلًا: «ليس هذا عصيانًا مسلحًا، ولدينا الآن حكومة شرعية، فقد عينت الجنرال زاهدي في منصب رئيس الوزراء.» وبعد لحظة صمت أضاف: «تسع وتسعون بالمائة من الشعب يؤيدني. كنت أعلم ذلك طوال الوقت.»

توجه العاهل الشاب نحو بهو الفندق وهو لا يزال في حالة من الذهول حيث كان هناك حشد مجتمع من المراسلين الصحفيين والسائحين الفضوليين، فأخبرهم أن رغبته الأولى تتمثل في العودة لبلاده، وقال: «يؤسفني أنني لم أؤدِّ دورًا مهمًّا في كفاح شعبي وجيش بلادي من أجل الحرية، بل على العكس كنت بعيدًا في أمان، ولكنني غادرت البلاد من أجل حرصي على تجنب إراقة الدماء فحسب.»

ومع أن الانقلاب كان الآن على وشك النجاح، فقد ظل مصدق يقاوم، وفي الوقت الذي احتدم فيه القتال حول منزله ظل جالسًا بهدوء ملحوظ في غرفة نومه. كان الحرس قد غطوا معظم أجزاء النافذة بشريحة من الصلب، بحيث يتمكن من سماع ما يحدث بالخارج ولكن دون أن يتمكن من الرؤية. وعندما حثه مساعده علي رضا صاحب على الفرار، هز رأسه

رافضًا وقال: «إذا كان ذلك بالفعل انقلابًا فأنا أفضل أن أظل في تلك الغرفة وأموت فيها.»

شعر المهاجمون بالخارج بالقوة في صفوفهم، فقد استمعوا إلى زاهدي في المذياع وهو يعلن انتصاره، وعلموا أن قافلة صديقة من الجنود آتية من كرمانشاه، وحيث أخذ مخزون الذخيرة في المنزل يتضاءل أحكموا الخناق أكثر فأكثر.

لو كان ضباط الجيش المخلصون قد علموا ما يحدث ربما كانوا سيهرعون للدفاع عن مصدق، ولكنهم لم يعلموا غالبًا لأن الجنرال رياحي الذي كان من المفترض أن يستدعيهم كان معتقلًا. ولكن قبل القبض عليه تمكن رياحي من الاتصال بنائبه الجنرال عطاء الله كياني الذي كان يقود ثكنات عشرات آباد فيما كان آنذاك في إحدى المناطق النائية المجاورة لطهران، وأمر كياني في الحال كتيبة من المشاة وأخرى من الدبابات بالتجمع واتباعه حتى وسط المدينة. ولكن قبل أن يذهب بعيدًا اصطدم بطابور من المتمردين بقيادة الجنرال دفتري، وبالمقارنة بينهما كان دفتري الأكثر رقيًّا وإقناعًا، فبادر كياني بقوله: «إننا زملاء وإخوة، وكلنا مخلصون للشاه، فلا يجب أن نطلق النيران بعضنا على بعض.» وبعد الاستماع إلى المزيد من الكلام المعسول اقتنع كياني، وتعانق الجنرالان ومساعدوهما فيما أطلق عليه الإيرانيون «حفل قبلات»، وهكذا عاد رجال كياني الذين كان بإمكانهم إنقاذ مصدق إلى ثكناتهم.

احتدم القتال أمام منزل مصدق لمدة ساعتين، وبعد أن توقف إطلاق النيران من الداخل اقتحمت فصيلة من الجنود المنزل فوجدوه خاليًا. كان مصدق قد هرب في اللحظة الأخيرة، حيث دفعه مساعدوه الهاربون عبر سور الحديقة الخلفي. وأخذ الضباط يفتشون المنزل لمدة ساعة تقريبًا، وحملوا أفضل قطع الأثاث في المنزل في شاحنات كانت بانتظارهم ثم انطلقوا. وهكذا فقد أجبروا الرجل العجوز على الرحيل، ومع أنهم لم يظفروا به فقد علموا أنهم أبلوا بلاء حسنًا.

وحيث اختفى الجنود المنتصرون في جنح الليل، احتشد المتظاهرون الذين كانوا يشجعونهم في منزل مصدق كي يقوموا بأعمال النهب والتخريب، فأخذ

بعضهم يشعل الحرائق، وأخذ آخرون ينتزعون الأبواب والنوافذ والأجهزة ويلقون بها على الرصيف كي يبيعوها، وأخذوا يساومون في الأسعار والحرائق تشتعل خلفهم، وبيعت ثلاجة مصدق بستة وثلاثين دولارًا.

وفي مجمع السفارة كان مجموعة العملاء السريين الذين خططوا للانقلاب طبقًا لوصف روزفلت في «قمة الابتهاج والمرح، ومن حين إلى آخر كان أحدنا يضرب الآخر على ظهره ضربة مفاجئة تعبيرًا عن الحماس الشديد.» وظل الدبلوماسيون في السفارة ينظرون إليهم بفضول، ولكنهم لم يسألوا عن شيء ولم يخبرهم روزفلت بأي شيء.

وفي حين كان منزل مصدق يحترق توقفت سيارة أمام بوابة السفارة الأمريكية وأطلق قائدها النفير بحدة، فهرع روزفلت كي يرى من يكون، فوجده أرديشير زاهدي الذي قفز من السيارة وعانقه بحماس شديد، وبادره أرديشير قائلًا: «يجب أن تذهب الآن إلى والدي كي تلقي التحية على رئيس الوزراء الجديد.» رد روزفلت: «فلنتبادل حديثًا قصيرًا مع السفير هندرسون قبل أن نذهب، فأنا أعتقد أنه يستحق أن يبلغ بالأمر بصفة رسمية، وأنت الشخص المناسب كي يؤدي تلك المهمة.»

تأبط شريكا المؤامرة ذراع أحدهما الآخر، وانطلقا يقفزان في طريقهما إلى مقر إقامة السفير، فوجدا هندرسون جالسًا بجوار حمام السباحة. كان قد وضع زجاجة من الشامبانيا في الثلج، وعندما وصل ضيفاه فتحها. وقصا عليه تلك الأخبار الرائعة، بما فيها حقيقة أن رئيس الوزراء الجديد قد عين اثنين من عملاء روزفلت الإيرانيين في الوزارة، فشربوا أولًا نخب الحكومة الجديدة، ثم نخب الشاه، ثم نخب أيزنهاور وتشرشل ثم نخب بعضهم، وعندما فرغت الزجاجة أعلن أرديشير أنه قد حان الوقت كي يصطحب روزفلت للقاء زعيم البلاد الجديد، وودع هندرسون بعناق حار.

اتخذ الجنرال زاهدي مقرًّا مؤقتًا له في نادي الضباط بالقرب من وسط المدينة، كان الجو هناك مليئًا بالغبطة، وعندما وصل روزفلت غرق في دوامة من المهنئين، ولم يتعرف على معظمهم، ولكن بدا أن العديد منهم يعرفونه، وكان الجميع حتى من لا يعرفونه يرغبون في معانقته وتقبيله، وفي نهاية الأمر أنقذه زاهدي وطالب الجميع بالتزام النظام، وألقى خطبة قصيرة ثم طلب من روزفلت التقدم.

انطلقت الهتافات الحماسية وروزفلت يتقدم. لم يكن هناك سوى بضعة أشخاص في النادي يعلمون أنه مخطط الانقلاب، ولكن الآخرين بلا شك استنتجوا ذلك. ولم يكن ذلك وقت التفاخر، ولم يقل روزفلت سوى بضع جمل كاذبة، وتولى أرديشير مهمة الترجمة.

عندما بدأ روزفلت يتحدث هدأت الضوضاء، فانطلق يقول: «أيها الأصدقاء، أيها الإيرانيون، أيها المواطنون، أعيروني انتباهكم. أشكركم على الحماس والحيوية والكرم الذي أبديتموه. ويجب أن ندرك جميعًا شيئًا واحدًا، وهو أنكم لا تدينون لي أو للولايات المتحدة أو لبريطانيا بأي شيء. ولن نطلب منكم أي شيء في المقابل، فيما عدا بعض الشكر إذا رغبتم في ذلك، وإنني أتقبله بكل سرور بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن بلادي وحلفائها بامتنان شديد.»

وهنا بدأ فاصل آخر من العناق والقبلات، ثم انسحب روزفلت بأسرع وقت ممكن، فقد كان يعمل منذ عدة أيام بلا راحة، وكان مصير أمة بأسرها في يديه، والآن بدأ الإرهاق يغلبه، فأخذ سيارة بسائق خاص وانطلق إلى مجمع السفارة ودلف في الظلام إلى المنزل الذي تناول فيه الغداء في ذلك اليوم وقرع الباب، وخلال بضع دقائق كان مستغرقًا في النوم.

لقي نحو ثلاثمائة شخص مصرعهم في معركة يوم الأربعاء، وقتل نصفهم في المعركة النهائية التي وقعت أمام منزل مصدق، ووجدت بعض العملات من فئة ٥٠٠ ريال في جيوب بعض الضحايا من المدنيين، حيث كان رجال روزفلت قد وزعوا تلك العملات في صباح ذلك اليوم على العشرات من العملاء الفرعيين.

وفي اليوم التالي تصدرت أنباء سقوط مصدق عناوين الصحف في كل أنحاء العالم، وكانت معظم الروايات كما كان متوقعًا لها بالضبط، حيث إن القصة الحقيقية كانت سرًّا مخفيًّا بدقة وظلت كذلك لعدة عقود.

كتب كينيت لوف في جريدة نيويورك تايمز: «كان الانقلاب المفاجئ تمردًا من الطبقات الدنيا ضد الضباط المؤيدين لمصدق، ففي الساعة التاسعة صباح يوم الأربعاء بدأت مجموعة من حاملي الأثقال والبهلوانات والمصارعين المسلحين بالقضبان الحديدية والسكاكين في الزحف نحو وسط المدينة وهم

يرددون هتافات مؤيدة للشاه، وكان ذلك كل ما تحتاجه القوات كي يعطوا أوامر بفض المظاهرات، فشهروا أسلحتهم في وجه الضباط، وتلقائيًّا تحولت الجماهير من التيار المؤيد لمصدق إلى التيار المؤيد للشاه.»

سجل دون شويند من وكالة أنباء أسوشييتد بريس الذي كان على غرار لوف يشاهد أحداث الانقلاب في الشارع تسلسلًا زمنيًّا لأحداث اليوم، فذكر أن الانقلاب «بدأ يتكون» في التاسعة صباحًا عندما أخذت «الجماهير المسلحة بالعصي والحجارة» ومعهم مجموعة من الجنود وضباط الشرطة في الزحف نحو وسط المدينة. واختتم كلامه قائلًا: «بحلول السابعة مساء بالتوقيت المحلي كان آخر أوكار المقاومة في العاصمة، وهو منزل مصدق والمجمع المحيط به، قد سقط في أيدي القوات التابعة لزاهدي. ولم يجد رجال زاهدي الذين اقتحموا حجرة مصدق سوى جثة حارسه الشخصي، ولا يزال مصدق وزملاؤه الوزراء مفقودين.»

طبقًا لتقرير المخابرات المركزية الأمريكية كان ذلك اليوم لروزفلت وشركائه في المؤامرة «يومًا يجب ألا ينتهي، حيث حمل لهم شعورًا بالإثارة والرضا والابتهاج من الصعب أن يتكرر بعد ذلك.» واستمرت الاحتفالات في نادي الضباط معظم الليل. وأدرك زاهدي أن عليه اتخاذ خطوات سريعة وحاسمة من أجل تعزيز منصبه الجديد، فتسلل خلسة كي يقوم بجولة سريعة لأقسام الشرطة يرافقه حامد رضا ولي العهد الذي كان يمثل علاقة زاهدي بالعائلة المالكة، وأقنعته تلك الجولة بأن قادة الشرطة مخلصون للنظام الجديد، ولما اطمأن عاد إلى نادي الضباط واستغرق في النوم بضع ساعات.

وفور أن استيقظ زاهدي يوم الخميس استدعى الجنرال نادر باتمانقليش، وهو ضابط محنك قدم لهم مساعدات عسكرية قيمة في الليلة الماضية في مقابل وعد بتعيينه رئيسًا للأركان في حالة نجاح الانقلاب، وعندما وصل باتمانقليش قلده زاهدي منصبه محلفًا إياه اليمين سريعًا ثم أعطاه أول أوامره بقمع كل المظاهرات وإغلاق الحدود وتطهير الجيش والشرطة من أنصار مصدق.

كان على زاهدي عمل الكثير في ساعاته الأولى في منصب رئيس الوزراء، فدعا أولًا إلى عقد اجتماع عاجل لمجلس الوزراء الجديد، ثم أعد أمرًا باستبدال المحافظين الذين يرتاب في تعاطفهم مع مصدق، وأمر بإطلاق سراح العديد من السجناء، ومنهم عشرون كانوا قد أدينوا في جريمة قتل رئيس الشرطة محمود أفشار طوس في بداية ذلك العام، وكانت الزيارة الوحيدة التي أجراها خارج نادي الضباط إلى محطة إذاعة طهران حيث ألقى خطبة قصيرة يعطي فيها مصدق مهلة أربعًا وعشرين ساعة كي يستسلم.

كان هذا التبادل في الأدوار سريعًا للغاية، فمنذ أربعة أيام فحسب كان زاهدي هو الهارب ومصدق رئيس الوزراء الذي طالبه في بث إذاعي بنفس محطة الإذاعة أن يسلم نفسه خلال أربع وعشرين ساعة. وكان مصدق قد عرض مكافأة قدرها مائة ألف ريال، أو ما يعادل ١٢٠٠ دولار لمن يدلي بمعلومات عن مقر زاهدي، والآن كان زاهدي يعرض نفس المبلغ لمن يدلي بمعلومات عن مصدق.

وفي منتصف النهار أرسل رئيس الوزراء الجديد برقية إلى محمد رضا شاه يخبره فيها بأن الإيرانيين يحصون الدقائق المتبقية حتى وصوله، ولكن رحيل الشاه من روما واجهته بعض العقبات الصغيرة، فلم تتمكن الإمبراطورة ثريا من الصمود أمام الضغوط التي واجهتها في الشهور الأخيرة، وفي اللحظة الأخيرة تقرر بقاؤها في روما لتلقي العلاج من الضغط العصبي الذي أصابها، ثم اتضح أنه مع أن البريطانيين قد وضعوا طائرة تحت تصرف الشاه، فإن سمعته الوطنية الضعيفة قد تضعف أكثر إذا عاد إلى طهران مستقلًا طائرة تحمل شارة بريطانية، فتقرر أن ينتظر طائرة أخرى.

لم يكن مصدق يستطيع الاختباء لفترة طويلة حتى إذا كان يرغب في ذلك، ولذلك لم يفاجأ زاهدي عندما اتصل مصدق بنادي الضباط في السادسة مساء ذلك اليوم كي يتفق بشأن تسليم نفسه. وسأله زاهدي أين يختبئ، فأجابه بأنه مختبئ بمنزل خاص بوسط المدينة، وأرسل الجنرال باتمانقليش كي يحضره. وفي تدبير وقائي ضد محاولة اغتيال قد يتعرض لها مصدق على يد أعدائه، أو محاولة إنقاذ ينفذها أصدقاؤه، أمر زاهدي

بانطلاق الدبابات في الشوارع وتأهب حاملو المدافع الرشاشة فوق أسطح المنازل بطول الطريق.

وبعد ذلك بساعة توقفت السيارة التي تقل مصدق في ساحة نادي الضباط، وخرج منها السجين الذي بدا منهكًا مرتديًا المنامة ويتوكأ على عصا صفراء اللون، وتوجه له الحرس بالتحية فبادلهم التحية، وساعدوه كي يستقل المصعد حتى مكتب زاهدي بالطابق الثالث، حيث بادر مصدق الرجل الذي هزمه قائلًا «السلام عليكم»، فرد زاهدي قائلًا «وعليكم السلام.»

قضى الرجلان عشرين دقيقة معًا خلف الباب المغلق، وكانت كل الدلائل تشير إلى أنهما تحدثا بلا ضغائن أحدهما تجاه الآخر. وعندما خرجا أمر زاهدي بأن يُصطحب مصدق ومساعدوه الثلاثة الذين استسلموا معه إلى أجنحة وثيرة بالطابق العلوي، ثم أعطى أوامره لإذاعة طهران بأن تتوقف عن إهانتهم وأن تطلق عليهم بدلًا من ذلك «أصحاب السعادة.»

ولكن الشاه لم يكن بمثل هذا الكرم، ففي حين كان مصدق يستسلم في طهران كان هو يهبط في بغداد من على متن طائرة هولندية استؤجرت له بمبلغ ١٢ ألف دولار. ورافق طائرته ثمانية من مقاتلي القوات الجوية العراقيين حتى المطار، وشرعت فرقة عسكرية في عزف السلام الوطني الإيراني وهو يترجل. وعندما توجه إليه الصحفيون بالسؤال عن خططه تجاه رئيس الوزراء المخلوع تحولت لهجته إلى الجد وانطلق قائلًا: «إن الجرائم التي ارتكبها مصدق من أخطر ما يكون، فهو شرير فاسد لا يريد من الحياة سوى السلطة بأي ثمن، ولتحقيق تلك الغاية كان مستعدًّا للتضحية بالشعب الإيراني، وكاد ينجح في ذلك، ولكن حمدًا لله فقد عرفه الشعب أخيرًا على حقيقته.»

يا له من فرق حدث في تلك الأيام الست! ففي يوم الأحد مر الشاه ببغداد متوجهًا إلى المنفى وهو أشعث رث الثياب، ولكنه الآن في طريقه للعودة ملكًا منتصرًا. وكانت الطائرة التي هرب فيها لا تزال في مهبط الطائرات، وقادها بنفسه عائدًا إلى الوطن.

هبطت طائرة الشاه في الساعة الحادية عشرة وسبع عشرة دقيقة صباح يوم السبت، وتوقفت أمام فريق من جنود الحرس الملكي. وبدا الشاه

متألقًا في زي القوات الجوية الذي طلبه من بغداد خاصة لتلك المناسبة. ورئيس الوزراء زاهدي أول من حي الشاه، حيث ركع على ركبتيه وطبع قبلة على يد الشاه الممدودة. وظهر المئات من المعجبين الآخرين، وعندما تراجع زاهدي اندفعوا للأمام. وكان العديد منهم مثل العقيد نصيري والجنرال باتمانقليش وآية الله كاشاني وشعبان الأبله والسفير لوي هندرسون قد قدموا مساعدات في غاية الأهمية لعملية أياكس. وتوجه الشاه لكل منهم بالتحية، ثم تحول عنهم كي يلقي نظرة على الجماهير شديدة الحماس. وذكر أحد المراسلين الصحفيين أن «عينيه قد دمعتا وزم شفتيه في محاولة للسيطرة على عواطفه.»

وفي خطبة ألقاها في الإذاعة في ذلك المساء وعد الشاه «بإصلاح الضرر الذي حل بالبلاد»، ولم يخفِ لومه لمصدق على معظم ذلك الضرر، وأكد ذلك بقوله: «إنني لا أحمل أي ضغينة في قلبي وأفضل الرحمة والتسامح، ولكن عندما يتعلق الأمر بانتهاك الدستور الذي أقسمنا على الوفاء له، وهو القسم الذي نسيه البعض، بالإضافة إلى حل المجلس وفساد الجيش وتبديد أموال الدولة، يجب تنفيذ القانون كما يريد الناس.»

اعتنق رئيس الوزراء زاهدي الذي كان حاضرًا مع الشاه أثناء حديثه ذلك الفكر الصارم، فعندما سأله الصحفيون لماذا يحتجز مصدق المتهم بتلك الجرائم الكبرى في مكان يتسم بالرفاهية بنادي الضباط، أجاب: «لقد عومل ذلك الشرير حتى الآن بطريقة أفضل مما يستحق، وغدًا سوف أرسله إلى سجن المدينة.»

لم يتجرأ زاهدي هكذا بفضل انتصاره فحسب، بل أيضًا بفضل التعبير المادي عن الدعم من الولايات المتحدة، وإن كان سريًّا، حيث كانت المخابرات المركزية الأمريكية قد قررت مقدمًا أن تمنح حكومته الجديدة خمسة ملايين دولار فور توليه السلطة، وتم الأمر كما كان مخططًا له، بالإضافة إلى مليون دولار إضافية لزاهدي نفسه.

ولما كان النظام الجديد قد أصبح تحت السيطرة تمامًا، حان الوقت لكيرمت روزفلت أن يغادر إيران في هدوء مثلما دخلها منذ أربعة أسابيع، ولكنه قبل أن يرحل رغب في مقابلة الشاه مرة أخيرة. واقتضى الحذر أن

يكون لقاؤهم بنفس السرية التي كانت عليها اللقاءات السابقة، فلم يكن وجود روزفلت في طهران فضلًا عن طبيعة نشاطه معلومًا إلا للقليل من الإيرانيين، فأرسل له رسالة تفيد بأنه يرغب في لقائه في نفس موعد الأسابيع الماضية عند منتصف الليل، واقترح مساء الأحد موعدًا للقاء.

لم يكن اللقاء الأخير كسابقيه، فقد كانت السيارة التي أقلت روزفلت عبر بوابات قصر سعد آباد تحمل شارة رسمية للولايات المتحدة، وجلس روزفلت داخلها بدلًا من أن يرقد مختبئًا تحت غطاء ثقيل، أما الحرس الملكي الذين كانوا يشيحون بوجوههم عندما يرونه داخلًا في الزيارات الماضية فقد حيوه بطريقة رسمية.

استقبل أحد رجال الحاشية روزفلت ورافقه عبر سلالم القصر العريضة حتى غرفة الجلوس الفخمة، وأشار إليه الشاه بالجلوس. وقدمت لهما الفودكا فتناول كل منهما كأسًا، ورفع الشاه كأسه قائلًا: «إنني أدين بعرشي لله ولشعبي ولجيش بلادي ولكم!» وتناولا الفودكا في صمت وهما يرتشفان حلاوة الانتصار. وبعد النخب الأول دار بينهما الحوار التالي الذي بدأه الشاه قائلًا:

– «جميل أن أقابلك هنا وليس في سيارة مجهولة في الطريق.»

– «بالفعل جلالتك.»

– «إن رئيس الوزراء الجديد الذي أصبح صديقكم الآن كما تعلم في طريقه إلى هنا، أهناك أي شيء ترغب في مناقشته قبل أن يصل؟»

بعد لحظات من التردد تجرأ روزفلت وقال: «حسنًا، إنني أتساءل هل توصلت إلى قرار بشأن مصدق ورياحي وبقية المشتركين في المؤامرة ضدك.»

– «لقد فكرت كثيرًا في ذلك الأمر. لقد استسلم مصدق كما تعلم قبيل عودتي، وإذا وافقت المحكمة على اقتراحي فسوف يحكم عليه بقضاء ثلاثة أعوام من الإقامة الجبرية في منزله، وبعدها سوف يصبح حرًّا في التنقل داخل القرية ولكن ليس خارجها. أما رياحي فسوف يقضي ثلاثة أعوام في السجن ثم يطلق سراحه كي يفعل ما يحلو له، بشرط ألا يكون ما يحلو له ممنوعًا. وسوف يواجه بعض المتآمرين الآخرين عقوبات مشابهة. لكن هناك استثناء واحدًا، فلم نتمكن من العثور على حسين فاطمي بعد، لكننا سوف

نعثر عليه، فهو أكثرهم إيذاء إذ شجع عصابات تودة التي هدمت تمثالي وتمثال والدي، ولذلك فعندما نعثر عليه فسوف يواجه عقوبة الإعدام.»

لم يجب روزفلت بشيء، وبعد لحظات ظهر رئيس الوزراء زاهدي الذي انحنى للشاه وابتسم ابتسامة عريضة لروزفلت الذي كرر قوله بأن النظام الجديد لا يدين بشيء للولايات المتحدة، حيث إن «النتيجة هي المكافأة.» ورد زاهدي: «إننا ندرك ذلك، ونشكركم شكرًا جزيلًا وسوف نظل دائمًا ممتنين لكم.»

كان الثلاثة الذين ضمتهم تلك الغرفة في القصر من ضمن القلائل الذين كان لديهم فكرة عن كيفية تخطيط عملية أياكس، ومرت بهم لحظة صمت تقاسموا فيها الشعور بالرضا، وكتب روزفلت فيما بعد: «كانت الابتسامات تملأ وجوهنا في ذلك الوقت، وملأ الود والصداقة جو الغرفة.»

وبعد مرور بضع دقائق نهض الشاه كي يرافق روزفلت حتى سيارته، وفي الطريق أحضر سترته وأخرج منها علبة سجائر من الذهب وقدمها إلى ضيفه «تذكارًا لتلك المغامرة.» وعلى حين غرة ظهر ضابط ضخم، كان العقيد نصيري الذي أدى أدوارًا مهمة في انقلاب السبت الفاشل والآخر الناجح الذي حدث بعدها بأربعة أيام. وهنا قال الشاه: «لقد أمرت بترقية، أقدم لك الآن الجنرال نصيري.»

كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة صباحًا عندما عاد روزفلت لمجمع السفارة فوجد السفير هندرسون في انتظاره. كان هندرسون قد أجرى ترتيبات لرحيل روزفلت في صباح اليوم التالي على متن طائرة الملحق العسكري البحري إلى بريطانيا.

لم ينم روزفلت كثيرًا، فبعد الفجر بقليل اقتيد إلى حظيرة طائرات نائية في مطار طهران، وحضر العديد من الرجال الذين شاركوه في تنفيذ الانقلاب كي يودعوه، وكتب روزفلت فيما بعد: «سرت بخطى مضطربة نحو الطائرة والدموع تترقرق في عيني.»

الفصل الثاني عشر

جون داليس راضٍ تمامًا

بعد بضعة أيام من استسلام مصدق للنظام الجديد ظهرت فصيلة من الجنود في جناحه بنادي الضباط، حيث أمر رئيس الوزراء الجديد فضل الله زاهدي بنقله إلى السجن الحربي الذي قضى فيه عشرة أسابيع ريثما تعد لائحة الاتهام، وعندما أصبحت جاهزة أحيل مصدق إلى محكمة عسكرية بتهمة الخيانة، وذلك لمقاومته أمر الشاه بالإقالة «وتحريض الناس على العصيان المسلح.» ولكنه دافع عن نفسه بقوة، مؤكدًا أن ذلك الفرمان كان جزءًا من محاولة انقلاب تمت بليل ويعتبر غير قانوني على أي حال، وذلك لأن رئيس الوزراء في إيران لا يمكن إقالته إلا بتصويت على سحب الثقة منه في المجلس.

قال مصدق للقضاة: «إن جريمتي الوحيدة هي تأميم صناعة النفط الإيرانية وتخليص هذه الأرض من شبكة الاستعمار والنفوذ السياسي والاقتصادي لكبرى إمبراطوريات الأرض في تلك البلاد.»

كان الحكم بالإدانة أمرًا مفروغًا منه، وعوقب بقضاء ثلاثة أعوام في السجن تعقبها إقامة جبرية مدى الحياة. قضى مصدق فترة العقوبة بأكملها، وبعد الإفراج عنه في صيف ١٩٥٦ اقتيد إلى منزله في أحمد آباد. وذات صباح عقب وصوله إلى منزله أجرى البوليس السري الجديد الذي يطلق عليه السافاك محاولة ساذجة لإشعاره بذل الحبس، حيث حضرت مجموعة من الرعاع أمام منزل مصدق وأخذوا يرددون شعارات عنيفة معادية له يتقدمهم زعيم العصابة شعبان الأبله الذي أصبح أحد أدوات تطبيق النظام. ولبرهة بدا أن الجماهير على استعداد لاقتحام المنزل، ولكنها انسحبت بعد

أن أطلق أحد أحفاد مصدق العديد من الرصاصات في الهواء من الداخل. وبعد عدة دقائق وصل ضابطان من السافاك وطلبا رؤية مصدق، وكانا يحملان خطابًا طلبا منه توقيعه، وهو طلب تعيين عملاء السافاك لحمايته، ووقع مصدق الذي كان يدرك حقائق السلطة ذلك الطلب دون أن يعترض. وخلال ساعة كان عملاء السافاك قد اتخذوا مواقعهم داخل المجمع المحاط بالأسوار وخارجه. وكانت التعليمات التي تلقوها — والتي لم تتغير قط طوال فترة حياة مصدق — تقضي بعدم السماح لأي أحد بزيارته سوى الأقارب والقليل من الأصدقاء المقربين.

وفي الأسابيع التي تلت الانقلاب قُبِضَ على معظم الوزراء في حكومة مصدق وأهم مؤيديه، وأفرج عن بعضهم فيما بعد دون توجيه تهم إليهم، وقضى آخرون فترات في السجن بعد إدانتهم بالعديد من الجرائم. وقُبِضَ أيضًا على ستمائة من ضباط الجيش المخلصين لمصدق، وأعدم نحو ستين منهم رميًا بالرصاص. ولاقى العديد من زعماء الطلاب في جامعة طهران نفس المصير، وأصبح حزب تودة والجبهة الوطنية من الجماعات المحظورة، وواجه أهم أنصارهما عقوبة السجن أو الإعدام.

كان حسين فاطمي الذي شغل منصب وزير الخارجية في حكومة مصدق أهم الأشخاص الذين اختيروا كي تكون عقوبتهم عبرة للآخرين، كان فاطمي شديد العداء للنظام الملكي، وأثناء أحداث العنف التي وقعت في أغسطس/آب من عام ١٩٥٣ ظل يوجه الهجوم للشاه الذي أطلق عليه «هارب بغداد» بحقد شديد، وأكد فاطمي ذات مرة أن إيران غرقت في المعاناة لأنه «في السنوات العشر الأخيرة كان البلاط الملكي الحقير الكريه المخزي خادمًا للسفارة البريطانية.» وفي إحدى خطبه وجه حديثه إلى العاهل الغائب قائلًا: «أيها الشاه الغائب! أيها الوقح! لقد أتممت التاريخ الإجرامي لسلالة بهلوي، والناس يرغبون في الانتقام منك. إنهم يرغبون في سحبك من كرسي مكتبك إلى حبل المشنقة.» ولكنهما الآن تبادلا الأدوار، وحصل الشاه على فرصته ولم يضيعها، فكما وعد كيرمت روزفلت أجرى ترتيبات لإقامة محاكمة عاجلة لفاطمي واتهامه بالخيانة وإعدامه.

كان فاطمي قد شبه الشاه ذات يوم بالثعبان «الذي يلدغ على نحو قاتل عندما تحين الفرصة»، ولكنه في نهاية الأمر أصبح ممن طالتهم اللدغة

القاتلة، ونظرًا للمصير الذي لاقاه، بالإضافة إلى كونه الشخص الوحيد المقرب من مصدق الذي ينحدر من نسل الرسول، فإن الناس تعظم ذكراه في إيران اليوم، وقد أطلق اسمه على أحد الشوارع الرئيسة بطهران، وهو شارع د. حسين فاطمي.

في الأعوام التي تلت الإطاحة بمصدق حوله محمد رضا شاه إلى شخص لا وجود له ولا يصح الحديث عنه، لم يكن ينشر عنه سوى القليل، ولم يكن ما ينشر عنه يتضمن أي كلمة إيجابية. وفي عام ١٩٦٢، وبعد أن تمكن الشاه من توطيد أركان نظامه المتزايد في القمع، سمح للجبهة الوطنية أن تعقد اجتماعًا بشرط ألا يذكر كل متحدث اسم مصدق سوى مرة واحدة فقط. وحضر مائة ألف شخص هذا الاجتماع. علموا جميعًا بالشرط الذي وضعه الشاه للمتحدثين، وعندما كان كل منهم يذكر اسم مصدق في المرة المخصصة له كانوا يطلقون هتافًا مدويًّا، وكانت تلك المرة الأخيرة التي يسمح الشاه فيها للجبهة الوطنية بالتجمع علانية.

توفيت زوجة مصدق في عام ١٩٦٥، ومع أنها ظلت في طهران خلال السنوات التي قضاها في أحمد آباد، فقد ظلا قريبين وتأثر بشدة لوفاتها. وفي خطاب أرسله لأحد الأصدقاء كتب: «أشعر بالألم الشديد لتلك المأساة ... وأدعو الله أن يقبض روحي قريبًا كي أرتاح من تلك الحياة البائسة.» وبعد ذلك بعدة أشهر أصيب بسرطان الحنجرة، وأرسل إليه الشاه رسالة يقترح فيها عليه أن يسافر للعلاج بالخارج، ولكنه رفض واختار أن يعالجه فريق طبي إيراني، فسافر إلى طهران تحت حراسة من الشرطة وقضى عدة أشهر هناك يتلقى العلاج. ونجح الأطباء في استئصال الورم، ولكنه خضع بعد ذلك لجرعات مكثفة من الكوبالت، مما أضره أكثر مما أفاده، واستمرت صحته تتدهور حتى توفي في الخامس من مارس/آذار عام ١٩٦٧ عن عمر يناهز الخامسة والثمانين. ولم تسمح الدولة بإقامة جنازة شعبية أو إعلان أي مظهر آخر من مظاهر الحداد.

حاولت شركة النفط البريطانية الإيرانية التي غيرت اسمها فيما بعد إلى بريتيش بيتروليام استعادة وضعها القديم في إيران، ولكن الرأي العام كان معارضًا لها حتى إن الحكومة الجديدة لم تتمكن من السماح لها بذلك.

وبالإضافة إلى ذلك كان منطق القوة يقضي بأنه ما دامت الولايات المتحدة قد أنجزت الجزء الأصعب من مهمة الإطاحة بمصدق، يجب أن تحصل على نصيبها من الغنيمة. وفي نهاية الأمر أنشئ اتحاد عالمي كي يتولى مسئولية ذلك الامتياز الضخم، حيث امتلكت الشركة البريطانية الإيرانية ٤٠٪ من الأسهم، وامتلكت خمس شركات أمريكية مجتمعة ٤٠٪ أخرى، ووزعت الأسهم الباقية على كل من رويال داتش/شيل وشركة النفط الفرنسية، ودفعت الشركات غير البريطانية للشركة البريطانية الإيرانية مليار دولار في مقابل نصيبها من الامتياز البالغ ٦٠٪. ومع أن ذلك الاتحاد كان يدار بواسطة الأجانب فقد احتفظ بالاسم الذي أعطاه له مصدق، وهو شركة النفط الوطنية الإيرانية، من أجل الحفاظ على مظهر التأميم. ووافقت الشركة على مناصفة الأرباح مع إيران، ولكن دون أن تسمح بفتح دفاتر حساباتها لمراقبي الحسابات الإيرانيين أو بانضمام الإيرانيين إلى مجلس الإدارة.

وفي الأعوام التالية ازداد محمد رضا شاه انعزالًا ودكتاتورية، وكان يقضي على المعارضة بأي وسيلة كانت، فأنفق مبالغ ضخمة من المال على التسليح، حيث بلغ إجمالي ما اشتراه من الولايات المتحدة وحدها عشرة مليارات دولار فيما بين عامي ١٩٧٢ و١٩٧٦. وكان يمتلك تلك الكمية الهائلة من النقد بسبب الزيادة الكبرى في أسعار النفط خلال تلك الأعوام. وزادت المليارات الأربعة التي حصلت عليها إيران من الاتحاد عام ١٩٧٣ إلى تسعة عشر مليارًا خلال عامين فقط.

في الأوقات القليلة التي كان الشاه يذكر مصدق فيها، كان يشير إليه محتقرًا «رهابه الصبياني من الأجانب» و«قوميته العنيفة». وقال لأحد أصدقائه: «كانت أسوأ أعوام حكمي، بل أسوأ أعوام حياتي بأكملها، هي تلك الأعوام التي كان مصدق فيها رئيسًا للوزراء، حيث كان ذلك الوغد متعطشًا للدماء، وكنت أستيقظ كل صباح شاعرًا بأن اليوم قد يكون آخر أيامي على العرش.»

عندما بدأ غضب الإيرانيين يتصاعد في أواخر السبعينيات، اكتشف الشاه أنه لا يوجد أحد كي يتفاوض معه بشأن التسوية، وذلك لأنه قضى

على كل الأحزاب السياسية الشرعية وفئات المعارضة الأخرى. وعندما وصل إلى مرحلة اليأس عين رئيس وزراء يدعى شابور بختيار كان يتولى منصب نائب وزير العمل في حكومة مصدق. ومن المؤكد أن الشاه شعر بأنفاس التاريخ تلفحه عندما زار بختيار قبر مصدق في أحمد آباد بعد توليه منصبه مباشرة، وألقى خطبة هناك تعهد فيها بالإخلاص «لمبادئ مصدق»، وشكل حكومة معظم أفرادها من مؤيدي الجبهة الوطنية، ووضع صورة لمصدق خلفه وهو يخاطب الصحفيين، ولكن في تلك المرحلة كان الهلاك وشيكًا حتى إن الشاه لم يكن يملك خيارًا سوى قبول تلك الوقاحة.

ظهر آية الله روح الله الخميني الذي عارض مصدق بشدة عندما كان أحد الملالي الشبان بوصفه أقوى أعداء محمد رضا شاه في أواخر السبعينيات. كان الشاه قد أرسله إلى المنفى في عام ١٩٦٤، ولكنه استمر يدعو لمبادئه الأصولية من مقره في تركيا ثم العراق وأخيرًا باريس. وعندما تولى بختيار رئاسة الوزارة أعلن الخميني احتقاره واستنكاره له، وتساءل في إحدى خطبه الإذاعية: «لماذا تتحدث عن الشاه ومصدق والمال؟ لقد انقضى كل ذلك، والإسلام هو الشيء الوحيد الباقي.»

وفي واحد من أكثر الانهيارات السياسية مفاجأة في القرن العشرين، أجبر الشاه على الفرار من وطنه في يناير/كانون الثاني من عام ١٩٧٩. وفي تلك المرة لم تتمكن المخابرات المركزية الأمريكية من إعادته إلى العرش، وفي العام التالي توفي في مصر ملعونًا من الجميع، وحل محله آية الله الخميني مقررًا لمصير إيران.

كانت الحكومة الأولى التي شكلها الخميني تتكون من الأشخاص المؤمنين بمصدق ومبادئه، حيث كان رئيس الوزراء مهدي بازاركان الذي أرسله مصدق إلى عبدان في عام ١٩٥١ كي يدير معمل التكرير بعد رحيل البريطانيين، وأصبح إبراهيم يازدي — الذي كان رئيس حزب سياسي صغير يهدف إلى الحفاظ على تراث مصدق — نائبًا لرئيس الوزراء ثم وزيرًا للخارجية. وفي أول انتخابات عقدت بعد الثورة سمح الخميني لواحد آخر من المعجبين بمصدق وهو أبو الحسن بني صدر بترشيح نفسه في الانتخابات الرئاسية والفوز.

ولفترة وجيزة بعد الثورة بدا أن مصدق نهض من قبره وعاد للسلطة، حيث أطلق اسمه على المدرسة الثانوية بأحمد آباد والشارع الرئيس بطهران الذي كان يسمى سابقًا شارع بهلوي، وصدر طابع تذكاري تخليدًا لذكراه. وفي الخامس من مارس/آذار عام ١٩٧٩ في الذكرى السنوية الثانية عشرة لوفاته، تدفق حشد ضخم من الجماهير على أحمد آباد، وكان ذلك أحد أكبر التجمعات في التاريخ الإيراني الحديث، حيث اضطر بعض الناس إلى إيقاف سياراتهم على بعد عدة أميال وقطع بقية المسافة سيرًا على الأقدام. وتزعم الرئيس بني صدر حملات الثناء على مصدق، وأعلن عن خططه لنقل جثمانه إلى ضريح بطهران، ولكن عائلة مصدق اعترضت، وكانت تمتلك وجهة نظر حكيمة في ذلك، حيث اعتقدت أنه إذا تغير التيار السياسي قد ينبش ذلك الضريح.

كان ذلك الثناء على مصدق محاولة من الإيرانيين لإعطائه حقه من التقدير الذي لم يسمح لهم بإعطائه عندما كان الشاه في السلطة، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان رسالة موجهة إلى آية الله الخميني والملالي الآخرين، فعن طريق الإشادة بمصدق كان الإيرانيون يعبرون عن رغبتهم في نظام كهذا، نظام بني على القومية والديمقراطية وسلطة القانون. ولكن سرعان ما اتضح أن الخميني لا يملك أدنى استعداد لإنشاء مثل هذا النظام، حيث عمل على توسيع قاعدة شعبيته الجماهيرية عن طريق ضم مؤيدين من الجبهة الوطنية، ولكنه فور أن تمكن من تعزيز سلطته استبعدهم، وبعد قليل بدأ يقبض عليهم. وكان من ضمن من غادروا البلاد هاربين إنقاذًا لأرواحهم هدايت الله متين دفتري، وهو الوحيد من أحفاد مصدق الذي تجرأ وانخرط في عالم السياسة.

وهكذا أغلق المتنفس الذي كان قد فتح لمؤيدي مصدق، فتغير اسم الشارع الرئيس في طهران مرة أخرى كي يطلق عليه اسم الإمام الثاني عشر، وأصبحت علمانية مصدق مكروهة من النظام الجديد كما كانت رؤيته الديمقراطية مكروهة من النظام القديم. وأدرك الملالي كما أدرك محمد رضا شاه من قبلهم أن السماح للإيرانيين بالاحتفاء بمصدق سوف يؤدي حتمًا إلى المطالبة بتشكيل حكومة تعتنق نفس مبادئه، ولم يكونوا ليسمحوا بذلك أبدًا، وهكذا فعلوا كل ما بوسعهم كي يطمسوا ذكراه.

وسرعان ما تفرقت السبل بمنظمي انقلاب ١٩٥٣ ومنفذيه، حيث أرضى الجنرال زاهدي رئيس الوزراء الجديد الشاه بالحملة القمعية التي شنها على القوميين واليساريين، ولكن سرعان ما دب بينهما الخلاف، فقد كان زاهدي على غرار مصدق يتمتع بشخصية قوية ويؤمن بأن رئيس الوزراء يجب أن يكون حرًّا في إدارة حكومته، ولكن الشاه الطموح لم يتحمل ذلك، فبعد عامين من الانقلاب أقال زاهدي من منصبه وأرسله للخارج كي يصبح سفيرًا لمكتب الأمم المتحدة بجنيف حيث توفي في عام ١٩٦٣.

أما أرديشير ابن الجنرال زاهدي الذي جعله ذكاؤه الحاد وإجادته التامة للغة الإنجليزية أحد مصادر القوة المهمة لمخططي الانقلاب، فقد واصل مشواره المهني الناجح لفترة طويلة. ومع أنه لم يكن يتجاوز منتصف العشرينيات من العمر عندما أصبح والده رئيسًا للوزراء، فسرعان ما أصبح شخصًا مؤثرًا واسع النفوذ، حيث عمل في آن واحد المستشار الشخصي لوالده وحاجب الشاه. ولم ينتهِ نفوذه بعد خروج والده من السلطة، وفي عام ١٩٥٧ تزوج ابنة الشاه الكبرى الأميرة شاهناز. وعندما شعر الشاه بالقلق من نفوذه المتزايد، أرسله إلى منفاه الذهبي كي يصبح سفيرًا لبريطانيا العظمى حيث استقبله أولئك الذين كانوا يعلمون دوره في الانقلاب بالترحاب، ثم عاد إلى طهران كي يتولى منصب وزير الخارجية، ثم أصبح سفيرًا للولايات المتحدة، وفي ذلك المنصب ظل يدافع عن الشاه حتى الرمق الأخير. وبعد نشوب الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩ انتقل إلى فيلا بسويسرا، ولم يعترف بالدور الذي لعبه في الانقلاب قط، بل إنه كتب مقالًا غير مترابط يؤكد فيه عدم تورط المخابرات المركزية الأمريكية أيضًا في ذلك الأمر، حيث كتب: «لم يكن سقوط مصدق نتيجة لأي حيل قذرة لعبتها المخابرات المركزية الأمريكية، ولم يقابل والدي أيًّا من عملائها.»

أما أسد الله راشيديان الذي كانت شبكته التخريبية من الصحفيين والسياسيين والملالي وزعماء العصابات عنصرًا أساسيًّا في نجاح عملية أياكس، فقد حالفه النجاح الساحق في الأعوام التالية، حيث ظل هو وإخوته في طهران، وازدهرت مشروعاته التجارية برعاية الشاه، وأصبح منزله ملتقى يقضي فيه السياسيون وكبار الشخصيات العديد من الأمسيات يناقشون

مصير الأمة. واستخدمه الشاه مرات عديدة مبعوثًا سريًا إلى الحكومات الأجنبية، ولكن في منتصف الستينيات أصبح الشاه منزعجًا من وجود مثل هذا الشخص واسع العلاقات في طهران، وخاصة أنه يعلم الكثير من الأسرار، وشعر راشيديان بذلك، فانتقل إلى إنجلترا الدولة المفضلة لديه حيث قضى بقية أيامه في هدوء.

لم يكن كل من اشتركوا في تنظيم الانقلاب محظوظين بما يكفي كي يقضوا أيامهم الأخيرة متقاعدين، وكان أحد هؤلاء الذين أنكر الشاه جميلهم الجنرال نصيري الذي قاد الانقلاب الأول الفاشل ضد مصدق ولعب دورًا في غاية الأهمية في الانقلاب الذي تلاه. ولأعوام عديدة بعد هزيمة مصدق ظل نصيري يشغل منصب قائد الحرس الملكي بإخلاص، وكان ينفذ أوامر الشاه طواعية وبدقة حتى إنه في عام ١٩٦٥ عين مسئولًا عن جهاز السافاك المسئول عن أعمال القمع الوحشية. وفي هذا المنصب أخذ يؤدي أقذر الأعمال للشاه دون أن يشكو لما يزيد عن عقد كامل من الزمان، واتهمه أعداء الشاه بارتكاب جرائم رهيبة. وعندما بدءوا زحفهم النهائي نحو السلطة في أواخر السبعينيات، حاول الشاه استرضاءهم عن طريق إقالة نصيري من منصبه، وادعى فيما بعد صدمته من التقارير التي تفيد بأن السافاك كانوا يستخدمون أساليب التعذيب، فأودع صديقه القديم السجن. وعقب ثورة ١٩٧٩ أرسل الملالي نصيري إلى فرقة مكلفة بتنفيذ حكم الإعدام فيه رميًا بالرصاص، ونشرت صحف طهران صورة جثته ملطخة بالدماء.

أما رئيس الأركان المخلص لمصدق الجنرال رياحي فقد قضى عامًا في السجن بعد الانقلاب ثم عاد يمارس مهنته الأصلية، ألا وهي الهندسة. وبعد نشوب ثورة ١٩٧٩ أصبح وزيرًا للدفاع لعدة أشهر حتى غمر المد المتطرف حكومة مهدي بازاركان، ثم عاد إلى حياته الخاصة حتى توفي بعد ذلك بعدة أعوام في طهران.

أهدى الشاه شعبان الأبله — وهو أشهر زعيم للجماهير التي اندفعت ثائرة في أنحاء طهران خلال الأيام المصيرية من أغسطس/آب ١٩٥٣ — سيارة صفراء من طراز كاديلاك ذات غطاء قابل للطي. وأصبح شخصية معروفة في شوارع طهران، حيث كان يقود السيارة ببطء في أرجاء المدينة وهو

يحمل مسدسًا في كل جانب مستعدًّا للانقضاض على أي شخص تبدو عليه أمارات التأييد لمصدق أو العداء للشاه. وكان عملاء السافاك يتصلون به من حين إلى آخر كلما أرادوا ضرب أحد الأشخاص أو ترويعه بأي وسيلة أخرى. وبعد الثورة الإسلامية انتقل شعبان إلى لوس أنجلوس حيث نشر مذكراته التي ينكر فيها قيامه بمعظم الأشياء التي اتهمه بها الإيرانيون.

أصبحت الأميرة أشرف توأم الشاه ذات الشخصية القوية شخصية شهيرة على المستوى العالمي في الأعوام التي تلت عودة شقيقها للجلوس على العرش. ولفترة شغلت منصب رئيس لجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان، حيث دافعت عن نظام الشاه ضد ما أطلقت عليه «المزاعم الواهية لجرائم التعذيب والقتل الكثيرة التي ارتكبها السافاك.» وطبقًا لروايتها الخاصة فقد كانت حياتها تعيسة، حيث خاضت ثلاث زيجات فاشلة وصدمت لمقتل ابنها في باريس على يد مجموعة من القتلة أرسلتهم طهران. وبعد نشوب الثورة انتقلت للإقامة في نيويورك بعد أن حصلت على نصيبها من الأموال التي اكتنزتها عائلتها على مدار سنوات عديدة والتي تبلغ مليارات الدولارات. وفي مذكراتها اعترفت بوجود ما أطلق عليه عملية أياكس، بل إنها زعمت أن تكلفتها قد بلغت مليون دولار، ولكنها أنكرت ما رواه الشركاء الآخرون عن دورها فيها.

أما مونتي وودهاوس — العميل البريطاني الذي مهدت مهمته السرية في واشنطن في يناير/كانون الثاني ١٩٥٢ الطريق لما أطلق عليه عندئذ عملية بوت — فقد عاد إلى واشنطن بعد نجاح العملية وتبادل حديثًا وديًّا مع ألان داليس، حيث قال له داليس: «كانت بذرة صالحة تلك التي ألقيتها عندما كنت هنا من قبل.» وانضم وودهاوس فيما بعد إلى طبقة النبلاء، وأصبح يعرف باللورد تيرينجتون، ثم أصبح أحد أعضاء البرلمان المحافظين ورئيس تحرير دار بينجوين للنشر. وكانت هوايته المفضلة في أواخر أيامه قراءة تاريخ اليونان وبيزنطة اللتين كتب عنهما باستفاضة، وكتب أيضًا مذكراته التي تحدث فيها بصراحة عن دوره في الانقلاب والنتائج المترتبة عليه، حيث اعترف بقوله: «من السهل اعتبار عملية بوت الخطوة الأولى في الكارثة التي وقعت في إيران عام ١٩٧٩، وما لم نتمكن من التنبؤ به أن

الشاه سوف يكتسب قوة يستخدمها بتلك الطريقة الاستبدادية، وأن كلًّا من حكومة الولايات المتحدة ووزارة الخارجية الأمريكية سوف تواجهان ذلك الإخفاق المروع في جعله يسلك مسلكًا معتدلًا، ولكن في ذلك الوقت كنا شديدي الارتياح لأن أحد الأخطار على المصالح البريطانية قد أزيل من طريقنا.»

أما هربرت موريسون وزير الخارجية البريطاني الذي دفعت شراسته ببلاده في مسار تصادم مع إيران، فقد اعتزل السياسة عام ١٩٥٩ عن عمر يناهز الحادية والسبعين، وأعطي لقب النبيل مدى الحياة، وفي أيامه الأخيرة بدا أنه نسي القوة التي كان يهاجم بها مصدق ويدافع عن شركة النفط البريطانية الإيرانية. وتتضمن سيرته الذاتية تفاصيل دقيقة عن دوره في إنشاء وحدة المطافئ وإصدار قانون المرور لعام ١٩٣٠، ولكنه خصص لإيران أقل من صفحة، وأكد أنه كان يفضل اتخاذ «إجراءات صارمة عنيفة» ضد مصدق، ولكن رئيس الوزراء أتلي رفض الموافقة على فكرة الغزو لأنها «سوف تستغرق الكثير من الوقت وقد يواجهها الفشل.»

كتب أتلي في مذكراته أن تعيين موريسون في منصب وزير الخارجية كان «أسوأ اختيار قمت به على الإطلاق»، ولم يندم قط على رفضه شن الحرب على إيران، حيث أكد أن «مثل ذلك الإجراء كان جائزًا بلا شك في الماضي، ولكنه في العصر الحديث سوف يؤدي إلى إثارة غضب الرأي العام في الداخل والخارج. وأرى أن تلك الأيام — عندما كانت المشروعات التجارية في الدول الصناعية التي تحصل على امتياز تستمر في عملها دون اعتبار لمشاعر مواطني تلك الدول — قد ولت ... وقد أظهرت شركة النفط البريطانية الإيرانية انعدامًا في الإحساس بعدم إدراكها ذلك.»

لم يلقِ كُتَّاب سيرة وينستون تشرشل بالًا لدوره الحيوي في الانقلاب الذي أطاح بمصدق، بل إن معظم الكتب التي تتحدث عنه لا تذكر ذلك الأمر قط. وقد ذكر تشرشل ذات مرة سرًّا أنه يعد ذلك الانقلاب «أروع العمليات على الإطلاق منذ نهاية الحرب»، ولكنه لم يره قط سوى حدث عابر في مشواره المهني.

أما البطل أو الشرير في تلك المسرحية وهو كيرمت روزفلت فقد انخرط في مشوار مهني عادي على نحو لم يتوقعه أحد. وفي طريقه للعودة من

طهران بعد نجاح الانقلاب توقف في لندن كي يعطي تشرشل ملخصًا للأحداث بصورة شخصية. وعندما انتهى من حديثه بادره تشرشل قائلًا: «أيها الشاب، لو كنتُ أصغر من ذلك ببضع سنوات فقط، لما كان شيء أحب إليّ من العمل تحت قيادتك في تلك المغامرة الكبرى.» وبعد مرور بضعة أيام أعاد روزفلت هذا الملخص في البيت الأبيض على مسامع الرئيس أيزنهاور وجون فوستر داليس وألان داليس وعدد محدود من كبار المسئولين، وعقب ذلك قلده أيزنهاور نوط الأمن القومي في احتفال سري.

اختتم روزفلت الملخص الذي أعطاه في البيت الأبيض بالتحذير من أن المخابرات المركزية الأمريكية يجب ألا تتخذ ذلك النجاح في إيران دليلًا على أن بوسعها الآن إسقاط الحكومات وقتما تشاء، ولكن هذا بالضبط ما كان يفكر فيه الأخوان داليس، حيث كانا يخططان بالفعل لإسقاط النظام ذي الميول اليسارية في جواتيمالا وطلبا من روزفلت أن يقود ذلك الانقلاب، ولكنه رفض. وفي عام ١٩٥٨ استقال من المخابرات المركزية الأمريكية، وبعد أن قضى ستة أعوام في شركة جالف أويل بدأ سلسلة من المشروعات الاستشارية الناجحة. وحتى وفاته في عام ٢٠٠٠ ظل يعتبر أغسطس/آب ١٩٥٣ النقطة المضيئة في حياته، وظل يؤمن إيمانًا تامًّا بأن الانقلاب الذي خطط له كان عادلًا وضروريًّا.

أكان كذلك بالفعل؟ لا يمكننا بالطبع إيجاد إجابة حاسمة لمثل هذا السؤال الحرج، حيث إن مجموعة كبيرة من العوامل تؤثر في مجرى التاريخ، ويعتبر التوصل إلى استنتاجات حول الأسباب والنتائج في غاية الخطورة. ومع ذلك لا ينكر أحد أن انقلاب ١٩٥٣ أدى إلى سلسلة من العواقب غير المحسوبة، حيث كانت نتيجته المباشرة إعطاء محمد رضا شاه الفرصة كي يصبح طاغية، وبدأ يحصل على مبالغ ضخمة من الولايات المتحدة، حيث بلغت المعونات التي حصل عليها أكثر من مليار دولار في العقد الذي تلا الانقلاب، ولكن حكمه الاستبدادي ساهم في استجلاب عداء الإيرانيين له، وفي عام ١٩٧٩ انفجر ذلك الغضب على هيئة ثورة مدمرة بقيادة الأصوليين الإسلاميين.

وعقب الإطاحة بالشاه سمح له الرئيس جيمي كارتر بدخول الولايات المتحدة، مما دفع بالمتطرفين الإيرانيين إلى نوبة من الغضب، فاقتحموا

السفارة الأمريكية بطهران بموافقة زعمائهم الجدد، واحتجزوا اثنين وخمسين دبلوماسيًّا أمريكيًّا رهائن لما يزيد عن أربعة عشر شهرًا. واعتبر الغربيون — وخاصة الأمريكيين — تلك الجريمة وحشية وغير مبررة، وذلك لأنه لم يكن أحدهم يعلم دور الولايات المتحدة في فرض النظام الملكي الذي أصبح الإيرانيون يبغضونه بشدة. كان محتجزو الرهائن يتذكرون أنه عندما فر الشاه هاربًا إلى المنفى في عام ١٩٥٣ أعاده عملاء المخابرات المركزية الأمريكية الذين كانوا يعملون بالسفارة إلى عرشه، ولذلك فقد خشي الإيرانيون أن يعيد التاريخ نفسه.

قال أحد محتجزي الرهائن بعد أعوام عديدة موضحًا: «كان الشك يخامرنا في أن منح الشاه حق اللجوء للولايات المتحدة يعني أن العد التنازلي لانقلاب آخر قد بدأ، واعتقدنا أننا سوف نواجه نفس المصير مرة أخرى، وفي تلك الحالة لن نتمكن من إلغائه، وهكذا كان علينا أن نقلب الأوضاع.»

غيرت واقعة الرهائن من مسار التاريخ السياسي للولايات المتحدة، وأدت إلى تسمم العلاقات بينها وبين إيران، حيث دفعت بالولايات المتحدة إلى دعم العراق في حربها الطويلة الرهيبة مع إيران في محاولة لتعزيز النظام الدكتاتوري الخاص بالرئيس العراقي صدام حسين، وفي إيران زادت من قوة العناصر المقاتلة في التحالف الثوري. وبرر أحد مستشاري آية الله الخميني المقربين الذي خلفه فيما بعد في منصب المرشد الأعلى تطرف النظام قائلًا: «لسنا نعتنق الليبرالية مثل أليندي[1] ومصدق بحيث تتمكن المخابرات المركزية الأمريكية من القضاء علينا.»

لم يفرض رجال الدين الأصوليون الذين عززوا قواهم في إيران في أوائل الثمانينيات نوعًا من الفاشية الدينية على بلادهم فحسب، بل إنهم أيضًا حولوا بلادهم إلى مركز لنشر الإرهاب بالخارج. وكان دعمهم لمحتجزي الرهائن من الدبلوماسيين الأمريكيين في طهران ليس إلا بداية لحملتهم العنيفة المعادية للغرب، فسرعان ما أخذوا يمولون حماس وحزب الله وبعض الفصائل الأخرى في الشرق الأوسط المعروفة بتورطها في عمليات الاختطاف والاغتيال

---

[1] سلفادور أليندي (١٩٠٨–١٩٧٣): سياسي تشيلي ورئيس جمهورية تشيلي منذ ١٩٧٠ وحتى ١٩٧٣ عند مقتله في الانقلاب العسكري الذي أطاح بحكمه. (المترجمة)

السياسي، وأرسلوا عملاءهم في كل أنحاء العالم لاغتيال عشرات الإيرانيين المنشقين والعديد من الأعداء الآخرين، ومنهم رئيس الوزراء السابق شابور بختيار. وزعم المحققون الأمريكيون تورطهم في العملية الانتحارية التي وقعت عام ١٩٨٣ وتسببت في مقتل ٢١٤ جنديًّا بحريًّا أمريكيًّا في بيروت، وهجوم ١٩٩٦ الذي نتج عنه مقتل تسعة عشر آخرين من الجنود البحريين في المملكة العربية السعودية. وأكد وكلاء النيابة في الأرجنتين أنهم أمروا بتنفيذ أبشع الجرائم المعادية للسامية في عصر ما بعد الهولوكوست، وهو تفجير المركز الاجتماعي اليهودي في بوينوس أيريس عام ١٩٩٤، وهو الحدث الذي خلف ثلاثة وتسعين قتيلًا.

ونظرًا لانتمائهم للإسلام الأصولي واستعدادهم لارتكاب أفظع أشكال العنف، أصبح زعماء إيران الثوريون أبطالًا في نظر المتعصبين في العديد من دول العالم. ومن ضمن من تأثروا بهذا النموذج الأفغان الذين أسسوا جماعة طالبان ودفعوا بها إلى السلطة في كابول وأعطوا أسامة بن لادن القاعدة التي شن منها هجماته الإرهابية المدمرة. ولن يعد نوعًا من المبالغة إذا رسمنا خطًّا من عملية أياكس يمر بنظام الشاه القمعي والثورة الإسلامية وينتهي بالطائرات التي دمرت مركز التجارة العالمي بنيويورك.

لقد دفع العالم ثمنًا غاليًا لغياب الديمقراطية في معظم أنحاء الشرق الأوسط، فقد علّمت عملية أياكس الطغاة والطامحين لأن يصبحوا من الطغاة أن أقوى الحكومات في العالم مستعدة للتساهل مع الظلم بلا حدود ما دامت النظم القمعية مؤيدة للغرب ولشركات النفط الغربية، مما ساعد في انحراف الميزان السياسي في منطقة كبيرة بعيدًا عن الحرية ونحو الدكتاتورية.

وعندما بلغ جيل ما بعد الثورة في إيران سن النضج، بدأ المثقفون الإيرانيون يقيمون التأثيرات بعيدة المدى لانقلاب ١٩٥٣. ونشر العديد منهم مقالات عميقة الفكر أثارت الكثير من الأسئلة المهمة، ونشر أحدها في جريدة تهتم بشئون السياسة الخارجية الأمريكية:

> يمكننا القول إنه لولا الانقلاب لأصبحت إيران دولة ديمقراطية ناضجة. وكانت الآثار التي خلفها الانقلاب صادمة حتى إنه عند رحيل الشاه عام ١٩٧٩ خشي العديد من الإيرانيين تكرار ما

حدث في عام ١٩٥٣، وهو ما كان أحد دوافع استيلاء الطلاب على سفارة الولايات المتحدة. وعجلت أزمة الرهائن بدورها من الغزو العراقي لإيران، في حين لعبت الثورة [الإسلامية] ذاتها دورًا في اتخاذ القرار السوفييتي بغزو أفغانستان. وباختصار فإن الكثير من أحداث التاريخ قد نتجت عن أحداث أسبوع واحد في طهران ...

كان انقلاب ١٩٥٣ والنتائج المترتبة عليه نقطة البداية للتحالفات السياسية في الشرق الأوسط الحديث وآسيا الوسطى، والآن بعد ذلك الإدراك المتأخر هل يمكننا القول إن الثورة الإسلامية التي نشبت عام ١٩٧٩ كانت حتمية؟ أم أنها أصبحت كذلك بعد القضاء على طموحات الشعب الإيراني مؤقتًا عام ١٩٥٣؟

من وجهة نظر تاريخية يسهل رؤية النتائج المأساوية لعملية أياكس، وسوف تظل مصدر بلاء في العالم لسنوات عديدة قادمة. ولكن ماذا لو لم ينفذ هذا الانقلاب؟ كان الرئيس ترومان مصرًّا حتى اليوم الأخير له في منصبه على عدم تدخل الولايات المتحدة في إيران، فماذا لو شاركه الرئيس أيزنهاور هذا الاعتقاد؟

يؤكد المدافعون عن الانقلاب أن الاتحاد السوفييتي كان يتحين الفرصة للهجوم على إيران، وأن تنفيذ الانقلاب كخطوة وقائية كان ضروريًّا لأن التخلص من الاحتلال السوفييتي أمر صعب، بل ربما يكون مستحيلًا. ومن وجهة نظرهم كانت المراهنة على عدم تحرك السوفييت أو إمكانية هزيمتهم في غاية الخطورة.

بعد مضي عدة عقود قال جون والر أحد مقاتلي عملية أياكس الذين عمروا بعدها طويلًا مؤكدًا على هذا: «كانت المسألة أكبر من إيران بكثير؛ كانت تخص ما فعله السوفييت وما نعلمه عن خططهم المستقبلية. ومن المثير للاهتمام أن نرى ما وضعته روسيا على قائمة أولوياتها، وما أرادته، وكانت إيران في أوائل تلك الأولويات. ولا أعتقد أنه كان هناك أي شخص لا يخيفه الخطر السوفييتي، فقد كان خطرًا حقيقيًّا.»

وكان يؤمن بنفس الاعتقاد سام فال الذي رافق مونتي وودهاوس في مهمته إلى واشنطن عندما كان دبلوماسيًّا بريطانيًّا شابًّا وأُرسِل فيما بعد إلى طهران، إذ كتب في مذكراته إن الانقلاب كان «بالطبع أمرًا غير أخلاقي» لأنه يمثل تدخلًا في الشئون الداخلية لدولة أجنبية، ولكنه أضاف: «كان عام ١٩٥٢ فترة زمنية في غاية الخطورة، فقد كانت الحرب الباردة مشتعلة في كوريا، وحاول الاتحاد السوفييتي الاستيلاء على برلين عام ١٩٤٨، وكان ستالين لا يزال حيًّا، ولم تكن القوى الغربية على استعداد بأي حال لتحمل مجازفة الاحتلال السوفييتي لإيران، وهو الحدث الذي كان سيؤدي بالتأكيد إلى اندلاع الحرب العالمية الثالثة.»

ولكن التاريخ يلقي بظلال الشكوك حول تلك المخاوف، فقد حاول ستالين في أواخر الأربعينيات إحداث اضطرابات في إيران عن طريق مجموعة من الوسائل العسكرية والسياسية، ولفترة ظل جنوده يتحكمون بالفعل في قطاع كبير من شمال إيران، ولكن الضغط الدبلوماسي من واشنطن وطهران أجبره على التراجع، مما يوحي بأن السوفييت كانوا عازفين عن المحاولة مرة أخرى.

وعقب وفاة ستالين في بداية عام ١٩٥٣ بدأ النظام في الكريملين يتبنى سياسة خارجية أقل عدوانية، ولكن ذلك لم يكن واضحًا في حينه، حيث كان من الممكن أن يتولى شخص متوحش أرعن مثل بريا السلطة بدلًا من خروشوف المعتدل ويقوم بالعديد من التوسعات الاستفزازية. وكان ذلك خطرًا لا يمكن تجاهله من وجهة نظر المخابرات المركزية الأمريكية.

ومن الأمور التي لا يوجد لها جواب قاطع حتى الآن قوة حزب تودة المؤيد للسوفييت في أوائل الخمسينيات، حيث زعم الأخوان داليس أن حزب تودة قد كون شبكة ضخمة مستعدة للاستيلاء على السلطة فور سقوط مصدق أو استبعاده من منصبه، ولكن الباحثين الذين درسوا تاريخ حزب تودة والمنظمات الحليفة له يشكون في ذلك، فقد كان حزب تودة منقسمًا بين المثقفين الذين يعارضون مصدق لأنهم يرونه عقبة في طريق الشيوعية وبين قاعدة جماهيرية تتكون من معجبيه. وكان الحزب يمتلك خلايا في الجيش والخدمة العامة، ولكنها لم تكن كبيرة أو مؤثرة بالقدر الذي كانت تبدو به.

وبعد مرور فترة طويلة على حدوث الانقلاب، أجرى أحد الباحثين حوارًا مع الدبلوماسي الأمريكي الذي تولى مراقبة حزب تودة في أوائل الخمسينيات، بالإضافة إلى اثنين من عملاء المخابرات المركزية الأمريكية الذين أرسلوا معه إلى سفارة الولايات المتحدة بطهران، اعترف هؤلاء بأن «حزب تودة لم يكن بالغ القوة، وأن مسئولي الولايات المتحدة رفيعي المستوى دأبوا على المبالغة في قوته وفي اعتماد مصدق عليه.»

أما السؤال الحرج: هل كان الانقلاب الأمريكي ضروريًّا لمنع السوفييت من تنظيم انقلاب خاص بهم؟ فلا نملك له جوابًا شافيًا، فلا أحد يعلم كيف كان سيتصرف السوفييت، وهل كان سيحالفهم النجاح. لا شك أن الانقلاب كانت له عواقب وخيمة، ويعلم الله وحده ما كانت ستؤول إليه الأحداث لو لم يقع ذلك الانقلاب.

كيف وصلت إيران إلى مفترق الطرق المأساوي في أغسطس/آب ١٩٥٣؟ تقع المسئولية الأساسية على عاتق غباء الاستعمار الحديث الذي كان يوجه شركة النفط البريطانية الإيرانية، واستعداد الحكومة البريطانية لقبوله. ولو كانت الشركة قد أبدت ولو شيئًا من الوعي لكان بإمكانها التوصل إلى تسوية مع السلطات الإيرانية. ولو كانت الشركة قد تعاونت مع رئيس الوزراء رازمارا الذي كان يرغب في بقاء البريطانيين في إيران، لكان من الممكن ألا يتولى مصدق السلطة قط. ولكن إدارة الشركة والمسئولين الحكوميين الذين كانوا يدللونها قد توقف بهم الزمن عند العقلية الاستعمارية، وكانوا يحتقرون الإيرانيين وطموحاتهم. وكان دين أتشيسون محقًّا عندما كتب: «لم يحدث من قبل أن خسرت مجموعة صغيرة كهذه الكثير بتلك الحماقة والسرعة.»

ولكن أتشيسون ألقى باللوم أيضًا على مصدق الذي وصفه بأنه «تحركه دوافع الكراهية العمياء تجاه البريطانيين والرغبة في طردهم نهائيًّا من البلاد مهما كان الثمن.» وبالطبع كان مصدق معارضًا للتسوية بقدر ما كان البريطانيون يعارضونها، ففي عدة مرات كان يمكنه إعلان النصر وعقد صفقة معهم، ففي عام ١٩٥٢ على سبيل المثال تحول إلى بطل قومي لا يقهر، حيث أعيد إلى السلطة عن طريق انتفاضة شعبية غير مخططة، وحقق

انتصارًا ساحقًا على البريطانيين في محكمة العدل الدولية، وكان الرئيس ترومان في صفه. وكان أي قائد أكثر عملية منه سينتهز تلك الفرصة، ولكن مصدق لم يكن عمليًّا على الإطلاق، بل كان مثاليًّا حالمًا متفائلًا، وقد جعلت نظرته الأحادية التي شن بها حملته ضد شركة النفط البريطانية الإيرانية من المستحيل له التوصل إلى تسوية عندما كان عليه وبإمكانه فعل ذلك.

ومن أوجه القصور الأخرى في حكم مصدق على الأمور عجزه أو رفضه إدراك نظرة الزعماء الغربيين للعالم، فقد كانوا في حالة ذعر من انتشار النفوذ الشيوعي، ولكن مصدق كان يعتقد أن صراعه مع شركة النفط البريطانية الإيرانية لا علاقة له بالمواجهة العالمية بين الشرق والغرب. ولكن هذا التفكير لم يكن واقعيًّا على الإطلاق، حيث كان صناع القرارات في واشنطن وموسكو يرون كل أحداث العالم جزءًا من الحرب الدائرة بينهما من أجل التحكم في مصير العالم. وكانت حماقة من مصدق أن يظن أن بإمكانه الفصل بين قضية إيران رغم عدالتها وبين هذا الصراع الشامل.

كان مصدق أيضًا ساذجًا في تقييمه للشيوعيين الذين يسيطرون على حزب تودة ويعملون بدأب من أجل اختراق حكومة إيران وجيشها ومجتمعها المدني، فقد كان يبغض الاستبداد ويؤمن بأن الإيرانيين يجب أن يكونوا أحرارًا فيما يقولونه ويفعلونه. ولم يبدُ أن فكرة استغلال الشيوعيين للنظم الديمقراطية في أوروبا الشرقية من أجل الاستيلاء على السلطة والقضاء على الديمقراطية تزعجه. وقد وضعه رفضه اتخاذ إجراءات صارمة ضد الحركات الشيوعية في إيران على القائمة السوداء في واشنطن. وقد يكون ذلك نوعًا من الظلم، ولكنه كان الواقع القاسي لذلك العصر، وبعدم إدراكه ذلك الواقع قوى مصدق من شوكة أعدائه.

خلال الأشهر الستة والعشرين التي مكثها مصدق في السلطة لم يحاول قط تحويل الجبهة الوطنية إلى حركة سياسية متماسكة، بل ظلت تحالفًا هشًّا بلا قيادة مركزية أو قاعدة سياسية منظمة. وفي انتخابات المجلس لعام ١٩٥٢ لم يبذل مصدق مجهودًا كي يجمع قائمة مرشحين للانتخابات ملتزمين ببرنامج الحكومة، مما جعلها معرضة للهجوم من الدخلاء الذين سعوا إلى كسر شوكتها وأعاقها عن تكوين مجموعة أنصار كان بإمكانهم الاحتشاد للدفاع عنها في الأوقات العصيبة.

ورغم أخطاء مصدق التاريخية لا يمكن القول إنه كان رئيس وزراء فاشلًا، حيث كانت إنجازاته شديدة الأهمية، بل مذهلة أحيانًا؛ فقد قاد شعبه في رحلة طويلة وشاقة نحو الديمقراطية والاكتفاء الذاتي، ولم يغير ذلك من تاريخهم فحسب، بل أيضًا من رؤيتهم لأنفسهم وللعالم من حولهم، ووجه ضربة قاتلة للنظام الاستعماري، وعجل بانهياره التام. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان مصدر إلهام للناس في كل أنحاء العالم الذين يؤمنون بأن الأمم عليها وبإمكانها الكفاح من أجل تحقيق الحكم الذاتي. وهو يتصدر التاريخ الإيراني وتاريخ الشرق الأوسط وتاريخ مقاومة الاستعمار، ولا تكتمل أي رواية لأحداث القرن العشرين دون أن يأتي ذكره فيها.

جلب مصدق وشركة النفط البريطانية الإيرانية كل منهما المصائب لنفسيهما عن طريق رفضهما المحاولات المتكررة للتسوية، ولكن التصادم الأخير بينهما ما كان سيحدث لو لم يتعاون الناخبون البريطانيون والأمريكيون معًا، وهو ما فعلوه بطريقة تنم عن الجهل الشديد، حيث كانت إيران قضية ظاهرة ولكنها لا تحتل مساحة كبرى في الحملة السياسية التي أعادت وينستون تشرشل إلى كرسي الحكم في لندن. ولم يكن ذلك الموضوع مطروحًا على الإطلاق في حملة دوايت أيزنهاور الانتخابية، مع أن الخوف من المد الشيوعي العالمي ساهم بالطبع في تشكيل مفاهيم العديد من الناخبين. وقد حددت نتائج الانتخابات في البلدين الرغبة في التغيير، وفي إيران البعيدة أدت تلك النتائج إلى تغيير مستقبلها للأبد، فلو لم يفز تشرشل وأيزنهاور في الانتخابات ما كانت عملية أياكس ستتم.

كانت الانتخابات في الولايات المتحدة شديدة الأهمية، وذلك لأنها أحضرت جون فوستر داليس وألان داليس إلى السلطة. وكان الأخوان يسعيان نحو هدف محدد ويهتمان بشدة بالخطر الشيوعي العالمي. وقد يكون قرارهما بخوض المعركة الأولى في حملتهما على أرض إيران حكيمًا وقد لا يكون، ولكنهما يستحقان أن نحكم عليهما بقسوة للطريقة التي نفذاه بها؛ فقبل أن يتوليا منصبيهما رسميًّا ويؤديا القسم أقنع الأخوان نفسيهما بأن مصدق يجب أن يرحل بلا شك، ولم يفكرا للحظة في احتمال أن تكون فكرة الانقلاب خاطئة أو أن يكون لها تداعيات سلبية. وقد ينظر التاريخ

لصنيعهما بعين التأييد لو كان ذلك القرار نتاج الكثير من التفكير والنقاش الجاد المتفتح، ولكنه نتج عن نفاد صبر شديد ورغبة قوية في عمل أي شيء يبدو انتصارًا على الشيوعية. كانت الأيديولوجية وليس العقل هي ما حركت الأخوين داليس، وكانت إيران المكان الذي اختارا البدء به كي يظهرا للعالم أن الولايات المتحدة لم تعد جزءًا مما أطلق عليه نائب الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون «مدرسة دين أتشيسون في الاحتواء الحذر للشيوعيين.»

لم يكن هناك فرق جوهري في الطريقة التي ينظر بها ترومان وأيزنهاور إلى الخطر الشيوعي، فقد كان كل منهما يعتقد أن موسكو توجه حملة قاسية من التخريب تهدف إلى السيطرة على العالم، وأن إيران أحد الأهداف المحتملة لتلك الحملة، وأن أهم الأولويات القومية للولايات المتحدة مقاومة تلك الحملة والقضاء عليها. ولكنهما اختلفا بشدة في طريقة المقاومة الأمريكية، حيث كان ترومان يرحب بصعود الحركات القومية في الدول النامية، ويعتقد أن الولايات المتحدة بإمكانها أن تظهر للعالم صداقتها المخلصة لآسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية عن طريق تأييد الحركات القومية بها، ويبغض فكرة إسقاط الحكومات الأجنبية، وذلك لأنه كان يدرك أن عواقبها على المدى الطويل لا يمكن التنبؤ بها وقد تؤدي إلى وقوع الكوارث.

قضى ترومان أوقاتًا طويلة يفكر في إيران ويتحدث عنها، ولكن أيزنهاور كان أقل اهتمامًا، حيث سمح للأخوين داليس بتشكيل سياسة إدارته تجاه العالم الثالث المليء بالاضطرابات، وكانا متلهفين إلى تحقيق نجاح سريع ملموس في حملتهما المضادة للشيوعية، واعتقدا أن العمليات السرية وسيلة مناسبة لتحقيقها، ولم يبدُ لهما أن تنفيذ انقلاب وقائي واتخاذ إجراءات ضد أخطار لم تقع بعد خطوة حكيمة فحسب، بل أيضًا ضرورة ملحة. ولم يقلقا بشأن العواقب المستقبلية لهذا الانقلاب، لأنهما كانا يعتقدان أنه إذا لم تدعمه الولايات المتحدة فسوف يتعرض مستقبلها للخطر.

كان لنجاح عملية أياكس تأثير فوري بعيد المدى في واشنطن، فبين عشية وضحاها أصبحت المخابرات المركزية الأمريكية جزءًا رئيسًا في أجهزة السياسة الخارجية الأمريكية، وأصبحت العمليات السرية طريقة فعالة وغير مكلفة لتغيير مسار الأحداث العالمية. وشعر كيرمت روزفلت بذلك الرأي

يزداد قوة قبل أن ينتهي من تقديم تقريره عن ملخص الأحداث في البيت الأبيض في الرابع من سبتمبر/أيلول عام ١٩٥٣، حيث كتب فيما بعد: «بدا أحد مستمعيّ شديد الحماس بطريقة مخيفة، واتكأ جون فوستر داليس للخلف في مقعده، ولكنه رغم تلك الجلسة كان أبعد ما يكون عن النعاس، فقد كانت عيناه تلمعان وتبدو عليه علامات الرضا. وبدا واضحًا أنه لا يستمتع بما يسمعه فحسب، بل إن حدسي أخبرني بأنه يخطط لشيء ما.»

كان داليس بالفعل يخطط لشيء ما، ففي العام التالي نظم بالاشتراك مع شقيقه الانقلاب الثاني في تاريخ المخابرات المركزية الأمريكية الذي أطاح بالرئيس جاكوبو أربينز في جواتيمالا وأدى إلى وقوع سلسلة من الأحداث في البلاد أدت بدورها إلى نشوب حرب أهلية راح ضحيتها مئات الآلاف من الأرواح. وشرعت المخابرات المركزية الأمريكية فيما بعد في اغتيال الزعماء الأجانب في كوبا وتشيلي والكونغو وفيتنام، أو الإطاحة بهم، وكان لكل من تلك العمليات أصداء عميقة لا تزال تتردد حتى يومنا هذا، وأدت بعضها إلى تعاسة ومعاناة شديدة وجعلت بعض مناطق العالم تناصب الولايات المتحدة العداء الشديد.

هناك سؤال أخير يحتاج إلى إجابة، وهو لماذا نجحت عملية أياكس؟ تتعلق الإجابة إلى حد بعيد بالحظ والمصادفة، فلو اتخذ أهم الشركاء قرارات مختلفة في أي من المراحل الكثيرة للعملية لفشل الانقلاب.

كان من الممكن أن يقرر كيرمت روزفلت الاستسلام والعودة لبلاده بعد المحاولة الفاشلة التي جرت في الخامس عشر من أغسطس/آب، وكان الأقوى احتمالًا من ذلك أن يتصرف مصدق ومستشاروه مع المتآمرين بصرامة أكثر. وقال شابور بختيار في حوار أجري معه بعد مرور عدة أعوام مؤكدًا على هذا: «كان يجب على مصدق التحرك على الفور والأمر بإعدامهم جميعًا.» كان يمكن أن ينقذ ذلك الإجراء الموقف، ولكن تلك لم تكن طبيعة مصدق.

كان من الممكن أن يفشل الانقلاب لو أسرع مصدق في توجيه أوامره للشرطة باتخاذ إجراءات عنيفة ضد الحشود المعادية التي أرسلها روزفلت وعملاؤه في الشوارع. وكان من الممكن أن يفشل لو كان مصدق عندما

أمر أخيرًا بشن حملة لفرض النظام استعان بضابط مخلص كي ينفذها بدلًا من الجنرال دفتري المعروف بانتمائه للمحافظين. وكان من الممكن أن يفشل لو لم يعترض دفتري سبيل المجموعة المخلصة بقيادة الجنرال كياني القادمة كي تدافع عن الحكومة ويجعلها تعود أدراجها. وكان من الممكن أن يفشل لو تمكن رئيس الأركان المخلص الجنرال رياحي من الهروب من الأسر وتعبئة المزيد من الجنود المخلصين. وكان من الممكن أن يفشل لو دعا مصدق مؤيديه إلى الخروج في الشوارع بدلًا من إعطائهم أوامر بالمكوث في المنازل في اليوم السابق لتوجيه الضربة الأخيرة. وكان من الممكن أن يفشل لو قرر شيوعيو حزب تودة المنظمون التحرك نيابة عن مصدق.

ولا شك أنه ما كان سيحدث انقلاب في أغسطس/آب ١٩٥٣ لولا تدخل المخابرات المركزية الأمريكية، فقد خططت المخابرات المركزية الأمريكية لعملية أياكس، ودفعت مبالغ ضخمة من أجل تنفيذها، حيث تقدر التكلفة الإجمالية بمبلغ يتراوح بين مائة ألف دولار وعشرين مليون دولار، وذلك بناء على أي التكاليف احتسبت، وعينت أحد أكثر عملائها إبداعًا كي يديرها. ولكن كيرمت روزفلت ورفاقه ما كانوا سينجحون لولا مساعدة الإيرانيين، فقد قدمت لهم مجموعتان من الإيرانيين مساعدات هائلة، أولهما الإخوة راشيديان وبعض العملاء السريين الآخرين الذين قضوا أعوامًا في بناء الشبكة التخريبية التي وجدها روزفلت بانتظاره عندما وصل، وثانيهما ضباط الجيش الذين أحضروا مجموعة رهيبة من الأسلحة في اليوم الحاسم.

كانت إيران تسقط في هاوية الفوضى في الأسابيع الأخيرة من حكم مصدق، فقد عمل العملاء البريطانيون والأمريكيون بدأب شديد لإحداث انقسام في صفوف الجبهة الوطنية وبقية المجتمع الإيراني، وأثبتت جهودهم مدى ضعف المجتمعات غير المتطورة في مواجهة حملة منظمة من الرشوة وتقويض الاستقرار. ولكن مصدق نفسه كان أحد العوامل التي أدت إلى وصول إيران لطريق مسدود في منتصف عام ١٩٥٣، وقد يكون من المبالغة أن نؤكد ما زعمه البعض من أن مصدق كان في الحقيقة راغبًا في الإطاحة به، غير أنه كان قد استنفد كل الخيارات المتاحة لديه، وشعر العديد من الإيرانيين بذلك، وكانوا مستعدين لبداية جديدة.

هيأ عملاء المخابرات الأجانب المسرح للانقلاب وأطلقوا القوى التي نفذته من عقالها، ولكن في لحظة معينة اتخذت العملية زخمًا خاصًّا بها. كان الحشد الضخم الذي اندفع في شوارع طهران في الثامن عشر من أغسطس/آب يتكون بعضه من المرتزقة والبعض الآخر كان تعبيرًا صادقًا عن فقد الثقة بمصدق. ووضعت المخابرات المركزية الأمريكية الأساس لأحداث ذلك اليوم، ولكنها اعترفت في تقريرها للأحداث بأنها «لن تعلم أبدًا إلى أي مدى اعتمدت النتائج على الجهود التي بذلها عملاؤنا.»

سرعان ما أدرك الإيرانيون بعد وقوع الانقلاب أن الأجانب لعبوا دورًا رئيسًا في تنظيمه، ولكن ذلك الإدراك لم ينتشر في الولايات المتحدة إلا في وقت متأخر عندما انفجر الشعور بالكراهية للأمريكيين في إيران بعد نشوب الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩، فعندها فقط أدرك الأمريكيون أن بلادهم مكروهة هناك، وتمكنوا تدريجيًّا من إدراك السبب.

بعد أربعة أشهر من الإطاحة بمصدق، سافر ريتشارد نيكسون إلى إيران وأعلن إعجابه الشديد بكل من رئيس الوزراء زاهدي ومحمد رضا شاه. ولكن الرئيس أيزنهاور كان أكثر حذرًا، فلم يتوجه لزيارة إيران حتى عام ١٩٥٩ ولم يبقَ هناك سوى بضع ساعات. واستقبله الشاه بحفاوة شديدة وأهداه تمثالًا من الفضة لطاووس مرصع بالياقوت الأزرق والأحمر، ولكن وراء الكواليس اختلف الزعيمان معًا بطريقة أنذرت بوقوع المشاكل، حيث وجه أيزنهاور تحذيرًا للشاه بأن القوة العسكرية لا تكفي لتأمين أي دولة، وحثه على الاهتمام «بالاحتياجات الأساسية» لشعبه، ورد الشاه بأن الأمن في الشرق الأوسط لا يمكن تحقيقه «إلا عن طريق بناء القوة العسكرية لإيران.»

لم يعترف أيزنهاور قط بالدور الأمريكي في عملية أياكس. وقد ذكر في سيرته الذاتية أنه تسلم تقريرًا ملخصًا عنها، ولكنه كان مكتوبًا وليس شفهيًّا، ووصف روزفلت بأنه «أمريكي في إيران لا أعرفه.» ولكنه كان أكثر صراحة في يومياته، حيث كتب: «كانت الأعمال التي قمنا بها «سرية»»، واعترف أيضًا بما لم يعترف به في سيرته الذاتية، وهو أن روزفلت قد تلا عليه تقريرًا بصورة شخصية حول الانقلاب، حيث قال: «استمعت إلى تقريره التفصيلي، وبدا كما لو كان قصة ميلودرامية وليس حقائق تاريخية.»

وبعد مرور سبعة وأربعين عامًا على الانقلاب اعترفت الولايات المتحدة رسميًّا باشتراكها فيه. وصدق الرئيس بيل كلينتون — الذي بدأ محاولة لتحسين العلاقات الأمريكية الإيرانية ثبت أنها فاشلة — على بيان صيغ بعناية يمكن اعتباره نوعًا من الاعتذار، وتلته وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت في خطاب ألقته في واشنطن: «في عام ١٩٥٣ لعبت الولايات المتحدة دورًا رئيسًا في تنظيم عملية الإطاحة برئيس الوزراء ذي الشعبية الكبرى مصدق، وكانت إدارة أيزنهاور تعتقد أن خطواتها تبررها دوافع استراتيجية، ولكن الانقلاب كان بالتأكيد نكسة في طريق النمو السياسي لإيران. ومن السهل الآن أن ندرك لمَ يقاوم العديد من الإيرانيين التدخل الأمريكي في شئونهم الداخلية.»

كرس مجموعة من المؤرخين الأمريكيين أنفسهم لدراسة انقلاب ١٩٥٣ وآثاره، وهم يتفقون فيما بينهم — رغم اختلاف الدرجة واليقين — على أن الانقلاب أعاد تشكيل التاريخ الإيراني الذي تلاه وأعاد تشكيل العالم بطرق تتضح الآن. وفيما يأتي بعض ملحوظاتهم:

جيمس إيه بيل: نجحت السياسة الأمريكية المتبعة في إيران في أوائل الخمسينيات في ضمان عدم استيلاء الشيوعيين على البلاد في ذلك الوقت وإتاحة احتياطي النفط الإيراني للدول الغربية بشروط ملائمة لمدة عقدين تاليين. وهكذا فقد أبعدت الوطنيين الإيرانيين من كل الطبقات الاجتماعية وأضعفت القوميين المعتدلين الليبراليين ممثلين في منظمات مثل الجبهة الوطنية، مما مهد الطريق لظهور التطرف اليساري واليميني على حد سواء، وأصبح هذا التطرف موجهًا نحو العداء للولايات المتحدة بقوة ... لقد كان سقوط مصدق نهاية قرن من الصداقة بين الدولتين وبداية عصر جديد من التدخل الأمريكي والعداء المتزايد نحو الولايات المتحدة بين قوى القومية الإيرانية المستضعفة.

ريتشارد دابليو كوتام: كان قرار الإطاحة بمصدق قرارًا تاريخيًّا، فقد كانت إيران تمر بمرحلة تغيير تتضاعف فيها نسبة المشاركين في العملية السياسية أو المستعدين لذلك، وكان هؤلاء الأفراد الذين نهضوا من سباتهم

يتطلعون إلى وجود زعماء يثقون بهم من أجل القيم والأعراف التي يمكنهم تأييدها، ولو ظل مصدق والجبهة الوطنية والزعماء الدينيون الذين فسروا القرآن تفسيرًا أكثر ليبرالية مسيطرين على الحكومة الإيرانية، لصار بوسعهم دمج تلك الجماهير الناهضة في المجتمع، ولكن بدلًا من ذلك اسْتُبْدِلَ بهم دكتاتورية ملكية ظلت بمعزل عن الشعب ... لقد غيرت سياسة الولايات المتحدة تاريخ إيران جذريًّا، فساعدت على طرد نخبة وطنية كانت تتطلع إلى الولايات المتحدة بوصفها الحليف الأيديولوجي والمؤيد الأجنبي الأوحد الذي تعتمد عليه. وفي حين ساعدت تلك السياسة في القضاء على حكومة تجسد تعطش إيران للكرامة القومية، حرمت النظام الذي خلفها من الشرعية القومية.

مارك جيه جاسيوروسكي: بتأمل أحداث الماضي يمكننا القول إن الانقلاب الذي دعمته الولايات المتحدة في إيران في التاسع عشر من أغسطس/آب ١٩٥٣ كان حدثًا خطيرًا في تاريخ عالم ما بعد الحرب ... فلو لم يحدث الانقلاب لأصبح مستقبل إيران مختلفًا تمامًا بلا شك. وعلى نحو مماثل كان الدور الأمريكي في الانقلاب وما تلاه من تعزيز لدكتاتورية الشاه شديدَيْ الأهمية في مستقبل العلاقات بين الولايات المتحدة وإيران. وكان اشتراك الولايات المتحدة في تلك الجريمة أحد العناصر المهمة التي أدت إلى وقوع الهجمات الإرهابية على المواطنين الأمريكيين والمنشآت الأمريكية في إيران في أوائل السبعينيات، بالإضافة إلى النزعة العدائية نحو الولايات المتحدة التي تميزت بها ثورة ١٩٧٨-١٩٧٩، والعديد من الحوادث التي تكشف عن العداء للأمريكيين التي صدرت عن إيران بعد الثورة، وأهمها أزمة الرهائن الذين احتجزوا في السفارة. ويزعم المؤيدون المعاصرون للانقلاب أنه جلب إلى إيران خمسة وعشرين عامًا من الاستقرار تحت ظل نظام مؤيد للولايات المتحدة، ولكن إذ تتضح العواقب الوخيمة للثورة على المصالح الأمريكية، يشك المرء فيما إذا كان الانقلاب يستحق ذلك الثمن على المدى الطويل.

جيمس إف جود: لم يكن مصدق قديسًا، وحتى مستشاروه كانوا يدركون ذلك، حيث كان في بعض الأوقات عنيدًا ضيق الأفق، ولكنه كان أكثر الزعماء شعبية في العصر الحديث، على الأقل قبل نشوب الثورة [الإسلامية] ... وإن

كان مصدق سجينًا للماضي، حيث عارض الحكم الدكتاتوري وأيد الحكومة الدستورية وكره النفوذ الأجنبي، فقد كان الأمريكيون أيضًا سجناء عقلية الحرب الباردة التي لا تتقبل الحياد في الصراع ضد الشيوعية الملحدة.

ماري آن هايس: قد يكون صحيحًا على المدى الطويل أن عجز بريطانيا والولايات المتحدة عن التعامل مع مصدق — الذي أدركوا متأخرين اعتدال سياساته — لم يمهد الطريق للشاه وعملائه على مدار العقود التالية، ولكن للنظام الأكثر تطرفًا وخطورة ومعاداة للغرب الذي تولى الحكم بعد عام ١٩٧٩... وقد أقنع اشتراك الولايات المتحدة في انقلاب [١٩٥٣] واتفاقية الاتحاد التي عقدت عام ١٩٥٤ الشعب الإيراني بأن الولايات المتحدة لا تهتم بمصالحه وأنها مشغولة بدعم الاستعمار البريطاني أكثر من اهتمامها بمساعدته على تحقيق حرية الإرادة وتقرير المصير. وأدت تلك القناعات إلى منح القوميين الإيرانيين الولايات المتحدة لقب الشيطان الأكبر وإلقاء اللوم عليها في كل المشاكل التي أصابت الأمة خلال الأعوام الخمس والعشرين التالية ... وبالقضاء على القومية الإيرانية أرسى النزاع على النفط في الخمسينيات بذور الثورة الإسلامية التي سوف تحدث بعد خمسة وعشرين عامًا، وتأتي في طهران بنظم أكثر معاداة للغرب مما كان عليه مصدق. ولذلك لا تزال العواقب تلقي بظلالها حتى الآن على الخليج العربي وما وراءه.

نيكي آر كيدي: كان لانقلاب ١٩٥٣ الذي أدى بعد مرور عام إلى عقد اتفاقية للنفط يوكل بموجبها التحكم في إنتاج النفط وتسويقه ونصف الأرباح إلى كارتل[٢] شركات النفط العالمية تأثير صادم على الرأي العام الإيراني، وهو التأثير الذي استمر حتى اليوم ... وزادت مشاعر العداء لحكومة الولايات المتحدة قوة عندما أصبح اشتراكها في الانقلاب الذي أطاح بمصدق عام ١٩٥٣ معلومًا للجميع، وأضاف الدعم الأمريكي لدكتاتورية الشاه على مدار

[٢] هو اتفاق غالبًا ما يكون مكتوبًا بين عدد من المشروعات تنتمي إلى فرع معين من فروع الإنتاج لأجل تقسيم الأسواق أو تنظيم المنافسة مع الإبقاء على شخصية كل مشروع من الناحيتين القانونية والاقتصادية بحيث لا تندمج بعضها مع بعض. (المترجمة)

خمسة وعشرين عامًا وكل الطرق التي اتبعتها إلى تصاعد ذلك الشعور العدائي للولايات المتحدة. ومن ثم ففيما يتعلق ببريطانيا والولايات المتحدة، ومهما كانت هناك مبالغات وأوهام في التهم التي يوجهها بعض الإيرانيين لهما، فإن الشك والعداء لهما جذور في بعض الوقائع الحقيقية المهمة، وخاصة الاشتراك في الإطاحة بالحركات الثورية الشعبية ودعم الحكومات التي لا تحظى بشعبية.

ويليام روجر لويس: إن الأمم مثلها مثل الأفراد لا يمكن التلاعب بها دون شعور الطرف المظلوم بأن الحسابات القديمة يجب أن تصفى في النهاية ... وعلى المدى القصير بدا أن التدخل الذي حدث عام ١٩٥٣ كان فعالًا، ولكن على المدى الطويل يبدو أن النصيحة السابقة بعدم التدخل أفضل من وجهة نظر الحكمة السياسية.

تقترب وجهات النظر تلك من الإجماع، وتؤيد بطريقة غير متوقعة من عارضوا استخدام العنف ضد مصدق، حيث تنبأ الرئيس ترومان بأن سوء إدارة الأزمة الإيرانية سوف يؤدي إلى وقوع «كارثة في العالم الحر»، وحذر هنري جريدي السفير الأمريكي لدى طهران من كون الانقلاب «حماقة كبرى» سوف تدفع بإيران إلى «حالة من التفكك بكل ما تحمله الكلمة من معنى.» وكان أي شخص يقرأ هذا الكلام في الأعوام الخمس والعشرين التي تلت ١٩٥٣ يعتقد أن قائليه مخطئون تمامًا، ولكن التاريخ فيما بعد أنصف من تفوهوا بتلك الكلمات، حيث كانت نتائج عملية أياكس مأساوية كما تنبئوا لها بالضبط، مع أن رد الفعل أو «الضربة المرتدة» كما يطلق عليها عملاء المخابرات استغرقت وقتًا أطول مما توقع أي أحد كي تتحقق.

يمكننا القول إن إيران لم تكن مستعدة للديمقراطية في عام ١٩٥٣، وربما كانت ستسقط في هاوية الفوضى لو لم تتدخل الولايات المتحدة، مع أنه لو لم يتدخل ضباط المخابرات البريطانية والأمريكية بتلك الصورة المخزية في سياساتها الداخلية، ربما كانت ستعود إلى حالة من الهدوء النسبي. ولكن من الصعب أن نتخيل نتائج مماثلة في الألم والرعب الذي نشأ على مدار نصف القرن التالي لتلك التي نتجت عن عملية أياكس، ولم يكن هناك أي احتمال أسوأ من ذلك سوى احتلال سوفييتي تعقبه حرب بين القوى العظمى.

تسبب الانقلاب في ثقة الولايات المتحدة والغرب بأكمله في إيران طوال خمسة وعشرين عامًا، وكان ذلك انتصارًا لا شك فيه، ولكن في ضوء الأحداث اللاحقة، وفي ضوء ثقافة العمليات السرية التي سيطرت على السياسة الأمريكية في أعقاب الانقلاب، يبدو أن ذلك الانتصار فقد الكثير من بريقه، فمن شوارع طهران والعواصم الإسلامية الأخرى التي تستشيط غضبًا، إلى مشاهد الهجمات الإرهابية في كل أنحاء العالم، خلفت لنا عملية أياكس تراثًا رهيبًا يعاودنا بين الحين والآخر كالشبح.



خاتمة

بدا المرشد السياحي الإيراني المرافق لي مرهقًا وسعيدًا في آن واحد عندما قابلته في البهو الذي حال لون جدرانه لفندق لاله بطهران، وعلت وجهه ابتسامة تآمرية وهو يخبرني بلهجة المنتصر: «لقد صنعت معجزة من أجلك، سوف نذهب إلى أحمد آباد!»

كنت قد جئت إلى إيران بحثًا عن آثار محمد مصدق، ولم تكن الرحلة سهلة الترتيب، فعندما قابلت أحد الدبلوماسيين الإيرانيين في نيويورك كي أقدم طلبًا للحصول على تأشيرة، أخبرني أن مشروعي يبدو مثيرًا للاهتمام، ولكن يجب أن تراجعه السلطات الإسلامية بطهران. وعلى مدار الشهور التالية أخذت أتصل به كل يوم تقريبًا، ولكن لم يكن لديه أي أخبار جديدة، وفي نهاية الأمر توصلت إلى أن هذا الطريق لن يؤدي بي إلى شيء. كنت أرغب في أن أكون موجودًا في إيران في الذكرى التاسعة والأربعين لانقلاب ١٩٥٣، ولكنه اعترف بأن هذا الاحتمال يبدو ضعيفًا، فاقترحت قائلًا: «ربما عليّ أن أقدم طلبًا للحصول على تأشيرة سياحية.»

أجاب: «يمكنك المحاولة.»

لم تكن لهجته مشجعة، ولكنني حملت كلامه على ظاهره، وعثرت على وكيلة سفر متخصصة في تنظيم رحلات إلى البلاد الغريبة، وبعد مرور أسبوعين حصلت بفضل مساعدتها على تأشيرة السفر.

وأثناء الرحلة الطويلة على الخطوط الجوية التركية عبر المحيط الأطلنطي ثم إلى طهران تساءلت عما ينتظرني، وكان أول انطباع لي أنني شخص غير مرحب بوجوده عندما كنت أقيد اسمي في فندق لاله، وهو أحد أكبر

الفنادق بالمدينة. لم يكن قد مر عام على الهجمات الإرهابية التي وقعت في الحادي عشر من سبتمبر/أيلول بنيويورك، أعطاني موظف الاستقبال مفتاح الغرفة رقم ٩١١، ورغم اعتراضي على تلك الغرفة هز الموظف كتفيه بلا مبالاة وأخبرني بأن تلك هي الغرفة التي خصصت لي.

وبعد بضع ساعات رن جرس الهاتف؛ كنت قد طلبت من صديقة إيرانية أن تحاول العثور على أشخاص يعرفون مصدق أو ينتمون للجبهة الوطنية، وكانت مصرة على أن أقابلها في الحال. وعندما وصلتُ أخبرتني بأن أحد المسئولين الحكوميين قد وجه لها تحذيرًا قاسيًا، إذ أخبرها بأنها ممنوعة من الاتصال بأي شخص من أجلي، وأنني إذا قابلت أي أحد فسوف أطرد من البلاد على الفور. وماذا عن خططنا للسفر إلى أحمد آباد في ذكرى انقلاب ١٩ أغسطس/آب؟ قالت: «لا يمكنني الذهاب معك، فهم يرفضون أن أتعاون معك على الإطلاق.»

كانت بضعة أيام لا تزال تفصلنا عن الذكرى السنوية، ولم يكن في طهران الكثير من وسائل التسلية، وكنت قد ذكرت في طلب الحصول على التأشيرة أنني أرغب في زيارة أصفهان التي زرتها من قبل في رحلة سابقة، وقضيت عدة أيام هناك منبهرًا بالقصور والمساجد الرائعة المكسوة بالقرميد بنفس الدرجة التي شعرت بها من قبل. وفي رحلة العودة إلى طهران جلست بجوار رجل أعمال متوسط العمر كان ككل من قابلتهم في طهران كارهًا لنظام الحكم الإسلامي ومعجبًا بالأمريكيين، وبالطبع فقد توجهت إليه بالسؤال حول موضوعي المفضل، حيث تجرأت وسألته: «أعتقد أنك صغير السن حتى إنك لا تستطيع تذكر مصدق، ولكن ما الذي سمعته عنه؟ هل لديك أي معرفة به؟»

صمت الرجل لحظة كي يفكر. لم يكن الحديث عن مصدق ممنوعًا في إيران، ولم يكن الإيرانيون على استعداد لأن يلتزموا بذلك الأمر إن وجد، ولكن على مدار خمسة عقود فيما عدا العامين التاليين للثورة الإسلامية التي وقعت عام ١٩٧٩، ظل يصور على أنه شخص مريب وعلى الأرجح خائن.

قال صديقي الجديد: «لا أعلم عنه الكثير، لقد أمم صناعة النفط الإيرانية، ولكن ما يميزه حقًّا هو أنه رمز للحرية، ففي عصره كانت

هناك حرية الرأي والتعبير، وكانت الانتخابات حرة، وكان الناس أحرارًا فيما يفعلونه. وهو يذكرنا بوجود عصر سابق في إيران كانت تتمتع فيه بالديمقراطية، ولذلك تخشاه الحكومة الحالية.»

عندما عدت إلى فندق لاله خصصت لي نفس الغرفة رقم ٩١١، ولم يُسَرّ المرشد السياحي — يتعين على كل سائح أمريكي في إيران أن يتنقل بصحبة مرشد سياحي — عندما علم أني أرغب في زيارة منزل مصدق بأحمد آباد. كنت قد خططت لركوب سيارة أجرة والذهاب إلى هناك، ولكن المرشد أخبرني بأن ذلك مستحيل. وفاجأني ذلك، حيث إن أحمد آباد قرية زراعية بعيدة عن أي قواعد عسكرية أو منشآت سرية، ولكنها لا تزال مرتبطة بطريقة معقدة بالرجل الذي قضى فيها أحد عشر عامًا سجينًا وكان أشهر مواطنيها على الإطلاق.

كان اليوم الثامن عشر من أغسطس/آب، أي الليلة السابقة للذكرى السنوية للانقلاب، عندما حمل المرشد إليّ أنباء سارة حول المعجزة التي تمكن من تحقيقها. وسألته لماذا التخطيط لرحلة بريئة كهذه بتلك الصعوبة؟ أدركت من تعبيرات وجهه أنني لو كنت أفهم إيران جيدًا لما سألت هذا السؤال الأحمق.

قال لي موضحًا: «هناك ثلاثة أسباب تجعله صعبًا؛ أولها: أنه ليس موقعًا سياحيًّا معتادًا ولا يوجد في أي برنامج سياحي، حيث إن وزارة السياحة تمتلك قائمة بالأماكن التي يمكن للسائحين زيارتها، وعليك الالتزام بتلك الأماكن، فلا يوجد سائح يذهب إلى أحمد آباد. وثانيًا: أنت لم تضع أحمد آباد على قائمة الأماكن التي ترغب في زيارتها عندما قدمت طلبًا للحصول على تأشيرة سياحية، فوضعنا لك برنامجًا سياحيًّا بناء على رغباتك التي أبديتها، وحصل ذلك البرنامج على موافقة الوزارة، ولذلك عليك الالتزام به. وثالثًا: ليس لديك تأشيرة مناسبة لزيارة مثل هذا المكان، فلو كنت تحمل تأشيرة صحفي يمكنك السفر إلى أي مكان، ولكن التأشيرة السياحية لا تمكنك من ذلك. الأمر كله عسير ومعقد، ويلزم اللجوء إلى وسائل كثيرة.»

ويبدو أن المرشد لاحظ تجهمي الشديد، فبعد السلسلة الطويلة من المشاكل التي سردها أضاف مترددًا: «أنت لا تدين لي بأي شيء، فقد كنت سأفعل ذلك من أجل أي سائح آخر.»

تقع أحمد آباد على بعد ساعة بالسيارة من طهران، ومعظم المسافة طريق سريع، وبعد انتهائه يمر الزائرون بعدد من المصانع الصغيرة وعبر حقول الشعير وبنجر السكر، ولا توجد لافتات تشير إلى الطريق ولا أي علامات على مدخل القرية، ولم يكن هناك سوى كشك صغير يبيع الحلوى. وعند وصولي وجدت صبيين جالسين في الظل أمام الكشك، فطلبت من المرشد أن يسألهما هل يعرفان مصدق، فابتسم الصبيان وهما يهزان رأسيهما كما لو كانا يريانا اثنين من الحمقى، أجاب أحدهما: «إنه مؤمم صناعة النفط»، وضحك الآخر، فشعرت بالإعجاب بهذين الصبيين.

ينتهي الطريق في أحمد آباد عند بوابة مجمع محاط بسور عالٍ من الطوب، ولا يوجد اسم على البوابة، ولكنني عندما ألقيت نظرة سريعة حولي تأكدت أنه لا يوجد مكان آخر في المدينة كلها بمثل تلك المهابة، ومن المؤكد أنه منزل مصدق، فقرعت الجرس وانتظرت.

انتظرت دقيقتين حتى فتحت امرأة شابة البوابة، وسرنا عبر ممر للمشاة يمتد طوله أكثر من سبعين مترًا تحفه من الجانبين أشجار الدردار الضخمة، ومن خلال الأشجار كان باستطاعتنا رؤية منزل أنيق مكون من طابقين مبني بالطوب به إطارات خضراء حول الأبواب والنوافذ.

لم يغادر مصدق هذا المجمع قط لأكثر من عشر سنوات، مع أنه كان بإمكانه الخروج، وذلك لأن الحكم الصادر ضده كان بتحديد إقامته في القرية وليس في المجمع، ولكن رجال الشرطة كانوا قد أعطوا أوامر باتباعه ومراقبته في حالة تجاوزه أسوار المجمع، ولذلك فقد فضل الوحدة على صحبتهم.

كان المجمع مكانًا لطيفًا يحتوي على ممرات بين الحدائق والتعريشات، وكان المنزل مريحًا رغم أنه لم يكن فاخرًا. لم يكن مصدق عاطلًا في فترة حبسه الطويلة هنا، بل كان يشرف على مائتين من الفلاحين الذين يعملون في الحقول المجاورة، حيث كان يدربهم على استخدام معدات الزراعة الحديثة، بل إنه ربح جائزة في الزراعة لتقديمه خطة لزيادة إنتاج بنجر السكر. كان أفراد عائلته غالبًا ما يعملون بالمحاماة والطب، وحيث إنه درس كل ما يمكنه دراسته عن القانون فقد كرس نفسه لدراسة الطب، فأخذ يقرأ

الكتب الطبية ويغلي جذور النباتات المحلية كي يصنع دواء للملاريا، وكان يعالج المرضى من الفلاحين، وأما من كانوا يعانون أمراضًا خطيرة فكان يرسل معهم رسالة إلى مستشفى نجمية في طهران التي أسستها والدته كي يتلقوا العلاج هناك. وكان الكثير من الناس يشتكون إليه من مشاكلهم الصغيرة ويجدونه دائمًا كريمًا مهتمًّا لأمرهم.

وأثناء ساعات الوحدة الطويلة كان مصدق يقضي الكثير من الوقت في مكتبته بالطابق العلوي يقرأ في الموضوعات التي طالما اهتم بها مثل الفلسفة الإسلامية وأعمال واضعي النظريات السياسية مثل مونتسكيو وروسو، واكتسب اهتمامات جديدة مثل الطهي، حيث امتنع تمامًا عن تناول الأطعمة المقلية واستبدل بها الأطعمة المسلوقة أو المطهوة بالبخار، وكان أحد كتبه المفضلة الذي لا يزال في مكتبته هو موسوعة لاروس في فن الأكل.

ولكن فيما يتعلق بشخص عاش بين جدران ذلك المجمع فترة طويلة كهذه، لا بد أن هذا المجمع اكتسب طابع السجن، فخلال الأعوام التي قضاها هناك كان غالبًا معتل الصحة ويعاني نوبات متكررة من القرح النزفية والعديد من الأمراض الأخرى، وذكر أقاربه الذين كانوا يزورونه أنه كان يبدو محبطًا يائسًا واهن العزيمة. لم يكن حزينًا لضياع سلطته، ولكنه كان حزينًا لتحطم أحلامه من أجل إيران، ولم يكن بوسع أي نشاط يؤديه في أحمد آباد أن يرفع من روحه المعنوية، حيث كتب في مذكراته: «إنني فعليًّا في السجن، إنني مسجون في هذه القرية محروم من ممارسة حريتي الشخصية، وأتمنى أن تحين ساعتي قريبًا كي أرتاح من وجودي في الحياة.»

ذكرت لنا الحارسة التي رافقتنا إلى مجمع مصدق أن الزائرين يأتون إلى هنا بانتظام وخاصة في العطلات الأسبوعية، ولكن في ذلك اليوم الذي يوافق الذكرى السنوية التاسعة والأربعين للانقلاب الذي أسقط حكومة مصدق في التاسع عشر من أغسطس/آب ١٩٥٣ لم يكن هناك أحد سوانا. وكنت قد قطعت نصف الكرة الأرضية كي آتي إلى هذا المكان.

عبر مصدق في وصيته عن رغبته في أن يدفن في مقبرة ابن بابويه بطهران بجوار قبور من ماتوا وهم يدافعون عن حكومته أثناء الاشتباكات التي

وقعت في يوليو/تموز ١٩٥٢، ولكن محمد رضا شاه رفض ذلك، فقد خشي من تحول قبر مصدق إلى بؤرة للمعارضة، فقرر أقاربه أن يدفنوه في أحمد آباد دون إجراء أي مراسم. وكان قد طلب منهم ألا يقيموا نصبًا تذكاريًّا أو حتى شاهد قبر على المكان الذي يدفن فيه، وبالفعل نفذت رغباته. وهو اليوم يرقد تحت المكان الذي كان يومًا ما غرفة طعامه.

كانت الغرفة المكسوة بالسجاد صغيرة ولكنها لطيفة وبها نوافذ تسمح بدخول أشعة الشمس، وعلى مدار السنوات اكتسبت تلك الغرفة طابع الضريح. وتوجد منضدة خشبية منخفضة مغطاة بقماش منسوج فوق البقعة التي يرقد تحتها مصدق، وفوقها شمعتان ونسخة من المصحف. ويتبع معظم الزائرين الإيرانيين التقاليد التي تقضي بوضع أيديهم على غطاء المائدة وتلاوة آية من القرآن تتحدث عن رحمة الله ورأفته.

كانت حوائط تلك الغرفة مغطاة بلوحات لمصدق بعضها مرسوم بالزيت والبعض الآخر بالقلم الرصاص أو الحبر. وإحداها لوحة مطرزة تصوره جالسًا وخلفه العلم الإيراني، وهناك لوحة أخرى مطبوعة على الحرير تحمل قولًا مأثورًا من إحدى خطبه: «إنني إيراني مسلم، ولذلك فإنني أعارض أي شيء ضد إيران أو ضد الإسلام.» وهناك صورة له وهو يدافع عن نفسه بقوة في محاكمته، وصورة أخرى له أكثر كآبة تصوره جالسًا وحده مستغرقًا في التفكير أثناء إقامته الجبرية. أما أكثر الصور التي أعجبتني فهي تصوره بجوار جرس الحرية في فيلادلفيا وهو يضع إصبعه على الصدع الشهير.

كانت تلك هي الغرفة التي يتناول فيها مصدق طعامه وغالبًا ما يستقبل فيها ضيوفه، وقضيت وقتًا طويلًا هناك أتخيل كيف كانت تلك الأيام، وفي نهاية الأمر وجهت الشكر لحارسة البيت وسألتها هل بإمكاني التجول في المكان، فلم تبدِ اعتراضًا، فتجولت بين الأشجار المظللة وتفحصت المرآب الذي كان به سيارة خضراء من طراز بونتياك تعود لعام ١٩٤٨ كانت ملكًا لزوجة مصدق ولا تزال قابعة هناك لا يستخدمها أحد.

وبعد مرور بضع دقائق استرعى انتباهي شيء آخر مثير للاهتمام، حيث كانت دفتا بوابة حديدية قوية تستندان على السور الخلفي؛ ذلك هو الشيء الوحيد الذي استخلص سليمًا من منزل مصدق بطهران الذي قضى فيه معظم أيام حياته بما فيها الأعوام الصاخبة التي قضاها رئيسًا للوزراء.

يا له من تاريخ ذلك الذي شهدته تلك البوابة! فقد مر عبرها السفراء الأمريكيون والبريطانيون لدى إيران، بالإضافة إلى مبعوثين من طراز خاص مثل أفريل هاريمان، مرات لا حصر لها وهم يحاولون إقناع مصدق بالاستسلام أو تعديل خططه لتأميم صناعة النفط ببلاده، ومرت عبرها حشود من الرعاع وهم يصرخون «الموت لمصدق!» أثناء انتفاضة ١٩٥٢ التي لم تكتمل. وأثناء نفس الانتفاضة انطلقت سيارة من طراز جيب تقل شعبان الأبله فحطمت البوابة عندما كان مصدق ينطلق مسرعًا إلى مكان آمن عبر السور الخلفي، ولا يزال هناك انبعاج كبير أسفل البوابة، وهو غالبًا بسبب ذلك الاصطدام.

تحطم المنزل الذي كانت تلك البوابة تحرسه ذات يوم وأضرمت فيه النيران في ليلة التاسع عشر من أغسطس/آب ١٩٥٣، وأزيلت الأنقاض فيما بعد كي تفسح الطريق لإنشاء عمارة سكنية في ذلك الموقع، وكل ما تبقى من المنزل هو تلك البوابة، مما يعطيها أهمية تاريخية ويضفي عليها هالة روحانية لكل من عرف مصدق في يوم من الأيام أو حاول أن يعلم عنه شيئًا بعد وفاته. وهكذا فقد ظللت واضعًا يدي على تلك البوابة لفترة طويلة.

لم يتذكر مصدق سوى أشخاص معدودين في أحمد آباد، وعثرت على أحدهم ويدعى أبو الفتح تاكروستا منهمكًا في إصلاح سيارته في شارع يكسوه الغبار أمام منزله، وهو سائق شاحنة ومزارع كان يعمل طاهيًا في مجمع مصدق عندما كان شابًّا صغيرًا. وعندما أخبرته بسبب مجيئي أشرق وجهه على الفور ودعاني إلى فناء منزله لتناول الشاي والمكسرات. وكانت الطيور تغرد ونحن نجلس تحت تكعيبة عنب ونتحدث عن الأيام الخوالي.

مع أن العديد من الروايات تصف مصدق بأنه كان يعاني أمراضًا كثيرة، وخاصة في أعوامه الأخيرة، ومع أن ثلاثة أعوام من الحبس الانفرادي لا يمكن أن تكون مفيدة لصحة رجل في مثل سنه، فإن السيد تاكروستا يذكره شخصًا قويًّا مليئًا بالحيوية. وعندما بدأ السيد تاكروستا يتحدث تدفقت منه الروايات، حيث ذكر أن مصدق افتتح صيدلية يوزع فيها الدواء بالمجان على الفقراء، وكان يقرض المحتاجين، وبنى سقيفة معزولة كي يحفظ فيها الثلج في فصل الصيف، وكان يوزع أكياسًا من الحبوب مجانًا على العمال في شهر رمضان وعيد رأس السنة.

قال السيد تاكروستا: «لم يكن مصدق مالكًا عاديًّا، بل أدار ضيعته كما لو أنها مؤسسة خيرية، وأعطي معظم ما زرعه للعمال، وكان محبوبًا من الجميع هنا، حيث كان بإمكانك أن تذهب إليه ليحل لك أي مشكلة تواجهك، وعامل الجميع سواسية من أكبر موظف إلى أفقر عامل.»

ثم قال إنه ذات يوم ذهب أحد الفلاحين إلى مصدق يشكو له من احتجازه على يد بعض عملاء السافاك الذين اقتادوه إلى مقر قيادتهم وأخذوا يعذبونه وهم يستجوبونه حول عادات مصدق والأحاديث التي يجريها: «كانت تلك المرة الوحيدة التي رأيته فيها غاضبًا، فاتصل برئيس الشرطة وصاح فيه آمرًا أن يأتي إلى منزله في الحال. وعندما أتى الرجل دفعه مصدق إلى الحائط ووجه عصاه إلى عنقه صائحًا: «إن مهمتك هنا تتمثل في مراقبتي أنا، وليس لديك الحق في إساءة معاملة أي شخص آخر، فإذا كان هناك مشكلة تخصني عليك أن تأتي لتحادثني أنا فحسب، ولا تسول لك نفسك إيذاء أي فرد من الشعب مرة أخرى.» كان هذا الرجل ضابطًا من السافاك، ولم يكن رجلًا لطيفًا على الإطلاق، ولكنه أخذ يعتذر ويطلب العفو والسماح، وبعدها لم تجرؤ الشرطة على الاقتراب منا مرة أخرى. لقد خاف الجلاد من الضحية!»

وهنا سألت السيد تاكروستا هل هو وجيرانه يشعرون بالاختلاف عن أهل القرى الأخرى، أجاب بالإيجاب وقال: «إننا لا نشعر بأننا مختلفون فحسب، بل إننا بالفعل مختلفون بسبب التأثير الذي تركه فينا مصدق. إن الزائرين يأتون إلى هنا من أماكن بعيدة، ولكنهم لا يذهبون إلى أي قرية أخرى. والناس هنا في قريتي يفخرون بميزة أن يكون مثل ذلك الشخص العظيم قد عاش هنا في يوم ما. إننا نحاول أن نسير على الدرب الذي علمنا إياه، فنحن نملك إحساسًا بالخير والتعاون والوحدة والتكافل، وأهالي القرى الأخرى يعلمون أننا لا نبخل على المحتاجين بالمساعدة، ولذلك فهم يأتون إلينا عندما تواجههم أي مشكلة كي نساعدهم. ولا يمكنك ذكر أحمد آباد دون أن يخطر على بالك مصدق، فهو الأب الروحي لهذه الأمة ولكنه أيضًا كان أبًا روحيًّا لقريته، ومن المخزي حقًّا أنهم أطاحوا بحكومته.»

وهنا سألت السيد تاكروستا عمن يكونون «هم» بالضبط، فتوقف لحظات مترددًا وحدق في السماء طويلًا ثم قال ببطء: «إنني قروي بسيط

غير متعلم، ولا أعلم من «هم» بالضبط، ولكن أيًّا كانت هويتهم فهم لا يريدون لشعبنا أن يصبح حرًّا وأن ينهض بنفسه.»

قضينا أكثر من ساعة نتجاذب أطراف الحديث، واتبع مضيفي التقاليد الإيرانية التي تقضي بأن يدعوني لتناول الغداء، ولكنني رفضت الدعوة بأدب شديد وصافحته شاكرًا بحرارة، وظللت بعد ذلك أتجول بلا هدف في القرية، ثم عدت فيما بعد إلى المنزل كي أعرف هل أتى زائرون آخرون لإحياء الذكرى السنوية، ولكنني لم أجد أحدًا. كانت مجموعة من معجبي مصدق قد فكروا في عقد اجتماع حاشد في ذلك اليوم، ولكن العديد منهم كانوا يواجهون اتهامات قضائية بارتكاب جرائم سياسية ولم يرغبوا في استفزاز السلطات.

بدءًا من التسعينيات وخاصة بعد انتخاب محمد خاتمي ذي الفكر الإصلاحي رئيسًا للبلاد في عام ١٩٩٧ بدأ الإيرانيون يستخدمون اسم مصدق رمزًا في حواراتهم السياسية، وكانت الإشادة بذكره فقط أو التلويح بصورته يعني ضمنًا تحدي مبادئ الحكم الإسلامي. كان القانون يحظر المطالبة بجمهورية ديمقراطية تحل محل النظام الإسلامي، ولكن الإشادة بتراث مصدق كان طريقة أخرى لعمل نفس الشيء. وقد وجدت أن العديد من الإيرانيين لا يزالون يربطون بين اسمه وبين فكرة الحرية، حيث قال لي أحد الشباب: «كم كان زعيمًا صالحًا! فعندما كان في السلطة كان بإمكان الناس أن تقول ما تشاء، وليس كما هو الحال اليوم. لقد قتله الشاه، أليس كذلك؟» أجبت: «ليس بالضبط، ولكن ربما يكون بالفعل قد قتله معنويًّا.»

لم يتفق الزعماء الإسلاميون في حكمهم على مصدق، فهم يعتبرون هزيمته دليلًا على أن إيران كانت دائمًا ضحية لقسوة الأجانب، ولكن نظرًا لكونه علمانيًّا ليبراليًّا فهم لا يرونه بطلًا.

أظهرت الصحافة الإيرانية ذلك التناقض في تغطيتها للذكرى التاسعة والأربعين لانقلاب ١٩٥٣، حيث أذاعت إحدى المحطات التليفزيونية فيلمًا وثائقيًّا يدين الانقلاب، ولكن دون أن يذكر فيه أن مصدق كان ضحية. واحتشدت مجموعة صغيرة من الطلاب المؤيدين للحكومة أمام المبنى الذي

كان فيما مضى مقر السفارة الأمريكية، ولكنهم اكتفوا بإدانة «الجرائم التي يرتكبها الشيطان الأكبر ضد الأمة الإيرانية» دون أن يشيروا إلى مصدق.

لم تنشر سوى صحيفتين من صحف طهران الأربعة عشر اليومية قصصًا بمناسبة الذكرى السنوية. وذكرت صحيفة انتخاب الناطقة بلسان المتشددين أن الانقلاب «استهدف مصدق وكاشاني»، وهي رؤية مغايرة عجيبة للأحداث التاريخية تصور آية الله كاشاني ضحية للتدخل الأجنبي وليس أحد عملائه. وذكر في تلك المقالة أن الدرس المستفاد من الانقلاب هو أن على الإيرانيين تأييد زعمائهم، وذلك لأن الشقاق لا يخدم سوى مصالح «دعاة الحرب في البيت الأبيض.»

أما المقال الآخر الذي نشر في صحيفة فريدون شايسته فقد كان مختلفًا، فقد وصف التاسع عشر من أغسطس/آب ١٩٥٣ بأنه «يوم عودة الاستبداد»، ومع أن كاتب المقال حرص على تجنب الإشادة بمصدق فقد أعطى ملخصًا وافيًا للأحداث: «نفذ الانقلاب محترفون من داخل إيران وخارجها، وتكلف هذا الأمر ملايين الدولارات. وليس صحيحًا على الإطلاق كما زعم البعض أن الانقلاب حدث بسبب المعارضة الداخلية وعدم الثقة بمصدق، ولكنه حدث عندما انشق عليه عديد من السياسيين المرموقين الذين كان معظمهم يدينون بالفضل لمصدق، واستخدموا كل الأساليب الممكنة للإضرار بسمعته. ولكن تلك الاتهامات لم يستغرق تأثيرها وقتًا طويلًا، وفي الأعوام التي تلت الانقلاب لم يتمكن من أطلقوها من استعادة احترام الناس مرة أخرى.»

أثناء إقامتي بطهران حاولت الوصول لبعض المباني التي ارتبطت بأحداث الانقلاب، ولكنني لم أتمكن من ذلك، فقد ازدادت مساحة طهران منذ ذلك الحين، وكما هو الحال في العديد من المدن الكبرى كان ذلك التوسع يعني هدم العديد من الأحياء القديمة. وقدت سيارتي ببطء أمام مجمع السفارة الأمريكية الخالي الذي كان مقر عمليات كيرمت روزفلت واحتجز فيه الرهائن الأمريكيون فيما بعد، فوجدت شعارات مكتوبة بأحرف كبيرة على الحوائط الخارجية ومترجمة للغة الإنجليزية مثل: «سوف نلحق بأمريكا هزيمة نكراء» و«يوم ترضى عنا الولايات المتحدة فسوف نرتدي أثواب الحداد.»

كان المكان الوحيد الذي تمكنت من الوصول إليه والذي يعد ذا صلة بمصدق هو قصر سعد آباد، ففي حديقة ذلك القصر جلس مصدق لمدة ثلاثة أيام في عام ١٩٤٩ يطالب الشاه بإلغاء الانتخابات المزورة التي أجريت في ذلك العام، وبالداخل توجد الغرف التي كان يجري فيها لقاءاته مع الشاه بما فيها اليوم الشهير الذي أغشي عليه فيه عام ١٩٥٢، والقصر الآن مفتوح للزائرين. وعندما اقتربنا من القصر طلبت من السائق أن يتوقف في جانب الطريق الطويل قبل أن نصل إلى البوابة. ولم يفهم السائق ما السبب، ولكنني اعتقدت أن ذلك هو المكان الذي كانت تتوقف فيه سيارة كيرمت روزفلت في الأيام التي كان يجري فيها لقاءات سرية مع الشاه. وكان بإمكاني بسهولة أن أتخيل الشاه وهو يهبط الدرج قادمًا في الظلام وينسل خلسة في السيارة بجواره.

وجدت القصر من الداخل يتميز بالبذخ الشديد، فقد زين بالرخام والخشب الفاخر والبسط المطرزة. وقضيت وقتًا طويلًا أتفقد غرفة استقبال الشاه الخاصة التي أعتقد أنه استقبل فيها روزفلت في الليلة التي احتفلا فيها بانتصارهما وودع أحدهما الآخر. ووجدت غرفة استقبال أخرى كبيرة بالطابق العلوي، وأعتقد أنها كانت الغرفة التي جلس فيها الشاه فوق المائدة أثناء لقائه بالجنرال شوارتسكوف، ولكنني لم أجد أحدًا بالطبع يؤكد لي تلك المعلومة.

ومع أنني مُنِعْتُ من إجراء مقابلات صحفية مع الإيرانيين حول مصدق ونظامه، فإن الحوارات غير الرسمية التي أجريتها مع البسطاء أوضحت لي أن معظمهم يقدرونه ويحترمونه. ويومًا ما سوف يتحول منزله في أحمد آباد إلى متحف يتوافد إليه الزائرون من كل أنحاء إيران وخارجها. وعندما ذكرت ذلك للمسئولة عن المنزل وأنا هناك، أجابتني إن إنشاء هذا المتحف هو بالضبط ما ترغب فيه عائلة مصدق.

سألتُها: «عائلة مصدق؟» كنت قد قابلت هدايت الله متين دفتري أثناء زيارة سابقة للندن، وهو حفيد مصدق الذي فر من إيران هاربًا من الجماهير الغاضبة. والآن علمت أن حفيدًا آخر لمصدق يدعى محمود مصدق بقي في

إيران وأصبح من كبار الأطباء بطهران، وهو من يتولى نفقات المنزل الكائن بأحمد آباد، بما فيها بيت المسئولة عن المنزل وراتبها الشهري. ولم تكن تعلم رقم هاتفه، ولكن بمساعدة المرشد السياحي تمكنت من العثور عليه في طهران، ووافق محمود مصدق على تناول العشاء معي في الفندق ذلك المساء.

نزلت من غرفتي التي تحمل رقم ٩١١ قبل الموعد ببضع دقائق، ولفترة قاربت على الساعة جلست بالقرب من مدخل الفندق، وعندما بدأت أتساءل هل أخطأت التعرف على ضيفي ظهر قادمًا. لم أكن أعلم كيف يبدو شكله، لكنني عرفته في الحال. كان طويلًا ذا بشرة فاتحة، تبدو عليه ملامح القوة والثقة بالنفس، ويرتدي حلة رسمية وربطة عنق، وهو زي لم أرَ أحدًا يرتديه في طهران، وعندما اقتربت منه اكتشفت أن ربطة العنق التي يرتديها من هارفارد، وعرفت أنه قد عاد لتوه من الاحتفال بالذكرى الخامسة والأربعين لتخرجه في الجامعة.

قال لي: «في الواقع كانت تلك فكرة أفريل هاريمان، فقد توليت مهمة الترجمة في بعض اللقاءات بين هاريمان وجدي، وسألني ذات يوم أين أرغب في متابعة دراستي الجامعية، فأخبرته أنني أرغب في الدراسة بإنجلترا، ولكنه قال إن الدراسة بالولايات المتحدة أفضل. كان هو شخصيًّا قد تخرج من جامعة ييل، ولكنه لسبب ما اقترح عليّ أن أدرس بجامعة هارفارد. وهكذا قدمت طلبًا للالتحاق بهارفارد وتم الأمر.»

وقبل أن نصل إلى المصعد كان د. محمود مصدق قد أعادني إلى الأيام التي كان جده فيها في السلطة. كان والده غلام حسين مصدق الطبيب الخاص لجده ورافقه في رحلاته للأمم المتحدة بنيويورك ومحكمة العدل الدولية بلاهاي. كان غلام حسين قد توفي منذ عدة أعوام، بل إن أبناء مصدق الخمسة قد توفوا فيما عدا ابنته مجيد التي قضت معظم حياتها في مستشفى للأمراض العقلية بسويسرا. أما أحفاده وأبناؤهم فقد تفرقوا، وابتعد معظمهم عن السياسة. وأخبرني د. محمود مصدق أنه لم يعمل في حياته إلا بالطب، وأن المنصب العام الوحيد الذي تولاه كان الأمين العام للجمعية الإيرانية للخصوبة والعقم.

لم يحضر د. محمود مصدق وحده في تلك الليلة، ولكنه أحضر معه ابنه علي الذي كان في منتصف العشرينيات تقريبًا، وكان يرتدي بنطلونًا من الجينز وقميصًا أبيض. ودار معظم حديثنا حول رئيس الوزراء مصدق، وكان حفيده يملك الكثير من الذكريات والقصص بعضها محزن للغاية، مثل الكآبة التي كان يشعر بها مصدق خلال عزلته الإجبارية التي استمرت عقدًا من الزمان. وحتى القصص التي بدت عديمة الأهمية كانت تحمل معاني كبرى، مثل أن مصدق كان يفصل طبقات المناديل الورقية، فقد كان يعتقد أن استخدام الطبقتين مرة واحدة نوع من الإسراف والتبذير.

كان القليل من ذكريات د. محمود مصدق ذا أهمية تاريخية حقيقية، فقد أخبرني بأنه قبل وقوع انقلاب ١٩٥٣ ببضعة أسابيع حضر حفل استقبال في منزل أحد الدبلوماسيين الإيرانيين بواشنطن واستمع بالمصادفة إلى زوجة العقيد عباس فارزانيجان — وهو ملحق عسكري كان يتقاضى راتبًا من المخابرات المركزية الأمريكية — وهي تفخر بأن زوجها مشترك في مؤامرة سوف تجعل منه وزيرًا، وفي اليوم التالي أرسل محمود مصدق برقية إلى جده يخبره فيها بتلك المعلومة.

«وبعد حدوث الانقلاب سألته هل تلقى البرقية التي أرسلتها، أجاب: «بالطبع»، وعندما سألته لمَ لم يفعل أي شيء حيال ذلك الأمر، أخبرني بأنه لم يكن هناك شيء بوسعه القيام به، وقال إنه كان يعلم جيدًا أن ذلك الانقلاب آتٍ لا محالة، وكان الخياران المتاحان لديه إما الاستسلام وإما تزويد أنصاره بالسلاح والدعوة لحرب أهلية. كانت تضايقه فكرة التخلي عن كل ما يؤمن به، ولكن الخيار الآخر لم يكن مطروحًا للمناقشة.»

وأثناء حديثنا ظل علي مصدق يستمع باهتمام شديد ولكنه لم يتكلم كثيرًا. وأثناء تناول الحلوى حاولت أن أخرجه عن صمته، فأخبرني بلغة إنجليزية سليمة أنه يدرس العلاقات الدولية، ووجدت أن ذلك التخصص هو الأكثر ملاءمة لمثل هذا الشاب الذكي الذي ينحدر من ذلك الأصل العريق، ثم سألته هل ينوي الانخراط في الحياة العامة.

تبادل الأب وابنه النظرات عندما وجهت هذا السؤال، وكان واضحًا أنهما قد ناقشا هذا الموضوع من قبل، وربما كان ذلك مرات عديدة. وظل

د. محمود مصدق صامتًا ينتظر الإجابة مثلي. وأجاب علي مصدق: «كلا، لا أنوي الانخراط في عالم السياسة، فأنا أخشى المخاطرة، ليس على نفسي ولكن على اسم عائلتي، ففي بلادنا يعتبر أهم شيء في المجتمع هو العائلة، وأينما ذهبت فإن الناس يسألون عن عائلتك حتى قبل أن يسألوك من أنت، وكل ما تفعله ينعكس على عائلتك، فلو ارتكب أحدنا أقل هفوة سوف يؤدي ذلك إلى تشويه سمعة عائلتنا ورئيس وزرائنا المحبوب مصدق. إنني شخص عادي وأرتكب الأخطاء كأي شخص آخر، ولا مشكلة في ذلك ما دمت لم أتولّ منصبًا عامًّا، ولكن إذا دخلت عالم السياسة فسوف تتحمل عائلتي ذنب أخطائي، حتى من توفي منهم. إنني أرغب في أن تكون حياتي كحياة والدي، وكل ما نرغب فيه هو الحفاظ على تراث عائلتنا. وأتمنى أن أتمتع بالأمانة والكرم والصفات الحميدة الأخرى التي يربط الناس بينها وبين اسم مصدق، ولكن الحياة العامة لا تناسبني، ولا أعتقد أنها تناسب أي فرد من أفراد عائلتنا، فهي مسئولية في غاية الخطورة.»

ملاحظات

١- مساء الخير يا سيد روزفلت

Firsthand accounts of the events of August 15–19, 1953, appeared in the *New York Times* and in newspapers served by the Associated Press, among them the *Chicago Tribune*. An official account is included in the CIA's clandestine service history, *Overthrow of Premier Mossadeq of Iran, November 1952–August 1953*, written by Donald M. Wilber and referred to here as "Service History." A summary of this history was published in the *New York Times* on April 16, 2000, and the full document is available at www.nytimes.com. Kermit Roosevelt's memoir is *Countercoup: The Struggle for Control of Iran* (New York: McGraw-Hill, 1979). Other accounts of the coup appear in Ambrose, Stephen, with Immerman, Richard H., *Ike's Spies: Eisenhower and the Intelligence Establishment* (Garden City, N.Y.: 1981); Diba, Farhad, *Mohammad Mossadegh: A Political Biography* (London: Croom Helm, 1986); Dorril, Stephen, *MI6: Inside the Covert World of Her Majesty's Secret Intelligence Service* (New York: Free Press, 2000); Elm, Mostafa, *Oil, Power and Principle: Iran's Oil Nationalization and Its Aftermath* (Syracuse, N.Y.: Syracuse University Press, 1992); Gasiorowski, Mark J., *U.S. Foreign Policy and the Shah: Building a Client State in Iran* (Ithaca, N.Y.: Cornell University, 1991); Goode, James F., *The United States and Iran: In the Shadow of Mussadiq* (New York: St. Martin's, 1997); Katouzian, Homa, *Mussadiq and the Struggle for Power in Iran* (London: I. B. Tauris, 1999); Mosley,

Leonard, *Power Play* (Baltimore: Penguin, 1974); Prados, John, *Presidents' Secret Wars: CIA and Pentagon Covert Operations Since World War II* (New York: William Morrow, 1986); Woodhouse, C. M., *Something Ventured* (London: Granada, 1982); and Zabih, Sepehr, *The Mossadegh Era: Roots of the Iranian Revolution* (Chicago: Lake View Press, 1982); in articles, including Abrahamian, Ervand, "The 1953 Coup in Iran," in *Science & Society*, vol. 65, no. 2 (Summer 2001); Gasiorowski, Mark J., "The 1953 Coup d'Etat in Iran," in *International Journal of Middle East Studies*, no. 19 (1987); Louis, William Roger, "Britain and the Overthrow of the Mossadeq Government," in Gasiorowski, Mark J., and Byrne, Malcolm (eds.), *Mohammad Mossadeq and the 1953 Coup in Iran* (Syracuse, N.Y.: Syracuse University Press, forthcoming 2003); Gasiorowski, Mark J., "The 1953 Coup d'Etat Against Mossadegh" in that same volume; and Love, Kennett, *The American Role in the Pahlavi Restoration on August 19, 1953* (unpublished), the Allen Dulles Papers, Princeton University (1960); and in two videos, History Channel, *Anatomy of a Coup: The CIA in Iran*, Catalogue No. AAE-43021; and *Mossadegh*, Iranian Movies (www.IranianMovies.com), Tape No. 3313.

Mossadegh fried in Persian oil: *Frankfurter Neue Presse*, October 17, 1952.

Woodhouse emphasizes communist threat:Woodhouse, C. M., op. cit., p. 117.

Philby on Roosevelt: Roosevelt, op. cit., p. 110.

Roosevelt's feeling at border crossing: Roosevelt, ibid., pp. 138-40.

Roosevelt at tennis: Roosevelt, ibid., p. 154.

Zahedi receives over $100,000: Service History, p. B2; and Gasiorowski, Mark J., "The 1953 Coup d'Etat Against Mossadegh," in Gasiorowski and Byrne, op. cit.

Groups CIA wished to influence, Service History, ibid., p. 7.

Cottam on Iranian press: *Anatomy of a Coup* (video), op. cit.

Shah hates taking decisions: Falle, Sam, *My Lucky Life in War, Revolution, Peace and Diplomacy* (Lewes, Sussex: Book Guild, 1996), p. 80.

Shah sent Ashraf away: *Foreign Relations of the United States 1952-1954, Volume X, Iran 1951-1954*, (Washington, D.C.: Government Printing Office, 1989), p. 675.
Ashraf 's eyes lit up: Dorril, op. cit., p. 586.
Ashraf 's meeting with Shah: Service History, op. cit., p. 24.
Schwarzkopf brings bags of money: Mosley, op. cit., pp. 216-219; and Roosevelt, op. cit., p. 147.
CIA gave Shah cover mission: Service History, op. cit., p. 25; and Katouzian, op. cit., pp. 39-40.
Schwarzkopf meets Shah: Service History, op. cit., p. 29.
Roosevelt presumed meeting Shah would be necessary: Roosevelt, op. cit., p. 149.
Roosevelt authorized to speak: Roosevelt, ibid., p. 154.
Roosevelt's costume: Roosevelt, ibid., p. 155.
Roosevelt's first meeting with Shah: Roosevelt, ibid., pp. 156-157.
Roosevelt tells Shah United States will not accept second Korea: Service History, op. cit., pp. 33-34.
Roosevelt meets agents in cars: Roosevelt, op. cit., p. 162.
Roosevelt's later meetings with Shah: Roosevelt, ibid., pp. 163-166.
Shah feels stubborn irresolution: Service History, op. cit., p. 35.
Shah will fly to Baghdad: Roosevelt, op. cit., p. 161.
Fake message from Eisenhower: Roosevelt, ibid., p. 168.
Firmans arrive: Roosevelt, ibid., pp. 170-171.
Time moved slowly: Roosevelt, ibid., p. 171.
CIA report on coup preparations: Service History, op. cit., pp. 36-38.
Nothing to do but wait: Service History, ibid., p. 38.
"Luck Be a Lady": Roosevelt, op. cit., p. 172.
Roosevelt drives past Riahi's home: Roosevelt, ibid., p. 172.
Shah will look for work: *Foreign Relations of the United States 1952-1954, Volume X*, op. cit., p. 747.
Roosevelt close to despair: Roosevelt, op. cit., p. 173.
Waller telegram: Waller's remarks at conference in Oxford, England, June 10, 2002.
Fatemi speech: *New York Times*, August 17, 1953.

٢- ملعون ذلك المصير

Ferdowsi lament: Mackey, Sandra, *The Iranians: Persia, Islam and the Soul of a Nation* (New York: Plume, 1996), p. 62.

Hidden Imam: Tabatabai, Allamah Sayyid Muhammad Husayn, *Shi'ite Islam* (Albany: State University of New York, 1977), p. 214.

Fischer on Shiites: Fischer, Michael M. J., *Iran: From Religious Dispute to Revolution* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1980) pp. 24-27.

Battle cry of Ismail: Mottadeh, Roy, *The Mantle of the Prophet: Religion and Politics in Iran* (New York: Pantheon, 1985), p. 173.

Ismail adopts Shiism: Arjomand, Said Amir, *The Shadow of God and the Hidden Imam* (Chicago: University of Chicago Press, 1984), p. 109.

Modern author on Isfahan: *Nagel Encyclopedia Guide*, quoted in Arab, Gholam Hossein, *Isfahan* (Tehran: Farhangsara, 1996), p. 1.

Curzon on Qajars: Ghods, M. Reza, *Iran in the Twentieth Century: A Political History* (Boulder, Colo.: Lynne Rienner, 1989), p. 2.

٣- آخر قطرة من دماء الأمة

Curzon on Reuter concession: Curzon, George Nathaniel, *Persia and the Persian Question, Vol. 1* (London: Longmans, Green and Co., 1892), p. 480.

Tobacco revolt and *fatwa:* Afary, Janet, *The Iranian Constitutional Revolution, 1906-1911: Grassroots Democracy, Social Democracy, and the Origins of Feminism* (New York: Columbia University Press, 1996), pp. 29-33.

Shah borrows half a million pounds: Keddie, Nikki, *Roots of Revolution: An Interpretive History of Modern Iran* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 1981), p. 67.

D'Arcy concession: Ferrier, R. W., *The History of the British Petroleum Company, Vol. 1: The Developing Years 1901-1932* (London: Cambridge University Press, 1982), p. 42.

Demand for national assembly: Martin,Vanessa, *Islam and Modernism: The Iranian Revolution of 1906* (Syracuse, N.Y.: Syracuse University Press, 1989), p. 74.
British secretary accepts *bast:* Afary, op. cit., p. 55.
Majlis must decide: Martin, ibid., p. 99.
British diplomat: Martin, ibid., p. 199.
Thrown out law of the Prophet:Martin, ibid., p. 125.
Constitutional government not advisable: Martin, ibid., p. 114.
Overthrow of Islam: Martin, ibid., p. 62.
Two enticing words: Martin, ibid., p. 128.
Openness against insularity: Mackey, op. cit., p. 136.
We want the Koran: Mackey, ibid., p. 152.
Lying between life and death: Bayat, Mangol, *Iran's First Revolution: Shi'ism and the Constitutional Revolution of 1905-6* (New York: Oxford University Press, 1991), p. 244.
Prize from fairyland: Churchill,Winston, *The World Crisis 1911-1914* (New York: Charles Scribner's Sons, 1923), p. 134.
Curzon on Persia's importance: *Documents on British Foreign Policy 1919-1939*, First Series, Vol. IV (London: Government Printing Press), pp. 1119-1121.
Reza Khan in disturbances: Farmanfarmaian, Manucher, and Farmanfarmaian, Roxane, *Blood and Oil: Inside the Shah's Iran* (New York: Modern Library, 1999), p. 115.
Reza's speech: Elwell-Sutton, L. P., "Reza Shah the Great: Founder of the Pahlavi Dynasty," in Lenczowski, George, *Iran Under the Pahlavis* (Stanford, Calif.: Hoover Institute, 1978), p. 18.
Involvement of British officers: Katouzian, Homa, op. cit., pp. 16-17.
Nicholson on Persia: Ferrier, op. cit., p. 589.
Khorasan massacre: Mackey, op. cit., p. 182.
Hamedan baker: Author's interviews in Iran, 2002.
Reza orders mail returned: Mackey, op. cit., p. 178.
Reza largest landowner in Iran: Mackey, ibid., p. 173.
Only one thief in Iran: Ghods, op. cit., p. 93.
Newspaper on common goals in Iran and Germany: Ghods, ibid., p. 166.

Allied leaflet: Goode, James F., *The United States and Iran: In the Shadow of Mussadiq* (New York: St. Martin's, 1997), pp. 9-10.

٤- موجة من النفط

Helpless crew: Longhurst, Henry, *Adventure in Oil: The Story of British Petroleum* (London: Sidgwick and Jackson, 1959), p. 21.
Petroliferous territory: Longhurst, ibid., p. 17.
Ahmad Shah as elderly child: Yergin, Daniel, *The Prize: The Epic Quest for Oil, Money and Power* (New York: Simon and Schuster, 1991), p. 136.
Telegram to Reynolds: Longhurst, op. cit., p. 31.
Mastery itself was the prize: Churchill, op. cit., p. 136.
Sunshine, mud, and flies: Longhurst, op. cit., p. 45.
Curzon on wave of oil: *London Times*, November 22, 1918.
Production increases at Abadan: Heiss, Mary Ann, *Empire and Nationhood: The United States, Great Britain, and Iranian Oil, 1950-1954* (New York: Columbia University Press, 1997), p. 6.
Royalty payment in 1920: Heiss, ibid., p. 6.
Reza burns file: Elm, op. cit., p. 31.
Cadman had attended Reza's coronation: Bill, James A., *The Eagle and the Lion: The Tragedy of American-Iranian Relations* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 1988), p. 59.
Terms of 1933 oil accord: Heiss, op. cit., p. 13.
Cadman cable: Longhurst, op. cit., p. 78.
Strike at Abadan: Farmanfarmaian, op. cit., p. 186.
Increase in oil production during 1940s: Bamberg, J. H., *The History of the British Petroleum Company: Vol. II: The Anglo-Iranian Years, 1928-1954* (Cambridge, U.K.: Cambridge University Press, 1994), p. 242.
Assessment of young Mossadegh: Katouzian, op. cit., p. 1.
Mossadegh's reaction to Anglo-Persian Agreement: Katouzian, ibid., p. 13.

Cousin's view of Mossadegh: Farmanfarmaian, op. cit., pp. 166-170.

If subjugation were beneficial: Azimi, Fakhreddin, "The Reconciliation of Politics and Ethics, Nationalism and Democracy: An Overview of the Political Career of Dr. Mohammad Musaddiq," in Bill, James A., and Louis,William Roger (eds.), *Mussadiq, Iranian Nationalism, and Oil* (London: I. B. Tauris, 1988), p. 50.

Cut off my head: Katouzian, op. cit., p. 25.

Mossadegh taken prisoner: Katouzian, ibid., p. 33.

٥- أوامر سيده

(The notation FO refers to numbered documents of the British Foreign Office.)

Shah's affairs: Forbis,William H., *Fall of the Peacock Throne: The Story of Iran* (New York: Harper and Row, 1980), p. 53.

Chauffeur in one-way street: Arfa, Hassan, *Under Five Shahs* (New York: William Morrow, 1965), p. 305.

Succession to Reza Shah: Farmanfarmaian, op. cit., pp. 141-142; and Katouzian, pp. 39-40.

General Schwarzkopf's background: Schwarzkopf, H. Norman, *It Doesn't Take a Hero* (New York: Bantam, 1992), pp. 3-4.

Anglo-Iranian's 1947 profits and Iran's share: Farmanfarmaian, op. cit., p. 212.

Conditions at Abadan: Farmanfarmaian, ibid., pp. 184-185.

Bevin on British standard of living: Yergin, op. cit., p. 427.

Fraser proposes Supplemental Agreement: Heiss, op. cit., p. 7.

British want the whole world: Elm, op. cit., p. 55.

Iskandari threat to nationalize oil: Katouzian, op. cit., pp. 67-68.

Shah's visit to United States: Bill, op. cit., p. 40.

Visit did not go well: McGhee, George, *Envoy to the Middle World: Adventures in Diplomacy* (New York: Harper and Row, 1983), pp. 66-71.

Joint communiqué: Alexander, Yonah, and Nanes, Allen (eds.), *The United States and Iran: A Documentary History* (Frederick, Md.: Alethia Books, 1980), p. 208.

No intention of carrying out orders: FO 371/91448, quoted in Elm, op. cit., p. 63.
British will treat hysterical deputies: FO 371/91512.
Sharogh role: Elm, op. cit., p. 70.
Work of oil committee: Farmanfarmaian, op. cit., pp. 241-242.
Kashani on foreign yoke: Cottam, Richard W., *Nationalism in Iran* (Pittsburgh: University of Pittsburgh Press, 1979), p. 152.
Mossadegh warns Razmara of disgrace: Elm, op. cit., p. 71.
Northcroft says nationalists unimportant: FO 371/91524, quoted in Elm, op. cit., p. 74.
Fateh letter to Elkington: Elm, ibid., pp. 75-76.
Britain's immense service to mankind: Elm, ibid., p. 79.
Shepherd wrote the gist: Elm, op. cit., p. 80.
Statement of Razmara's assassin: Cottam, op. cit., p. 151.
Mossadegh doubts effectiveness of bodyguards: Katouzian, op. cit., p. 83.
Colonel on Colt bullet: Katouzian, ibid., p. 84.
Shepherd messages to Shah and Ala, and Ala's response: Elm, op. cit., pp. 81-82.
Morrison urges troops toward Iran: Elm, op. cit., p. 83.
Qualities of typical Persian: Goode, op. cit., p. 24.
Foreign Office strategy: Elm, op. cit., p. 84.
Emami on British payroll: Dorril, op. cit., p. 573.

٦- أعداء غير مرئيين في كل مكان

CIA mandate: NSC 10/2, "National Security Council Directive on Office of Special Projects," quoted in Etzold, Thomas H., and Gaddis, John Lewis, *Containment: Documents on American Policy and Strategy, 1945-1950* (New York: Columbia University Press, 1978), pp. 125-128.
NSC-68: *Foreign Relations of the United States, 1950, Vol. I*, pp. 237-292.
Truman points to Iran: Truman conversation with George M. Elsey, June 26, 1950, quoted in Byrne, Malcolm, "The Evolution of U.S. Policy Toward Iran After World War II," in Gasiorowski and Byrne, op. cit.

Baskerville as American Lafayette: Bill, James A., op. cit., p. 17.

American contribution: Farman Farmaian, Sattareh, *Daughter of Persia: A Woman's Journey From Her Father's Harem Through the Islamic Revolution* (New York: Anchor, 1992), pp. 56–57.

Unbounded confidence in America: Cottam, Richard W., *Iran and the United States: A Cold War Case Study* (Pittsburgh: University of Pittsburgh Press, 1988), p. 39.

McGhee finds Shah's plans grandiose: McGhee, op. cit., p. 69.

Nothing in the till: McGhee, ibid., p. 320.

Funkhouser report: *Foreign Relations of the United States, 1950, Vol. V*, pp. 76–96.

One penny more: Bill, op. cit., p. 72.

Fergusson report: Louis, William Roger, "Britain and the Overthrow of the Mossadeq Government," in Gasiorowski and Byrne, op. cit.

McGhee meeting in Istanbul: *Foreign Relations of the United States, 1951, Vol. V*, pp. 60–71.

Bevin on nationalization: Bill and Louis, op. cit., p. 6.

McGhee meets Shah: McGhee, ibid., pp. 326–328.

McGhee meets Shepherd: McGhee, op. cit., p. 326.

Meetings in Washington: *Foreign Relations of the United States 1952–1954, Vol. X*, op. cit., pp. 37–42; also McGhee, op. cit., p. 335.

Radio Tehran's broadcast: Goode, op. cit., p. 31.

Morrison cable to Franks: FO 371/91535, quoted in Elm, op. cit., p. 112.

Acheson on Mossadegh: Chase, James, *Acheson: The Secretary of State Who Created the American World* (New York: Simon and Schuster, 1998), p. 353.

New York Times profile of Mossadegh: May 7, 1951.

State Department recognizes sovereign rights of Iran: Alexander and Nanes, op. cit., p. 216.

Morrison annoyed: FO 371/91535, quoted in Elm, op. cit., p. 17.

Morrison message to Acheson: FO 371/91471, quoted in Abrahamian article in *Science and Society*, op. cit.

Truman exchange with Attlee: *Foreign Relations of the United States 1952-1954, Vol. X,* op. cit., pp. 59-63.
Grady on nationalization: *Wall Street Journal,* June 9, 1951.
Jackson proposal: Elm, op. cit., pp. 115-116.
Iranian oil clearly British property: *Security Council Official Records,* 559th Meeting, October 1, 1951, p. 11.
They will come crawling: *New York Herald Tribune,* July 15, 1951.
Drake on staying forever: Interview in *Mossadegh* (video), op. cit.
Morrison in House of Commons: Elm, op. cit., p. 89.
Patrick Hurley testimony: *Baltimore Sun,* June 21, 1951.
British press on Mossadegh: Abrahamian article in *Science and Society,* op. cit.
Washington Post sees stricken state: April 7, 1951.
New York Times on comparisons of Mossadegh to American patriots: November 8, 1951.
Chicago Daily News on McGhee: June 30, 1951.
Leggett on Anglo-Iranian: FO 371/91522, quoted in Elm, op. cit., p. 90.
Younger on Anglo-Iranian: Sampson, Anthony, *The Seven Sisters: The Great Oil Companies and the World They Made* (New York: Viking, 1975), p. 120.
Mountbatten on Morrison: Elm, op. cit., pp. 90-91.
Labor attaché on Abadan: FO 371/91628, quoted in Elm, ibid., p. 103.
Jerusalem Post: FO 371/91628, citing *Post* article of July 6, 1951, quoted in Elm, ibid., pp. 103-104.
Mossadegh appeal to British technicians: Elm, op. cit., p. 118.
Secret British documents: Elm, op. cit., p. 120.
Throw them to the dogs: Elm, ibid., p. 121.
National Security Council report: NSC 107/2, in *Foreign Relations of the United States 1952-1954, Vol. X,* op. cit., pp. 71-76.
Mossadegh letter to Truman: *Foreign Relations of the United States 1952-1954, Vol. X,* ibid., pp. 77-79.
Grady cable: *Foreign Relations of the United States 1952-1954, Vol. X,* ibid., pp. 79-81.

Shepherd wants to get Mossadegh out: FO 371/91582, quoted in Heiss, op. cit., p. 94.
Iranian minister at The Hague: *New York Times*, July 6, 1951.
Truman letter to Mossadegh: Alexander and Nanes, op. cit., pp. 218-219.
Morrison opposes Harriman mission: *Foreign Relations of the United States 1952-1954, Vol. X*, op. cit., pp. 82-84.
Acheson view of Morrison and Shepherd: Abrams, Rudy, *Spanning the Century: The Life of W. Averell Harriman, 1891-1986* (New York: Morrow, 1992), p. 470.
Shepherd opposes Harriman mission: *New York Herald Tribune*, July 13, 1951.
Foreign Office directs Shepherd to apologize: FO 371/91562, cited in Elm, op. cit., pp. 126-127.
Grady should urge Mossadegh to accept Harriman mission: *Foreign Relations of the United States 1952-1954, Vol. X*, op. cit., p. 88.

٧- إنك لا تعلم كم هم أشرار

Mossadegh tells Harriman he doesn't know British: Walters, Vernon A., *Silent Missions* (New York: Doubleday, 1978), p. 242.
Mossadegh sends grandson to English school: Walters, ibid., p. 253.
Harriman finds Mossadegh rigid and obsessed: *Foreign Relations of the United States 1952-1954, Vol. X*, op. cit., p. 94.
Harriman's impression of Mossadegh: Abramson, Rudy, op. cit., p. 472.
Mossadegh on foreign influence, and "Tant pis pour nous": Walters, op. cit., pp. 251-252.
Walters on Mossadegh's negotiating style: Walters, ibid., p. 250.
Walters compares Mossadegh to Jimmy Durante: Walters, ibid., p. 248.
Walters's translations: Walters, ibid., pp. 253-254.
Mossadegh on crafty and evil British: Walters, ibid., p. 247.
Levy colloquy: *New York Times*, October 7, 1951.

Harriman's failed news conference: Abramson, op. cit., p. 473.
Harriman meets Kashani: Abramson, op. cit., pp. 474-475; and Walters, ibid., p. 255.
Harriman cable on Anglo-Iranian's absentee management: Abramson, op. cit., p. 476.
Mossadegh agrees to negotiate if British accept nationalization: Abramson, op. cit., p. 476.
Instructions to Stokes: FO 371/91575, quoted in Elm, op. cit., p. 134.
Mossadegh and Stokes on divorce: FO 371/91577, quoted in Elm, op. cit., p. 135.
Stokes finds proposals too transparent: FO 371/91578, quoted in Elm, ibid., p. 137.
Stokes visit to Abadan: FO 371/91580, quoted in Elm, ibid., p. 136.
Harriman shocked by conditions at Abadan: Abramson, op. cit., p. 479.
Harriman says lack of British cooperation endangers his mission: *Foreign Relations of the United States 1952-1954, Vol. X*, op. cit., p. 103.
Harriman's trips to cool off: Walters, op. cit., p. 257.
Stokes told to offer no further concessions: FO 371/91579, quoted in Elm, op. cit., p. 141.
The result is nothing: *Newsweek*, September 3, 1951.
Attlee-Truman exchange: Goode, op. cit., p. 43.
Walters recalls a mission unlike any other: Walters, op. cit., p. 263.
Franks says British troops would have a steadying influence: *Foreign Relations of the United States 1950, Vol. V*, op. cit., pp. 233-237.
Bolton suggests direct intervention: FO 371/91525, quoted in Elm, op. cit., p. 156.
Shinwell doesn't want tail twisted: Elm, ibid., p. 157.
British could bring Africans to Abadan: Elm, op. cit., p. 160.
Plans to invade Abadan: Elm, op. cit., pp. 155-168; and Goode, op. cit., p. 33.

Lord Fraser on dumps and doldrums: Elm, op. cit., p. 162.
Gifford tells Acheson of invasion plans: *Foreign Relations of the United States 1952-1954, Vol. X*, op. cit., pp. 54-55.
Acheson warns Franks against invasion: FO 371/91534, quoted in Elm, op. cit., p. 158.
Wall Street Journal laments threats: April 7, 1951.
Philadelphia Inquirer warns of World War III: August 28, 1951.
Howard K. Smith commentary: May 20, 1951, reported in FO 371/91538, quoted in Elm, op. cit., p. 159.
Morrison on Mossadegh's fanaticism: Morrison, Herbert, *An Autobiography* (London: Odhams, 1960), p. 281.
Acheson warns of disastrous consequences: Elm, op. cit., p. 165.
Attlee tells cabinet there will be no invasion: Elm, op. cit., pp. 166-167.
Lambton advises Foreign Office on propaganda lines: Louis article in Gasiorowski and Byrne, op. cit.
Zaehner combines high thought with low living: Louis article, ibid.
Drake on lack of cooperation with Iranians: Interview in *Mossadegh* (video), op. cit.
British prevent foreign oil experts from traveling to Iran: Elm, op. cit., pp. 148-150.
Foreign Office places advertisements: FO 371/91613, with text of ads, quoted in Elm, ibid., p. 146.
Mason intercepts telegrams: Elm, ibid., pp. 146-147.
Acheson on Grady's strong personality: Acheson, Dean, *Present at the Creation: My Years at the State Department* (New York: Norton, 1969), p. 224.
Henderson considers Mossadegh a madman: Heiss, op. cit., p. 180.
Grady warns against giving Iran a forum: *London Daily Standard*, October 15, 1951.
Acheson warns Morrison against U.N. debate: *Foreign Relations of the United States 1952-1954, Vol. X*, op. cit., p. 201.
Gifford on his meeting with Morrison: *Foreign Relations of the United States 1952-1954, Vol. X*, ibid., p. 205.

٨- عجوز داهية

Mossadegh is symbol of surging nationalism: *New York Times*, October 9, 1951.

Daily News on Mossy: *Newsweek*, August 15, 1953.

Mossadegh statement upon arriving in New York: *New York Times*, October 9, 1951.

Newsweek on Mossadegh: August 15, 1953.

Jebb opening statement to Security Council: *Security Council Official Records*, 559th Meeting, October 1, 1951.

New York Times on idle Abadan: October 19, 1951.

Jebb urges Mossadegh not to brood: *Security Council Official Records*, 560th Meeting, October 15, 1951.

Mossadegh speech to Security Council: *Security Council Official Records*, ibid.

Mossadegh and Jebb on British-Iranian friendship: Goode, op. cit., p. 57.

McGhee on Liaquat: McGhee, op. cit., p. 93.

Churchill in Liverpool: *London Times*, October 3, 1951.

Second day of Security Council meeting: *Security Council Official Records*, 561st Meeting, October 16, 1951.

Third day: *Security Council Official Records*, 562nd Meeting, October 17, 1951.

Reston column: *New York Times*, October 18, 1951.

Truman received profile of Mossadegh: *White House Declassified Documents* (Washington: Government Printing Office, 1975), Doc. 780.

Adjectives British applied to Mossadegh: Abrahamian article in *Science & Society*, op. cit.

Mossadegh arrival at Union Station: Acheson, op. cit., pp. 503-504.

Mossadegh meets with Truman: Acheson, ibid., p. 504.

New York Times describes compromise proposal: October 25, 1951.

Strang rejects proposal: FO 371/91609, quoted in Elm, op. cit., p. 187.

Butler on Britain's viability: FO 371/91602, quoted in Elm, ibid., p. 188.

Reston says United States intervened too late: *New York Times*, October 18, 1951.

McGhee's efforts with Mossadegh: McGhee, op. cit., pp. 390-391.

McGhee bids farewell to Mossadegh: McGhee, op. cit., p. 403.

Walters pays final visit to Mossadegh: Walters, op. cit., p. 262.

Egyptian newspapers hail Mossadegh: Elm, p. 193.

Mossadegh and Nahas Pasha issue statement: McGhee, op. cit., p. 404.

Churchill says Attlee had scuttled and run: Dorril, p. 560.

Churchill directs Attlee to be stubborn: FO 371/91609, quoted in Elm, op. cit., p. 189.

Churchill describes Mossadegh as elderly lunatic: Goode, op. cit., pp. 34-35.

McGhee sees almost the end of the world: McGhee, op. cit., p. 403.

Mossadegh as man of the year: *Time*, January 7, 1952.

٩- البريطانيون الحمقى

Shah will pack his suitcase: Katouzian, op. cit., p. 122.

Mossadegh argues and faints: Katouzian, op. cit., p. 123; and Musaddiq, Mohammad (edited by Homa Katouzian), *Musaddiq's Memoirs: Dr. Mohammad Musaddiq, Champion of the Popular Movement of Iran and Former Prime Minister* (London: Jebhe, 1988), p. 340.

Mossadegh's resignation letter: Zabih, Sepehr, *The Mossadegh Era: Roots of the Iranian Revolution* (Chicago: Lake View Press, 1982), p. 40.

Mossadegh statement on suspending election: Zabih, ibid., p. 38.

Churchill on Italians: FO 371/10465, quoted in Elm, op. cit., p. 268.

Mossadegh at World Court: Elm, ibid., pp. 208-214; and Heiss, op. cit., p. 129.

Voyage of *Rose Mary:* Heiss, ibid., p. 130.

Mossadegh leaves favorable impression: Elm, op. cit., p. 213.
Drop in oil revenue and Mossadegh reaction: Elm, ibid., pp. 271-272.
Zaehner on Qavam: Katouzian, op. cit., pp. 121-122.
Majlis members split between Mossadegh and Qavam: Zabih, op. cit., pp. 41-41.
Qavam statements as prime minister: Zabih, ibid., p. 44; and Katouzian, op. cit., p. 124.
Kashani denounces Qavam: Elm, op. cit., p. 242.
Tudeh protests against Qavam: Zabih, op. cit., p. 63.
Mossadegh presents Koran to Shah: Elm, op. cit., p. 247.
Mossadegh tells Shah he could go down in history: Zabih, op. cit., p. 66.
Middleton cables: Louis article in Gasiorowski and Byrne, op. cit.
New York Times on Zahedi: August 20, 1953.
MacLean on Zahedi's arrest: MacLean, Fitzroy, *Eastern Approaches* (London: Penguin, 1991), pp. 266-274.
Churchill has no regard for timid diplomatists: Woodhouse, op. cit., p. 125.
Churchill concerned about Jones trip, and exchange with Truman: Elm, op. cit., pp. 250-252; and Goode, op. cit., p. 87.
Acheson says British want rule or ruin: Elm, op. cit., p. 257.
Truman says nationalization has become as sacred as the Koran: Heiss, op. cit., p. 140.
Joint letter to Mossadegh: Elm, op. cit., pp. 250-252.
Mossadegh says Britain has plundered poor nations: Elm, ibid., p. 253.
Churchill urges Truman not to go further: Elm, ibid., p. 254.
Eden on Persian language: Eden, Anthony, *Full Circle: The Memoirs of Sir Anthony Eden* (Boston: Houghton Mifflin, 1960), p. 211.
Acheson on Eden's view of Iranians: Chase, op. cit., p. 353.
Truman letter to Grady: Henry Grady Papers, Box 2, 1952, at Harry Truman Library.
Roosevelt didn't talk spook: *New York Times*, June 11, 2000.
Roosevelt is coolness personified: *The Independent* (London), June 15, 2000.

Roosevelt thinks Republicans might be different: Roosevelt, op. cit., p. 107.

١٠- شمر عن ذراعيك وابدأ العمل

Rashidians receive £10,000 monthly: Dorril, op. cit., p. 564; and Woodhouse, op. cit., p. 118.
Recipients of foreign bribes: Service History, op. cit., p. 7.
Description of Rashidian brothers: Bill, op. cit., p. 91.
Woodhouse on Anglo-Iranian directors: Dorril, op. cit., p. 580.
Woodhouse on his Washington presentation: Woodhouse, op. cit, pp. 117-118.
Background of John Foster Dulles: Preussen, Ronald W., *John Foster Dulles: The Road to Power* (New York: Free Press, 1982).
Background of Allen Dulles: Grose, Peter, *Gentleman Spy: The Life of Allen Dulles* (Boston: Houghton Mifflin, 1994).
Allen Dulles urges CIA to launch worldwide covert action program: Grose, ibid., p. 292.
Smith tells Roosevelt to get going: Roosevelt, op. cit., pp. 115-116.
Henderson says Mossadegh lacks stability: Goode, op. cit., p. 82.
Henderson on National Front: Ambrose, op. cit., p. 109.
Joint cable from Henderson and Middleton: Brands, op. cit., p. 272.
Henderson in touch with Zahedi: Brands, ibid., pp. 272-279.
United States can no longer approve of Mossadegh government: Service History, op. cit., p. 2.
Eisenhower complains about British efforts: Elm, op. cit., p. 277.
Sinclair visits Washington: Louis article in Gasiorowski and Byrne, ibid.
Shah in hysterical state: *Foreign Relations of the United States 1952-1954, Vol. X*, op. cit., pp. 681-683.
Shaban crashes through gate: Kennett Love article in Allen Dulles papers, op. cit.; and *New York Times*, August 23, 1953.
Mob organized by Kashani: FO 371/10562, quoted in Elm, op. cit., p. 295.

Allen Dulles warns of communist takeover: *Foreign Relations of the United States 1952-1954, Vol. X*, op. cit., p. 689.

March 4 meeting of National Security Council: *Foreign Relations of the United States 1952-1954, Vol. X*, op. cit., p. 693.

Eisenhower considers Mossadegh only hope for West and wants to give him $10 million: FO 371/104614, quoted in Elm, op. cit., pp. 282-283.

Dulles and Eden issue communiqué: Elm, op. cit., pp. 277-283.

Pardon for Tahmasibi: Azimi, Fakhreddin, *Iran: The Crisis of Democracy 1941-53* (London: I. B. Tauris, 1989), p. 298.

Zaehner report on splitting National Front: Abrahamian article in *Science & Society*, op. cit.

Eisenhower has real doubts: *Foreign Relations of the United States 1952-1954, Vol. X*, op. cit., p. 713.

Wisner says CIA ready to discuss plot: Louis article in Gasiorowski and Byrne, op. cit.

Allen Dulles approves $1 million: Service History, op. cit., p. 3.

Afshartus kidnapping: Louis article in Gasiorowski and Byrne, op. cit., note 170; and Dorril, op. cit., p. 585.

Eisenhower letter to Mossadegh: *New York Times*, July 10, 1953.

Eisenhower and Churchill approve plot: Service History, op. cit., p. vi; Prados, John, *Presidents' Secret Wars: CIA and Pentagon Covert Operations Since World War II* (New York: William Morrow, 1986), p. 95; Dorril, op. cit., p. 587; Woodhouse, op. cit., p. 125; and Louis article in Gasiorowski and Byrne, op. cit.

Wilber and Darbyshire begin work in Cyprus: Service History, op. cit., pp. 5-6.

Initial plan for coup: Service History, pp. B1-B10 and 16-18; and Gasiorowski article in Gasiorowski and Byrne, op. cit.

Dulles on getting rid of this madman: Roosevelt, op. cit., p. 8.

Dulles polls advisers and then decides to get going: Roosevelt, ibid., p. 18; Elm, op. cit., p. 299; and Bill and Louis, op. cit., p. 283.

Bohlen opposes coup: FO371/98603.

Goiran opposes coup: Dorril, op. cit., p. 584.

Bedamn budget compared to worldwide covert action budget: Gasiorowski article in Gasiorowski and Byrne, op. cit.
John Foster Dulles asks Allen Dulles if plot is still on: *Foreign Relations of the United States 1952-1954, Vol. X*, op. cit., p. 737.
John Foster Dulles makes public statement: *Foreign Relations of the United States 1952-1954, Vol. X*, op. cit., p. 338.
Wilber on anti-government propaganda: Wilber, Donald N., *Adventures in the Middle East: Excursions and Incursions* (Princeton, N.J.: Darwin, 1986), pp. 188-189.

١١- كنت أعلم ذلك! إنهم يحبونني!

For sources of information about the events of mid-August 1953 in Tehran, see notes for Chapter 1.
Roosevelt meets Zahedi: Roosevelt, op. cit., pp. 166-167; and Service History, p. 45.
Smith on snuggling up to Mossadegh: *Foreign Relations of the United States 1952-1954, Vol. X*, op. cit., p. 748.
Ardeshir Zahedi receives journalists: Kennett Love article, op. cit.; and Dorril, op. cit., p. 592.
Love on copying machine: *Anatomy of a Coup* (video), op. cit.
Roosevelt had sent Rashidians to Washington: Roosevelt, op. cit., p. 80.
Jalili and Keyvani vitally important: *Service History*, op. cit., p. 7.
Fatemi on royal robbery: *London Times*, August 17, 1953.
McClure mission: Elm, op. cit., p. 306; and Service History, op. cit., p. 46.
Jalili and Keyvani prefer money to execution: Dorril, op. cit., p. 595; and Gasiorowski article in Gasiorowski and Byrne, op. cit.
Roosevelt sees slight chance of success: Service History, op. cit., p. 51.
Roosevelt prepares escape plan: Gasiorowski article in *International Journal*, op. cit.
Love on military-looking car: *Mossadegh* (video), op. cit.
Roosevelt on anti-Shah protesters: Roosevelt, op. cit., p. 180.

Roosevelt admits small complications, gives Henderson assignment: Roosevelt, ibid., pp. 183-184.

Roosevelt describes Mossadegh as old bugger: Roosevelt, op. cit., p. 163.

Monday was active and trying time: Service History, op. cit., p. 56.

Riots scare Roosevelt: Roosevelt, op. cit., p. 179.

Henderson meets Mossadegh: Roosevelt, op. cit., p. 185; and *Foreign Relations of the United States 1952-1954, Vol. X*, op. cit., p. 750.

Mossadegh's fatal mistake: *Time*, August 31, 1953.

Daftary leads troops to royalist side: Dorril, op. cit., p. 593; and Katouzian, op. cit., p. 191.

New York Times on policemen swinging into action: August 19, 1953.

Shah arrives in Rome: *London Times*, August 19, 1953.

Shah doesn't expect to return home in immediate future: *New York Times*, August 19, 1953.

Shah likely to join colony of exiled monarchs: *London Daily Telegraph*, August 19, 1953.

Waller on crowds in Iran: *Anatomy of a Coup* (video), op. cit.

Ten thousand dollars sent to Kashani: Dorril, op. cit., p. 593; and Gasiorowski article in *International Journal*, op. cit.

Zirkaneh giants: Ambrose, *Ike's Spies*, op. cit., p. 210.

Mossadegh refuses to arm Tudeh: Author's interview with former Tehran mayor, Nosratollah Amini, June 23, 2002; and Lapping, op. cit., p. 215.

Tribal chiefs paid by Roosevelt's agents: Gasiorowski article in Gasiorowski and Byrne, op. cit.

New York Times on bully-boys: August 23, 1953.

Cottam on mob: *Mossadegh* (video), op. cit.

Smith exchanges cables with Roosevelt: Roosevelt, op. cit., p. 190.

Roosevelt hears radio broadcast: Roosevelt, ibid., pp. 187-191.

Roosevelt fetches Zahedi: Roosevelt, op. cit., pp. 193-194.

Roosevelt toasts impending victory: Roosevelt, ibid., p. 194.

Radio plays "Star-Spangled Banner": Interview with Malcolm Byrne in *Anatomy of a Coup* (video), op. cit.
Shah and Empress react to news of coup: *London Times*, August 20, 1953.
Shah regrets not playing important part: *New York Times*, August 19, 1953.
Mossadegh says he prefers to die: Saheb interview in *Mossadegh* (video), op. cit.
Kissing party: Elm, op. cit., pp. 307-308; and Katouzian, op. cit., p. 192.
Roosevelt and comrades full of jubilation: Roosevelt, op. cit., p. 195.
Meeting of Roosevelt, Henderson, and Ardeshir Zahedi: Roosevelt, ibid., pp. 195-196.
Roosevelt speaks at victory party: Roosevelt, ibid., pp. 195-197.
Some victims had banknotes in their pockets: Elm, op. cit., p. 308.
Three hundred killed: *New York Times*, August 20, 1953; and *Time*, August 31, 1953.
New York Times on sudden reversal: August 23, 1953.
Associated Press on Zahedi's coup: *Chicago Tribune*, August 20, 1953.
A day that should never have ended: Secret History, op. cit., p. 77.
Zahedi sends Batmanqelich to pick up Mossadegh: Diba, op. cit., p. 186.
Mossadegh arrives and greets Zahedi: *Chicago Tribune*, August 21, 1953.
Zahedi orders that Mossadegh be addressed respectfully: *Chicago Tribune*, August 21, 1953.
British airliner unsuitable: London *Times*, August 21, 1953.
Dutch airline charter: *New York Times*, August 23, 1953.
Shah on Mossadegh's crimes: *New York Times*, August 23, 1953.
Shah's airport reception: *New York Times*, August 23, 1953.
Shah's radio speech: London *Times*, August 24, 1953.
Zahedi will send Mossadegh to city jail: London *Times*, August 24, 1953.

Zahedi's government receives millions from CIA: Service History, op. cit., p. xiii.
Zahedi receives $1 million for himself: Gasiorowski, *US Foreign Policy and the Shah*, op. cit., p. 90.
Roosevelt's final meeting with Shah: Roosevelt, pp. 199-202.
Roosevelt leaves with tears in his eyes: Roosevelt, ibid., p. 203.

١٢- جون داليس راضٍ تمامًا

Mossadegh on his only crime: Musaddiq, op. cit., p. 74.
Riot outside Mossadegh's home: Author's interview with Mahmoud Mossadegh, August 19, 2002.
Officers arrested and executed: Diba, op. cit., p. 191.
Tudeh activists executed: Abrahamian, Ervand, *Iran between Two Revolutions* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1982), p. 280.
Fatemi on traitor Shah, and snake who bites: Goode, op. cit., p. 123.
1962 rally: Diba, op. cit., p. 193.
Mossadegh wants God to take him: Musaddiq, op. cit., p. 80.
Consortium agreement: Elm, op. cit, pp. 310-331; Heiss, op. cit., pp. 187-220; and Goode, op. cit., pp. 138-153.
Shah on Mossadegh's xenophobia: Pahlavi, Mohammad Reza, *Mission for My Country* (New York, McGraw-Hill, 1960), pp. 302, 127.
Shah on Mossadegh's nationalism: Pahlavi, Mohammad Reza, *Answer to History* (New York: Stein and Day, 1980), p. 84.
Shah on worst years of his life: Goode, op. cit., p. 155.
Bakhtiar visits Mossadegh's grave: Goode, ibid., p. xiii.
Khomeini rants at Bakhtiar: Farmanfarmaian, op. cit., p. 452.
Ardeshir Zahedi denies CIA involvement: Zahedi, Ardeshir, "What Really Happened," www.ardeshirzahedi.com.
Shaban receives Cadillac: Diba, op. cit., p. 190.
Ashraf on unsubstantiated allegations: Pahlavi, Ashraf, *Faces in a Mirror* (Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, 1980), p. xiv.
Dulles on Woodhouse's nice little egg: Dorril, op. cit., p. 596.
Woodhouse on first step toward catastrophe: Woodhouse, op. cit., p. 131.

Morrison recalls little about Iran: Morrison, op. cit., pp. 281-282.
Eden defends decision not to wage war: Eden, op. cit., pp. 246-247.
Eden on Morrison: Harris, Kenneth, *Attlee* (London: Weidenfeld and Nicholson, 1982), p. 472.
Churchill considers Ajax finest operation: Service History, op. cit., p. 81.
Roosevelt meets Churchill: Roosevelt, op. cit., p. 207.
Eisenhower awards medal to Roosevelt: Prados, op. cit., pp. 91-92.
Hostage-taker fears another coup: Zahrani, Mostafa T., "The Coup That Changed the Middle East: Mossadeq v. the CIA in Retrospect," in *World Policy Journal* (Summer 2002).
Khamenei says his movement not like Mossadegh's: Abrahamian article, op. cit.
Iranian intellectual on legacy of coup: Zahrani article in *World Policy Journal*, op. cit.
Waller defends coup: Statement to conference in Oxford, England, June 10, 2002.
Falle on legacy: Falle, op. cit., p. 81.
Tudeh strength exaggerated: Gasiorowski article in Gasiorowski and Byrne, op. cit.; Behrooz, "The 1953 Coup in Iran and the Legacy of the Tudeh," in Gasiorowski and Byrne, ibid.; and Abrahamian article in *Science & Society*, op. cit.
Acheson on losing so much so stupidly: Acheson, op. cit., p. 503.
Acheson on Mossadegh's responsibility: Acheson, ibid., p. 504.
Nixon on Acheson's cowardly college: *New York Times*, November 2, 1952.
Dulles purrs: Roosevelt, op. cit., p. 209.
Bakhtiar says Mossadegh should have shot plotters: *Mossadegh* (video), op. cit.
CIA says some facts will never be known: Service History, op. cit., p. 67.
Eisenhower meets Shah: *New York Times*, December 15, 1959.
Eisenhower refers obliquely to coup: Eisenhower, Dwight, *Mandate for Change: The White House Years, 1953-1956* (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1963), p. 164; and Ambrose,

Stephen, *Eisenhower: The President* (New York: Simon and Schuster, 1984), p. 129.
Albright acknowledges American responsibility: *New York Times*, March 18, 2000.
Bill on legacy: Bill, op. cit., pp. 288-289.
Cottam on legacy: Cottam, *Iran and the United States*, op. cit., pp. 261-263.
Gasiorowski on legacy: Gasiorowski article in *International Journal*, op. cit.
Goode on legacy: Goode, op. cit., p. 124.
Heiss on legacy: Heiss, op. cit., pp. 234-238.
Keddie on legacy: Keddie, op. cit., pp. 142, 275-276.
Louis on legacy: Bill and Louis, op. cit., pp. 255-256.

المراجع

Abrahamian, Ervand. *Iran Between Two Revolutions* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1982).

———. "The 1953 Coup in Iran" (article), in *Science & Society*, vol. 65, no. 2 (Summer 2001).

Abramson, Rudy. *Spanning the Century: The Life of W. Averell Harriman, 1891-1986* (New York: William Morrow, 1992).

Acheson, Dean. *Present at the Creation: My Years at the State Department* (New York: Norton, 1969).

Afary, Janet. *The Iranian Constitutional Revolution*, 1906-1911: *Grassroots Democracy, Social Democracy, and the Origins of Feminism* (New York: Columbia University Press, 1996).

Akhavi, Sharough. *Religion and Politics in Contemporary Iran: Clergy State Relations in the Pahlavi Period* (Albany: State University of New York Press, 1980).

Alexander, Yonah, and Nanes, Allen (editors). *The United States and Iran: A Documentary History* (Frederick, Md.: Alethia Books, 1980).

Ambrose, Stephen. *Eisenhower: The President* (New York: Simon and Schuster, 1984).

Ambrose, Stephen, with Immerman, Richard H. *Ike's Spies: Eisenhower and the Intelligence Establishment* (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1981).

Amirsadeghi, Hossein (editor). *Twentieth-Century Iran* (London: Heinemann, 1977).

Andrew, Christopher. *Secret Service: The Making of the British Intelligence Community* (London: Heinemann, 1985).

Arab, Gholam Hossein. *Isfahan* (Tehran: Farhangsara, 1996).

Arfa, Hassan. *Under Five Shahs* (New York: William Morrow, 1965).

Arjomand, Said Amir. *The Shadow of God and the Hidden Imam* (Chicago: University of Chicago Press, 1984).

———. *The Turban for the Crown: The Islamic Revolution in Iran* (New York: Oxford, 1988).

Attlee, Clement R. *As It Happened: The Autobiography of Clement R. Attlee* (New York: Viking, 1954).

Avery, Peter. *Modern Iran* (New York: Praeger, 1965).

Avery, Peter, et al. (editors). *The Cambridge History of Iran* (7 vols.) (Cambridge, U.K.: Cambridge University Press, 1968-1991).

Azimi, Fakhreddin. *Iran: The Crisis of Democracy 1941-53* (London: I. B. Tauris, 1989).

Bamberg, J. H. *The History of the British Petroleum Company: Volume II: The Anglo-Iranian Years, 1928-1954* (Cambridge, U.K.: Cambridge University Press, 1994).

Banani, Amin. *The Modernization of Iran 1924-41* (Stanford, Calif.: Stanford University Press, 1966).

Bayat, Mangol. *Iran's First Revolution: Shi'ism and the Constitutional Revolution of 1905-6* (New York: Oxford University Press, 1991).

Bill, James A. *The Eagle and the Lion: The Tragedy of American-Iranian Relations* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 1988).

Bill, James A., and Louis, William Roger (editors). *Mussadiq, Iranian Nationalism, and Oil* (London: I. B. Tauris, 1988).

Blair, John M. *The Control of Oil* (New York: Pantheon, 1976).

Brands, H. W. *Inside the Cold War: Loy Henderson and the Rise of the American Empire 1918-1961* (New York: Oxford University Press, 1991).

Brock, Ray. *Blood, Oil and Sand* (Cleveland: World, 1952).

Butler, D. E. *The British General Election of 1951* (London: Macmillan, 1952).

Central Intelligence Agency (written by Donald N. Wilber). *Overthrow of Premier Mossadeq of Iran, November 1952-*

August 1953 (Clandestine Service History, 1954, unpublished); summary published in *New York Times*, April 16, 2000, text available at www.nytimes.com.

Chace, James. *Acheson: The Secretary of State Who Created the American World* (New York: Simon and Schuster, 1998).

Churchill, Winston S. *The World Crisis, Volume I* (New York: Scribners, 1928).

Cottam, Richard W. *Nationalism in Iran* (Pittsburgh: University of Pittsburgh Press, 1979).

______. *Iran and the United States: A Cold War Case Study* (Pittsburgh: University of Pittsburgh Press, 1988).

Curzon, George Nathaniel. *Persia and the Persian Question* (London: Longmans, Green and Co., 1892).

Department of State. *Foreign Relations of the United States 1952-1954, Volume X: Iran 1952-1954* (Washington, D.C.: Government Printing Office, 1989).

Diba, Farhad. *Mohammad Mossadegh: A Political Biography* (London: Croom Helm, 1986).

Donoughue, Bernard, and Jones, G. W. *Herbert Morrison: Portrait of a Politician* (London: Weidenfeld and Nicholson, 1973).

Donovan, John C. *The Cold Warriors: A Policy-Making Elite* (Lexington, Mass.: Heath, 1974).

Donovan, Robert A. *Conflict and Crisis: The Presidency of Harry S Truman 1948-1953* (New York: Norton, 1982).

Dorril, Stephen. *MI6: Inside the Covert World of Her Majesty's Secret Intelligence Service* (New York: Free Press, 2000).

Dulles, Allen. *The Craft of Intelligence* (New York: Harper and Row, 1963).

Durraj, Manocher. From Zarathustra to Khomeini: Popular Dissent in Iran (Boulder, Colo.: Lynne Rienner, 1990).

Eden, Anthony. *Full Circle: The Memoirs of Sir Anthony Eden* (Boston: Houghton Mifflin, 1960).

Eisenhower, Dwight. *Mandate for Change: The White House Years, 1953-1956* (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1963).

Elm, Mostafa. *Oil, Power and Principle: Iran's Oil Nationalization and Its Aftermath* (Syracuse, N.Y.: Syracuse University Press, 1992).

Elwell-Sutton, L. P. *Persian Oil: A Study in Power Politics* (London: Lawrence and Wishart, 1955).
Etzold, Thomas H., and Gaddis, John Lewis. *Containment: Documents on American Policy and Strategy, 1945-1950* (New York: Columbia University Press, 1978).
Eveland, Wilbur C. *Ropes of Sand: America's Failure in the Middle East* (New York: Norton, 1980).
Falle, Sam. *My Lucky Life in War, Revolution, Peace and Diplomacy* (Lewes, Sussex: Book Guild, 1996).
Farman Farmaian, Sattareh. *Daughter of Persia: A Woman's Journey From Her Father's Harem Through the Islamic Revolution* (New York: Anchor, 1992).
Farmanfarmaian, Manucher, and Farmanfarmaian, Roxane. *Blood and Oil: Inside the Shah's Iran* (New York: Modern Library, 1999).
Fatemi, Faramarz S. *The U.S.S.R. in Iran: The Background History of Russian and Anglo-American Conflict in Iran and Its Effect on Iranian Nationalism and the Fall of the Shah* (South Brunswick, N.J.: Barnes, 1980).
Fatemi, Nasrollah Saifpour. *Oil Diplomacy: Powderkeg in Iran* (New York: Whittier Books, 1954).
Ferrier, R. W. *The History of the British Petroleum Company: Volume I: The Developing Years, 1901-1932* (London: Cambridge University Press, 1982).
Foran, John (editor). *A Century of Revolution: Social Movements in Iran* (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1994).
Forbis, William H. *Fall of the Peacock Throne: The Story of Iran* (New York: Harper and Row, 1980).
Ford, Alan W. *The Anglo-Iranian Oil Dispute of 1951-1952* (Berkeley: University of California Press, 1954).
Gasiorowski, Mark J. *U.S. Foreign Policy and the Shah: Building a Client State in Iran* (Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1991).
———. "The 1953 Coup d'Etat in Iran" (article), *International Journal of Middle East Studies*, no. 19 (1987).
Gasiorowski, Mark J., and Byrne, Malcolm (editors). *Mohammad Mossadeq and the 1953 Coup in Iran* (Syracuse, N.Y.: Syracuse University Press, forthcoming 2003).

Ghani, Cyrus. *Iran and the Rise of Reza Shah: From Qajar Collapse to Pahlavi Power* (London: I. B. Tauris, 2000).

Ghods, M. Reza. *Iran in the Twentieth Century: A Political History* (Boulder, Colo.: Lynne Rienner, 1989).

Gilbert, Martin. *Winston S. Churchill: Volume VIII: Never Despair, 1945-1965* (Boston: Houghton Mifflin, 1988).

Goode, James F. *The United States and Iran: In the Shadow of Mussadiq* (New York: St. Martin's, 1997).

Graham, Robert. *Iran: The Illusion of Power* (New York: St. Martin's, 1980).

Grose, Peter. *Gentleman Spy: The Life of Allen Dulles* (Boston: Houghton Mifflin, 1994).

Hairi, Abdul-Hadi. *Shi'ism and Constitutionalism in Iran* (Leiden, The Netherlands: E. J. Brill, 1977).

Halliday, Fred. *Iran: Dictatorship and Development* (London: Penguin, 1980).

Hamilton, Charles W. *Americans and Oil in the Middle East* (Houston: Gulf Publishing, 1962).

Harris, Kenneth. *Attlee* (London: Weidenfeld and Nicholson, 1982).

Heikal, Mohamed. *Iran, the Untold Story: An Insider's Account of America's Iranian Adventure and Its Consequences for the Future* (New York: Pantheon, 1982).

Heiss, Mary Ann. *Empire and Nationhood: The United States, Great Britain, and Iranian Oil*, 1950-1954 (New York: Columbia University Press, 1997).

History Channel. *Anatomy of a Coup: The CIA in Iran* (video), Catalogue No. AAE-43021.

Iranian Movies. *Mossadegh and the 1953 Coup by CIA* (video), Tape No. 3313, IranianMovies.com.

Irving, Clyde. *Crossroads of Civilization: 3,000 Years of Persian History* (New York: Barnes & Noble, 1979).

Jeffreys-Jones, Rhodri. *The CIA and American Democracy* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 1989).

Katouzian, Homa. *The Political Economy of Modern Iran: Despotism and Pseudo-Modernism 1926-79* (New York: New York University Press, 1981).

______. *Mussadiq and the Struggle for Power in Iran* (London: I. B. Tauris, 1999).

Keddie, Nikki R. *Religion and Rebellion in Iran: The Tobacco Protest of 1891-1892* (London: Frank Cass, 1966).

______. *Roots of Revolution: An Interpretive History of Modern Iran* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 1981).

Keddie, Nikki R., and Gasiorowski, Mark J. (editors). *Neither East nor West: Iran, the Soviet Union, and the United States* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 1990).

Krause, Walter W. *Soraya, Queen of Persia* (London: Macdonald, 1956).

Lapping, Brian. *End of Empire* (London: Granada, 1985).

Ledeen, Michael, and Lewis, William. *Debacle: American Failure in Iran* (New York: Alfred A. Knopf, 1981).

Lenczowski, George. *Iran Under the Pahlavis* (Stanford: Hoover Institute, 1978).

Levy, Walter J. *Oil Strategy and Politics, 1941-1981* (Boulder, Colo.: Westview, 1982).

Limbert, John W. *Iran: At War with History* (Boulder, Colo.: Westview, 1987).

Longhurst, Henry. *Adventure in Oil: The Story of British Petroleum* (London: Sidgwick and Jackson, 1959).

Longrigg, Stephen H. *Oil in the Middle East: Its Discovery and Development* (Oxford: Oxford University Press, 1968).

Louis, William Roger. *The British Empire in the Middle East 1945-1951* (Oxford: Oxford University Press, 1984).

Love, Kennett. *The American Role in the Pahlavi Restoration on August 19, 1953* (unpublished), the Allen Dulles Papers, Princeton University (1960).

Lytle, Mark Hamilton. *The Origins of the Iranian-American Alliance 1941-1953* (New York: Holmes and Meier, 1987).

Mackey, Sandra. *The Iranians: Persia, Islam and the Soul of a Nation* (New York: Plume, 1998).

MacLean, Fitzroy. *Eastern Approaches* (London: Penguin, 1991).

Martin, Vanessa. *Islam and Modernism: The Iranian Revolution of 1906* (Syracuse, N.Y.: Syracuse University Press, 1989).

McGhee, George. *Envoy to the Middle World: Adventures in Diplomacy* (New York: Harper and Row, 1983).
McLellan, David S. *Dean Acheson: The State Department Years* (New York: Dodd, Mead, 1976).
Milani, Mohsen M. *The Making of Iran's Islamic Revolution: From Monarchy to Islamic Republic* (Boulder, Colo.: Westview, 1994).
Millspaugh, Arthur C. *American in Persia* (Washington, D.C.: Brookings Institution, 1946).
Monroe, Elizabeth. *Britain's Moment in the Middle East, 1914-1971* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1981).
Morrison, Herbert. *An Autobiography* (London: Odhams, 1960).
Mosley, Leonard. *Power Play: The Tumultuous World of Middle East Oil, 1890-1973* (London: Weidenfeld and Nicholson, 1973).
Mottahedeh, Roy. *The Mantle of the Prophet: Religion and Politics in Iran* (New York: Pantheon, 1985).
Musaddiq, Mohammad (edited by Homa Katouzian). *Musaddiq's Memoirs: Dr. Mohammad Musaddiq, Champion of the Popular Movement of Iran and Former Prime Minister* (London: Jebhe, 1988).
Nicholson, Harold. *Curzon: The Last Phase, 1919-1925* (London: Constable, 1934).
Pahlavi, Ashraf. *Faces in a Mirror* (Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, 1980).
Pahlavi, Mohammad Reza. *Mission for My Country* (New York, McGraw-Hill, 1960).
_____. *Answer to History* (New York: Stein and Day, 1980).
Prados, John. *Presidents' Secret Wars: CIA and Pentagon Covert Operations Since World War II* (New York: William Morrow, 1986).
Preussen, Ronald W. *John Foster Dulles: The Road to Power* (New York: Free Press, 1982).
Ramazani, Rouhullah K. *Iran's Foreign Policy 1941-1973* (Charlottesville: University Press of Virginia, 1975).
_____. *The United States and Iran: Patterns of Influence* (New York: Praeger, 1982).

Rand, Christopher T. *Making Democracy Safe for Oil: Oilmen and the Islamic East* (Boston: Little Brown, 1975).

Roosevelt, Kermit. *Countercoup: The Struggle for Control of Iran* (New York: McGraw-Hill, 1979).

Rose, Kenneth. *Superior Person: A Portrait of Curzon and His Circle in Late Victorian England* (New York: Weybright and Talley, 1969).

Rubin, Barry. *Paved with Good Intentions: The American Experience and Iran* (New York: Oxford University Press, 1980).

Saikal, Amin. *The Rise and Fall of the Shah* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1980).

Sampson, Anthony. *The Seven Sisters: The Great Oil Companies and the World They Made* (New York: Viking, 1975).

Schwarzkopf, H. Norman. *It Doesn't Take a Hero* (New York: Bantam, 1992).

Seldon, Anthony. *Churchill's Indian Summer: The Conservative Government 1951-1955* (London: Hodder and Stoughton, 1981).

Shawcross, William. *The Shah's Last Ride: The Fate of an Ally* (New York: Simon and Schuster, 1988).

Shuster, William Morgan. *The Strangling of Persia* (New York: Century, 1912).

Sick, Gary. *All Fall Down: America's Tragic Encounter with Iran* (New York: Random House, 1985).

Stassen, Harold, and Houts, Marshall. *Eisenhower: Turning the World Toward Peace* (St. Paul, Minn.: Merrill Magnus, 1990).

Tabataba'i, Allamah Sayyid Muhammad Husayn. *Shi'ite Islam* (Albany: State University of New York Press, 1977).

Truman, Harry S. *Years of Trial and Hope, 1946-53* (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1978).

Vicker, Ray. *Kingdom of Oil: The Middle East, Its People and Its Power* (New York: Charles Scribner's Sons, 1974).

Walters, Vernon A. *Silent Missions* (New York: Doubleday, 1978).

Warne, William E. *Mission for Peace: Point Four in Iran* (New York: Bobbs-Merrill, 1956).

Wilber, Donald N. *Adventures in the Middle East: Excursions and Incursions* (Princeton, N.J.: Darwin, 1986).

______. *Contemporary Iran* (New York: Praeger, 1963).

______. *Iran: Past and Present* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1976).

Woodhouse, C. M. *Something Ventured* (London: Granada, 1982).

Wright, Denis. *The Persians Amongst the English: Episodes in Anglo-Persian History* (London: I. B. Tauris, 1985).

Yergin, Daniel. *The Prize: The Epic Quest for Oil, Money and Power* (New York: Simon and Schuster, 1991).

Zabih, Sepehr. *The Mossadegh Era: Roots of the Iranian Revolution* (Chicago: Lake View Press, 1982).



هذا الكتاب

في ذلك الوقت الذي يكثف فيه المتعصبون بواشنطن استعداداتهم لشن هجوم على إيران، نحن أحوج ما نكون إلى معرفة قصة الانقلاب العسكري الذي نظمته المخابرات المركزية الأمريكية عام ١٩٥٣ في إيران. يسرد لنا هذا الكتاب بأسلوب روائي شيق الأحداث المثيرة للانقلاب الذي أطاح بنظام الحكم الديمقراطي الوحيد الذي شهدته إيران، والذي بدأت على أثره فترة من الحكم الوحشي استمرت خمسة وعشرين عامًا تحت قيادة شاه بهلوي. ساعد هذا الانقلاب في ظهور الحركة الأصولية الإسلامية، وحركة معاداة الولايات المتحدة، وأثبت خطأ الاعتقاد بإمكانية استخدام العنف لإعادة تشكيل الأوضاع في إيران. هذا الكتاب اختارته صحيفتا واشنطن بوست وذي إيكونوميست واحدًا من أفضل كتب العام، وهو كتاب لا غنى عنه لكل من يريد فهم خلفية الغزو الأمريكي للعراق، والاستعداد لما يمكن أن تتمخض عنه الأيام القادمة.

«كتاب رائع يأسر الألباب بأسلوبه القريب إلى حد كبير من الملاحم الإغريقية ... ومرجع لكل من لديه اهتمام حقيقي بمعرفة كيف وصلت الولايات المتحدة إلى المأزق الذي تواجهه الآن في الشرق الأوسط.»

صحيفة واشنطن بوست، القسم الأدبي

«يحكي الكتاب قصة مثيرة ويذكرنا بمرحلة من تاريخ الشرق الأوسط يغفل عنها كثيرون.»

صحيفة نيويورك تايمز، الصفحة الأدبية

٣٣٦ صفحة


http://www.hindawi.org

ISBN 978-977-6263-67-3

